وصايا الرسول صلى الله عليه وسلم
وأثرها في تقويم الفرد وإصلاح المجتمع
الدكتور محمد بكر إسماعيل
أستاذ التفسير وعلوم القرآن
جامعة الأزهر
الجزء الثاني
دار المنار



الجزء الثانى

دار المنار

للطبع والنشر والتوزيع

٩ شارع حسن العدوى - ميدان الحسين

ص . ب ٦١ هليوبولس

ت : ٥٩١٥٠٨٥

لدار المنار للنشر والتوزيع

٩ ش حسن العدوي الحسين ت: ٥٩١٥٠٨٥

الطبعة الأولى

١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م

(٥٦) اللهم أسلمت وجهى إليك

عن البراء بن عازب – رضى الله عنه – قال : قال لى النبى ﷺ : «إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ، ثم اضطجع على شقك الأيمن ثم قل: اللهم أسلمت وجهى إليك، وفوضت أمرى إليك، وألجأت ظهرى إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، اللهم آمنتُ بكتابك الذى أنزلت، ونبيك الذى أرسلت. فإن مُتَّ من ليلتك فأنت على الفِطْرة، واجعلهن آخرَ ما تتكلمُ به» .

قالَ : فرددتها على النبى – ﷺ – فلما بلغت اللهم آمنت بكتابك الذى أنزلت قلت: ورسولِك، قال :« لا. ونَبِيِّك الذى أرسلت » (١) .

* * *

كان النبى – ﷺ – يوصي بعض أصحابه بوصايا يراها نافعة لهم فى دينهم ودنياهم ، ويكون الخطاب لهم على وجه الخصوص ولغيرهم على وجه العموم إلا إذا دلّ دليل على تخصيصهم بذلك دون غيرهم .

فقد أوصى البراءَ بن عازب بهذه الوصية – فى هذا الحديث – ليعمل بها بعد أن يحفظها ويعيها جيداً ، ثم يبلغها غيره ليعمل بها ، فنقلها الرواة عنه بدقة وأمانة ، فكانت نعم الوصية ؛ لأنها قد جمعت فوائد جمّة ، واشتملت لطائف مهمّة ، واعتبرها الذاكرون خير وصية أوصى بها النبى – ﷺ – يستحب العمل بها عندما يأوى أحدهم إلى فراشه ، ويضطجع على جنبه، ويُسْلِمُ الروح لخالقها، فإن شاء ردّها عليه، وإن شاء حبسها عنده .

فهيَ وصية يطمئن بها قلب المؤمن ، وتهدأ بها نفسه عندما يأوى إلى فراشه ليستريح من معاناة العمل ، أو من وعثاء السفر .

والمرء دائماً فى حاجة ماسة إلى ما يذكره بالله – عز وجل – ويدفع عنه

---

(١) أخرجه البخارى بهذا اللفظ فى الوضوء (٧٥) وأخرجه فى الدعوات بنحوه ، ومسلم فى الذكر (٥٦) ، وأبو داود فى الأدب (٩٨) .

غائلة الغفلة ، ولاسيما عند النوم ، فإنه لا يلبث أن يغمض عينيه ويقهره النوم فيفتر لسانه عن الذكر ، ويغيب عقله عن الوعى ، ويغفل قلبه عما يدور حوله .

فإذا كان آخر عهده باليقظة هذه الكلمات التى أوصى بها النبى – ﷺ – البراء بن عازب ظل عقله الباطن مشغولاً بهذا الذكر حتى يستيقظ ، فإذا استيقظ وجد نفسه يذكر الله تلقائياً كأنه لم يكن نائماً من قبل .

وبهذا الذكر الذى أوصى به النبى – ﷺ – فى هذا الحديث يظل النائم – أيضاً – فى مأمن من هواجس النفس ، ووساوس الشيطان ، فلا يرى من الأحلام ما يزعجه ، ولا يعتريه الأرق ، ولا يصيبه القلق ، ولا يعكر صفو قلبه شىء من الهم والحزن وواردات الخواطر ، ولا سيما لو نام على طهارة .

* * *

وأول ما أوصى به النبى – ﷺ – البراء بن عازب هو الوضوء ، فقال : « إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة » .

أى : إذا أردت الإتيان إلى مضجعك ، وليس المعنى: إذا انتهيت إليه فتوضأ .

وهذا كقوله تعالى : ﴿ إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم ﴾ (١) أى : إذا أردتم القيام .

وقوله – جل شأنه – : ﴿ فإذا قرأتَ القرآن فاستعذ بالله ﴾ (٢) أى : إذا أردت أن تقرأ القرآن .

والمضجع – بفتح الميم – هو : محل النوم .

ومعنى : « فتوضأ وضوءك للصلاة » : توضأ كما تتوضأ للصلاة .

وهذا التشبيه يدفع توهم من يحمل الوضوء على معناه اللغوى ، كغسل الوجه واليدين من غير نية تحصيل الطهارة من الحدث .

---

(١) سورة المائدة : ٦ .　　　(٢) سورة النحل : ٩٨ .

وهذا الوضوء مستحب عند النوم لمن لم يكن على طهارة ، فإن كان على وضوء لا يستحب فى حقه تجديد الوضوء ، وإن كان الوضوء على الوضوء نور على نور .

وهذا الوضوء يسمى وضوء النوم فلا ينتقض به ، ولكن إذا نام ثم استيقظ وجب عليه إعادته من أجل الصلاة .

فمن نام على طهارة لا يضره إن أحدث فى نومه ؛ لأن قلبه قد انعقد على الطهارة ، فحصل له المقصود منها .

* * *

وأوصاه - ﷺ - أن يضطجع على شقه الأيمن ؛ لأنه - ﷺ - كان يحب التيامن فى كل شيء .

ولا بأس أن يتحول إلى جنبه الأيسر بعد أن يذكر الله - عز وجل - بهذا الذكر الذى أوصاه به - ﷺ - وهو ذكر واضح المعنى لمن أوتى أدنى حظ من العلم ، ولكن لا بأس أن نزيد المعنى بياناً ، فنقول :

معنى « أسلمت نفسى إليك » : سلمتها لك ، وفوضت أمرها إليك ، إذ لا وجود لها إلا بك، ولا اعتماد لها على سواك ، ولا ثقة لها إلا بفضلك، ولا مطمع لها إلا فى رحمتك .

والإسلام والاستسلام لله معناه : الإخلاص وحسن التوكل والانقياد .

قال العينى : (وفى رواية : « أسلمت وجهى إليك » ، والوجه والنفس ها هنا بمعنى الذات .

قال ابن الجوزى : يحتمل أن يراد به الوجه حقيقة ، ويحتمل أن يراد به القصد ، فكأنه يقول : قصدتك فى طلب سلامتى .

وقد جاء فى رواية أخرى : «أسلمت نفسى ووجهت وجهى إليك » ، فجمع بينهما فدل على تغايرهما)[1] ا.هـ .

أقول : المراد بالوجه فى هذه الرواية القلب، فهو أوجه ما فى الإنسان ،

---

(١) انظر عمدة القارى جـ٣ ص ٧٣ .

وقد ذكر ذلك الإمام الغزالى فى كتاب الإحياء ، عند ذكر التوجه الذى تفتتح به الصلاة بعد التكبير (١) .

ومعنى : « فوضت أمرى إليك » : رددت أمرى كله إليك ، وبرئت من الحول والقوة إلا بك ، فاكفنى همه واكفل لى صلاحه .

وقوله : « ألجأت ظهرى إليك » معناه : اعتمدت عليك فى شأنى كله ، كما يعتمد الإنسان بظهره على ما يستند إليه ، فهو كناية عن الركون إلى ساحة رحمته ، والفرار إليه بكليته ، إذ لا منجاة منه إلا إليه ، ولا خلاص من عذابه إلا بعفوه .

والملجأ فى اللغة : ما يؤوى الإنسان من المخاطر ، ويستره عمن يريد به السوء .

والمنجاة هى : الوقاية من الهلكة ، وقد ذكرت مع الملجأ لتلازمهما فى المعنى ، فمن لجأ إلى الله نجا ؛ فهو الملجأ والملاذ ، وفى الفرار إليه النجاة كل النجاة .

وهذا كقوله تعالى حكاية عن الثلاثة الذين خُلِّفوا عن رسول الله - ﷺ - فى غزوة تبوك من غير عذر : ﴿ وظنوا أن لا ملجأ من الله إليه ﴾ (٢).

ومعنى قوله - ﷺ - : « آمنت بكتابك الذى أنزلت » : جددت إيمانى ، ومضيت عليه ، وازدت وتزودت منه لآخرتى .

«ونبيك الذى أرسلت » ، أى : أيقنت يقيناً لا يخالجه شك بأنه نبيك الذى نبأته وأرسلته ، فرضيت بك رباً ، وبكتابك إماماً ، وبمحمد نبياً ورسولاً .

وهذا الإقرار عند النوم - وهو الموتة الصغرى - يعتبر شهادة من العبد لنفسه ، بأنه لا ينام إلا مؤمناً ولا يموت إلا مؤمناً ، فإن ردّه الله إلى

---

(١) راجع كتاب الصلاة من الجزء الأول . (٢) التوبة : آية ١١٨ .

الحياة لاستيفاء أجله رده مؤمناً لم يفتقد شيئاً من إيمانه ، وإن أماته بعثه مؤمناً ، فإن الإنسان يبعث على ما مات عليه .

*　*　*

وبعد أن أوصى النبى – ﷺ – البراء بن عازب – رضى الله عنه – بشره بخير ما يبشّر به المؤمنون فقال : « فإن مت مت على الفطرة » ، أى على الإسلام وعلى السنة .

قال : « واجعلهن آخر ما تتكلم به » ، أى لا تحدث أحداً بعد ذلك بشىء ، بل تستسلم للنوم مباشرة ، ولا تحدث نفسك بأى أمر من أمور الدنيا ؛ حتى لا يعتريك الأرق والقلق ، وتسيطر عليك الخواطر فتثير أعصابك وتحرمك راحة النوم ، وتجلب عليك الهواجس النفسية والوساوس الشيطانية ، فلا يكون لهذا الذكر كبير فائدة . فإن تحدثت مع غيرك أو حدثت نفسك بشىء فردد هذا الدعاء حتى تنام عليه .

*　*　*

قال البراء بن عازب – رضى الله عنه – : « فرددتها على النبى – ﷺ – فلما بلغت اللهم آمنت بكتابك الذى أنزلت قلت : ورسولك ، قال : «لا . ونبيك الذى أرسلت» .

أتدرى لماذا قال النبى – ﷺ – : « لا. ونبيك الذى أرسلت » ، أليس المعنى واحداً ؟ .

ذكر شُرّاح الحديث فى ذلك أقوالاً منها :

أنه أراد أن يجمع بين صفتيه فى هذا الدعاء ، وهى النبوة والرسالة .

ومنها أن ألفاظ الأذكار توقيفية فى تعيين اللفظ وتقدير الثواب .

أو لعله أوحى إليه بهذا اللفظ فرأى أن يقف عنده .

أو أمره بذلك دفعاً للتكرار ، فإن لفظ أرسلت يفيد أن المرسل رسول ، فقال : ونبيك الذى أرسلت ليكون أبلغ .

وقيل غير ذلك .

والذى أراه – والله أعلم – أن الدعاء كتركيبة الدواء لا نقص فيه ولا زيادة ، كالتسبيح والتحميد والتكبير عقب الصلوات الخمس ، فإنها تسع وتسعون تختم بـ لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير .

فينبغى على المسلم أن يدعو الله – عز وجل – بالدعاء الوارد عن رسول الله – ﷺ – دون أن يزيد فيه أو ينقص منه ، فربما تكون الزيادة فيه عائقة عن قبوله ، والنقص فيه مانع من نفعه على الوجه الأكمل .

لكن من لم يكن من أهل الحفظ والدراية ، فليدع الله بما شاء من الدعاء ، ويتحرى المعنى بقدر الطاقة .

والله هو الموفق والهادى إلى سواء السبيل .

* * *

(٥٧) باسمك ربِّى وضعتُ جنبى

عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : قال النبى – ﷺ – : « إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفض فراشه بداخِلَةِ إزاره ؛ فإنه لا يدرى ما خَلَفَهُ عليه ، ثم يقول :

باسمك ربى وضعت جنبى وبك أرفعه ، إن أمسكت نفسى فارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به الصالحين » (١) .

* * *

وهذا حديث آخر يرويه أبو هريرة عن رسول الله – ﷺ – يوصى فيه المسلم أن ينفض فراشه إذا أتاه لينام عليه بطرف ثوبه ؛ حذراً من أن يكون فيه ما يخشى على نفسه منه ، ثم يدعو الله عز وجل بهذا الدعاء المذكور .

ومعنى « أوى » بقصر الهمزة : أتى .

أما «آوى» بالمد فهو فعل متعد إلى مفعول ، تقول : أويت إلى فراشى ، بالقصر ، وآويت فلاناً إلى فراشى ، بالمد ، فافهم الفرق بينهما فإنى رأيت الكثير من الخطباء والمتحدثين يخطئون فى ذلك .

و « داخلةُ الإزار » طرف السروال .

ويتحقق نفض الفراش بأى شىء يتم به التنظيف والإزالة .

ويعلل النبى – ﷺ – الأمر بنفض الفراش بقوله : « فإنه لا يدرى ما خلفه عليه » أى : لا يدرى ما حلّ فيه بعد أن تركه .

وقد يقول قائل : إن الفرش عندنا فى المدن نظيفة لا نخشى عليها من الهوام كالعقرب ونحوها مما يضر أو يخيف ، فهل يستحب فى حقنا نفض فُرُشنا ؟

أقول : نعم ، يستحب في حقنا ذلك ؛ لأمرين :

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الدعوات باب (١٣) جـ٧ ص ١٤٩ .

الأول : أن ذلك سنة متبعة .

وقد قال النبي - ﷺ - في الحديث الصحيح : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي - عَضُّوا عليها بالنواجذ »[1] أي الزموها واحرصوا عليها .

والعَضُّ بالنواجذ - وهي الأسنان - كناية عن شدة الحرص عليها ، والتمسك بها .

والثاني : أن الفُرُش لا تسلم من وجود الغبار والجراثيم والفيروسات ، ونحو ذلك مما هو أشد خطراً من العقارب والخنافس والصراصير ونحوها من الهوام .

والإنسان الحريص على دينه ، وعلى صحته لا ينام على فراش بل ولا يجلس عليه حتى ينفضه، ويطمئن إلى خلوه مما قد يَعْلَق بثيابه أو جسده .

والإسلام دين الطهر والنظافة لا شك في ذلك .

ورسول الله - ﷺ - كان أطهر الناس خَلْقا وخُلُقا ، وأنظفهم ثياباً وفراشاً ، فعلينا أن نقتدي به في عاداته كما نقتدي به في عباداته ومعاملاته .

* * *

وبعد أن ينفض المسلم فراشه ، ويضطجع عليه يقول : باسمك ربي ... إلى آخر الدعاء .

ويستحب أن يضطجع على شقه الأيمن كما مرّ في الحديث الذي قبله .

ومعنى « باسمك ربي وضعت جنبي » :

بعونك وبفضل ذكر اسمك وضعت جنبي على فراشي ، ولولاك يارب ما تحركت ولا سكنت ؛ إذ لا حول لي ولا قوة إلا بك ؛ فباسمك قامت السموات والأرض ، وباسمك دُبِّرَ أمرُهما ، وأمرُ من فيهما ، وبك يارب أرفعه إن شئتَ ، فلا رادّ لقضائك ولا معقب لحكمك .

---

(١) جزء من حديث العرباض بن سارية ... رواه أبو داود والترمذي وقال : حديث حسن صحيح . وقد تقدم شرحه في المجلد الأول من هذا الكتاب .

ثم يقول : « إن أمسكت نفسى » عندك ولم ترسلها فارحمها برحمتك الواسعة .

« وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به الصالحين » من عبادك يارب العالمين ويا أرحم الراحمين .

احفظ هذا الدعاء ، والهج به قبل النوم ، وأده بلفظه ما استطعت ، وادع بالدعاء السابق فى الحديث الذى قبله ، وادع بما استطعت من الأدعية الواردة عند النوم ، واقرأ من السور ما كان النبى – ﷺ – يقرأه ، كآية الكرسي وخواتيم سورة البقرة ، وسورة الإخلاص ، وسورة الفلق ، وسورة الناس ، ولا تُحْدث شيئاً بعد الذكر يحول بينك وبين الحصول على فوائده التى ذكرناها فى الحديث الذى قبله .

ولا شك أن الذكر عند النوم ينفض عن الذاكرين ما فى قلوبهم من دَخَلٍ ، فينامون على فراش طاهر ، وبجسد طاهر ، وبقلب طاهر .

و « الطهور شطر الإيمان » كما قال الرسول – ﷺ – فى الحديث الذى أخرجه مسلم فى صحيحه .

نسأل الله عز وجل أن يوفقنا لطاعته ويهدينا سواء السبيل .

* * *

(٥٨) اللهم إني ظلمتُ نفسي

عن أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - أنه قال لرسول الله - ﷺ -: علمنى دُعاءً أدعو به في صلاتى . قال : « قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لى مغفرة من عندك ، وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم » (١) .

*　　*　　*

كان أبو بكر - رضى الله عنه - كثيرَ الدعاء لا يكاد يكف عنه فى ليل أو نهار ، وكان يخشى الله خشية لا يدانيه فيها أحد من أصحاب النبى - ﷺ - فقد كان اتقاهم بعد رسول الله - ﷺ - .

وفيه نزل (٢) قوله تعالى : ﴿ وسيُجَنَّبُها الأتقى الذى يُؤتِى ماله يتزكى وما لأحدٍ عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاءَ وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى ﴾ (٣) .

ومناقبه كثيرة مشهورة .

سأل الرسول - ﷺ - يوماً أن يعلمه دعاء يواظب عليه فى صلاته ، فعلمه هذا الدعاء الوارد فى الحديث ، وهو دعاء جامع لخيرى الدنيا والآخرة.

« فقال : قل اللهم إني ظلمت نفسى ظلماً كثيراً .... الخ » أى : وقع منى من الخطايا ما لا يُحْصى عَدَدَه ، ولا يَعْلمُ عَواقبه وبَوائقه إلا أنت ، وهو اعتراف ينبغى أن يقدمه العبد عند كل دعاء يرجو فيه العفو والرحمة والمغفرة .

وهذا الاعتراف إذا صدر من القلب وجرى به اللسان كان خير وسيلة يبتغيها العبد إلى ربه - عز وجل - لنيل ما يرجوه منه - تبارك وتعالى -

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب الأذان ، باب (١٤٩) ، ومسلم فى كتاب الذكر ، باب « استحباب خفض الصوت بالذكر » حديث (٤٨) .

(٢) قال ابن كثير : (قد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت فى أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - حتى أن بعضهم حكي الإجماع من المفسرين على ذلك . ولا شك أنه داخل فيها وأولى الأمة بعمومها) . ا.هـ . انظر تفسيره جـ٨ ص ٤٤٤ .

(٣) سورة الليل : الآيات (١٧ - ٢١) .

والعبد الصالح يكثر من هذا الاعتراف ؛ لما فيه من إظهار العبودية فى أسمى صورها ، وإظهار الافتقار إلى الخالق – جل شأنه – فى أجلِّ معانيه .

ولا سيما إذا كان ذلك فى صلاته ، فالصلاة صلة وثيقة بين العبد وربه ، يظهر له فيها كمال خضوعه وذله وتمسكنه وتواضعه ، ويلصق جبهته وأنفه بالأرض إجلالاً لعظمته ، وامتثالاً لأوامره مهما كان شأنه ، ومهما كان جاهه ومنصبه .

والسجود هو أعظم المواطن التى يستجاب فيها الدعاء .

روى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول – ﷺ – قال : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثروا فيه الدعاء » .

وروى مسلم أيضاً عن ابن عباس – رضى الله عنهما – أن رسول الله – ﷺ – كشف الستارة والناس صفوف خلف أبى بكر فقال :

« أيها الناس إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرى له . الا وإنى نُهيتُ أن أقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً . فأما الركوع فعظموا فيه الربّ – عز وجل –، وأما السجود فاجتهدوا فى الدعاء ؛ فقَمِنٌ (١) أن يُستَجاب لكم » .

وهذا الاعتراف بظلم النفس سنة الأنبياء والمرسلين ، وأتباعهم من الصالحين المقربين .

فأول كلمات تلقاها آدم من ربه حين أكل من الشجرة هو وزوجه حواء ، فتاب بها عليه ، قوله – تعالى – حكاية عنهما فى سورة الأعراف : ﴿ قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ (٢) .

وموسى – عليه السلام - حين وكز المصرى فقتله توجه إلى الله – عز وجل – فور وقوع هذا منه بخالص الدعاء ، وقدمه بهذا الاعتراف ؛ لكى

---

(١) قمنٌ – بفتح القاف وكسر الميم – : جدير . (٢) الأعراف : ٢٣ .

يكون وسيلة لرفعه ، وقبوله : ﴿ قال ربِّ إنى ظلمتُ نفسى فاغفر لى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم ﴾ (١) .

وهو لم يقصد قتله ولا إيذاءه ، ولكن كان يقصد منعه من ظلمه لأخيه الذى هو من شيعته ، وإنما عدّه ذنباً من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين ، وقد وقع منه ذلك قبل النبوة ، والأنبياء معصومون من الذنوب قبل النبوة وبعدها ، منزهون عن كبيرها وصغيرها ، كما هو الراجح عند جمهور الفقهاء .

وقد اعترف يونس عليه السلام بظلمه لنفسه حين خرج من قريته (نينوى) من غير إذن ربه ، ودعاه فى بطن الحوت ، فاستجاب الله له فكشف عنه الغم ، ووعد كل مؤمن يلهج بهذا الدعاء أن ينجيه كما نجاه ، قال تعالى : ﴿وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين﴾ (٢) .

وبلقيس ملكة سبأ قد اعترفت بظلمها أمام سليمان – عليه السلام – قبل أن تعلن إسلامها: ﴿ قالت ربِّ إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمانَ لله رب العالمين ﴾ (٣) .

* * *

وقوله - ﷺ – : « ولا يغفر الذنوب إلا أنت » اقتباس من قوله تعالى: ﴿ومن يغفرُ الذنوبَ إلا الله﴾ (٤) .

ومغفرة الذنوب محوها بعد العفو والصفح عنها ، فمن تاب تاب الله عليه ، وأنسى الحفظة ذنوبه ، وأنسى كذلك معالمه وجوارحه ، وبَدّل سيئاته حسنات ، وأدخله الجنة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين بفضله ورحمته .

---

(١) القصص : ١٦ .
(٢) الأنبياء : ٨٧ – ٨٨ .
(٣) النمل : ٤٤ .
(٤) آل عمران : ١٣٥ .

وطلب المغفرة من الله تعالى توبة نصوح إذا ما صحبها إقلاع عن الذنب ، وندم على فعله ، وعزم على إدراك ما فات من الواجبات ، ورد المظالم إلى أهلها ، مع الوثوق التام بفضل الله تعالى ، والطمع فى مغفرته وعدم اليأس من رحمته .

وقد ذكرت أركان التوبة النصوح فى وصية سابقة[1]، وبينت أن أركان التوبة التوبة من التوبة ، بحيث لا يكف المؤمن عن طلبها فى صلواته وخلواته ، وجميع أركانه .

ولقد كان الرسول – ﷺ – يتوب إلى الله ويستغفر من ذنبه فى اليوم مائة مرة ، فكيف بنا نحن العصاة المذنبين .

وذنب النبى – ﷺ – من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين ، كما قال جمهور العلماء ، على ما تقدم بيانه .

وكلما ترقى المؤمن فى درجات الصالحين شعر بخطورة الذنب فبادر إلى الاستغفار منه قبل وقوعه وبمجرد ميله إليه .

ولما كان أبو بكر – رضى الله عنه – من أعظم المؤمنين إيماناً وأصدقهم يقيناً وأقواهم عزماً ، وأشدهم حرصاً على ابتغاء مرضاة ربه فى أقواله وأفعاله – كان إذا دخل فى الصلاة يُسمع لصدره فى الصلاة أزيز كأزيز المرجل لشدة خشيته من الله وخوفه من عذابه .

وكان يقول : لو وضعت إحدى قدمى فى الجنة والأخرى خارجها ما أمنت مكر الله .

وصدق أبو بكر – رضى الله عنه وأرضاه – فى ذلك ؛ فقد قال الله - عز وجل – : ﴿أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾ [2] .

وكان من فرط تواضعه لله ، وشدة خوفه منه لا يرى لنفسه فضلاً على أحد ، ولا يُبَرِّئ نفسه من الذنب ، ولا يزعم أنه أتقى المسلمين ، ولا أقواهم إيماناً ، مع أنه لو وُزن إيمانه بإيمان الأمة لرجحها ، كما قال الرسول – ﷺ – .

---

(١) انظر الحديث رقم : ٥١ .

(٢) الأعراف : ٩٩ .

والتواضع أول صفة من صفات عباد الرحمن ، كما دل على ذلك قوله تعالى : ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هَوْناً﴾ [1] .

قال الشيخ منصور الآبى فى كتابه – نثر الدر[2]– : « لما أرادوا أبا بكر للخلافة ، قال : علام تبايعوننى ، ولست بأقواكم ولا أتقاكم ؟ . أقواكم عمر ، وأتقاكم سالم .

وكان إذا مُدح يقول : اللهم أنت أعلم منى بنفسى ، وأنا أعلم منهم بنفسى ، اللهم اجعلنى خيراً مما يحسبون ، واغفر لى ما لا يعلمون ، ولا تؤاخذنى بما يقولون » ا.هـ .

* * *

---

(١) الفرقان : ٦٣ .

(٢) جـ٢ ص ١٥

(٥٩) لا حول ولا قوة إلا بالله
كَنْزٌ من كنوز الجنة

عن أبي موسى الأشعري قال : لما غزا رسول الله ﷺ خيبر - أو قال : لما توجه رسول الله ﷺ - أشرف الناس على وادٍ فرفعوا أصواتهم بالتكبير : الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله .

فقال رسول الله - ﷺ - : « ارْبَعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً إنكم تدعون سميعاً قريباً ، وهو معكم » .

وأنا خلف دابة رسول الله - ﷺ - فسمعني وأنا أقول :

لا حول ولا قوة إلا بالله .

فقال لي : « يا عبد الله بن قيس » قلت : لَبَّيك رسول الله .

قال : « ألا أدلُّك على كلمة من كنز من كنوز الجنة ؟ »

قلت : بلى يا رسول الله . فداك أبي وأمي .

قال : « لا حول ولا قوة إلا بالله » (١) .

* * *

أبو موسى الأشعري هو عبد الله بن قيس بن سليم ، وهو صحابي جليل ، حميد السيرة ، نقي السريرة ، سليم القلب ، لا يحمل غلاً لأحد ، يحب كل الناس ، وكل الناس يحبونه ويجلّونه ، كان صواماً قواماً ، ولا سيما في الأيام التي يشتد فيها الحر ، ومع ذلك كان بارعاً في الجهاد ، صاحب شجاعة وإقدام ، حتى روى أن الرسول - ﷺ - قال فيه : « سيد الفوارس أبو موسى الأشعري » .

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجهاد ١٣١ ، والمغازي ٣٨ ، والدعوات ٥١ ، والقدر ٧ ، والتوحيد ٩ .

وكان – رضى الله عنه – حسن الصوت بالقرآن ، فقد شهد له النبى – ﷺ – بذلك فقال :

« لقد أوتيتَ مزماراً من مزامير داود – عليه السلام – » .

ودعا له فقال : « اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ، وأدخله يوم القيامة مدخلاً كريماً » .

وبشره مع بلال بن رباح ، بالخير فى الدنيا والآخرة ، كما فى صحيحى البخارى ومسلم .

وكان – رضى الله عنه – من أفقه الناس وأعلمهم بأصول الشريعة وفروعها .

قال الشعبى : انتهى العلم إلى ستة ، فذكره فيهم .

وقال ابن المدينى شيخ البخارى : قضاة الأمة أربعة : عمر ، وعلى ، وأبو موسى ، وزيد بن ثابت .

وينتسب أبو موسى إلى قومه الأشعريين المنسوبين إلى أبيهم « الأشعر» من أهل اليمن .

وقد جمع رسول الله – ﷺ – للأشعريين المؤمنين بين صفتى الشجاعة والأمانة ، فقال :

« نعم الحى الأشعريون ، لا يفرون من القتال ، ولا يُغلّون (أى : لا يخونون) هم منى وأنا منهم » (١) .

ثم أضاف إليهم منقبة جليلة ثالثة ، وهى التكافل فيما بينهم ، فقال :

« إن الأشعريين إذا أرملوا (أى نقص زادهم) فى الغزو ، أو قلّ طعامهم بالمدينة ، جمعوا ما كان عندهم فى ثوب واحد ، واقتسموه بينهم فى إناء واحد بالسوية ، فهم منى وأنا منهم » (٢) .

---

(١) رواه الترمذى .

(٢) رواه البخارى فى كتاب الشركة ١ ، ومسلم فى كتاب فضائل الصحابة ١٦٧ .

وياله من شرف عظيم لأبى موسى وقومه حينما يكرر المصطفى قوله فى شأنهم : « فهم منى وأنا منهم » .

واشتهر الأشعريون بقراءة القرآن الكريم فى الليل ، حتى قال رسول الله - ﷺ - :

« إنى لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل ، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل ، وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار » [1] .

وقد قدم أبو موسى الأشعرى من « اليمن » إلى مكة ، فلقى رسول الله - ﷺ - قبل أن يهاجر إلى المدينة ، وأعلن إسلامه ، ثم عاد إلى اليمن بتوجيه من النبى - ﷺ - ليبشر بدين الله بين قومه ، وليكون مع معاذ بن جبل هناك ، يعاونه فى التعليم والإرشاد .

وبعد حين خرج أبو موسى الأشعرى من بلده مهاجراً إلى المدينة ، ومعه عشرات من قومه ، قد هداهم الله إلى الإسلام بفضله ، وركبوا البحر فألجأتهم الرياح إلى أرض الحبشة ، ثم قدموا مع جعفر بن أبى طالب إلى المدينة يوم فتح الله على المسلمين حصون خيبر ، ولذلك كان يقال لأبى موسى الأشعرى : ذو الهجرات الثلاث .

وفرح الرسول - ﷺ - بهؤلاء المهاجرين ، وأثنى عليهم ، وأسهم لهم من غنائم خيبر ، ولم يسهم منها لأحد غاب عن فتحها سواهم .

ولهذا الصحابى الجليل مناقب عظيمة تراجع فى كتب السير ، وفيما ذكرناه كفاية .

* * *

قال - رضى الله عنه - : « لما غزا رسول الله - ﷺ - خيبر، أو قال : لما توجه رسول الله - ﷺ - » . شك من الراوى ، والمعنى واحد ، وقد كانت غزوة خيْبر فى السنة السابعة من الهجرة .

قال : « أشرف الناس على واد » أى نزلوا فيه، وصعدوا على أعاليه ، يقال : أشرف على المكان أى علا عليه .

---

(١) رواه مسلم .

قال : « فرفعوا أصواتهم بالتكبير » وهو شعار المسلمين فى الحرب والسفر كلما صعدوا مكاناً مرتفعاً أو نزلوا كبَّروا ؛ ليشعروا أنفسهم بعظمة الخالق وكبريائه ، وليظهروا التواضع والخضوع له – جل شأنه – حيثما كانوا.

وكانوا يكثرون مع التكبير من (لا إله إلا الله) ، ويرفعون بها أصواتهم .

ولما ارتفعت أصواتهم جداً بالتكبير والتهليل أشفق عليهم رسول الله ـ ﷺ – وهو أرحم بهم من أنفسهم على أنفسهم – فقال :

« ارْبَعوا على أنفسكم » ، بكسر همزة الوصل وفتح الباء أى : ارْفَقُوا بها بخفض أصواتكم .

وذكّرهم بأن الله – عز وجل – يسمع السر وأخفى ، وهو معهم أينما كانوا ، يعلم بأحوالهم الظاهرة والباطنة .

واعلم أن المَعِيَّة مَعِيَّتان : –

مَعِيَّة عامة : تشمل جميع الخلق ، فهو معهم بعلمه وتدبيره ، وقضائه وقدره ، لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء .

وهى ما عناه الله بقوله فى سورة الحديد : ﴿ وهو معكم أينَ ما كنتم ﴾ (١) .

ومعيَّة خاصة بالمؤمنين : وهى معيَّة توفيق وعون ونصر وتأييد ، وعفو وصفح ، ومغفرة ورحمة ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾ (٢) .

وقوله – ﷺ – فى هذا الحديث : « وهو معكم » تحتمل المعنيين ، فهو – جل شأنه – معهم بعلمه وعونه ؛ لأنهم من خيار الأتقياء المحسنين ، وقد جاهدوا فى الله حق جهاده ، وباعوا أنفسهم له ، وكانوا من خيرة جنده فى البأساء والضراء ، رضوان الله عليهم أجمعين .

قال أبو موسى : « وأنا خلف دابة رسول الله – ﷺ – فسمعنى وأنا أقول : لا حول ولا قوة إلا بالله » .

---

(١) آية : ٤ .　　(٢) آخر النحل .

إنه يصف حاله عندما قال الرسول - ﷺ - للناس : « ارْبَعوا على أنفسكم » ، للدلالة على أن ما سمعه من رسول الله - ﷺ - حق لا يمارى فيه ، فحكاية الحال تؤكد روايته وتقويها ، فيذكرها وكأنه يستحضرها فى قلبه ويعايشها .

ولعله كان يقول : لا حول ولا قوة إلا بالله ؛ تأثراً بما وقع من أصحابه من رفع أصواتهم والتهليل ، وهو الأمر الذى جعل رسول الله - ﷺ - يُخَفِّض من أصواتهم، ويعيد إليهم هدوءهم ، وسكينتهم .

ومعنى : لا حول ولا قوة إلا بالله : أى لا حيلة للعبد فى أمر، ولا تحوّل له من حال إلى حال ، ولا قوة له على الحيلة ولا على التحوّل إلا بالاستعانة بقوة الله وقدرته .

ولهذا أمر النبى - ﷺ - من يسمع المؤذن أن يردد ما يقول ، إلا عند قوله : حى على الصلاة ، حى على الفلاح ، فإنه يقول : لا حول ولا قوة إلا بالله . كما ثبت فى الصحيحين وغيرهما .

قال أبو موسى : « فقال لى رسول الله - ﷺ - : ياعبد الله بن قيس ، قلت : لبيك رسول الله » أى أجبتك يا رسول الله ، فمعنى لَبّى : أجاب ، وتثنية التلبية للمبالغة .

قال رسول الله - ﷺ - : « ألا أدُلُّك على كلمة من كَنز من كنوز الجنة ؟ » .

والاستفهام للتنبيه والتشويق إلى ما سيلقيه إليه .

قال : « قلت بلى يا رسول الله فداك أبى وأمى » .

أى : اخبرنى يا رسول الله ، وأفديك بأبى وأمى ، وهما أقرب الناس إلىّ ، وأرحمهم بى ، وأعزهم لدىّ .

وهذا الجواب يدل على شدة حرص أبى موسى على أن يعرف هذه الكلمة ؛ ليلهج بها قلبه ولسانه فى صباحه ومَسَائه ، كما يدل هذا القول على عظيم حبه وتقديره وإجلاله لرسول الله - ﷺ - .

قال رسول الله - ﷺ -: « لا حول ولا قوة إلا بالله »، وفى رواية قال: « قل لا حول ولا قوة إلا بالله فإنها كَنز من كنوز الجنة » .

ومعنى كونها كَنزاً من كنوز الجنة : أنها تشبه الكنز ، فكما أن الكنز فيه مال كثير ييسر للإنسان حصولَه على ما يحب من متع الدنيا ولذائذها، فكذلك هذه الكلمة فيها أجر كبير ييسر للإنسان حصولَه على المراتب السنية فى الجنة .

وقد وردت فى فضل هذه الكلمة العظيمة أحاديث كثيرة منها :

ما رواه الترمذى فى سننه عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال له : « أكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، فإنها من كَنز الجنة » .

قال مكحول - رحمه الله - : فمن قال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، ولا ملجأ من الله إلا إليه كشف الله عنه سبعين باباً من الضر أدناهن الفقر .

(قال الترمذى : هذا حديث ليس بمتصل : مكحول لم يسمع من أبى هريرة .

ورواه النسائى والبزار مطولاً ، ورفعاه . ورواته ثقات محتج بهم .

ورواه الحاكم وقال : صحيح ولا علة له ، ولفظه :

إن رسول الله - ﷺ - قال : « ألا أعلمك - أو ألا أدلك - على كلمة من تحت العرش من كنز الجنة ؟ . تقول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، فيقول الله : أسلم عبدى واستسلم » .

وفى رواية له - وصححها أيضاً - : « يا أبا هريرة ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة ؟ قلت : بلى يا رسول الله ، قال : تقول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، ولا ملجأ ولا منجى من الله إلا إليه » ا.هـ (1) .

وعن أبى هريرة أيضاً أن رسول الله - ﷺ - قال : « من قال : لا حول ولا قوة إلا بالله كان دواءً من تسعة وتسعين داءً ، أيسرها الهم » .

---

(1) انظر الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ٤٤٤ .

قال المنذرى فى الترغيب : رواه الطبرانى فى الأوسط والحاكم ، وقال صحيح الإسناد .

وإذا علمنا فضل هذه الكلمة فإنه من الواجب علينا أن نكثر منها ؛ فإنها كلمة كافية شافية يعبر بها المؤمن عن تفويض أمره كله لخالقه ومولاه ، ويجد فيها أنسه وسلواه .

إنها كلمة يثبت الله بها عباده فى البأساء والضراء ويقوى بها عزائمهم فى الشدة والرخاء ، ويرفع بها من شأنهم فى الدنيا والآخرة .

إنها كلمة ينزل الله بها السكينة فى قلوب المؤمنين فيزدادون إيماناً مع إيمانهم بقدر ما نطقت بها ألسنتهم ، وآمنت بها قلوبهم ، واستوعبت معانيها ومراميها ألبابهم .

إنها ينبوع الحكمة ومصبُّها ؛ لأنها كلمة جامعة لأنواع الذكر كلها بعد كلمة التوحيد .

فكلمة التوحيد وهى (لا إله إلا الله) تنفى وجود إله سوى الله ، ومعناها : لا معبود بحق إلا الله .

وكلمة (لا حول ولا قوة إلا بالله) تفيد بمعناها ومرماها أن الأمر لله يؤتى الملك من شاء وينزعه ممن شاء ، ويعز من شاء ، ويذل من شاء ، لا رادّ لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، له فى خلقه شئون يبديها ولا يبتديها، يرفع أقواماً ويخفض آخرين .

نسأل الله تبارك وتعالى أن يجمع قلوبنا على طاعته وأن يهدينا سواء السبيل .

* * *

(٦٠) اللهمّ أعنِّى على ذكرِك وشكرِك وحسنِ عبادتِك

عن معاذ بن جبل – رضى الله عنه – أن رسول الله – ﷺ ـ أخذ بيده وقال : « يا معاذُ ، والله إنِّى لأحبُّك ، والله إنِّى لأحبُّك » .

فقال : « أوصيك يا معاذُ لا تدعَنَّ فى دُبر كلِّ صلاةٍ تقولُ : اللهمَّ أعنِّى على ذِكرِك وشكرِك وحسنِ عبادتك » (١) .

* * *

معاذ بن جبل صحابى جليل من الأنصار ، شهد بيعة العقبة الثانية ، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله – ﷺ – ، وأمّره النبى – ﷺ – على اليمن ، كما تقدم فى حديث « يسِّرا ولا تعسِّرا » .

وعدّه أنس بن مالك فيمن جمع القرآن على عهد رسول الله – ﷺ –.

قال عبد الرزاق : أنبأنا معمر والزهرى عن أُبَىّ بن كعب بن مالك : قال : كان معاذ شاباً جميلاً سمحاً لا يسأل الله شيئاً إلا أعطاه .

وكان معاذ أعلم الناس بالحلال والحرام ، كما روت كتب السير ، وكان راجح العقل ثاقب الفكر ، وقّافاً عند حدود الله – عز وجل – ، يحكم بالكتاب والسنة ، ولا يجتهد إلا فيما لا يجد له نصاً فيهما .

قال معاذ – رضى الله عنه – : لما بعثنى رسول الله – ﷺ – إلى اليمن قال لى : « بم تقضى إن عرض قضاء ؟ » .

قال : قلت : أقضى بما فى كتاب الله .

قال : « فإن لم يكن فى كتاب الله ؟ ».

---

(١) رواه أبو داود فى كتاب الصلاة ، باب الاستغفار ١٥٢٢ . ورواه أحمد فى مسنده ٥/ ٢٤٥ ، والحديث صحيح .

قلت : أقضى بما قضى به الرسول – ﷺ – .

قال : « فإن لم يكن فيما قضى به رسول الله » .

قال : قلت أجتهد رأيي ولا آلو (أى ولا أقصر ولا أعجز) .

قال : فضرب صدرى ، وقال : « الحمد لله الذى وفق رسولَ رسولِ الله لما يرضى رسول الله » (١) .

وقد شهد له خيرة أصحاب النبى – ﷺ – بالإمامة فى العلم والحكمة فكانوا يلجأون إليه فى أمور دينهم ليفتيهم فيها بما أراه الله فى كتابه العزيز وفى سنة رسوله – ﷺ – .

(خطب عمر بن الخطاب بالجابية يوماً فقال : من كان يريد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل .

وكان يقول – رضى الله عنه – حين خرج معاذ بن جبل إلى الشام : لقد أخل خروجه بالمدينة وأهلها فى الفقه وما كان يفتيهم به ، ولقد كنت كلمت أبا بكر – رحمه الله – أن يحبسه لحاجة الناس إليه فأبى علىَّ ، وقال: رجل أراد وجهاً يريد الشهادة فلا أحبسه !

فقلت : والله إن الرجل ليرزق الشهادة وهو على فراشه وفى بيته عظيم الغنى عن مصره .

قال كعب بن مالك : وكان معاذ بن جبل يفتى فى حياة رسول الله – ﷺ – وأبى بكر) (٢) .

ولمعاذ بن جبل مناقب كثيرة مشهورة أهّلته لحب خير خلق الله له . فرضى الله عنه وأرضاه ، ورزقنا حبه وحب من أحبه .

* * *

يقول معاذ – رضى الله عنه – : « أخذ رسول الله – ﷺ – بيدى »

---

(١) الحديث رواه ابن سعد بسنده فى الطبقات جـ ٢ ص ١٠٨ .

(٢) انظر المرجع السابق .

أى تنـاولها تنـاول المحب الودود الذى يعـبر عمـا يجيش فى صـــدره فأبى إلا أن يخـرج على صفـحات لســانه ليعـلم المحبـوب أنه فى ذروة الحب عنـده - ﷺ - .

واستعان على ذلك بيده توكيداً لأواصر القرب بينهما ، وكأنه يعاهده على ذلك .

ولا شك أن أخذ النبى - ﷺ - بيده يعمق جذور المحبة فى قلب معاذ فيبادله حباً بحب وقرباً بقرب ، ويحمله ذلك على المضى قُدماً فى طاعة الله - عز وجل - والسير على هداه حتى يلقاه .

وفى الأخذ بيده أيضاً تذكير له بما أوصاه به كلما حاول الشيطان أن ينسيه ، فإن هذا العمل من شأنه ألا ينساه صحابى مثله .

فمن ينسى أو يتناسى أن يده وضعت فى أشرف الأيدى وأطهرها على الإطلاق ؟! من ينسى أو يتناسى هذا الحنان الدافق ممن هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وأرحم بهم من أنفسهم على أنفسهم ؟!

وحين سكنت يد معاذ - رضى الله عنه - واطمأنت فى يد النبى - ﷺ - وشعرت ببرد العطف والأنس - أفصح ترجمان القلب عما فيه فقال من غير تكلف: «والله يا معاذ إنى لأحبك ، والله إنى لأحبك» مرتين . مستخدماً فى التوكيد جميع أدواته - القسم ولامه وتكراره ؛ ليهنأ معاذ بهذا الخبر العظيم فيشعر أنه فى جنة الحب يتمتع بنعيمها ، وينعم بهذا القرب من أعظم المقربين إلى الله - تبارك وتعالى - ، وهو يعلم علم اليقين منه - ﷺ - أن المرء مع من أحب .

لقد قال النبى - ﷺ - ذلك حين سأله رجل عن الساعة ؟ ، فقال : « ما أعددت لها ؟ » قال الرجل : أعددت لها حب الله ورسوله .

فقد قال له الرسول - ﷺ - : « المرء مع من أحب » ترجمة لما تضـمنه قوله تعـالى : ﴿ ومن يطع الله والرسـول فأولئـك مع الـذين أنعـم الله عليهم من النبيين والصـديقين والشـهداء والصـالحين وحَسُنَ أولئـك رفيقـاً ﴾ [1] .

---

(١) النساء : ٦٩ .

ومن مبادئ الأخلاق النبوية أن المسلم إذا أحب إنساناً ينبغى أن يخبره بذلك ليبادله حباً بحب ، فتأتلف القلوب ولا تتنافر ، فيلتقى الناس على الحب ، ويتفرقون عليه .

فقد روى أبو داود عن المقداد بن معد يكرب أن النبى - ﷺ - قال : « إذا أحب الرجل أخاه فليخبره أنه يحبه » .

وروى أبو داود أيضاً عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - أن رجلاً كان عند النبى - ﷺ - فمر به رجل فقال : يا رسول الله إنى لأحب هذا .

فقال له النبى - ﷺ - : « أعلمته » ؟

قال : لا .

قال : « أعلمه » ، قال : فلحقه ، فقال : إنى أحبك فى الله ، فقال : أحبك الله الذى أحببتنى له .

* * *

وبعد أن أخبره النبى - ﷺ - بما يكنه له فى صدره من حب غامر ، قال له : « يا معاذ لا تدعن فى دبر كل صلاة تقول : اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » .

أى لا تتركن أن تقول عقب كل صلاة مفروضة أو مسنونة هذا الدعاء بقلبك ولسانك ، فالقلب هو الذى يتكلم واللسان يترجم عنه .

إن الكلام لفى الفـــؤاد وإنمـا   جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

وهذا الدعاء جامع للخير كله فى دنيا المسلم وآخرته ، ليس وراءه من مطلب يزيد عليه ، فهو من جوامع كلمه - ﷺ - .

فإذا أعان الله عبده على ذكره بالقلب واللسان والعقل ، فقد زَجَّ به فى ساحة قربه ، وأدناه من حضرة قدسه ، ومتعه فى دنياه بنعيم لا يجده سواه إلا من كان على شاكلته .

فذكر الله هو النعيم الأبدى ، أوله كآخره .

قال أهل الذكر : نحن فى لذة لو علم بها الملوك لقاتلونا عليها بسيوفهم ، وأهل الذكر هم الملوك حقاً ، والملوك عبيدهم .

قال رجل منهم : عجبت لمن خرج من الدنيا ولم يستمتع بنعيمها ! .

فقالوا : وهل فى الدنيا نعيم يا رجل ؟ !

قال نعم : فيها نعيم يعدل نعيم الجنة .

قالوا : ما هو ؟

قال : ذكر الله .

وقد مضى القول فى فضل ذكر الله – تعالى – ، وسيأتى له مزيد بيان فى مواضع أخرى من هذا الكتاب إن شاء الله – تعالى – .

وأما الشكر فهو روح الإيمان وبرهان صحته وثمرة من أعظم ثمراته .

قال تعالى : ﴿واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون﴾ (١) .

والشكر هو امتلاء القلب بالرضا عن الله فى قضائه وقدره ، والإكثار من حمده فى السراء والضراء والشدة والرخاء ، ومواجهة المصائب بصدر رحب وقلب مطمئن ، والاعتقاد الجازم بأن الخير كل الخير فيما يختاره الرب لعبده، لا فيما يختاره العبد لنفسه .

وأما حسن العبادة فإنها تكون بإظهار الذل والانكسار للمعبود – جل وعلا – فى كل عبادة يؤديها ، وفى كل عمل صالح يقوم به ، مع الإخلاص الكامل ، واليقين الصادق بأنه مقصر فى حق ربّه مهما اجتهد فى ذلك .

فلن يكون العابد عابداً حتى يشعر دائماً بأنه مذنب ، وأنه فى حاجة مُلِحَّةٍ إلى العفو والمغفرة ، وأنه مفتقر تمام الافتقار إلى عظيم فضله وواسع رحمته .

والعابدون على درجات ، كل درجة تبدأ بالتوبة وتنتهى بها .

---

(١) سورة البقرة : ١٧٢ .

فالتوبة تصحيح للعبادة ، وتعديل لمسارها ، وتجديد لنشاط العبد فيها.

وقد جاءت هذه الوصية مرتبة ترتيباً منطقياً .

فالذكر يوجب الشكر ، ويبعث عليه .

والشكر يكون باعثاً على التعمق فى الإخلاص ، والتمادى فى الطاعة ، والاستمرار فى تجديد التوبة ، بحيث يصل الأمر بالعبد إلى أن يتوب من توبته فكلما تاب شعر بنقصان فى توبته ، فاجتهد فى توبة أحسن منها ، وهكذا يكون حاله مع الله حتى يلقاه .

إن ال[illegible] يطرد الغفلة ، والشكر يطرد اليأس ، وحسن العبادة تبلغ بصاحبها المنزل .

ومن بلغ المنزل فقد وصل إلى الدرجات العلا ، فعاش فى دنياه سعيداً يتقلب فى نعيم الذكر والشكر وحسن العبادة .

ويوم القيامة يجد ما وعده ربه حقاً، فيكون الشكر له هناك أتم وأوفر ، فهم فى هذه الدنيا يحمدون الله – عز وجل – بقدر طاقتهم البشرية .

وفى الجنة تكون الطاقة فى الحمد بغير حدود ،﴿ دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتُهم فيها سلامٌ وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾ (١) .

﴿ وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحَزَنَ إن ربنا لغفور شكور الذى أحلّنا دار المُقامة من فضله لا يمسنا فيها نَصَبٌ ولا يمسنا فيها لُغوب﴾ (٢).

﴿ وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجرُ العاملين﴾ (٣) .

فما أعظم هذه الوصية التى أوصى بها رسول الله – ﷺ – معاذ بن جبل – رضى الله عنه وأرضاه – فقد خصه بها لشدة حبه له .

ونحن له فيها تبع إذا سلكنا طريقه فى عاداته ومعاملاته ، ونهجنا نهجه فى سلوكه مع رسول الله – ﷺ – فقد كان – رضى الله عنه – نعم المطيع لمن أحبه ، ونعم القدوة لمن بعده .

---

(١) يونس : ١٠ .　　(٢) فاطر : ٣٤ – ٣٥ .　　(٣) الزمر : ٧٤ .

وأين نحن منه حتى نلحق به ونحشر معه ، ولكن رحمة الله واسعة والطاعة على قدر الطاقة .

فلندعو الله – عز وجل – عقب كل صلاة بهذه الدعوة الجامعة ثلاث مرات ، كما كان يفعل النبى – ﷺ – فى دعائه كله .

روى مسلم عن ابن مسعود قال : كان رسول الله – ﷺ – إذا دعا دعا ثلاثاً ، وإذا سأل سأل ثلاثاً .

وليكن دعاؤنا نابعاً من قلوبنا مع الخشوع والخضوع ، وإظهار الافتقار التام إلى خالقنا ومولانا. والدعاء مخ العبادة كما جاء فى الحديث الصحيح .

وقد وعدنا الله بالإجابة إذا آمنا به واستجبنا له فقال – جل شأنه – : ﴿وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريبٌ أجيب دعوة الداعِ إذا دعانِ فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يَرشُدون﴾ (١) .

* * *

---

(١) البقرة : ١٨٦ .

(٦١) قل الحقَّ ولو كان مُرًّا

عن أبى ذر – رضى الله عنه – قال : قلت يا رسول الله ، ما كانت صحف إبراهيم ؟

قال : « كانت أمثالاً كلَّها ..

أيُّها الملك المسلط المبتلى المغرور : إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضَها على بعض ، ولكنى بعثتُكَ لترد عنِّى دعوة المظلوم ، فإنى لا أردها وإن كانت من كافر .

وعلى العاقل ما لم يكن مغلوباً على عقله أن يكون له ساعات :

فساعة يناجى فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يتفكر فيها فى صنع الله عز وجل،وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب.

وعلى العاقل : أن لا يكون ظاعناً إلا لثلاث : تَزَوُّدٍ لمعاد ، أو مَرَمَّةٍ لمعاش ، أو لَذَّةٍ فى غير مُحَرَّم .

وعلى العاقل : أن يكون بصيراً بزمانه ، مقبلاً على شأنه ، وحافظاً للسانه .

ومن حَسِبَ كلامه من عمله قل كلامُه إلا فيما يَعنيه » .

قلت : يا رسول الله، فما كانت صحف موسى – عليه السلام –؟ .

قال : « كانت عبراً كلُّها ..

عجبت لمن أيقن بالموت ثم هو يفرح .

عجبت لمن أيقن بالنار ثم هو يضحك .

عجبت لمن أيقن بالقدر ثم هو ينصَب .

عجبت لمن رأى الدنيا وتقلُّبَها بأهلها ثم اطمأن إليها .

عجبت لمن أيقن بالحساب غداً ثم لا يعمل » .

قلت : يا رسول الله ، أوصنى .

قال : « أوصيك بتقوى الله فإنها رأس الأمر كلّه » .

قلت : يا رسول الله ، زدنى .

قال : « عليك بتلاوة القرآن وذكر الله عز وجل ، فإنه نور لك فى الأرض وذخر لك فى السماء » .

قلت : يا رسول الله ، زدنى .

قال : «إياك وكثرة الضحك فإنه يميت القلب،ويذهب بنور الوجه».

قلت : يا رسول الله ، زدنى .

قال : «عليك بالجهاد ، فإنه رهبانية أمتى» .

قلت : يا رسول الله ، زدنى .

قال : «أَحِبَّ المساكين وجالسهم» .

قلت : يا رسول الله ، زدنى .

قال : «انظرِ إلى منِ هو تحتك ولا تنظر إلى من هو فوقك ؛ فإنه أجدر أن لا تزدرىَ نعمةَ الله عليك» .

قلت : يا رسول الله ، زدنى .

قال : «قل الحق وإن كان مُرّاً» .

قلت : يا رسول الله ، زدنى .

قال : «ليرُدَّك عنِ الناس ما تعلمه من نفسك ، ولا تجد عليهم فيما تأتى ، وكفى بك عيباً أن تعرف من الناس ما تجهله من نفسك ، وتجد عليهم فيما تأتى» .

ثم ضرب بيده على صدرى فقال : يا أبا ذر ، لا عقل كالتدبير ، ولا ورع كالكف ، ولا حسب كحسن الخلق» [1] .

* * *

---

(١) رواه ابن حبان فى صحيحه ، والحاكم ، وقال : صحيح الإسناد .

كان أبو ذر – رضى الله عنه – حريصاً على طلب العلم من منبعه الأصيل ، وكان شديد التَّطَلُّع إلى معرفة أخبار الأولين لما فيها من العظات والعِبَر .

وكان رضى الله عنه رقيق القلب والمشاعر ، طيب النفس وحسن الخلق ، قد جعل الآخرة مبلغ علمه ، ومنتهى أمله .

لقد توجّه يوماً بهذا السؤال إلى رسول الله – ﷺ – « ما كانت صحف إبراهيم ؟ » .

أى : أىُّ شىء تضمنته هذه الصحف زيادة على ما جاء فى القرآن الذى أنزل عليك ؟ .

لأنه قد نزل من القرآن بمكة بعض ما فى هذه الصحف مما لا يخفى على أمثاله .

من ذلك ما جاء فى قوله تعالى : ﴿أمْ لم يُنبَّأ بما فى صحف موسى وإبراهيمَ الذى وفّى ألاَّ تزرُ وازرة وزرَ أخرى وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيَه سوف يُرى ثم يُجزاه الجَزاء الأوفى وأن إلى ربك المُنتهى وأنه هو أَضْحَكَ وأبكى وأنه هو أمات وأحيا وأنه خَلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفَة إذا تُمْنى وأن عليه النشأة الأخرى وأنه هو أغنى وأقنى وأنه هو رَبُّ الشّعرى﴾ (١) .

ومن ذلك أيضاً ما جاء فى قوله تعالى : ﴿قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خيرٌ وأبقى إنَّ هذا لفى الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى﴾ (٢) .

وليس ما جاء فى القرآن هو كل ما جاء فى صحف إبراهيم وموسى ، ولكن القرآن قد أحاط بما جاء فيها من الأصول العامة التى اتفقت عليها جميع الشرائع السماوية .

وفى القرآن الكريم من المواعظ ما يكفى ويشفى ، ولكن أبا ذر أراد

---

(١) سورة النجم : ٣٦ – ٤٩ . (٢) سورة الأعلى : ١٤ – ١٩ .

المزيد من العلم بما فى هذه الصحف ، ولا حرج عليه فى ذلك مادام يتلقى ما فيها من علم من رسول الله - ﷺ - .

وقد استجاب النبى - ﷺ - لرغبته فى ذلك فأنبأه ببعض ما فى صحف إبراهيم وموسى .

وهو لا يخرج عما جاء فى القرآن الكريم ؛ لأن القرآن يهيمن على سائر الكتب السماوية ، لم يترك منها صغيرة ولا كبيرة إلاّ نبّأنا بها أو أشار إلى مضمونها فى قواعد كلية وأحكام جامعة ، وحكم بالغة ، وأمثال توضيحية تعكس ما مرّت به الإنسانية فى تاريخها من نوازع الخير والشرّ .

* * *

قال رسول الله - ﷺ - : « كانت أمثالاً كلها » .

أى كانت عظاتٍ وعبراً تهدى إلى الله - عز وجل - ، وتدعو الناس إلى ما فيه صلاح أمرهم فى الدنيا وخلاصهم فى الآخرة .

والمثل فى اللغة : هو ما يبرز المعانى المعقولة فى صور محسة ، ويُنزَّل منزلة الحكمة التى تعبّر عن المعانى الكثيرة بألفاظ موجزة بليغة مقنعة للعقول ، ممتعة للعواطف يتناقلها الناس جيلاً بعد جيل .

ويطلق أحياناً على القصة برُمَّتها لما فيها من إبراز المناحى الإنسانية والقيم الخلقية والقواعد السلوكية .

يقول الله عز وجل : ﴿ولقد أنزلنا إليكم آياتٍ مبيِّناتٍ ومثلاً من الذين خلَوا من قبلكم وموعظة للمتقين﴾ (١) .

ثم ذكر النبى - ﷺ - بعضٍ هذه الأمثال فقال : « أيها الملك المسلَّط المبتلى المغرور ، إنى لم أبعثكَ لتجمع الدنيا بعضَها على بعض ، ولكنى بعثتك لترد عنّى دعوة المظلوم فإنى لا أردها وإن كانت من كافر » .

ولعل المراد بالملك الذى ورد ذكره فى هذه الصحف هو النمروذ بن

---

(١) النور : ٣٤ .

كنعان الذى ورد ذكره فى قوله تعالى : ﴿ألم تر إلى الذى حاجَّ إبراهيم فى ربه أن آتاه الله المُلك إذ قال إبراهيمُ ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأتِ بها من المغرب فبُهِت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين﴾ [1] .

وهو المبتلى المغرور بحق ، وهل هناك أعظم بلاءً وأشد جرماً من ملك آتاه الله الملك ليشكر فإذا به يطغى ويكفر ويدَّعى أنه يحيى الموتى .

يقول له ربه : « إنى لم أبعثك » أي لم أعطك الملك لتجمع حطام الدنيا وتملأ به خزائنك ، وتمنع الناس من حقهم فيه ، وتتسلط عليهم بجبروتك الفانى ، فتقتل من شئت منهم ، وتسجن من شئت منهم ، وتسلب مال من شئت ، وتمنحه لمن شئت .

وإنما بعثتك – أى أوجدتك – من العدم ، وقوّيتك لترد عنّى دعوة المظلوم برفع الظلم عنه ، فإنى لا أردّ له دعوة دعا بها عليك وعلى أمثالك من الظلمة ولو كان كافراً .

وهذه الحكمة البالغة تحذرنا من عواقب الظلم الوخيمة ، فإن الله – عز وجل – حكم عدل، قد حرّم الظلم على نفسه وهو ملك الملوك، وجعله بين عباده محرّماً، وأعلن أنه مع المظلوم مهما كان حاله، فلابد من أن ينصره ولو بعد حين ، ودعوته ليس بينها وبينه حجاب ، كما مرّ فى حديث سابق .

* * *

ثم قال : « وعلى العاقل ما لم يكن مغلوباً على عقله أن يكون له ساعات : فساعة يناجى فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يتفكر فيها فى صنع الله – عزّ وجل – ، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب » .

والعاقل : هو الذى قد أوتى الحكمة ففهم بها مغزى ما يراه وما يسمعه ، وعرف ما يضره وما ينفعه .

---

(١) البقرة : ٢٥٨ .

وليس المراد بالعاقل فى هذا الحديث من ليس به جنون ، بدليل قوله : « ما لم يكن مغلوباً على عقله » أى بسبب هوىً جامح أو تيار منحرف ، أو تقليد جائر، أو تعصب أعمى .

واعلم أن مراتب العقل أربعة : عقل وازع ، وعقل مدرك ، وعقل حكيم ، وعقل رشيد .

أما العقل الوازع : فهو الذى يحمل صاحبه على حفظ نفسه ونسله ، وعقله وماله وعرضه من غير بصيرة بأمور دينه .

يقول الله – عز وجل – فى شأن هؤلاء : ﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾ (١) .

وأما العقل المدرك : فهو الذى يقدّر الأمور قَدْرَها، ويعرف أبعادها، ويدرك ما وراء المعانى من الأهداف والمرامى، ويعرف الكثير من أمور دينه ودنياه.

وصاحب هذا العقل إنسان قد ارتفع بعقله إلى مستوى محمود يغبطه عليه من هو دونه .

وأما العقل الحكيم : فهو الميزان الذى لا يكاد يخطئ ؛ لأنه قد أبصر الحكمة فى مظانها فسعى إليها ، واستمسك بها ، وحكم على الأشياء حكماً يوافقها .

وأصحاب هذا العقل هم أولو الألباب الذين أثنى الله عليهم فى كثير من آياته ، وجعلهم من خيرة خلقه ، وقَصَر عليهم التدبر والنظر فى آياته القرآنية وآياته الكونية .

والحكمة : هى وضع الشىء فى موضعه .

ووضع الشىء فى موضعه هو التوفيق بعينه .

والتوفيق لا يكون إلاّ من الله ، يمنحه لمن اتصف بثلاث خصال وردت على لسان شعيب عليه السلام .

---

(١) الروم : ٧ .

قال الله تعالى حكاية عنه : ﴿قال يا قوم أرأيتم إن كنتُ على بيِّنةٍ من ربى ورزقنى منه رزقاً حسناً وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أُريدُ إلا الإصلاحَ ما استطعتُ وما توفيقى إلا بالله عليك توكلتُ وإليه أُنيب﴾ (١).

وهذه الخصال الثلاثة هى : إرادة الإصلاح بقدر الطاقة ، والتوكل على الله عز وجل ، والإنابة إليه .

والحكمة أيضاً هى : البصيرة النافذة والحجة القاطعة ، والخير الكثير والعلم الوفير ، والرأى السديد والقول الرشيد وما فى معنى ذلك .

يقول الله عز وجل : ﴿ يُؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤتَ الحكمة فقد أوتىَ خيراً كثيراً وما يذّكر إلا أولو الألباب﴾ (٢) .

وأما العقل الرشيد : فهو المعصوم من الخطأ ، وهو عقل الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم .

فالأنبياء يجتهدون فى الأمور التى لم ينزل فيها وحى ، فيصيبون فى الغالب الأعم ، فإن أخطأوا فى شىء صحّح الوحى لهم المسار .

وخطؤهم فى الاجتهاد لا يعدو أن يكون خلاف الأَوْلى ، فهو لا يحل حراماً ولا يحرّم حلالاً (٣) .

فالعاقل اللبيب الحكيم يقسّم أوقاته إلى ساعات متساوية :

فساعة يخلو فيها بنفسه يناجى ربه – يدعوه بأسمائه الحسنى ، ويذكره فى نفسه تضرعاً وخيفة .

وساعة يخلو فيها بنفسه لمحاسبتها عما اقترفته فى يومها ويؤنبها على تقصيرها فى حق ربها ، ويعاهدها على إدراك ما فات ، والتخلص من شهواتها وملذاتها فى سبيل طاعة ربها ومرضاته .

فمن حاسب نفسه الفينة بعد الفينة استطاع أن يتخلص من أوزاره بالتوبة النصوح أولاً بأولٍ ، ووقى نفسه من الإصرار على الذنب ، والتمادى

---

(١) هود : ٨٨ . (٢) البقرة : ٢٦٩ .

(٣) راجع مقاصد التشريع الأسرى فى سورتى الطلاق والتحريم ، للمؤلف .

فيه، وبذلك يكون قد استحق ما وعد الله به التائبين ، فى مثل قوله تعالى : ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسَهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفرُ الذنوبَ إلا الله ولم يُصروا على ما فعلوا وهم يعلمون أولئك جزاؤهم مغفرةٌ من ربهم وجناتٌ تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجرُ العاملين﴾ [١] .

وساعة يسرح بخواطره ، ويسبح بعقله فى خلق السماوات والأرض ، وفى خلق نفسه ليفتح لنفسه أبواباً واسعة من العلم والمعرفة بخالق هذا الكون ومدبره ، فكلما تفكر الإنسان فى ملك الله وملكوته أدرك من الحقائق الكونية ما يكون برهاناً له على وحدانية الله وقدرته .

والله – عز وجل – يدعونا فى كتابه العزيز إلى التفكر بوصفه عبادة من أجلّ العبادات وأعظمها ثواباً، وأكثرها فائدة فى ترسيخ المعتقد وتصحيح النية وإصلاح الطوية .

يقول الله – عز وجل – : ﴿إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقتَ هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار﴾ [٢] .

ويقول – عز وجل – : ﴿وفى أنفسكم أفلا تبصرون وفى السماء رزقُكم وما تُوعَدون﴾ [٣] .

ويقول – عز وجل – : ﴿سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يَكْفِ بربك أنه على كل شىء شهيد﴾ [٤] .

وساعةً يقضى فيها مآربه الخاصة والعامة من مأكل ومشرب وغير ذلك .

فللرب حق، وللبدن حق ، وللأهل حق، وعلى العاقل أن يعطى كل ذى حق حقه بالعدل والسَّوية، ولكن ينبغى أن يعطى ربه النصيب الأوفى من وقته، فيقدم لنفسه عملاً يدخره عنده، وهو الذى لا تضيع عنده الودائع .

---

(١) آل عمران : ١٣٥ – ١٣٦ .
(٢) آل عمران : ١٩٠ – ١٩١ .
(٣) الذاريات : ٢١ – ٢٢ .
(٤) فصلت : ٥٣ .

يقول الله – عز وجل – : ﴿ما عندكم ينفد وما عند الله باقٍ ولنجزين الذين صبروا أجرَهم بأحسنِ ما كانوا يعملون مَنْ عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينَّه حياةً طيبة ولنجزينَّهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ (١)

وحق الله هو فى الحقيقة حقّ للعبد ليس لله فيه حاجة ، فسبحان من لا تنفعه طاعتنا ولا تضره معصيتنا .

فقد جاء فى الحديث القدسى : « يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً .

يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئاً .

يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى ، فأعطيت كل واحد مسألته ، ما نقص ذلك مما عندى إلاّ كما ينقص المخْيَطُ إذا أدخل البحر .

يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » (٢) .

* * *

قال : «وعلى العاقل : أن لا يكون ظاعناً – أى مسافراً – إلاّ لثلاث» أى ثلاثة مقاصد نافعة :

(أ) «تَزَوُّد لمعاد» : أى تزود للدار الآخرة ، وهى الدار التى فيها معادهم ومردّهم إلى الله تعالى .

والدنيا كما نعلم مزرعة للآخرة ، وعمر الإنسان فيها هو رأس ماله ، فإن ضيّعه فقد ضيّع كل شيء ، وإن اغتنمه فقد أفلح فى دنياه وآخرته .

---

(١) النحل : ٩٦ – ٩٧ .

(٢) رواه مسلم .

فقد قال الله – عز وجل – : ﴿وتزوّدوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب﴾ [١] .

والتقوى هى طلب الوقاية من عذاب الله تعالى باتباع الأوامر واجتناب النواهى .

ولا خير فى سفر لا طاعة فيه ، ولا خير فى دنيا بلا دين ، ولا خير فى علم لا ينفع .

فمن كان ذا عقل ودين فليتزود من دنياه لآخرته ولو أدى به الأمر إلى قطع المسافات البعيدة ، أو اقتحام السبل المخيفة .

(ب) «أو مرمّة لمعاش» : أى مصلحة أو وظيفة أو صنعة يتعيش منها.

قال فى المعجم الوسيط : (رمّ الشىء رَمًّا ، ومرَمَّة : أصلحه وقد فسد بعضه) .

والسعى إلى المعاش عبادة من أعظم العبادات يثاب العبد عليها إن جعل سعيه كله لله .

(جـ) «أو لذّة فى غير محرّم» : كاستمتاع الزوج بزوجته، والزوجة بزوجها ونحو ذلك من متع الحياة التى أحلّها الله – عز وجل – .

* * *

ثم قال :

(أ) «وعلى العاقل : أن يكون بصيراً بزمانه» : أى ذا خبرة بأحوال الناس ومتطلبات العصر، وما تقتضيه الظروف من التصرفات المادية والمعنوية، وما تدعو إليه الضرورة من اليسر ورفع الحرج ودفع المشقة إلى غير ذلك من العادات والمعاملات والمستجدّات ، وعلاقة الشعوب بعضها ببعض ، ومعرفة ما يصلح الفرد والمجتمع على ضوء ما جاءت به الشرائع السماوية .

(ب) «مقبل على شأنه» : لإصلاح نفسه ورعاية شئون أهله ، والاشتغال بما ينفعه فى دينه ودنياه .

---

(١) سورة البقرة : ١٩٧ .

(جـ) «وحافظاً للسانه» من اللغو – وهو الكلام الذى يضر ولا ينفع – ومما فوقه من الآثام كالكذب والغيبة والنميمة ، وغير ذلك من آفات اللسان.

واللسان صغير الجِرْم كبير الجُرْم ، يوقع صاحبه فى مآزق لا يمكنه التخلص منها ، ويؤدى به إلى السقوط فى المهالك التى لا يكون له مخرج منها.

«وهل يكُبُّ الناس فى جهنم على وجوهم إلا حصائد ألسنتهم» [1].

(د) « ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يَعنيه » وذلك لأن الإنسان يتكلم أكثر مما يعمل ، فلو حاسب نفسه على ما تكلم به فى الليل والنهار لكفّ لسانه عن أكثر الكلام ، واقتصر منه على ما يجلب له خيراً أو يدفع عنه ضرّاً .

وميزان العاقل فى كلامه ، فإن قل كلامه كان حكيماً وإلا فهو أحمق .

قال ابن المقفع : من قل كلامه حمدت عاقبته ، ومن عرف بالكذب لم يصدقه أحد .

وقد تقدم الكلام عن آفات اللسان فراجعه .

* * *

ثم قال أبو ذر : قلت يا رسول الله ، فما كانت صحف موسى عليه السلام ؟

قال رسول الله – ﷺ – : « كانت عبراً كلها » .

ثم ساق له أمثلة منها :

(أ) قال : « عجبت لمن أيقن بالموت ثم هو يفرح » .

ولعل المراد بالفرح هنا : الاغترار بالدنيا ، والعُجْب بالنفس ، والتفاخر بالأموال والأنساب .

أما الفرح المعتاد والذى لا يخرج بالإنسان عن حدّ الاعتدال فلا يراد هنا .

---

(١) جزء من حديث صحيح رواه الترمذى فى إيمان ٨ ، وابن ماجه فى الفتن ١٢ ، وأحمد ٥ / ٣١ ، بألفاظ متقاربة .

فالمؤمن يفرح بنصر الله مثلاً ، كما قال – جل شأنه – فى سورة الروم: ﴿غُلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غَلَبهم سيغلبون فى بضع سنين لله الأمر من قبلُ ومن بعدُ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله﴾ (١) .

وقال جل وعلا : ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خيرٌ مما يجمعون﴾ (٢) .

والشرائع السماوية كلّها متفقة فى الأصول العامة ، والفرح الشديد ينافى أصول الأخلاق إذ من شأن المؤمن أن يجعل لفرحه حداً ينتهى إليه بحيث لا يصل به إلى حدّ البطر والغرور والعُجْب .

قال تعالى : ﴿ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسيرٌ لكيلا تأسَوْا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾ (٣) .

أى لا تفرحوا بما آتاكم فرحاً يؤدى بكم إلى ما لا تحمد عواقبه .

قال تعالى فى قصة قارون : ﴿إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إنَّ مفاتحَهَ لَتنوءُ بالعصبة أولى القوةِ إذ قال له قومُه لا تفرح إن الله لا يحب الفَرِحِينَ﴾ (٤) .

والفرِح بكسر الراء هو شديد الفرح إلى حد الغرور والخيلاء .

(ب) ثم قال : «عجبت لمن أيقن بالنار ثم هو يضحك » .

ولعل المعنى كيف يضحك على نفسه بطول الأمل ، ويُمَنِّيها بالجنة ولم يعمل لها عملاً .

ترجو النجاةَ ولم تَسْلُكْ مَسَالكَهَا   إن السفينة لا تَجْرِى على اليَبَسِ

ولو علم العبد ما أعده الله للعصاة يوم القيامة لطالت أحزانه ، وما ضحك فى حياته كلها إلا قليلاً .

---

(١) الآية : ٢ – ٤ .   (٢) يونس : ٥٨ .
(٣) الحديد : ٢٢ – ٢٣ .   (٤) القصص : ٧٦ .

(جـ) ثم قال : «عجبت لمن أيقن بالقدر ثم هو ينصَب » .

أى يتعب نفسه بالهم والحَزَن والتفكير فيما مضى وفيما هو آت .

كيف ينصب وكيف يغضب من آمن بأن ما أصابه لم يكن ليخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه .

(د) ثم قال : « عجبت لمن رأى الدنيا وتقلُّبها بأهلها ثم اطمأن إليها » .

أى ركَن إلى ما فيها من المغريات ، ومال إلى الشهوات ، واعتمد على ماله أو جاهه ومنصبه ، وغفل عن الموت وهو أقرب إليه من شرَاك نعله ، وغفل أيضاً عن تقلبات الحال ؛ فإن دوام الحال من المحال، كما قال الحكماء.

(هـ) ثم قال : « عجبت لمن أيقن بالحساب غداً ثم لا يعمل » .

أى : لا يعمل عملاً صالحاً يقرّبه إلى الله تعالى ، ويدفع عنه مَغَبة السوء فى الدنيا ، وسوء العاقبة فى الآخرة .

وما دام العبد قد أيقن بالحساب الأخروى فقد أيقن بالموت بالضرورة ، وبالتالى لا يجد نفسه مشغولاً عنهما بشواغل الدنيا ، فكلما ذكر الموت قصر أمله فيها ، وقلّت رغبته فى جمع حطامها ، وكلما ذكر الحساب حاسب نفسه على إفراطها وتفريطها ، وبذلك يكون قد تخلَّص من المعوقات الأربعة إلى حدٍّ كبير .

وهذه المعوقات الأربعة ذكرها الشاعر الحكيم فى قوله :

إنى بُليتُ بأَرْبَعٍ مَا سُـلِّطُوا   إلا لِشِدةِ شِقْوَتى وَعَنائى

إبليسُ والدنيا ونفسى والهوى   كيف الخلاصُ وكلُّهُم أَعْدَائى

والعاقل هو أكثر الناس للموت ذكراً ، وأحسنهم لما بعده استعداداً كما جاء فى الحديث الصحيح .

هذه هى الوصايا التى وردت فى صحف إبراهيم وموسى قد اختصرنا القول فيها لنفرغ إلى ما جاء على لسان خير البرية ؛ فإنه جامع لكل

ما تضمَّنته الكتب السماوية بأسلوب حكيم بليغ ، يقتحم أعماق القلوب المؤمنة ويسكن فى شغافها ويستغنى به العقلاء عما سواه .

* * *

قال أبو ذر – رضى الله عنه – ثم قلت : يا رسول الله ، أوصنى .

فأوصاه الرسول ـ ﷺ ـ بجملة من الوصايا هن من أمهات التقويم الفردى والإصلاح الاجتماعى ؛ لأنهن من أجمع الوصايا التى وردت بمعانيها فى التوراة والإنجيل والقرآن ، وكأنى بها لم تترك صغيرة ولا كبيرة إلاَّ اشتملتها فى أسلوب مشرق بنوره ﷺ .

أولى هذه الوصايا قوله – ﷺ – : « أوصيك بتقوى الله فإنها رأس الأمر كلُّه ».

أى : فإنها الإسلام كلُّه .

قال رسول الله – ﷺ – : « رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد فى سبيل الله » (١) .

والإسلام هو الدين الذى ارتضاه الله لعباده، وفطرهم عليه وتعبدهم به، وجعل الخير كل الخير فى اعتناقه ، ويسّر السبيل إليه بإرسال النبيين مبشرين ومنذرين ودعاة مرشدين .

وإذا نظرنا إلى معنى التقوى عرفنا أنها طب القلوب ودواؤها ، وعافية الأبدان وشفاؤها ، ورَوح الحياة وريحانها ، وأمها الحكمة فى أسمى مظاهرها وأرقى معانيها .

فمن تحلى بها فقد فاز فوزاً عظيماً فى الدنيا والآخرة .

يقول الله – عز وجل – : ﴿ ومن يُطِعْ الله ورسوله ويخشَ الله ويتقْهِ فأولئك هم الفائزون ﴾ (٢) .

---

(١) رواه الترمذى .　　　(٢) سورة النور : ٥٢ .

ويقول جل شأنه : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ [1] .

والتَّقِىُّ رجل ملأ الإيمان شغاف قلبه فَهَذَّب خلقه ونَقَّى سريرته ، وأذهب نوازع الشر من قلبه ، فكان بنفسه رحيماً ، وللناس ودوداً مُحِبًّا ، لا يحمل لأحد منهم ضغناً ، ولا يضمر فى نفسه إلاّ الخير .

قالت عائشة – رضى الله عنها – : « لله در التقوى ما تركت لذى غيظ شفاء » .

وقد تقدم الكلام عنها مستوفياً فى قوله – ﷺ – : « اتق الله حيثما كنت » .

* * *

قال – رضى الله عنه – : قلت : يا رسول الله ، زدنى .

قال : « عليك بتلاوة القرآن وذكر الله – عز وجل – ، فإنه نور لك فى الأرض وذخر لك فى السماء » .

أى : عليك بتلاوة القرآن بوجه خاص وبذكر الله بوجه عام ، فهو من باب عطف العام على الخاص .

وتلاوة القرآن تكرار قراءته ، فالتلاوة معناها فى اللغة التتابع ومجىء الشىء عقب الآخر .

والمؤمن مطالب بتدبره مع تلاوته ، ولن يستطيع أن يتدبره حقاً إلا إذا كرر قراءته بالترتيل ، بحيث يقرأ الآية على مَهل ، ثم يقرأ التى بعدها ثم يعيد ما قرأ مرة بعد مرة .

ولا شك أنه سيتذوق له حلاوة فى كل مرة أكثر من التى قبلها ، ويجد من المعانى اللطيفة فى كل مرة غير التى وجدها من قبل فيستنير بهذه المعانى اللطيفة قلبه .

---

(١) سورة الطلاق : ٢ – ٣ .

ولا يزال نوره يزداد شيئاً فشيئاً حتى ينعكس على وجهه وسائر جوارحه ، ويكون سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، ويكون بذلك عبداً ربّانياً يرى ببصيرته ما لا يراه الناظرون ، ويشرق نوره على جلسائه ومحبيه بحيث إذا رآه واحد منهم ذكر الله .

إنه يصير بنور القرآن من الدعاة المصلحين والهداة المرشدين ، يقتدى به من خالطه أو أكثر النظر إليه ، فهو نور على نور ، يصدق فيه وفى أمثاله قول الشاعر :

تحيا بهم كل أرض ينزلون بها   كأنهم فى بقاع الأرض أمطار

وتلاوة القرآن مع التدبر لابد أن تكون مقرونة بالعمل الصالح .

فلا خير فى قراءة إلا بتدبر ، ولا خير فى عبادة إلا بتفكر ، ولا خير فى علم بلا عمل .

وقد جاء فى الحديث الذى رواه مسلم عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قوله – ﷺ – : « والقرآن حجة لك أو عليك » .

فمن تلا كتاب الله تعالى وتدبره وعمل به فقد أدرك الغاية وبلغ المنزل وأتم الله عليه النعمة .

يقول الله – عز وجل – : ﴿ إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور لِيُوفيهم أجورهم ويَزِيدَهم من فضله إنه غفور شكور ﴾ (١) .

والقرآن هو السراج المنير والصراط المستقيم – من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن عملَ به أُجر ، ومن دعا إليه فقد هَدَى إلى صراط مستقيم ، كما قال الرسول – ﷺ – فى الحديث الذى رواه الترمذى .

والقرآن كما هو نور لمن يتلوه فى الأرض هو ذخر له فى السماء ،

---

(١) سورة فاطر : ٢٩ – ٣٠ .

يدخر الله له بكل حرف يقرؤه عشر حسنات ، ويرفعه بتلاوته فى الجنة درجات ، ويجعل من فى السماء يستغفرون له ويباركون تلاوته ، ويصغون إليه ، ويشهدون له يوم القيامة عند الله عز وجل .

روى الترمذى بسند صحيح عن عبد الله بن مسعود – رضى الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – قال : « من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشرة أمثالها ، لا أقول : الم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف وميم حرف » .

وروى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – قال : « ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده » .

أى : أثنى عليهم ثناءً حسناً، وأشهد ملائكته على أنهم من خيرة عباده .

وهذا الحديث يفيد أن التلاوة وحدها لا تبلغ بصاحبها هذه المنزلة بل لابد من مدارسته لمعرفة معانيه ومراميه .

وتلاوة القرآن بكثرة تجعل التالى أكثر مهارة من غيره فى تلاوته وحفظه وتدبره .

والماهر بالقرآن أفضل من المتتعتع فيه ، وفى كل خير .

روى البخارى ومسلم عن عائشة – رضى الله عنها – أن رسول الله – ﷺ – قال : « الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة ، والذى يقرأ ويتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران » .

والماهر بالقرآن هو الذى يجيد تلاوته وفق أحكام التجويد المعروفة ، ويحسن ترتيله ، ويحسن صوته بتلاوته ، ويكون له قدرة على حفظه وتدبره وفهمه .

لهذا كان مع السفرة الكرام البررة ، وهم الملائكة الذين ينزلون بالقرآن أخذاً من قوله تعالى :

﴿ كلا إنها تَذْكِرة فمن شاء ذكره فى صحف مكرمة مرفوعةٍ مطهرةٍ بأيدى سفرة كرام بررةٍ ﴾ [1] .

فهو يتلوه كما يتلونه فكان جديراً أن يلحق بهم فى الوصف بالكرم والبر فالمعية هنا تعنى أنهم مرفعون فى الدرجة عند الله إلى مصاف هؤلاء السفرة .

والسفرة : جمع سافر ، ككاتب وكتبة ، وسموا بذلك لإشراقهم . فهو وصف مأخوذ من السَّفْر ، وهو النور وقوة الظهور .

ومنه قولهم : سفر الصبح وأسفر يعنى : ظهر ووضح . قال تعالى : ﴿ والصبح إذا أسفر ﴾ [2] .

وقال تعالى : ﴿ وجوه يومئذ مُسْفرة ﴾ [3] أى مستنيرة مشرقة .

وقيل : السفرة هم الكتبة الذين يحصون على الإنسان ما فعله من خير وشر .

أخذاً من قوله تعالى : ﴿ وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون ﴾ [4] .

ولاحظ ما جاء بعد هذه الآيات : ﴿ إن الأبرار لفى نعيم ﴾ [5] تعرف أن المهرة بالقرآن من الأبرار ، وما داموا كذلك فهم مع الكرام البررة .

وأما المتتعتع بالقرآن فهو الذى يجد صعوبة فى قراءته إما لثقل فى لسانه ، أو انقباض فى قلبه ، أو لأنه لم يكثر من تلاوته فيجد ثقلاً عند القراءة بسبب هذا الهجران ، أو لكثرة معاصيه ، أو لكثرة اشتغاله بطلب الدنيا ، ونحو ذلك من الأسباب .

وليس هو بأفضل من الماهر بأن له أجرين ، فإن الماهر له أجور وأجور لا يعلمها إلا الله ، ويكفى أنه ينتظم فى سلك الكرام البررة ، فيكون معهم يوم القيامة يشهدون له ويشفعهم الله فيه .

---

(١) عبس ١١ – ١٥ . (٢) المدثر : ٣٤ . (٣) عبس : ٣٨ .
(٤) الانفطار : ١٠ – ١٢ . (٥) الانفطار : ١٣ .

ولكل منزلة عند الله هو بالغها إن شاء الله ﴿ وكلاً وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير ﴾ [١] .

وخير الناس من اشتغل بالقرآن معلماً أو متعلماً ، فمن كان معلماً فله أجر مضاعف بقدر جهده وإخلاصه لله – عز وجل – فى التعليم .

ومن كان متعلماً فله أجره بقدر جهده فى التحصيل والتعلم .

يقول الله – عز وجل – : ﴿ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يُظلمون﴾ [٢] .

روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن عثمان بن عفان – رضى الله عنه – قال : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » .

وروى الترمذى فى سننه عن عبد الله بن عمرو – رضى الله عنهما – أن رسول الله – ﷺ – قال : « يقال لصاحب القرآن اقرأ وارق ، ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا ، فإن منزلك عن آخر آية تقرؤها » .

وروى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – قال : « لا حسد إلا فى اثنتين رجل علّمه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار ، فسمعه جار له ، فقال : ليتنى أوتيت مثل ما أوتى فلان فعملت مثل ما يعمل ، ورجل آتاه الله مالاً فهو يهلكه فى الحق ، فقال رجل : ليتنى أوتيت مثل ما أوتى فلان فعملت مثل ما يعمل » .

والحسد معناه فى الحديث : الغبطة ، وهى : تمنى مثل ما للغير . فهو تعبير مجازى .

أما الحسد على الحقيقة فهو تمنى زوال نعمة الغير ، وهو غير مقصود هنا قطعاً .

نسأل الله أن يوفقنا لتلاوة القرآن وحفظه وحسن تدبره والعمل به .

* * *

---

(١) الحديد : ١٠ . (٢) الأحقاف : ١٩ .

قال أبو ذر – رضى الله عنه – : يا رسول الله زدنى .

قال : «إياك وكثرة الضحك؛ فإنه يميت القلب، ويذهب بنور الوجه» .

وكان أبو ذر يستزيد الرسول – ﷺ – فيزيده من وصاياه الحكيمة ما شاء الله أن يزيده ، فقال له : «إياك والضحك » أى احذر كثرته ، فإن كثرته تميت القلب ، أى تحول بينه وبين الخشوع عند سماع الذكر ، والسكينة عند نزول البلاء ، والطمأنينة عند اشتداد الخطر ، وتضعف من قواه الإيمانية حتى يصير خُلْواً من الإيمان ، والعياذ بالله .

وبذهاب الإيمان يذهب نور الوجه وبهاؤه ؛ لأن الوجه إنما يستنير بنور الإيمان المنعكس من القلب فيكون وجيهاً بوجاهته ، ومظلماً بظلمته .

وما سمى الوجه وجهاً إلا لأنه يعبر عن القلب ، ويكون منه بمنزلة المرآة التى تعكس ما يقابلها .

والضحك مثله كمثل الدواء إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده .

فقد كان النبى – ﷺ – يضحك ، وكان ضحكه تبسماً .

وكان يمزح ولا يقول إلا حقاً .

وكان أصحابه يمزحون أمامه فلا يعيب عليهم إذا كان المزاح قليلاً ، ولم يكن فيه تجريحٌ لأحد ، ولم يكن بالقبيح من القول .

وهذا معروف من سيرته العطرة . وسوف يكون لنا معها وقفة فى موضع آخر إن شاء الله .

* * *

ثم قال أبو ذر – رضى الله عنه – : زدنى .

قال : «عليك بالجهاد فإنه رهبانية أمتى » .

أي الزمه واجعله شغلك الشاغل ، وعملك الدَّءوب ، وفرغ نفسك له إن استعطت إلى ذلك سبيلاً ؛ فإن الجهاد رهبانية هذه الأمة ، أى عبادتها . فالرهبنة نوع من العبادة يسمى جهاد النفس ، يقابله جهاد العدو .

والمراد بالجهاد في الحديث النوعان معاً ؛ إذ لا يستطيع المسلم أن يجاهد عدوه إلا إذا جاهد نفسه وزجرها عن المحارم ، وحملها على الطاعات.

والجهاد في سبيل الله بنوعيه قمة العمل الصالح ، فمن نظر في كتاب الله – عز وجل – وسنة نبيه – ﷺ – عرف أن للمجاهد في سبيل الله ثواباً لا يعدله ثواب من صلى وصام ولم يشترك معه في الجهاد وهو قادر عليه .

قال تعالى – في سورة النساء – : ﴿لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً درجاتٍ منه ومغفرةً ورحمةً وكان الله غفوراً رحيم ﴾ (١) .

وقال – جل وعلا – في سورة الحديد : ﴿ لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعدُ وقاتلوا وكلاً وعد الله الحسنى والله بما تعلمون خبير ﴾ (٢) .

وقد أكد الله هذا الوعد الكريم بقوله – جل وعلا – في سورة التوبة : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يُقاتلون في سبيل الله فيَقْتُلون ويُقْتَلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾ (٣) .

ويقول الله – جل شأنه – في سورة الصف : ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تُنْجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكُم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون يغفرْ لكم ذنوبَكُمْ ويدخلْكم جنَاتٍ تجرى من تحتها الأنهارُ ومساكنَ طيبةً في جناتِ عدنٍ ذلك الفَوزُ العظيم وأخرى تُحبُّونَها نَصْرٌ من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين﴾ (٤) .

---

(١) ٩٥ – ٩٦ .
(٢) آية : ١٠ .
(٣) آية : ١١١ .
(٤) آيات : ١٠ – ١٣ .

وروى البخارى ومسلم عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – سئل : أى العمل أفضل ؟

قال : « إيمان بالله ورسوله » .

قيل : ثم ماذا ؟

قال : « الجهاد فى سبيل الله » .

وروى الترمذى عن معاذ بن جبل – رضى الله عنه – أن النبى – ﷺ – قال فى حديث طويل : « رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد » .

وروى البخارى عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رجلاً جاء إلى النبى – ﷺ – فقال : دلنى على عمل يَعْدِل الجِهاد .

قال : «لا أجد » ، ثم قال : «هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر وتصوم ولا تفطر » .

قال : ومن يستطيع ذلك ! .

وروى البخارى عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أيضاً . قال سمعت رسول الله – ﷺ – يقول : « مثل المجاهد فى سبيل الله – والله أعلم بمن يجاهد فى سبيله – كمثل الصائم القائم ، وتَوَكَّلَ اللهُ للمجاهد فى سبيله بأن يَتَوَفَّاه أن يدخل الجنة ، أو يرجعه سالماً مع أجر أو غنيمة » .

وروى البخارى ومسلم عن أنس بن مالك – رضى الله عنه – أن النبى – ﷺ – قال : « لغدوة أو روحة فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها».

والأحاديث فى فضل الجهاد كثيرة ، وفيما ذكرناه كفاية .

* * *

قال أبو ذر – رضى الله عنه – : زدنى .

قال : « أحِبَّ المساكين وجالسهم » .

ومعنى أحب المساكين : تَوَدَّد إليهم ، وانظر إلى محاسنهم ، وتغاض

عن مساوئهم ، فإن ذلك يمكنك من حبهم بعض الشيء ، واسأل الله - تبارك وتعالى - أن يرزقك حبهم ، فإن الحب والبغض بيد الله تعالى ليس للعبد دخل فى تحصيله .

ومجالستهم قربة إلى الله تعالى ؛ فهم أحبابه وأولياؤه إذا كانوا راضين بقضائه وقدره .

وهى دليل على التواضع ، والسماحة، والتجرد من الأثرة وحب الذات.

ولا تعنى هذه الوصية مجالستهم فحسب بل تعنى ما يترتب عليها من التعرف على أحوالهم ، وقضاء حوائجهم ، وإدخال الأنس والسرور عليهم ، ومشاركتهم آلامهم وآمالهم .

هذا هو ما يلزم من مجالستهم ، مع ما فى ذلك أيضاً من الاقتداء برسول الله - ﷺ - فقد كان يجالسهم ويَعْتَنِى بهم ، ويتبسم فى وجوههم ، ويؤنسهم بحسن حديثه، امتثالاً لقوله تبارك وتعالى - فى سورة الكهف : ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تَعْدُ عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فُرُطاً﴾ (١) .

والمسكين هو الذى لا يملك قوت يومه - على الصحيح من أقوال الفقهاء كالمالكية ومن نحا نحوهم .

بدليل قوله تعالى فى سورة البلد : ﴿ أو مسكيناً ذا متربة﴾ .

أى صاحب متربة ، وهى الفقر الشديد ، من قولهم : التصقت يده بالتراب ، أو التصق التراب بيده من شدة الفقر .

وسمى مسكيناً لسكون نفسه عن مجاراة الأغنياء واللحاق بأصحاب الأموال .

والسكون ضد الحركة ، ومن معانيه : الذلة . إلا أن الذلة نوعان :

ذلة لله، وهى إظهار الافتقار إليه دون سواه ، ويسمى صاحبها : الفقير

---

(١) آية : ٢٨ .

إلى الله – أى الذى يعلم ذلك من نفسه ، فيظهره بكل صورة من صور الخضوع والتواضع .

وذلة إلى الناس وهى الطامة الكبرى ، ولا تكون هذه الذلة إلا من الكافرين والمنافقين .

قال تعالى : ﴿ولله العزةُ ولرسوله وللمؤمنين ولكنّ المنافقين لا يعلمون﴾ [1].

* * *

ثم قال أبو ذر – رضى الله عنه – يا رسول الله : زدنى .

قال : « انظر إلى من هو تحتك ولا تنظر إلى من هو فوقك ؛ فإنه أجدر أن لا تزدرى نعمة الله عليك » .

وهذه الوصية قد تقدم ذكرها . وخلاصتها : أن نعم الله تعالى كثيرة لا تحصى ، وأن أصغر نعمة منها لا يعرف قدرها إلا المنعم – جل شأنه – .

وأن الله – عز وجل – قد قسّم بين الناس هذه المنعم بنسبة مئوية وفق عدله وحكمته .

فإن زاد فلان فى كذا ، نقص فى كذا ، وبالعكس عند غيره ، فما من مرفوع فى جهة إلا وهو مخفوض فى جهة ، وما من إنسان أعطى شيئاً إلا وحرم من شىء آخر ، ولا يوجد إنسان أعطاه الله كل شىء هو فى حاجة إليه ، فما تم شىء إلا وأخذ فى النقصان .

ما استكمل المرء من حَاجَاته طَرَفًا

إلا وأدركه النقصان من طرف

يقول الله – عز وجل – : ﴿نحن قَسَمْنا بينهم مَعيشَتَهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بَعْضَهُم فَوْقَ بعضٍ درجاتٍ ليتخذَ بعضُهم بعضاً سُخرِيًّا ورحمةُ ربِّكَ خيرٌ مما يجمعون﴾ [2] .

والقسمة تقتضى العدل – كما هو معروف – والمعيشة كلمة جامعة لكل ما يؤتاه المرء من النعم فى هذه الحياة الدنيا حتى ما تميز به من عقل لبيب ، وذكاء نادر وقول سديد .

(١) المنافقون : ٨ . (٢) الزخرف : ٣٢ .

وقد قالوا : « ذكاء المرء محسوب عليه » أى هو داخل فى القسمة .

ولفظ البعض فى الآية مُبْهَمٌ ، فالجميع مرفوع فى جهة ومخفوض فى جهة – كما أشرنا – لكى يستخدم كل منهم صاحبه فيما تخصص فيه .

والمؤمن لا يحتقر نعمة الله عليه مهما كانت صغيرة ، لإنه لا ينظر إلى النعمة فى ذاتها ، ولكنه ينظر إلى المنعم – عز شأنه – .

ولو نظر إليها لا ينظر إليها بعين مجردة ، ولكن ينظر إليها بقلبه الحى وضميره اليقظ ، فيستعظمها بعد أن تلوح له آثارها البعيدة التى لا يعلمها إلا أولو الألباب .

والمؤمن لا ينظر إلى من فوقه فى الغنى والجاه والمنصب ولكن ينظر إلى من دونه فى ذلك فيزداد شكراً لله دائماً .

أما ضعيف الإيمان أو مَن لا إيمان له فإنه يظل ينظر إلى من فوقه حتى يموت ، فلا يصبر ولا يشكر ولا يستمتع بما لديه من النعم مهما كانت عظيمة ، ويصاب قطعاً بداء الحسد ، وهو داء قتّال يفتك بصاحبه فتكاً ذريعاً سريعاً ، ويحرمه من كل متع الحياة فيعيش عيشة ضنكاً ، ويحشر يوم القيامة أعمى ؛ لأنه لم يذكر الله ، ولم يرض بقضاء الله ، ولم يصبر على بلائه ، ولم يشكره على نعمائه ، فهل بعد هذا الكفر من كفر !!

ولقد قالوا فى الحكم : لا تعاقب الحاسد فإن حسده قد عاقبه .

وقال الشاعر :

فاصبر على كيد الحسود فناره ترمى حَشّاه بالعذاب الخامدِ
تضفو على المحسود نعمةُ ربه ويذوب من كمدٍ فؤادُ الحاسدِ

وقال آخر :

اصبر على غيظ الحسو د فإن صبرك قاتله
كالنار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله

وقانا الله وإياكم شر الحسد والحاسدين .

* * *

قال أبو ذر – رضى الله عنه – قلت : يا رسول الله زدنى .

قال : « قل الحق ولو كان مُرًّا » .

وهذه وصية لا يقوى على تنفيذها إلاّ الأشداء من المؤمنين .

والأشداء هم الذين حملوا أرواحهم على أكفهم ، وباعوا أنفسهم لخالقهم ، واستعذبوا الموت فى نصرة الحق ودعوة الناس إلى اتّباعه وإقامته على النحو الذى يحبه الرب ويرضاه .

هم الذين قال الله فيهم : ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتدَّ منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلةٍ على المؤمنين أعزةٍ على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم﴾ (١) .

وخير الناس فى ذلك وأحقهم بهذه الأوصاف العليّة هم أصحاب رسول الله – ﷺ – ، فهم الذين قال الله فيهم : ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ﴾ (٢) .

وهذه الوصية ترجمة لقوله تعالى فى سورة النساء : ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدَين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ (٣) .

وقوله جل وعلا : ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يَجْرِمَنَّكم شنآنُ قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾ (٤) .

وقول الحقّ إنما يكون فى المواطن التى لا تؤدى إلى التهلكة ، فلا يقالُ الحق للعدو ، بل يقال ما فيه خذلان له وإفساد لخططه وتضليل لسعيه ؛ لأن الحرب خدعة ، كما جاء فى الحديث الصحيح .

---

(١) المائدة : ٥٤ . (٢) الفتح : ٢٩ . (٣) النساء : ١٣٥ . (٤) المائدة : ٨ .

ولا يقال الحق لظالم إذا كان فى قوله هلاك لبرىء ، ولكن يقال قولاً فيه نصرٌ له وتبرئة لساحته بأسلوب حكيم لا يظهر فيه الكذب الصريح ، وهو ما يسمى بالتعريض ، ولا يقرّ على نفسه بشىء فيه هلاكه أو هلاك ماله بغير حق .

بخلاف ما لو كان يستحق أن يقتص منه ، فإنه عندئذ يكون الإقرار برهاناً على صحة الإيمان وصدق اليقين .

وهذا ما يعنيه ربنا جل شأنه بقوله : ﴿ولو على أنفسكم﴾.

والشهادة تُؤَدَّى على وجهها من غير تحريف ولا أدنى تزييف إن كان فيها إحقاق حق وإبطال باطل .

أما إن كان يترتب عليها ظلم بيِّن للأبرياء فإنها لا تُؤَدَّى أصلاً ، فلا ينبغى أن تشهد على قضية فيها جَوْر فتكون من الظالمين .

والصدق فى الأقوال والأفعال أمر لابد منه ، ولكن للضرورة أحكام .

قال جماعة من الفقهاء : يباح الكذب فى أمور ثلاثة ورد بها نص صريح عن المعصوم – ﷺ – .

أولّها : الصلح بين المتخاصمين ، مثل أن يلقى كلاً منهما ، فيقول له: إن صاحبك الذى خاصمته كان يثنى عليك بالأمس ويظهر لك الود والمحبة والإخلاص . وما أشبه ذلك من الكلام الذى يصدر عفو الخاطر فيطيب الخاطر ويذهب الغيظ ويمهد للعفو والمصالحة .

ثانيها : الحرب ، من أجل الخدعة والمكيدة ،كأن يقول لمن يعلم أنه ينقل الأخبار للعد: غداً يأتينا مدد كثير، وغداً نفعل كذا وكذا مما يُدخل الرعب فى قلوب الأعداء ويثبط هممهم ويضعف من عزائمهم « والحرب خدعة » .

ثالثها : الكذب على الزوجة ليرضيها، كأن يعدها وعداً حسناً بتحقيق بعض مطالبها، أو يذكر لها أنه يحبها وأنه معجب بها، وأنها تمتاز عن غيرها بكثير من الأوصاف الحسنة، مجاملة لها دون أن يبالغ فى ذلك حتى لا تغتر بنفسها فيكون قد دفع مفسدة بمفسدة أخرى ربما تكون أشد منها .

ولكل حال مقال يليق به ، والدليل على ذلك ما رواه مسلم فى

صحيحه عن أم كلثوم – رضى الله عنها – أنها سمعت رسول الله – ﷺ – وهو يقول : « ليس الكذب الذى يصلح بين الناس ويقول خيراً وينمى خيراً .

ولم أسمعه يرخص فى شىء مما يقول الناس إلا فى ثلاث : الحرب والإصلاح بين الناس ، وحديث الرجل امرأته ، وحديث المرأة زوجها » .

قال الإمام النووى فى شرح هذا الحديث : قال القاضى : (لا خلاف فى جواز الكذب فى هذه الصور ، واختلفوا فى المراد بالكذب المباح فيها ما هو؟

فقالت طائفة : هو على إطلاقه ، وأجازوا قول ما لم يكن فى هذه المواضع للمصلحة ، وقالوا : الكذب المذموم ما فيه مضرة ، واحتجوا بقول إبراهيم – ﷺ –: ﴿بل فعله كبيرهم﴾ و ﴿إنى سقيم﴾ وقوله : «إنها أختى» [1] وقول منادى يوسف – عليه السلام – : ﴿أيتها العير إنكم لسارقون﴾ .

قالوا : ولا خلاف أنه لو قصد ظالمٌ قتل رجل هو عنده مختف وجب عليه الكذب فى أنه لا يعلم أين هو .

وقال آخرون منهم الطبرى : لا يجوز الكذب فى شىء أصلاً .

وقالوا : وما جاء من الإباحة فى هذا المراد به التورية واستعمال المعاريض لا صريح الكذب ، مثل أن يعد زوجته أن يحسن إليها ويكسوها كذا وكذا ، وينوى إن قدر الله ذلك ، وحاصله أن يأتى بكلمات محتملة يفهم المخاطب منها ما يطيب قلبه .

وإذا سعى فى الإصلاح نقل عن هؤلاء إلى هؤلاء كلاماً جميلاً ، ومن هؤلاء إلى هؤلاء .

وكذا فى الحرب بأن يقول لعدوه : مات إمامكم الأعظم ، وينوى إمامهم فى الأزمان الماضية ، أو غداً يأتينا مدد – أى طعام ونحوه – هذا من المعاريض المباحة فكل هذا جائز ، وتأولوا قصة إبراهيم ويوسف وما جاء من هذا على المعاريض والله أعلم .

وأما كذبه لزوجته وكذبها له فالمراد به إظهار الود والوعد بما لا يلزم ونحو ذلك .

---

(١) أى قوله لزوجته سارة عندما خاف عليها من جبار مصر : إن سألك فقولى أنا أخته فإنه لا يأخذ الأخت من أخيها ، وإنما يأخذ الزوجة من زوجها كما قيل ، ولهذه القصة حديث رواه البخارى وغيره .

فأما المخادعة فى منع ما عليه أو عليها أو أخذ ما ليس له أو لها فهو حرام بإجماع المسلمين . والله أعلم) [1] .

أقول : إن الكذب على الزوجة من أخطر الأمور التى تهدم بيت الزوجية وتحطم كيان الأسرة ؛ لما يحدثه من زعزعة فى الثقة التى على أساسها تبنى الحياة الزوجية وتستمر طيبة صافية .

ومن هنا يجب على كل من الزوجين أن يكون صادقاً فى أقواله وأفعاله مع الآخر حفاظاً على صفاء المودة ودوام العشرة واستقرار الأمور .

وإن كان لابد من الكذب لدفع مفسدة أو جلب مصلحة عظيمة فليكن ذلك بالتعريض ، وإن لنا فى المعاريض لمندوحة عن الكذب .

قال الإمام الغزالى فى كتاب الإحياء [2] :فهذه الثلاث (يعنى الحرب، والصلح ، والزوجة) ورد فيها صريح الاستثناء ، وفى معناها ما عداها إذا ارتبط به مقصود صحيح له ، أو لغيره .

أما ما له فمثْلُ أن يأخذه ظالم ويسأله عن ماله ، فله أن ينكره ، أو يأخذه سلطان فيسأله عن فاحشة بينه وبين الله تعالى ارتكبها فله أن ينكر ذلك فيقول : ما زنيت وما سرقت .

عن ابن عمر – رضى الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – قال : « من ارتكب شيئاً من هذه القاذورات فليستتر بستر الله » [3] .

وذلك أن إظهار الفاحشة فاحشة أخرى ، فللرجل أن يحفظ دمه الذى يؤخذ ظلماً وعرضه بلسانه ، وإن كان كاذباً .

وأما عرض غيره فبأن يُسأل عن سر أخيه فله أن ينكره ، وأن يصلح بين اثنين ، وأن يصلح بين الضرات من نسائه ، بأن يظهر لكل واحدة أنها أحب إليه .

---

(١) شرح صحيح مسلم جـ١٦ ص ١٥٨ .

(٢) جـ٣ ص ١٢٠ .

(٣) رواه الحاكم .

وإن كانت امرأته لا تطاوعه إلا بوعد لا يقدر عليه ، فيعدها فى الحال تطييباً لقلبها ، أو يعتذر إلى إنسان وكان لا يطيب قلبه إلا بإنكار ذنب وزيادة تودد ، فلا بأس .

وقال رحمه الله : ولكن الحد فيه (أى الواجب أن يراعيه الإنسان) أن الكذب محذور .

ولو صدق فى هذه المواضع تولد منه محذور ، فينبغى أن يقابل أحدهما بالآخر ويزن بالميزان القسط ، فإذا علم أن المحذور يحصل بالصدق أشد وقعاً فى الشرع من الكذب ، فله أن يكذب . وإن كان ذلك المقصود أهون من مقصود الصدق فيجب الصدق .

وقد يتقابل الأمران بحيث يتردد فيهما .

وعند ذلك يكون الميل إلى الصدق أولى ؛ لأن الكذب يباح لضرورة أو حاجة مهمة ، فإن شك فى كون الحاجة مهمة فالأصل التحريم فيرجع إليه .

ولأجل غرض إدراك مراتب المقاصد ينبغى أن يحترز الإنسان من الكذب ما أمكنه .

وكذلك مهما [1] كانت الحاجة له فيستحب له أن يترك أغراضه ويهجر الكذب، فإذا تعلق بعِرْض غيره فلا تجوز المسامحة لحق الغير والإضرار به) ا.هـ .

وصفوة القول أن الكذب آفة الآفات وملمة الملمات ، لا ينبغى أن يلجأ إليه المؤمن إلاّ عند الضرورة القصوى ، وليحرص كل الحرص إن وقع فى مأزق أن يتخلص منه بالتعريض لا بالكذب الصريح .

والتعريض معناه : أن يقول كلمة تحتمل أكثر من معنى ، فيتوهم السامع أنه يريد كذا وهو فى الواقع يريد غيره .

فالتعريض جائز لدفع الظلم ، وحماية للنفس والعرض ، لا فى سائر الأمور.

ولا ريب أن الحكيم يستطيع فى كثير من الأحيان أن يحسن التخلص من المآزق التى يقع فيها بنفسه أو يوقعه فيها غيره .

---

(١) مهما : معناها فى أسلوب الغزالى « إذا » كما قال كثير من العلماء .

والحكمة كنز لا يفنى .

قالى تعالى : ﴿ يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وما يَذَّكَّرُ إلا أولوا الألباب ﴾ (١) (٢) .

* * *

وبعد هذه الإطناب فى شرح قوله ﷺ : « قل الحق وإن كان مرًّا » نجد أنفسنا أمام وصية أخرى هى من أجمع الوصايا فى محاسبة النفس ومعرفة عيوبها وإحصائها ، والاعتبار بما عند الغير ، والاتعاظ بكل ما يبعد عنه شبح الغرور والرياء وحب الظهور وتتبع عورات الناس ، والنظر إلى مساوئهم .

قال أبو ذر – رضى الله عنه – : قلت : يارسول الله ، زدنى .

قال : « ليردُّك عن الناس ما تعلمه من نفسك .

ولا تجد عليهم فيما تأتى .

وكفى بك عيباً أن تعرف من الناس ما تجهله من نفسك ، وتجد عليهم فيما تأتى » .

ومعنى الفقرة الأولى من هذه الوصية : انظر فى عيوب نفسك وحاسبها على أخطائها وخطاياها ومزالقها وزلاتها ، فإنك لو فعلت لاشتغلت بعيوبك عن عيوب الناس ، ولم تشتغل بالنظر إلى عيوبهم ولا بِلَوْمِهم على ذنوبهم .

فمن نظر فى عيبه استعظم زلَّة نفسه . كما يقول ابن المقفع .

ومعنى الفقرة الثانية : لا تعب عليهم ولا تغضب منهم فى شىء صدر منهم وهو يصدر منك ؛ فإن ذلك عدوان منك عليهم، وغفلة منك عما فيك .

ومعنى الفقرة الثالثة : كفاك عيباً أن تعرف من الناس عيوباً هى فيك وأنت تجهلها .

فهذا أمرٌ يدعو إلى العجب والدهشة حقاً ، ويدل على عدم رجاحة العقل، وينبئ عن سوء الخلق وحب الذات ، والرغبة فى التجريح ، وإثارة البغضاء من غير داع يقتضى ذلك .

---

(١) البقرة : ٢٦٩ .   (٢) انظر كتابى عدة الخطيب والواعظ .

وأنت ترى أن هذه الفقرات الثلاثة ترمى كلها إلى شيء واحد : هو اشتغال المرء بإصلاح نفسه .

ومن البلاغة النبوية أن هذه الفقرات محبوكة حبكة فنيّة ، كل فقرة تؤكد الأخرى وتُسْلِمُكَ إليها .

فالأولى : أمر بترك التطلع إلى عيوب الناس بلطف وحنان .

يفهم هذا من لام الأمر ، فهو يدل على ذلك وزيادة .

وقوله : «ليردك» فيه إشعار بأن التطلع إلى العيوب عدوان ينبغى أن يردّه المعتدى عن نفسه .

وهذا الأسلوب أبلغ من قوله : اترك الناس وشأنهم ، أو تخلّى عن تجريحهم ونحو ذلك .

والفقرة الثانية : تنهى عما يترتب على الاشتغال بعيوب الناس ، فإن من اشتغل بعيوبهم رأى منهم ما يسوؤه ويغيظه ويغضبه ، مع أنه يأتى من الشر ما يأتونه ، وما كان أغناه عن هذا وذاك .

والنهى بعد الأمر توكيد له وإضافة عليه ؛ فإن المرء ينبغى أن يتخلى تماماً عن العدوان ، ويحذر أن يكلف نفسه جهداً فى تحرى عيوبهم ؛ فإن أقل ما فيه أنه سيخرج عليهم وفى نفسه شيء منهم ، وهو أمر يقعد المرء عن طلب المعالى ، ويعوقه عن الوصول إلى مرضاة الله – عز وجل – ، ويجلب عليه من الشر ما هو فى غنى عنه .

والفقرة الثالثة : توكيد للأولى والثانية بصورة أبلغ لا تترك فى الناس ذرة من حب التطلع إلى عورات الناس ، والنظر إلى ما يعابون به أو يعاتبون عليه .

إن هذه الوصية تدعو إلى المثالية فى أسمى صورها وأرقى معانيها ، وهى سلامة القلب تماماً من كل ما يعكر صفوه ، ويكدر جلوْة الإيمان فيه .

وهذه الوصية بفقراتها الثلاثة ترجمة لقوله تعالى فى سورة الحشر : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفسٌ ما قدمت لغدٍ واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾ [1] .

---

(١) الحشر : ١٨ .

فانظر كيف أمر بالتقوى مرتين فى الآية ، وأمر بينهما بمحاسبة النفس على ما قدمته ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون .

فالأمر الوسط ينشأ عن طلب الوقاية من عذاب الله ، والأمر الثالث توكيد للأول والثانى وغاية لهما .

وبيان ذلك بأسلوب أوضح : أن المسلم إذا طلب الوقاية من عذاب الله جَدَّ فى فعل الطاعات وترك المعاصى ، ووظف نفسه عاملاً عند خالقه ومولاه فى ليله ونهاره .

وهذا شك يدفعه إلى محاسبة نفسه على ما فرطت فيه ، وعلى ما هى مقبلة عليه ، وعلى ما اقترفته من الخطايا .

فإذا ما حاسب نفسه اكتشف مدى ما صدر منه من إفراط وتفريط ، فبادر إلى طلب الوقاية مرة أخرى من مغبة ما وقع فيه ، وتلاشى كثيراً مما ساءه من عمله .

وهكذا يظل المؤمن يتقلب بين الخوف والرجاء حتى يتمكن من كبح جماح نفسه فتخضع له وتستسلم ، وتترقى فى سلم الكمال حتى تطمئن بذكر الله ، وترضى بقضائه وقدره ، وتتفانى فى طاعته والانقياد إليه .

وعندئذ يناديها ربها إذا ما حان أجلها بقوله جل شأنه : ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى ﴾ (١) .

* * *

قال أبو ذر – رضى الله عنه – : ثم ضرب بيده على صدرى ، فقال : « يا أبا ذر ، لا عقل كالتدبير ، ولا ورع كالكف ، ولا حسب كحسن الخلق » .

وهذه الخاتمة خلاصة الخلاصة ، وصفوة الصفوة ، لم تبق شيئاً يسأل عنه سائل ، فقد جمعت خصال الخير كلها وأتَتْ على مصادره جميعاً .

(أ) فلا أدل على عقل العاقل من تدبيره للأمور ، وحسن تصرفه فيها على حسب مقتضياتها وفق مبادئ الشرع الحكيم . نعم لا عقل كالتدبير .

---

(١) الفجر : ٢٧ – ٣٠ .

والعقل ما عقل المعانى،وفقه المرامى، وأدرك الحكمة فيما يفعل وفيما يذر.

(ب) ولا ورع كالكف عن المحارم والشبهات ، بل والجائزات إن كانت تؤدى إلى المحرمات أو الشبهات .

وقد ذكر الإمام الغزالى أن درجات الورع أربعة :

. الدرجة الأولى : درجة العدول : وهم الذين يكتفون بالحلال الخالص ، ويكفون عن الحرام قليله وكثيره .

والدرجة الثانية : هى درجة الصالحين : وهم الذين يتركون المتشابهات خوفاً من الوقوع فى المحرمات .

والدرجة الثالثة : درجة المتقين : وهم الذين يتركون الجائزات إذا خافوا أن تؤدى بهم إلى الوقوع فى المحرمات أو فى الشبهات .

الدرجة الرابعة : درجة المقربين : وهم الذين يكتفون من دنياهم بما يسد الرمق ويستر العورة ، وهم الأنبياء والمرسلون والصديقون الذين صحبوهم ، وتأثروا بهم عن قرب وملازمة .

(جـ) ولا حسب يفخر المرء به - إن كان له الحق فى الفخر - أعظم من حسن الخلق .

فأكرم الناس يوم القيامة أحسنهم خلقاً ، وأحب الناس إلى الناس من خالقهم بخلق حسن ، وقد مر بك قول النبى ﷺ : «اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحُها ، وخالق الناس بخلق حسن» .

وجماع الخُلُق الحسن فى قوله تعالى : ﴿خذ العفو وأْمر بالعرف وأَعرض عن الجاهلين﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكَّرون﴾ (٢) .

اللهم اهدنا إلى أحسن الأخلاق ، وأعنَّا على ذكرك ، وشكرك ، وحسن عبادتك .

* * *

---

(١) الأعراف : ١٩٩ .　　(٢) النحل : ٩٠ .

(٦٢) السمع والطاعة
والجهاد والهجرة والجماعة

عن الحارث الأشعرى - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -:

«إن الله تبارك وتعالى أمر يحيى بن زكريّاء - عليهما السلام - بخمس كلمات أن يعمل بها ، وأن يأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بها ، وأنه كاد أن يبطئ بها ، فقال له عيسى - عليه السلام - : إن الله أمرك بخمس كلمات أن تعمل بها وتأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بها ، فإمّا أن تأمرهم بها ، وإما أن آمرهم بها ، فقال يحيى - عليه السلام - : أخشى إن سبقتنى بها أن يخسف بى أو أُعَذَّبَ ، فجمع الناس فى بيت المقدس فامتلأ المسجد بهم وقعدوا على الشُّرف ، فقال : إن الله أمرنى بخمس كلمات أن أعملِ بهنّ وأن آمركم أن تعملوا بهن ، أولاهن: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، فإن مَثَلَ من أشرك بالله كَمَثلِ رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو ورقٍ ، وقال: هذه دارى، وهذا عملى، فاعمل وأدِّ إلىّ ، فكان يعمل ويؤدى إلى غير سيده، فأيُّكم يرضى أن يكون عبده كذلك ؟ .

وإن الله تعالى أمركم بالصلاة ، فإذا صلّيتم فلا تلتفتوا ، فإن الله ينصِبُ وجهه لوجه عبده فى صلاته ما لم يلتفت .

وأمركم بالصيام ، فإن مَثَلَ ذلك كمثل رجل فى عصابة معه صُرَّةٌ فيها مسك ، وإن ريحَ فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك .

وأمركم بالصدقة ، فإن مَثَلَ ذلك كَمَثَل رجل أسره العدو فأوثقوا يَدَيْه إلى عنقه وقَدَّموه ليضربوا عنقه ، فقال : أنا أفدى نفسى منكم بالقليل والكثير ، ففدى نفسه منهم .

وآمركم أن تذكروا الله ، فإن مَثَلَ ذلك كمثل رجل خرج العدو فى أَثَرِه سِراعاً حتى أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم ، وكذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله تعالى » .

وقال ﷺ : « وأنا آمركم بخمسٍ الله تعالى أمرني بهن : السمعِ ، والطاعة ، والجهاد ، والهجرة ، والجماعة ، فإن من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلَع رِبْقَةَ الإسلام من عنقه إلاَّ أن يُراَجعَ ، ومَنْ دعَا بدعوى الجاهلية فهو في جهنم » .

فقال رجل : وإن صام وصلى يا رسول الله ؟ !

قال : « وإن صام وصلَّى ، فادعوا بدعوى الله الذى سماكم المسلمين والمؤمنين عباد الله تعالى »[1] .

* * *

كان النبى – ﷺ – يحدث أصحابه عن أخبار الأمم السابقة ، وعن أحوال الأنبياء معهم أسوة بالقرآن الكريم ، ورفعاً لما قد يكون فيه من الإجمال ، ودفعاً للإشكال الذى يَعْتَرِيهم فى أمر هذه الأمم مع أنبيائهم ، وتصحيحاً لما صرّفه اليهود فى كتبهم ، وتسلية لهم ومواساة لقلوبهم فى أوقات فراغهم من أعمالهم واستعدادهم لسماع المواعظ والعبر .

وليريهم من وراء ذلك كله أن ما جاءهم به لم يخرج عما جاء به الرسل من قبله .

وقد أخذ الله عليه العهد أن يبين للناس ما نُزّل إليهم بأقواله تارة وبأفعاله أخرى ، فكان ﷺ ذكراً ترجم الذكر بخلقه الفاضل وسلوكه النبيل ، فكان كأنه قرآن يمشى بين الناس تراه أعينهم كما تسمعه آذانهم .

وكثيراً ما كان يُحَدِّث أصحابه عن صحف إبراهيم وموسى ، كما مَرَّ بنا فى الوصية التاسعة والخمسين .

ويُحَدِّثنا – ﷺ – فى هذا الحديث عن يحيى بن زكريا ، وعيسى ابن مريم – عليهما السلام – ، ثم يضيف على ما ذكر جملة من الوصايا التى أمره الله أن يأمر بها أمَّتَه ليكون لها السبق على مَن سبق، تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿اليومَ أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نعمتى ورضيتُ لكم الإسلام ديناً﴾[2] .

* * *

---

(١) أخرجه الترمذى وصححه وأخرجه ابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما والحاكم .

(٢) المائدة : ٣ .

ويجدر بنا قبل أن نتحدث عن الكلمات الخمسة التى أمر الله يحيى – عليه السلام – أن يعمل بهن وأن يأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن – أن نذكر طرفاً من سيرته ؛ لنتعرف على مكانته بين أنبياء بنى إسرائيل – عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام – فنقول :

(أرسل الله يحيى فى حياة أبيه زكريا – عليهما السلام – وكان حكيماً أوتى الحكمة فى صباه ، ووهبه الله حناناً من لدنه ، وزاده بركة وتقى ، وجعله سيّداً على أهل زمانه ، وحصر همَّته فى طاعته ، وقصر هواه فى عبادته ، ولم يجعل له فى النسـاء رغبة مع قدرته على إتيانهن فى الحلال لو شـاء .

وقد زوده الله بالعلم فحفظ التوراة عن ظهر قلب ، وعمل بكل ما فيها على وجه التمام ؛ لذا وصفه الله بأوصاف جمعت شعب الإيمان كلِّها .

ويقال : إنه بُعث قبل الأربعين خصوصية له – عليه السلام – فقد كان – عليه السلام – بما معه من الحكمة لا يلهو كما يلهو الصبيان ، ولا يلعب كما يلعبون ، ولكنه صحب أباه فى صغره وكبره ، وحنا عليه ، وأحسن إليه ، وكان باراً به وبأمه برّاً صار مضرب الأمثال ، ولم يكن يوماً يتظاهر بما يتظاهر به أمثاله فى الحسب والنسب ، بل كان مثال التواضع الجمّ ، ولم يكن يعصى لأبويه أمراً فى ليل أو نهار ، وقد ترك الله ذكراه فى النفوس المؤمنة ، وألقى فى قلوبهم محبته بحيث يسلم عليه كل من يذكره كما يسلم على سائر الأنبياء والمرسلين .

وقد ولد عيسى ابن مريم – عليه السلام – فى عصره فباركه ودعا له ، ولمّا شبّ عيسى – عليه السلام – رافق ابن خالته يحيى وشاركه آلامه وآماله، وشد من أَزْرِهِ فى تبليغ رسالته إلى بنى إسرائيل ، وهم قوم قساة القلوب غلاظ الطباع لا يستجيبون بسهولة إلى نصح الناصحين، ولا يؤمنون لرسول إلا وهم مشركون .

وقد وجد منهم يحيى – عليه السلام – فى دعوتهم إلى الإيمان صدوداً وعنتاً وإعراضاً حتى كاد يكفّ عن تعليمهم وإرشادهم إلى ما فيه سعادتهم فى الدنيا والآخرة لولا عزمة من عزمات ربه – عز وجل) [1] .

* * *

(١) انظر كتابى قصص القرآن ص ٣٧٨ ، ٣٧٩ .

وقوله – ﷺ – في الحديث : « كاد أن يبطئ بها » ليس معناه : أنه هَمَّ بذلك ، ولكن معناه : أنه قَرُبَ من ذلك ولم يفعله ، فالفعل « كاد » ينفي المثبت ويثبت المنفي .

فإذا قلت : كادت الشمس تطلع ، فقد نفيت طلوعها .

وإذا قلت : لم تكد الشمس تطلع حتى خرجت من بيتي ، فمعناه : أنها طلعت ، فافهم ذلك وبالله توفيقك .

وعيسى – عليه السلام – لم يكن يتهدّد يحيى – عليه السلام – ، ولكن كان يعرض عليه معونته في تبليغ رسالته حبّاً له وعطفاً عليه من غير استخفاف بعزمه أو حَطٍّ من شأنه .

فقال يحيى – عليه السلام – : أخشى إن سبقتني بها أن يخسف بي أو أُعَذَّب ؛ لأنه حينئذ يكون خان الأمانة بكفّه عن التبليغ ، أو تباطؤه فيه ، وهذا مستحيل في حق الرسل ، فهم موصوفون بالصدق والأمانة ، والتبليغ والفطانة ، معصومون من الذنوب صغيرها وكبيرها .

قال النبي – ﷺ – : « فجمع الناس » أي من فوره دون إبطاء ، بدليل « الفاء » الدالة على الترتيب والتعقيب .

وكان الجمع عظيماً في بيت المقدس إلى الحد الذي لم يجد الناس فيه مكاناً إلاّ على شرفاته ، وهي : ما ارتفع عن الأرض كالنوافذ ونحوها .

وهذا يدل على مدى اهتمام يحيى – عليه السلام – بهذا الأمر العظيم، ويدل أيضاً على همّته العالية، وحِكمته البالغة ، وأسلوبه الحكيم .

فما كان بنو إسرائيل ليعبأُوا بدعوته لولا أنّه قد بذل فيها جهداً خارقاً للعادة .

فلقد دعتهم الرسل من قبله فلم يحفلوا بهم إلاّ إذا أرادوا أن يسخروا منهم ويهزأوا بهم ، فعند ذلك فقط يأتون عن بكرة أبيهم .

﴿ تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ﴾ (١) .

---

(١) الحشر : الآية ١٤ .

ولكن هل عملوا بما أمرهم به أم عصوه وأعرضوا عنه ، وانفضوا من حوله .

أقول : ليس فى الحديث تصريح بهذا ولا بذاك ، ولكن الغالب أن أكثرهم قد صَدّ عنه ، وسخر منه ، واستهزأ به ، ودبّر لقتله .

هذا حالهم مع أنبيائهم ، وقد قتلوا أباه بعد أن قتلوه ، وقتلوا كثيراً من أنبيائهم كما أخبرنا القرآن عنهم .

قال تعالى : ﴿ ضُرِبت عليهم الذلةُ أين ما ثُقِفُوا [1] إلاّ بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضُرِبت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويَقتلون الأنبياء بغير حقٍّ ذلك بما عصَوا وكانوا يعتدون ﴾ [2] .

* * *

والمراد بالكلمات التى أمر الله يحيى - عليه السلام - بهن: الوصايا الواجبة .

فالكلمة تطلق ويراد بها عدة معانٍ منها :

١ - الكلمة المركبة من حروف .

٢ - الكلام الكثير فى موضع واحد ، أو فى هدف واحد ، كالخطبة ونحوها .

يقال : فلان ألقى فى المسجد كلمة وعظ فيها الناس ، وذكَّرهم بالله .

ومنه قوله تعالى : ﴿ حتى إذا جاء أحدَهم الموتُ قال ربِّ ارجعون لعلى أعمل صالحاً فيما تركتُ كلاّ إنها كلمة هو قائلها ﴾ [3] .

فقد أطلق الكلمة وأراد بها ما قالوه ، وهو أكثر من كلمة .

٣ - وتطلق الكلمة : على القضايا والأحكام التى لا تُرَدّ .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدلَ لكلماته وهو السميع العليم ﴾ [4] .

---

(١) ثقفوا : وجدوا .
(٢) آل عمران : ١١٢ .
(٣) المؤمنون : ٩٩ - ١٠٠ .
(٤) الأنعام : ١١٥ .

٤ – وتطلق الكلمة : على العهد والأمر المهم والوصية كما هنا .

وأول هذه الكلمات فى الذكر أولهن فى الفعل ، فقد أمرهم أن يعبدوا الله وحده لا يشركون به شيئاً على الإطلاق .

وضرب لهم مثلاً يبرز لهم المعنى فى صورة محسّة ؛ ليزدادوا فهماً لهذه الكلمة التى قامت بها السماوات والأرض ، فهم قوم لا يفقهون كثيراً مما يلقى عليهم إلا بعد جهد جهيد فى التوضيح والتمثيل والإطناب .

فقال لهم : إن مَثَلَ من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو وَرِقٍ – بكسر الراء : أى فضة – ، وقال : هذه دارى ، وهذا عملى ، أى هذا ما أُرِيدُ منك أن تعمله ، فاعمل وأدِّ إلىّ ، أى : ادفع إلىَّ ما تربحه ، فكان يعمل ويؤدى إلى غير سيده ، فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك؟

والجواب معروف ، فمادام الله – عز وجل – قد خلق الخلق بقدرته من العدم،وربّاهم على موائد العز والكرم، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، وعرَّفهم بنفسه فعرفوه، وحدَّد لهم وظائفهم فعرفوها بواسطة الرسل، وهى المتمثلة فى إفراده بالعبادة، فهل يرضى جل جلاله أن يشركوا معه غيره فى العبادة .

وهذا المثل يشبه إلى حدٍّ ما ما جاء به القرآن الكريم بأسلوبه المعجز فى سورة الزمر .

قال تعالى : ﴿ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاءُ متشاكسون ورجلاً سَلَماً لرجلٍ هل يستويان مثلاً الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾ [١] .

فهو مثل ضربه الله – عز وجل – لبيان حقِّه على عبادهِ فى إفرادهِ بالعبادة على وجه الإخلاص التام .

(فالذى يعبد آلهةً شتى ، هو صورة من هذا الرجل الذى تملكه تلك الأيدى الكثيرة المتشاكسة ، إنه يقطع أنفاسه لاهثاً وراء إله يريد أن يكسب رضاه بالملق والرياء والدس على الآلهة الآخرين .

---

(١) آية ٢٩ .

وأما الذى يعبد إلهاً واحداً ، وهو الله رب العالمين ، فهو صورة لهذا الرجل الذى هو سلمٌ لرجل ، أى خالص له لا يدين بالولاء لغيره ، إنه إذاً يعبد الله وحده فهو على حال من الأمن والطمأنينة مادام مطيعاً له مخلصاً فى عبادته .

ولما كان هذا المثل واضحاً غاية الوضوح كان الجواب على السؤال فيه متوقعاً ، فصاغه الله فى أحسن أسلوب وأعظم مقال فقال جل شأنه : ﴿ الحمد لله ﴾ [١] .

* * *

وثانى الكلمات فى الذكر ثانيتهن فى الفعل ، وهى الصلاة .

فالصلاة عماد الدين ، وركنه الركين ، وهي البرهان الصادق على صحة الإيمان ، حتى أن الله – عز وجل – قد سماها إيماناً ، وذلك فى آية القبلة ، فقال تعالى : ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ [٢] ، أى صلاتكم .

ولكن الصلاة التى تكون كذلك هى التى يؤديها المسلم بخشوع وخضوع وتمسكن وتواضع ، لا يلتفت فيها بقلبه ولا بقالبه .

قال يحيى – عليه السلام – كما حكى الرسول – ﷺ – عنه : « وإن الله تعالى أمركم بالصلاة ، فإذا صليتم فلا تلتفوا ، فإن الله ينصِبُ وجهه لوجه عبده فى صلاته ما لم يلتفت » .

ونَصْبُ الوجه فى حق الله تعالى كناية عن العناية به وقبول صلاته وزيادة أجره ، ونحو ذلك من المعانى التى لا يأباها المقام .

ذكر ابن القيم فى كتابه الوابل الصيب : (أن الالتفات المنهى عنه فى الصلاة قسمان :

أحدهما : التفات القلب عن الله – عز وجل – إلى غير الله تعالى .

والثانى : التفات البصر .

ولا يزال الله مقبلاً على عبده مادام العبد مقبلاً على صلاته ، فإذا التفت بقلبه أو بصره أعرض الله تعالى عنه .

---

(١) انظر كتابى الأمثال القرآنية ص ٢٣٧ ، ٢٣٨ .

(٢) البقرة : الآية ١٤٣ .

وقد سئل رسول الله – ﷺ – عن التفات الرجل فى صلاته فقال : « اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد » [1] .

ومثل من يلتفت فى صلاته ببصره أو بقلبه مثل رجل قد استدعاه السلطان فأوقفه بين يديه وأقبل يناديه ويخاطبه ، وهو فى خلال ذلك يلتفت عن السلطان يميناً وشمالاً وقد انصرف قلبه عن السلطان فلا يفهم ما يخاطبه به ؛ لأن قلبه ليس حاضراً معه ، فما ظن هذا الرجل أن يفعل به السلطان !!

أفليس أقل المراتب فى حقه أن ينصرف من بين يديه ممقوتاً مبعداً قد سقط من عينيه .

فهذا المصلى لا يستوى والحاضر القلب المقبل على الله تعالى فى صلاته الذى قد أشعر قلبه عظمة من هو واقف بين يديه ، فامتلأ قلبه من هيبته ، وذلت عنقه له ، واستحيا من ربه تعالى أن يقبل على غيره أو يلتفت عنه .

وبين صلاتيهما كما قال حسان بن عطية : إن الرجلين ليكونان فى الصلاة الواحدة وإن ما بينهما فى الفضل كما بين السماء والأرض ، وذلك أن أحدهما مقبل بقلبه على الله – عز وجل – والآخر ساه غافل .

فإذا أقبل العبد على مخلوق مثله وبينه وبينه حجاب لم يكن إقبالاً ولا تقريباً ، فما الظن بالخالق عز وجل !!

وإذا أقبل على الخالق – عز وجل – وبينه وبينه حجاب الشهوات والوسواس، والنفس مشغوفة بها ملأى منها ، فكيف يكون ذلك إقبالاً وقد ألهته الوساوس والأفكار ، وذهبت به كل مذهب .

والعبد إذا قام فى الصلاة غار الشيطان منه ، فإنه قد قام فى أعظم مقام وأقربه وأغيظه للشيطان وأشده عليه ، فهو يحرص ويجتهد كل الاجتهاد أن لا يقيمه فيه ، بل لا يزال به يَعِدُه ويُمَنِّيه وينسيه ويجلب عليه بخيله ورَجْلِه حتى يهون عليه شأن الصلاة فيتهاون بها فيتركها .

---

(١) رواه البخارى وأحمد وأبو داود والنسائى ، وغيرهم .

فإن عجز عن ذلك منه وعصاه العبد وقام فى ذلك المقام أقبل عدو الله تعالى حتى يخطر بينه وبين نفسه ، ويحول بينه وبين قلبه ، فيذكره فى الصلاة ما لم يكن يذكر قبل دخوله فيها) ا.هـ[1] .

وإن الصلاة تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر ، وتكفر الذنوب أولاً بأول إذا ما أدّاها العبد بخشوع وخضوع ، ووقف بين يدى ربه بقلبه وقالبه .

وعلامة صحتها وقبولها أن ينصرف المصلى منها وقد وجد خفة من نفسه ، وأحس بأثقال قد وضعت عنه ، ووجد نشاطاً وراحة وروحاً ، حتى يتمنى أنه لم يكن خرج منها ؛ لأنها قرة عينيه ونعيم روحه ، وجنة قلبه ومستراحه فى الدنيا ، فلا يزال كأنه فى سجن وضيق حتى يدخل فيها فيستريح بها لا منها .

فالمحبون يقولون : نصلى فنستريح بصلاتنا ، كما قال إمامهم وقدوتهم ونبيهم – ﷺ – : « يا بلال أرحنا بالصلاة » [2] . ولم يقل أرحنا منها .

وقال – ﷺ – : « جُعلت قرة عينى فى الصلاة » [3] .

أما الذين يقولون : أرحنا منها ، فهؤلاء عنها بمعزل ، فهم يصلون ولا يصلون ؛ لأنهم يؤدّونها وهم عنها غافلون ، وبغيرها مشغولون ، أجسامهم ترتفع وتنخفض ، وقلوبهم مشتّتة فى هموم الدنيا ، ونزوات الهوى ، حتى أن أحدهم لا يدرى أي سورة قرأها فى الركعة الأولى وأى سورة قرأها فى الركعة الثانية ، وربما يزيد فيها وينقص منها وهو لا يدرى .

وهذه الصلاة لا تنهى أبداً عن الفحشاء والمنكر ، ولا ترتفع فوق رأس صاحبها شبراً ، ولا يقال لصاحبها إنه قد صَلّى .

والكلام فى الصلاة يطول ، وما ذكرناه فيه كفاية هنا .

وسيأتى فى كل موضع تذكر فيه الصلاة ذكر ما يناسب المقام من الأحكام والآداب والفضائل .

* * *

---

(١) الوابل الصيب ص ٢٠ وما بعدها .

(٢) رواه أبو داود فى سننه ، وأحمد فى مسنده .

(٣) رواه النسائى فى سننه ، وأحمد فى مسنده .

وثالث الكلمات فى الذكر ثالثها فى الفعل ، وهى الصوم ؛ لأن الصوم عبادة بدنية كالصلاة ، يتجه العبد فيها بقلبه إلى الله إيماناً واحتساباً ، فهى برهان من براهين صحة الإيمان كالصلاة .

ولذلك جاء فى الحديث الصحيح : « كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لى وأنا أجزى به » [1] .

والصائم الحق هو الذى صامت جوارحه عن الآثام ، ولسانه عن الكذب والفحش وقول الزور ، وليس هو من كفّ عن الأكل والشرب والجماع فحسب .

وهذا هو الذى أشار إليه يحيى – عليه السلام – في المثل الذى ضربه لقومه، إذ قال : « وأمركم بالصيام ، فإن مَثَل ذلك كمثل رجل فى عصابة معه صُرَّةٌ فيها مسك . وإن ريح فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك » .

وإنما ضرب المثل للصائم بمن يحمل المسك فى صرةً وهو فى جماعة من الناس بجامع الخفاء فى كل منهما .

فبائع المسك يخفى مسكه ، ولكن ريحه يدل عليه .

والصائم يخفى صومه لأنه لا يصوم إلاّ لله ، ولكن رائحة فمه تدل عليه ، ولذلك قال : « وإن ريح فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك » .

وهو كناية عن قبول عمله والرضا به والإثابة عليه .

وقد جاء فى الحديث السابق ذكره آنفاً قوله – ﷺ – : « لخلوف فم الصائم أطيب من ريح المسك » .

فقد وافق قول النبى – ﷺ – قول يحيى – عليه السلام – وأيده ؛ لأن كلام المرسلين وحى يوحى ، أعنى يخرج من مشكاة واحدة .

وذكر ابن القيم خلافاً فى خَلُوف الصائم ، هل هو فى الدنيا أم فى الآخرة فقال : وقع بين الشيخين الفاضلين أبى محمد (عز الدين) بن عبد السلام ،

---

(١) هذا جزء من حديث رواه مسلم في صحيحه ، وأحمد والنسائى عن أبى هريرة .

وأبى عمرو ابن الصلاح – تنازع . فمال أبو محمد إلى أن تلك فى الآخرة خاصة، وصنف فيه مصنفاً .

ومال الشيخ أبو عمرو إلى أن ذلك فى الدنيا والآخرة ، وصنف فيه مصنفاً ردّ فيه على أبى محمد ... إلى آخر ما قاله » [1] .

والأصح الذى لا أرى من يخالفنى فيه أن تلك الرائحة أفضل عند الله من رائحة المسك فى الدنيا والآخرة معاً .

أما فى الدنيا فإن الله يستطيبها ويحبها لموافقة الصائم أمره ورضاه ، على حين ينفر الناس منها كما تقتضيه طباعهم .

وأما فى الآخرة فإن كل أمة تتميز عن الأخرى بعلامات ، وكل عابد يتميز عن غيره بعلامات .

فعلامة الصائم الذى يكثر من الصيام رائحة فمه ، يعرف الناس بها أنه كان من الصائمين فى الدنيا ، كالشهيد يعرف برائحة دمه .. وهلم جراً .

* * *

ورابع الكلمات التى أمر الله يحيى – عليه السلام – أن يعمل بها ، وأن يأمر قومه أن يعملوا بها هى الصدقة ، وهي عبادة مالية تلى الصلاة والصوم فى المرتبة ؛ لأنها برهان على صحة الإيمان أيضاً . كما قال عليه الصلاة والسلام فى الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه .

وسميت الصدقة صدقة لدلالتها على الصدق ، فإن المسلم يبرهن بصدقته على صدقه فى حب الله – عز وجل – .

قال تعالى : ﴿وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكينَ وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب﴾ [2] أى على حبه لله ، وعلى حب المال أيضاً ، فقد أعطى ما يحب لمن يحب من أجل من يحب .

وقال جل وعلا : ﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً﴾ [3] .

---

(١) الوابل الصيب ص ٢٩ . (٢) البقرة : ١٧٧ . (٣) الإنسان : ٨ – ٩ .

والصدقة نوعان :

صدقة مفروضة ، وصدقة تطوع .

وللصدقة تأثير عجيب فى رفع البلاء ودفع الشدة ، وكشف الكرب ، وتفريج الهم ، وفتح أبواب الرحمة ، والشفاء من الأمراض والعلل ، هذا مع مضاعفة الأجر ، وأكبر من ذلك كله رضوان الرب تبارك وتعالى .

ولهذا ضرب يحيى – عليه السلام – هذا المثل لقومه ليكونوا على بَيِّنة من منافعها العظيمة فى الدنيا والآخرة ، فيؤدونها بإخلاص لله وثقة فى فضله .

فالرجل الذى أسره العدو وقع فى بلاء عظيم ، وتعرض للنكاية في نفسه وعرضه وماله ، وحلت به قارعة يكون الموت فيها أفضل من الحياة .

وقد أوثقوا يديه إلى عنقه ، وقدموه ليضربوا عنقه ، ولاح أمام عينيه شبح الموت من قريب ، وانتظره بأنفاس مكبوتة ، فطال عليه الانتظار – وهو قصير – حتى بدا له أن الثانية تمرّ كأنها ساعة .

لكن هذا الرجل قد احتال عليهم بحيلة تنجيه من الموت بعد أن كان يفقد الأمل فى الحياة ، فقال للعدو : أنا أفدى نفسى منكم بالقليل والكثير ، فرضوا بذلك ففدى نفسه منهم ونجا من شرهم .

هكذا يكون حال المزكى والمتصدق ؛ فإنه أسير البخل والحرص والطمع والشح ، فهو عرضة للتهلكة ، فإذا أنفق من ماله شيئاً كانت نجاته من التهلكة بقدر ما أنفق .

لكن إذا بذل الكثير والكثير آتت الصدقة ثمارها ، فنما المال وعمّ الرخاء، وزالت الشدة وبرئت الأجسام من الأمراض ، ورفع البلاء عن المتصدق ، وعن أهل بيته جميعاً .

فإن لم يرفع كله منحه الله القوة على احتمال ما تبقى منه .

قال الله – عز وجل – : ﴿وأنفقوا فى سبيل الله ولا تُلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾ (١)

---

(١) البقرة : ١٩٥ .

وقال جل شأنه: ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يُخْلِفُه وهو خير الرازقين﴾[1] .

وقال عز جاهه : ﴿من ذا الذى يُقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفَه له أضعافاً كثيرة﴾ [2] .

والآيات التى تحضّ على الإنفاق وترغب فيه كثيرة ، والأحاديث فى ذلك لا تكاد تحصى . منها :

ما رواه الترمذى فى جامعه عن أنس بن مالك – رضى الله عنه – أن النبى – ﷺ – قال : « إن الصدقة تطفئ غضب الرب ، وتدفع ميتة السوء » .

وفى الصحيحين عن عدى بن حاتم أن رسول لله – ﷺ – قال : « ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان ، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر أشأم منه فلا يرى إلاّ ما قدم ، وينظر بين يديه فلا يرى إلاّ النار تلقاء وجهه ، فاتقوا النار ولو بشق ثمرة » .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة – رضى الله عنه – « أن رسول الله – ﷺ - ضرب مثل البخيل والمتصدق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد أو جنتان من حديد ، قد اضطرت أيديهما إلى ثدييهما وتراقيهما ، فجعل المتصدق كلما تصدق بصدقة انبسط منه حتى تغشى أنامله ، وتعفو أثره .

وجعل البخيل كلما هم بصدقة قلصت وأخذت كل حلقة مكانها » .

قال أبو هريرة : « فأنا رأيت رسول الله – ﷺ – يقول بأصبعيه هكذا فى جبته ، فلو رأيته يوسعها ولا تتسع » [3] .

ولما كان البخيل محبوساً عن الإحسان ممنوعاً عن البر والخير كان جزاؤه من جنس عمله ، فهو ضيق الصدر ممنوع من الانشراح ، ضيق العطن صغير النفس قليل الفرح ، كثير الهم والغم والحزن ، لا يكاد تقضى له حاجة ولا يعان على مطلوب .

فهو كرجل عليه جبة من حديد قد جمعت يداه إلى عنقه بحيث لا

---

(١) سبأ : ٣٩ . (٢) البقرة : ٢٤٥ .

(٣) أخرجه البخارى فى الجهاد ٨٩ ، ومسلم فى الزكاة ٧٦ ، وغيرهما .

يتمكن من إخراجها ولا حركتها ، وكلما أراد إخراجها أو توسيع تلك الجبة لزمت كل حلقة من حلقها موضعها .

وهكذا البخيل كلما أراد أن يتصدق منعه بخله فيبقى قلبه فى سجنه كما هو .

والمتصدق كلما تصدق بصدقة انشرح لها قلبه ، وانفسح بها صدره ، فهو بمنزلة اتساع تلك الجبة عليه .

فكلما تصدق اتسع وانفسح وانشرح ، وقوى فرحه وعظم سروره .

ولو لم يكن فى الصدقة إلا هذه الفائدة وحدها لكان العبد حقيقاً بالاستكثار منها والمبادرة إليها .

وقد قال تعالى : ﴿ ومن يُوقَ شحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ (١) .

وكان عبد الرحمن بن عوف – أو سعد بن أبى وقاص – يطوف بالبيت وليس له دأب إلا هذه الدعوة : رب قنى شح نفسى ، رب قنى شح نفسى .

فقيل له : أما تدعو بغير هذه الدعوة ؟ ، فقال : إذا وقيت شح نفسى فقد أفلحت .

* * *

الكلمة الخامسة خاتمة الكلمات ، وختامه مسك ، وهى قوله :

« وآمركم أن تذكروا الله » . يعنى فى جميع أوقاتكم بألسنتكم وقلوبكم وعقولكم .

وذكر الله – عز وجل – هو البلسم الشافى من كل داء ، به تطمئن القلوب المؤمنة .

قال الله – عز وجل – : ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ (٢) .

وبه تهدأ النفوس الثائرة ، وتسكن وتستريح ، وتبرأ من عللها وأمراضها .

وأعظم الذكر كتاب الله – عز وجل – .

---

(١) سورة التغابن : ١٦ . (٢) الرعد : ٢٨ .

قال تعالى : ﴿الله نُزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانىَ تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾ [1] .

وبذكر الله تهتدى العقول إلى وحدانيته – عز وجل – فإن الذكر نور يبدد ظلمات الكفر والجهل، فكان هو القائد الذى يقود العبد إلى صراط الله المستقيم، ويعرفه بنفسه ، ومن خلال معرفته بنفسه يعرف ربه – عز وجل – .

فالذكر باللسان والقلب والعقل يفتح للإنسان آفاقاً رحبة للتأمل والنظر فى ملكوت الله – تبارك وتعالى – .

وهو الأمر الذى يقربه من خالقه ، ويدنيه من حضرة قدسه ، ويجعله عبداً ربانياً يكون هواه تبعاً لمرضاته ، ويكون حظه فى طاعته .

وهناك فضيلة أخرى بينها يحيى – عليه السلام – بقوله : « فإن مثل ذلك مثل رجل خرج العدو فى أثره سراعاً حتى إذا أتى إلى حصن حصين فأحرز نفسه منهم، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله» .

قال ابن القيم – رحمه الله – : فلو لم يكن فى الذكر إلا هذه الخصلة الواحدة لكان حقيقاً بالعبد أن لا يفتر لسانه من ذكر الله تعالى، وأن لا يزال لهجاً بذكره ، فإنه لا يحرز نفسه من عدوه إلا بالذكر ، ولا يدخل عليه العدو إلا من باب الغفلة ، فهو يرصده فإذا غفل وثب عليه وافترسه ، وإذا ذكر الله – تعالى – انخنس عدو الله – تعالى – وتصاغر وانقمع حتى يكون كالوصع وكالذباب [2] ، ولهذا سمى « الوسواس الخناس » ؛ لأنه يوسوس فى الصدور فإذا ذكر الله – تعالى – خنس ، أى كف وانقبض .

قال ابن عباس : الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس، فإذا ذكر الله تعالى خنس .

وفى مسـند الإمام أحمـد عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله – ﷺ – «وما عمل آدمى عملاً قط أنجى له من عـذاب الله من ذكر الله – عز وجل – » [3] .

---

(١) الزمر : ٢٣ . (٢) الوصع : طائر أصغر من العصفور .

(٣) أخرجه أحمد فى المسند : ٥/ ٢٣٩ .

وقال معاذ : قال رسول الله – ﷺ – « ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها فى درجاتكم ، وخير لكم من إنفاق الذهب والفضة، ومن أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟» قالوا : بلى يا رسول الله . قال : « ذكر الله – عز وجل – » (١) .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : كان رسول الله – ﷺ – يسير فى طريق مكة فمر على جبل يقال له جمدان فقال : « سيروا ، هذا جمدان ، سبق المفردون » قيل : وما المفردون يا رسول الله ؟ ، قال « الذاكرون الله كثيراً والذاكرات » (٢) .

وفى السنن عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله – ﷺ – : « ما من قوم يقومون من مجلس لا يذكرون الله تعالى فيه إلا قاموا عن مثل جيفة حمار ، وكان عليهم حسرة » (٣) .

وفى رواية الترمذى : « ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم تِرَةً فإن شاء عذبهم ، وإن شاء غفر لهم » (٤) .

وفى صحيح مسلم عن الأغر أبى مسلم قال : أشهد على أبى هريرة وأبى سعيد أنهما شهدا على رسول الله – ﷺ – أنه قال : « لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده » (٥) .

وفى الترمذى عن عبد الله بن بشر أن رجلاً قال : يا رسول الله ، إن أبواب الخير كثيرة ولا أستطيع القيام بكلها ، فأخبرنى بما شئت أتشبث به ولا تكثر على فانسى ، وفى رواية : إن شرائع الإسلام قد كثرت على ، وأنا قد كبرت فأخبرنى بشىء أتشبث به . قال : « لا يزال لسانك رطباً بذكر الله تعالى » (٦) .

---

(١) أخرجه الترمذى : جـ ٥ / ٣٣٧٧ ، وابن ماجه والحاكم .

(٢) أخرجه مسلم فى الذكر : جـ ٤ / ح ٢٦٧٦ .

(٣) أخرجه أبو داود جـ ٤ / ح ٤٨٥٥ ، وأحمد فى المسند والحاكم فى المستدرك .

(٤) أخرجه الترمذى جـ ٥ / ٣٣٨٠ ، والتره : النقص والنقمة .

(٥) أخرجه مسلم فى الذكر جـ ٤ / ٣٩ ، ح ٢٧٠٠ .

(٦) أخرجه الترمذى جـ ٥ / ٣٣٧٥ .

وفى صحيح البخارى عن أبى موسى عن النبى - ﷺ - قال : « مثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكر ربه مثل الحى والميت » (١) .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - : « يقول الله تبارك وتعالى :

« أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه إذا ذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم ، وإن تقرب إلى شبراً تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلى ذراعاً تقربت منه باعاً ، وإذا أتانى يمشى أتيته هرولة » (٢) .

وفى الترمذى عن أنس أن رسول الله - ﷺ - قال : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا » قالوا : يا رسول الله : وما رياض الجنة ؟ قال : « حلق الذكر » (٣) .

* * *

وبعد أن قص النبى - ﷺ - على أصحابه ما أمر الله به يحيى - عليه السلام - أن يعمل به ويأمر قومه أن يعملوا به - قال : « وأنا آمركم بخمس ، الله تعالى أمرنى بهن : السمع ، والطاعة ،والجهاد ، والهجرة ، والجماعة . فإن من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو فى جهنم » .

ولنا فيما أمرنا به رسول الله - ﷺ - تأملات ؛ فإن هذه الأوامر جَدٌّ لا هزل فيها .

وهى من أمهات المبادئ التى يقوم عليها تقويم الفرد وإصلاح المجتمع .

الكلمة الأولى : (السمع) وهى كلمة جامعة لكل ما من شأنه أن نسمعه ونعيه ونفقه معناه ومرماه .

ولقد جاءت هذه الكلمة مقتضبة فى كتاب الله تعالى، فجاء بها الرسول - ﷺ - كما جاء بها القرآن ؛ لتذهب النفس فى معناها ومرماها كل مذهب يؤدى إلى العمل بما نسمع ، إذا كان صادراً عن الله - عز وجل - وعن رسوله - ﷺ - وعن أولى العلم والنهى من أصحابه الكرام البررة ، أو عن التابعين لهم بإحسان .

---

(١) أخرجه البخارى فى الدعوات جـ ١١ /٦٤٠٧ فتح .
(٢) أخرجه البخارى فى التوحيد ، ومسلم فى الذكر .
(٣) أخرجه الترمذى جـ ٥ /٣٥٠٩ ، ٣٥١٠ .

قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين ءامنوا لا تقولوا راعِنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم ﴾ (١) .

وقد نزلت هذه الآية تبصر المؤمنين بمكر اليهود وخبثهم ، وتحذرهم من تقليدهم فى قولهم لرسول الله - ﷺ - : راعنا ، فهى كلمة كانوا يلوون بها ألسنتهم، وفى تحريفها سب لرسول الله - ﷺ -، تعنى الرعونة ولا تعنى المراعاة.

وكان المؤمنون بسلامة نية يقولون : يا رسول الله ، راعنا ، أى : انظر إلينا ، أو انتظرنا .

فلما تكرر من اليهود ذلك وحاكاهم بعض المؤمنين فيه ، أمرهم الله أن يقولوا بدلاً من هذه الكلمة كلمة صريحة لا تقبل اللىّ والتحريف .

وأمرهم أن يسمعوا لما يجرى على لسان النبى من قرآن وسنة ، حتى يتثنى لهم أن يفقهوا ما يقول ويعملوا به على قدر طاقتهم البشرية .

وقد بّين الله خبث اليهود ومكرهم برسوله - عليه الصلاة والسلام - وطعنهم فى دينه بالتصريح والتلويح فى سورة النساء بشىء من التفصيل ، فقال جل شأنه : ﴿ من الذين هادوا يحرفون الكَلِمَ عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمعْ غيرَ مُسْمَعٍ وراعنا لَيًّا بألسنتهمْ وطعناً فى الدين ولو أنهم قالوا سَمعنا وأطعنا واسمع وانظُرْنا لكَانَ خيراً لهم وأقومَ ولكن لَعنهم اللهُ بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً ﴾ (٢) .

وأنت خبير بأن قول الرجل لأخيه : اسمع أو انظر من غير أن يذكر مسموعاً أو مبصراً ، يستطيع المخاطب أن يفهم المراد من خلال السياق وبواسطة القرائن ، ويعرف ما وراء هذا الأمر من المقاصد .

ولا شك أن حذف المفعول به يكون أبلغ من ذكره أحياناً .

وكذلك الكلمة الثانية :وهى(الطاعة)، فإنها تعنى طاعة الله ورسوله، وطاعة أولى العلم من المؤمنين، وطاعة أولى الأمر فى غير معصية الله - عز وجل - .

والكلمة الثالثة : (الجهاد) فى سبيل الله ، وقد تقدم الكلام فيه مراراً ، فلا نطيل فى ذكر فضائله هنا ، ولكن يكفى أن نقول : الجهاد فريضة من أعظم الفرائض التى يحفظ المسلمون بها دينهم ، ويصونون بها أعراضهم وديارهم وأموالهم .

---

(١) البقرة : آية ١٠٤ .   (٢) النساء : ٤٦ .

فهو ذروة سنام الإسلام كما جاء فى الحديث الذى أخرجه الترمذى فى سننه .

وقد رتّب الله عليه الخير كلّه مع الإيمان فقال جل شأنه :

﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدُلُّكم على تجارة تُنْجيكُمْ من عذاب أليم. تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكُم وأنفسكُمْ ذلكُم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون . يغفرْ لكم ذُنوبَكُم ويُدْخلْكُمْ جنّات تجرِي منَ تحتها الأنهار ومساكن طيبةً فى جنّاتَ عدن ذلك الفوز العظيم وأخرَى تحبّونَها نصرٌ من الله وفتحٌ قريبٌ وبشّرِ المؤمنين﴾ (١) .

والكلمة الرابعة : (الهجرة) وهى : نوعان :

هجرة خاصة من مكة أو مما حولها إلى المدينة ، وهذه الهجرة لم تَعُد فرضاً ولا سنة بعد فتح مكة .

لقوله – ﷺ – : « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية » (٢) .

وهجرة عامة ، وهى نوعان – هجرة هَرَب ، وهجرة طلب .

أما هجرة الهرب فهى واجبة إن كان فى الهرب حفظ الدين أو النفس ، أو النسل أو العقل ، أو المال ؛ لأن المكلف مطالب بحفظ هذه الضروريّات الخمسة .

وأما هجرة الطلب فهى تختلف باختلاف المطلوب :

فإن كان المطلوب واجباً ، كانت واجبة .

وإن كان المطلوب مستحباً ، كانت مستحبة .

وإن كان المطلوب مباحاً ، كانت مباحة .

وإن كان مكروهاً ، كانت مكروهة .

وإن كان حراماً ، كانت حراماً .

وذلك لأن الوسائل تُعْطَى حكم الغايات ، كما قال علماء الأصول .

والهجرة تنقسم باعتبار آخر إلى نوعين :

هجرة من بلد إلى بلد ، أو منْ مكان إلى مكان .

وهجرة من المعاصى إلى الطاعات .

---

(١) سورة الصف : ١٠ – ١٣ .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى كتاب الجهاد عن ابن عباس رضى الله عنهما .

قال رسول الله – ﷺ – : « المسلم من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه » [1] .

يَعْنِى أن المهاجر الحقّ هو مَنْ هَجَر المعاصى ولزم الطاعات رغباً ورهباً ، عملاً بقوله تعالى :

﴿ ففروا إلى الله إنى لكم منه نذيرٌ مبينٌ ﴾ [2] .

والفرار إلى الله على ثلاث مراتب :

أولّها : الفرار من الكفر إلى الإسلام .

وثانيها : الفرار من المعاصى إلى الطاعات .

وثالثها : الفرارُ منه إليه ؛ إذ لا منجاة منه إلاّ إليه .

والكلمة الخامسة : (الجماعة) ، أى لزومها وعدم الخروج عنها مادامت تعمل بكتاب الله وسنة رسوله – ﷺ – ؛ فإن الخروج عن الجماعة مُرُوقٌ عن الدين ، وفتنة لمن خرج عنها أو لمَن تُحَدِّثُه نفسه بالخروج عنها .

ولا شك أن ذلك يَفُتُّ فى عَضُد المسلمين ، ويُمَزِّق جَمْعَهُم ، ويُذْهب ريحهم ، ويُوقِدُ نار العداوة بينهم فيقاتل بعضُهم بعضاً ، ويُشْغَلون بأنفسهم عن عدوّهم فينال منهم ما يريد من غير جهد ولا مشقة .

وهو الخطر الذى لا يُدرك مداه ولا يُعرف منتهاه .

يقول الله – عز وجل – : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تَفَرَّقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألفَّ بين قلوبِكُم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرةٍ من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴾ [3] .

ويقول – جل جلاله – : ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهبَ ريحُكم واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾ [4] .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى كتاب الإيمان عن عبد الله بن عمرو – رضى الله عنهما – .

(٢) الذاريات : ٥٠ .

(٣) سورة آل عمران : ١٠٣ .

(٤) سورة الأنفال : ٤٦ .

وقد حكم النبى – ﷺ – بحكم الله – عز وجل – على من فارق الجماعة أَدْنَى مفارقة ، بأنه قد نزع هيبة الإسلام وجلاله وحلاوته من قلبه .

وذلك لأن الشيطان ينفرد به ويستحوذ عليه ، فينسيه ذكر الله تبارك وتعالى ، ويقعده عن نصرة الإسلام ، وعن تأدية واجباته نحو الجماعة المسلمة ، ويشغله بنفسه عن إخوانه ، فتمـلكه الأثرة فلا يُحِبُّ إلا ذاته ، ولا يعمل إلاّ لمنفعته .

وهو الأمر الذى يجعله يتخلّى عن مبادئ الإسلام ، وعن أخوة الإيمان، فيفقد هُوِيَّتَه فلا يُعْرَف إن كان مسلماً أو عدواً للإسلام .

ربما تنظر إلى صلاته فيعجبك مظهره فيها ؛ إذ تراه يُحْسِنُ القراءة ويطيل الركوع والسجود ، فتحسبه على شيء من الإسلام ، وقد مَرَقَ منه كما يَمْرُق السّهم من الرمية .

وقد يعظ الناس حتى يُبْكِيَهم وهو عن النُّصْحِ بمعزل .

إنه بمفارقته الجماعة يكون معهم فى الظاهر ، وعدواً لهم من وراء حجاب .

حجبته عنهم ظُلْمَةُ قلبه وموت ضميره ، فكان أشد على المؤمنين من ألدّ أعدائهم .

نسأل الله السلامة والعافية .

* * *

ثم قال النبى – ﷺ – : « ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو فى جهنم » .

ودعوى الجاهلية عريضة لا رابط لها ولا ضابط ؛ لأنها مَبْنِيَّةٌ على الهوى الجامح والجهل المُطْبِق ، والتَّعَصُّب الجائر والتقليد الأعمى .

ومن دعاوى الجاهلية : الدعوى إلى النزعات القبلية وتحريض بعض القبائل على بعض ، وإيقاظ العصبية الحمقاء من سباتها ، وإيقاد نار الحرب بين المسلمين بقصد أو بغير قصد ، وإشعال فَتِيل الفتنة بين الجماعة المسلمة لأسباب واهية ، أو من غير أسباب تذكر .

ولقد كان النبى – ﷺ – يتوقع الشَّرَّ من بعض من كانوا يَلْتَفُّونَ حوله من المنافقين أو ضعفاء الإيمان ، فكان يحذرهم تحذيراً شديداً من مفارقة الجماعة وشقّ

عصا الطاعة عن خليفة المسلمين من بعده ، ويوصيهم بطاعة أولى الأمر ما أطاعوا الله – عز وجل – وإن كان الذى تَأَمَّر عليهم عبداً أسود اللون ، ويعتبر أى مخالفة لأمير المسلمين من غير ضرورة مُلحَّة جريمة تؤدى بصاحبها إلى فراغ قلبه من الإيمان ، وهو الأمر الذى يُؤدّى به حتماً إلى جهنم ما لم يتب من ذنبه ويعتصم بالله .

وقد قال الله – عز وجل – : ﴿ومن يعتصم بالله فقد هُدِى إلى طراطٍ مستقيم﴾ (١) .

* * *

فقال رجل : وإن صام وصلى يا رسول الله ؟ !

قال : « وإن صام وصلى ، فادعوا بدعوى الله الذى سمّاكم المسلمين والمؤمنين عباد الله تعالى » .

وذلك لأن صلاته لم تكن تُعَبِّر عن عبوديته التى ينبغى أن يشعر بها فى أعماق نفسه ، فهو يؤدى بجسده لا بقلبه ؛ إذ القلب مشغول بالفتن ملئ بالوساوس والهواجس ، والشبهات والشهوات ، والأحقاد والأطماع الشخصية .

ومِثْل هذه الصلاة لا تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر ، ولا تَزيده من الله إلاّ بُعْداً ومَقْتاً .

والصوم تابع للصلاة ، فمن لم تنفعه صلاته لا ينفعه صومه .

وقد ذكرنا فى بعض الوصايا المتقدمة ، وفى هذه الوصية ، أن الصلاة عماد الدين وركنه الركين ، وأنها برهان صحة الإيمان ، ومن أجل هذا سمّاها الله إيماناً فى آية القبلة ، فقال – جل وعلا – : ﴿وما كان الله ليضيعَ إيمانكم﴾ (٢) .

وقوله ﷺ فى ختام هذه الوصية : « فادعوا بدعوى الله ... » معناه : آمنوا بالله ، واستمروا على إيمانكم ، وادعوا الناس بدعوى الله ، وهى على الضد تماماً مما دعا به الناس فى جاهليتهم .

ودعوى الله تَتَمَثَّل فى دعوة الناس إلى الإيمان به ، وإفراده بالعبادة ، والعمل بكتابه – عز وجل – وسنة رسوله – عليه الصلاة والسلام – ، والدعوة إلى توحيد

---

(١) سورة آل عمران : ١٠١ .

(٢) سورة البقرة : ١٤٣ .

الصف وجمع الكلمة ، واحترام الأخوة الإيمانية التى ائتلفت عليها القلوب وتعامل بها الناس فيما بينهم فى أرقى العصور وأزهاها ، وهو عصر الصحابة – رضوان الله عليهم – وطَرَف من عصر التابعين .

إن الدعوة إلى الله مَبْنيَّة على البصيرة ، وهى : الحجة الظاهرة والبرهان الساطع ، والتشخيص الصادق للداء ، والوصف الملائم للدواء الناجع .

قال تعالى : ﴿ قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتَّبَعَنِى وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾ (١) .

إنها دعوة إلى الحق المجرد بالحكمة والموعظة الحسنة من غير تكلف ولا اعتساف ، ولا سبّ ولا تجريح ولا جدل عقيم .

قال تعالى: ﴿ ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾ (٢) .

وقد بين الله المجادلة بالتى هى أحسن فى مواضع كثيرة من كتابه العزيز ، فقال تعالى :

﴿ فإن حاجُّوك فقل أسلمتُ وجهىَ لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهْتَدَوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ﴾ (٣) .

وقال جل شأنه : ﴿ ولا تَسُبُّوا الذين يدعون من دون الله فيسُبُّوا الله عَدْواً بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون ﴾ (٤) .

وقد سمّانا الله المسلمين لنكون مسلمين حقّاً ، والإسلام دين السلام والحب والوئام ، والإخلاص التام لله رب العالمين .

قال تعالى : ﴿ وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم

---

(١) سورة يوسف : ١٠٨ . (٢) النحل : ١٢٥ .
(٣) آل عمران : ٢٠ . (٤) الأنعام : ١٠٨ .

فى الدين من حرج ملةَ أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس ﴾ (١) .

وقد سمانا المسلمين على لسان إبراهيم – عليه السلام – كما حكى الله عنه فى دعائه وهو يبنى البيت الحرام ، فقال :

﴿ وإذ يرفعُ إبراهيمُ القواعدَ من البيت وإسماعيلُ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمةً مسلمةً لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ﴾ (٢) .

وسمّانا المؤمنين فقال : ﴿ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتَّبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولىّ المؤمنين ﴾ (٣) .

وقد أنهى الرسول ﷺ حديثه معهم بهذا الخطاب الذى يفرح به المؤمنون ويعتزون به فقال : « عباد الله » ، بحذف حرف النداء ؛ لإشعارهم بقربه منهم وقربهم منه ، والإضافة للتشريف والتكريم والتعظيم ؛ فالجميع عباد الله ولكن إضافة العباد إليه نوعان :

الأول : لإظهار العبودية .

والثانى : لإظهار العبادة .

ولفظ العبيد يطلق على جميع الخلق ، كما فى قوله تعالى :

﴿ وما أنا بظلام للعبيد ﴾ (٤) ، فهو مشتق من العبودية ودال عليها .

ولفظ العباد مشتق من العبادة ودال عليها ، وهو وصف يغلب إطلاقه على المؤمنين المخلصين ، والذين أسرفوا على أنفسهم منهم أيضاً ؛ لقربهم من التوبة وقبولها منهم .

والرسول – ﷺ – يخاطب أصحابه ؛ لأنهم عبيدٌ عُبَّادٌ ينتفعون بالذكرى ، وتؤثر فيهم الموعظة ، فالخطاب لهم على وجه الخصوص ولسائر الخلق بوجه عام ، فمن سمع وأطاع فهو فى مقام التشريف والتعظيم ، يفرح بإطلاق هذا الوصف عليه ويفخر به ولا يَرَى وصفاً أعظم منه .

---

(١) الحج : ٧٨ .
(٢) سورة البقرة : ١٢٧ ، ١٢٨ .
(٣) سورة آل عمران : ٦٨ .
(٤) ق : ٢٩ .

قال قائلهم :

لقــد زادنى فرحاً وتِيهـاً [١] وكدت بأخْمصِى [٢] أطأُ الثريا

دخولى تحت قولك يا عبادى وأن صَيَّرْتَ أحمــدَ لى نَبِيّـــا

نسأل الله العلىّ القدير أن يجعلنا من عباده الصالحين ، إنه نِعْمَ المولى ونعم النصير .

* * *

---

(١) التيه : الفخر .

(٢) الأخمص : باطن القدم الذى لا يصيب الأرض .

(٦٣) الصوم جُنَّة

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - قال الله عز وجل :

«كُلُّ عَمَلِ ابنِ آدم له إلاّ الصيامَ فإنه لى وأنا أجزى به .

والصيامُ جُنَّةٌ ، فإذا كان يومُ صومِ أحدِكم فلا يرفثْ يومئذٍ ولا يسخب ، فإن سابَّه أحد أو قاتله فليقل : إنى امرؤ صائم ، والذى نفس محمد بيده لَخُلُوفُ فم الصائم أطيبُ عند الله يوم القيامة من ريح المسك .

وللصائم فرحتان يفرحهما :

إذا أفطر فرح بفطره .

وإذا لقى ربه فرح بصومه» (١) .

* * *

هذا حديث قدسى شريف ، رواه النبى - ﷺ - عن ربه عز وجل .

والحديث القدسى له جلاله وجماله ؛ فهو فوق الحديث النبوى بدرجة .

وهذه الدرجة تتجلى فى المهابة التى يجدها المؤمن فى قلبه عندما يعلم أن النبى - ﷺ - قد أسنده إلى ربه تبارك وتعالى ؛ فبهذا الإسناد المستنير يتأكد القول ويزداد بهاء ونوراً ، ويسيطر على المشاعر ويأخذ بتلابيب القلوب .

وقد اختلف العلماء فى تعريف الحديث القدسى ، فتمخض خلافهم عن قولين :

الأول : أن الحديث القدسى ما نزل لفظه ومعناه من عند الله تعالى ، فرواه النبى - ﷺ - كما أنزل .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه ،كتاب الصيام باب فضل الصيام . حديث (١٦٣) .

وبهذا يبدو لغير المتأمل أنه لا فرق بينه وبين القرآن ، وليس الأمر كذلك .

بل هناك فروق كثيرة . نذكر منها سبعة :

١ - القرآن معجزة خالدة تحدى الله بها الإنس والجن عبر الزمان والمكان، والحديث القدسى ليس كذلك .

٢ - القرآن الكريم متعبد بتلاوته فى الصلاة وغيرها ، والحديث القدسى ليس كذلك .

٣ - القرآن متواتر ، نقله الجمع الغفير ممن بلغ الغاية فى العدالة والضبط عن مثلهم إلى النبى - ﷺ - والحديث القدسى منه الصحيح ومنه الحسن ومنه الضعيف .

٤ - لا تجوز رواية القرآن بالمعنى ، بخلاف الحديث القدسي ، فإنه يجوز أن يروى بمعناه ، بشرط أن يكون الراوى محيطاً بالمعانى ، فقيهاً بمبانى الألفاظ واشتقاقها .

٥ - لا يجوز للجنب قراءة القرآن ولا مس المصحف ، ويجوز له قراءة الحديث القدسى ومس الكتاب الذى يحتويه .

٦ - قد تكفل الله عز وجل بحفظ القرآن ، فقال : ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ فلا يضيع حرف من حروفه ولا يتبدل بغيره مادامت السماوات والأرض ، بخلاف الحديث القدسى ؛ فإنه قد يبدل لفظ من ألفاظه أو ينسى بعضه بمرور الزمان وذهاب الحافظين .

٧ - من أنكر لفظاً من ألفاظ القرآن الكريم كفر ؛ لأنه متواتر كله ، بخلاف الحديث القدسى ؛ فإنه من أنكر شيئاً منه لم يعلم من الدين بالضرورة لم يكفر.

هذا هو الفرق بين القرآن والحديث القدسى على التعريف الأول .

أما القول الثانى فى تعريف الحديث القدسى فهو أنه : ما نزل معناه من عند الله دون لفظه ، فلا يكون هناك ما يستدعى ذكر هذه الفروق .

(وهذا القول أولى بالقبول من سابقه ، لأنه لو كان منزلاً بلفظه لكان له من الحرمة والقدسية فى نظر الشرع ما للنظم القرآنى ؛ إذ لا وجه للتفرقة بين

لفظين منزلين من عند الله ، فكان من لوازم ذلك وجوب المحافظة على نصوصه وعدم جواز روايته بالمعنى إجماعاً ، وحرمة مس المحدث لصحيفته ، ولا قائل بذلك كله . فالقول بإنزال لفظه قول بشيء لا داعى فى النظر إليه ولا دليل فى الشرع عليه) [١] .

وهذا القول يجعلنا نسأل عن الفرق بينه وبين الحديث النبوى ، فيكون الجواب سهلاً ميسوراً ، فنقول : الفرق بينهما اصطلاحى ، بأن يكون الحديث القدسى هو ما نسبه الرسول ﷺ لله عز وجل بأن يقول : قال الله ، أو يقول الله كذا وكذا .

والحديث النبوى : هو الذى لم يصرح فيه بهذه النسبة ، ومعنى هذا وذاك من عند الله ، ولفظهما من عند رسول الله – ﷺ – .

وللحديث القدسى على الحديث النبوى درجة كما ذكرنا .

* * *

وقد ذكرنا فى حديث سابق شيئاً من فضائل الصوم [٢] ، ونذكر هنا طرفاً آخر من فضائله على ضوء هذا الحديث ، ونبين كيف عظم الله هذه العبادة ورفع من شأنها بين العبادات الأخرى ، ووعد من واظب عليها وعداً حسناً .

فنقول : إن الله عز وجل قد نسب الصوم لنفسه فقال : « كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لى وأنا أجزى به » .

وفى هذا من التعظيم والتفخيم والتكريم والبلاغة فى التعبير عن تأدية هذه المعانى ما فيه .

وإنه لينشأ من هذه العبارة سؤال لابد من الإجابة عليه .

حاصله : لماذا نسب الله الصوم له ونسب سائر الأعمال إلى ابن آدم مع أن الصوم من عمله ، وهل المراد بالعمل الحسنات والسيئات أم الحسنات فقط، وما الفائدة من نسبة الصوم إلى الله تبارك وتعالى، ولم قال: وأنا أجزى به، وهو سبحانه يجزى به وبغيره أحسن الجزاء لمن أحسن العمل؟ إلى غير ذلك مما يدور فى خاطر المسلم .

---

(١) أفاده الأستاذ / محمد عبد الله دراز فى النبأ العظيم ص ١١ .

(٢) انظر الوصية (٦١) .

والجواب عن هذا السؤال المركب من عدة خواطر يوحى بها التأمل والنظر يتلخص فيما يأتى :

١ - المراد بعمل ابن آدم فى الحديث حسناته لاستثناء الصوم منه ، فهو عمل صالح مستثنى من عمل صالح .

٢ - ومعنى كونه له : مكتوب له عند الله الحسنة بعشر أمثالها وأضعاف ذلك كثير ، كما صرح به الحديث الذى أخرجه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - « كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف . قال الله عز وجل : إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به ، يدع شهوته وطعامه من أجلى » .

٣ - وإضافة الصوم له جل شأنه : (قيل لأنه عمل لا يدخله الرياء بخلاف غيره من الأعمال ، فإذا أمسك المسلم من شهوتى البطن والفرج من الفجر الصادق إلى غروب الشمس بنية التعبد فقد صدق الله عز وجل وصدق مع نفسه، وهو يستطيع أن يأكل ويشرب ويأتى شهوته فى الخفاء - لو أراد - ويتظاهر بالصوم ، فلما لم يفعل ذلك كان صومه خالياً من الرياء فى الغالب .

وقيل : أضاف الصوم إليه سبحانه لأنه هو الذى يتولى جزاءه إذ ليس هو من الأعمال الظاهرة فتكتبه الحفظة .

وقيل : لأنه ليس للصائم فيه حظ يشتهيه ويهواه .

وقيل : لما كان الاستغناء عن الطعام من صفاته تعالى أشبهه الصائم فى هذه الصفة تعبداً وتقرباً . وإن كان الله تعالى لا شبيه له فى ذاته ولا فى صفاته .

وقيل : أضاف الصوم إليه لأنه هو المنفرد بتقدير ثوابه ، كما دل عليه قوله تعالى فى الحديث : « وأنا أجزى به » .

وقيل : وجه الإضافة أنه لم يعبد أحد غير الله تعالى بالصوم له .

٤ - وفى قوله : « وأنا أجزى به » بيان لكثرة الثواب وعظمه ؛ لأن تولى الكريم إثابته يقتضى عظمها) [1] .

---

(١) أفاده الأُبى فى شرح صحيح مسلم جـ٣ ص ٢٦٥ .

ولا يخفى ما فى هذا التعبير من صور مجازية تريك من خلالها أن الصوم من أشرف العبادات إذا كان الصائم مخلصاً فى صومه متخلياً عن كل ما نُهى عنه من الذنوب كبيرها وصغيرها .

وإذا وقع فى ذنب صغير استعظمه فى نفسه ، وتاب منه من فوره ، وأتبعه بحسنة تمحوه وتذهب أثره ، عملاً بقوله - ﷺ - : « اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن » وقد تقدم شرح هذا الحديث .

أما من صام عن شهوتى البطن والفرج ولم يصن لسانه وسائر جوارحه عن المعاصى فلا أجر له فى صومه ، ولا يتناوله هذا الوعد الوارد فى الحديث .

قال رسول الله - ﷺ - : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » (١) .

وقال رسول الله - ﷺ - : « ربّ صائم ليس له من صيامه إلا الجوع ، ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر » (٢) أى ليس له إلا العناء والتعب .

* * *

ثم قال النبى - ﷺ - : « والصيام جنة » أى : وقاية للصائم من المعاصى والأمراض النفسية والجسدية .

فالصوم يقوى إرادة الصائم ، ويضعف إرادة الشيطان ، فيكون الصائم فى مأمن من وساوسه وهواجسه ومغرياته ونزغاته ، ويجعله قادراً على كبح جماح نفسه ، والتغلب على نزواته الطائشة .

ولهذا أمر النبى - ﷺ - من لا قدرة له على الزواج أن يصوم ، فقال : «يا معشر الشباب من استطاع منك الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » (٣) أى وقاية وقطع للشهوة أو إضعاف لها .

---

(١) أخرجه البخارى . (٢) رواه ابن ماجه بإسناد صحيح .

(٣) أخرجه البخارى ومسلم .

والصوم يمكن الصائم من الصبر على المكاره ومواجهة الشدائد بصدر رحب وقلب مطمئن ، ويطهر قلبه من الآفات التى تبعث على الحقد والحسد والرياء والغرور والغضب ، ويحمله على كظم الغيظ والعفو والصفح والتسامح ، ويجعله فى مأمن مما يخافه على نفسه من دواعى غضب الله تعالى ، إذا هو صام كما ينبغى أن يكون الصيام .

* * *

ولكى يؤتى الصوم ثماره ينبغى على الصائم أن يعمل بهذه النصيحة الواردة فى ال[illegible] الثالثة من هذا الحديث ، وهى قوله – ﷺ – : « فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث يومئذ ولا يسخب » .

والرفث : هو الجماع ومقدماته ودواعيه ، كالتفكر فيه والحديث عنه ، والإتيان بما يؤدى إليه مما قد يستخف الإنسان به ، ويكون خطوة من خطوات الشيطان إليه .

فإن الشيطان لا يأمر الإنسان بالمعصية بطريق مباشر ولكنه يدعوه إليها حثيثاً ، ويقربه منها شيئاً فشيئاً ، ويرغبة فى ارتكابها بشتى الحيل ، ويسلك به المسالك الموصلة إليها ، ويستعين عليه بشياطين الإنس من الرجال والنساء . فعلى المسلم أن يقطع عليه الطريق من أوله ولا يخطو معه إلى المعاصى خطوة واحدة .

يقول الله عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تَتَّبِعُوا خُطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ﴾ (١) .

والسخب – بالسين والصاد – : هو ارتفاع الأصوات بغير داع يقتضيه .

والمؤمن يستنكف أن يرفع صوته فى الأسواق وغيرها من المحافل ، لأن قلبه مفعمٌ بالإيمان ، مطمئن بذكر الله ، تأبى عليه مروءته وسكينته ووقاره ذلك ، ولاسيما إذا كان صائماً ، فإن الصوم كما ذكرنا من قبل عبادة روحية تسمو بصاحبها عن الدنايا وسفساف الأمور ، وتنأى به عن الرذائل كلها وعما يخل بالمروءة ، ويمس الكرامة ، ويجرح المشاعر .

---

(١) سورة النور : ٢١ .

وقد نهى الله – عز وجل – عن رفع الأصوات إلى حد الصخب والضوضاء ، وشبه من يفعل ذلك بالحمير فى صوتها .

قال تعالى فى ذكر وصايا لقمان : ﴿واغضُضْ من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾ (١) .

فعلى الصائم أن يجعل من صومه وقاية لنفسه بإحسان صومه ، فلا يكتفى بترك شهوتى البطن والفرج ، بل يجب عليه أن يكف لسانه عن الغيبة والنميمة والكذب واللغو ، ويغض بصره عما حرم الله عليه ، ويمنع سائر جوارحه من ارتكاب المعاصى والمكاره ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

* * *

وقد يتعرض الصائم لما يحمله على ارتكاب الأحموقة والخروج عن حد الأدب، وهو أمر يفسد عليه صومه، فلا يثاب عليه ولا يقبل منه، فماذا يفعل ؟

يرشده النبى – ﷺ – إلى ما ينبغى فعله فى هذه الحال فيقول : « فإن سابه أحد أو قاتله فليقل : إنى امرؤ صائم » .

والمسابة : استدعاء السب والحمل عليه ، فمن سب إنساناً فقد حمله على أن يرد عليه سبته ، وبذلك يكون قد شاركه فى الوزر وسوء الصنيع .

والصائم أمام أمرين – إما أن يسبه كما سبه ويقاتله إن بدأه بالقتال . فيفسد صومه ولا يكون له منه إلا الجوع والعطش ، وإما أن يقول لنفسه يانفس : اهدئى : إنى صائم إنى صائم .

هذا هو المعنى – والله أعلم – وليس المعنى أن يقول ذلك لمن سابه أو شاتمه وإن كان ذلك محتملاً ، فمن شأن الصائم المخلص أن يخفى صومه ولا يظهره خوفاً من الرياء وطمعاً فى زيادة الأجر .

وهذا أدب نبوى رفيع يكبح به المرء جماح نفسه عند الغضب . نسأل الله أن يغرسه فى نفوسنا حتى تطهر من كل ما يسوءها فى دينها ودنياها .

ولعلك تسأل عن الفرق بين المسابة والمشاتمة فاقول : بينهما عموم وخصوص ، فكل سب شتم وليس كل شتم سباً .

قال فى اللسان : الشتم قبيح الكلام وليس فيه قذف والشتم السب .

ويعنى هذا أنهما بمعنى واحد إلا أن الشتم يخلو من القذف والسب لا يخلو منه .

* * *

---

(١) لقمان : ١٩ .

ويعظم الرسول – ﷺ – الصوم تعظيماً يدعو المسلم إلى اتخاذه وسيلة للتقرب إلى خالقه ومولاه ، فيقول :

« والذى نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله يوم القيامة من ريح المسك » .

والخلوف – بضم الخاء – رائحة الفم . وهو كناية عن قبول عمله والرضا به والإثابة عليه .

وذلك فى الدنيا والآخرة ، فهو فى الدنيا مقبول عند الله ، مرضى عنه فى الآخرة .

وقد ذكرت فى الحديث السابق ما وقع فى ذلك من الخلاف بين العلماء فى المراد منه فراجعه إن شئت .

* * *

ويختم النبى – ﷺ – حديثه بقوله : « وللصائم فرحتان يفرحهما : إذا أفطر فرح بفطره ، وإذا لقى ربه فرح بصومه » .

وفرحه بالفطر كناية عن إحساسه بنعمة التوفيق ، وشعوره بالنجاح فى التغلب على شيطانه وهواه ، وتوقعه الرضا والقبول ممن أخلص له الصوم ، وصدقه النية فى القول والعمل .

وأما الفرحة الأخرى فهى الفرحة الكبرى ، ويالها من فرحة عمل لها الأنبياء والمرسلون والأولياء الصالحون وقصروا همتهم عليها وجعلوها منتهى البغية .

﴿ والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً ﴾ [1] .

نسأل الله – عز وجل – أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته .

* * *

---

(١) لقمان : ٤٦ .

(٦٤) سَبِيلُ النَّجَاة

عن عقبة بن عامر – رضى الله عنه – قال : يا رسول الله ، ما النجاة ؟

قال رسول الله – ﷺ – : « أمسك عليك لسانك ، وليسعك بيتك ، وابكِ على خطيئتك » [1] .

* * *

كان أصحاب النبى – ﷺ – يخشون عذاب الله – تبارك وتعالى – من كثرة ما سمعوا من رسول الله – ﷺ – من المواعظ والعبَر ، حتى كان يُخَيَّل لأحدهم – من شدة الخوف – أن النار أمامه يراها بعينيه تَسْتعِر وتتلظى ، وكأنه يساق إليها بكثرة ذنوبه وتقصيره فى طاعة ربه .

لذا كان يسأل الكثير منهم عن سبل النجاة من عذاب الله – عز وجل – ، ويقول فى الدنيا قبل أن يقول فى الآخرة : أين المفر ؟ .

يقول ذلك وهو يعلم أنه لا ملجأ من الله إلا إليه، ولا منجاة من غضبه إلاّ بعفوه.

وهذا واحد منهم يسأل النبى– ﷺ– عن النجاة، بأى عمل تكون، وكيف السبيل إليها ، ومن أين تطلب ، فيجيبه النبى – ﷺ – فى أسلوب موجز بليغ عن هذا السؤال الملِحّ، ليعرف أن النجاة هى المطلب الذى ليس وراءه مطلب، وأن الحصول عليها سهل ميسور لمن استعان بالله – عز وجل –، وأنها محصورة فى ثلاثة أصول هُنّ من أمهات التقويم الخلقى والعلاج النفسى.

فيقول – ﷺ – : «أمسك عليك لسانك ، وليسعك بيتك ، وابكِ على خطيئتك » .

وسنقف عند هذا الحديث وقْفَة تأمل دون أن نبسط القول فيه ؛ لأننا قد تكلمنا عن آفات اللسان فى حديث سابق ، وتكلمنا أيضاً عن وجوب لزوم البيوت عند وقوع الفتن ، وكذلك تكلمنا عن التوبة وأركانها وشروط صحتها فى حديث آخر .

* * *

---

(١) رواه أبو داود ، والترمذى ، وابن أبى الدنيا فى العزلة وفى الصمت ، ورواه البيهقى فى كتاب الزهد وغيره .

يؤخذ من الوصية الأولى ثلاثة أمور :

أحدها : أن الأول فى الذكر هو الأول فى العمل ؛ فإن حبس اللسان عن الكذب والغيبة والنّميمة ، والقذف والسبِّ والشتم – هو أول ما ينبغي على المسلم عمله ؛ فالمسلم من سلم الناس من لسانه ويده ، كما جاء فى الحديث الصحيح .

وقد قال الله – عز وجل – : ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلحْ لكم أعمالكم ويغفرْ لكم ذنوبكم ومن يُطعْ الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً﴾ (١) .

والقول السديد ، هو القول الذى يَسُدّ فى الخير مَسَدَّه ، ويصيب موضعه ، ويؤجر عليه ، ولا يتعرض بسببه إلى مَذَمَّة ولا حرج ، ولا يجد الناس منه ما يضرهم ؛ إذ لا ضرر ولا ضرار ، كما قال الرسول – ﷺ – فى الحديث الصحيح .

الثانى : أن اللسان صغير الجِرْم كبير الجُرْم لا يكف عن الكلام إلا إذا أخذ صاحبه بعَنانه ، وجعله وراء قلبه .

وأكثر الشر يقع منه ، فَرُبّ كلمة نابية يقولها المرء من غير قصد فيقف منها بين إخوانه موقف الأسف والاعتذار ، ويقف منها بين يدى الله موقف الهوان والصَّغَار .

وهل يكبّ الناسَ على وجوههم فى جهنم إلا حصائدُ ألسنتهم !

لذا كان أول السبل المُنَجِّيَةِ من عذاب الدنيا والآخرة – هو إمساك اللسان عن الخطأ والخطيئة فى الأقوال .

الثالث : أن إمساك اللسان أمر لا يستطيعه إلاّ المؤمن ، فهو الذى يجعل لسانه دائماً وراء قلبه ، لا يتكلم الكلمة إلا إذا عقل معناها وعرف مرماها ، وأدرك أبعادها من الخير والشر .

ولهذا لم يقل الرسول – ﷺ – لعقبة بن عامر : أمسك لسانك .. بل قال: أمسك عليك لسانك .

وبين العبارتين فرق دقيق .

---

(١) الأحزاب : ٧٠ – ٧١ .

فقوله : أمسك لسانك ، يدل على سهولة حبس اللسان عن الكلام الذى يَضُرُّ ولا ينفع .

أما العبارة الأخرى فهى تفيد اللزوم والاستمرار على ذلك ، بدليل كلمة «عليك» فى الحديث ، فهى أسلوب إغراء بالفعل .

يقول النحويون : عليك اسم فعل بمعنى : الزم ، كقوله – ﷺ – : «عليكم بالصدق» أى الزموه واستمروا عليه .

وفى هذا الأسلوب الحكيم معنى آخر يلحظه الذكى الفطن – هو أن اللسان عنيد وسفيه ينفلت دائماً من صاحبه قبل أن يعزم على الكلام ، مغتنماً غضبه تارة ورضاه تارة أخرى ، فيتكلم عن صاحبه قبل أن يأمره بالكلام ، فيوقعه فى مآزق لا يمكنه التخلص منها ، وقد يودى به إلى الهلاك دون أن يدرى ، فجاء التعبير بلفظ «عليك» للتنبيه على خطره ، والتحذير من شره ، والعمل على تأديبه بحزم وعزم ورَوِيَّةٍ .

* * *

وفى الوصية الثانية يحث النبى – ﷺ – هذا الصحابى الجليل أن يتتبع أحوال نفسه مع نفسه ، وأحوال نفسه مع الناس ، فإن لم يجد نفسه قادراً على حسن معاشرتهم وملاءمتهم فى السراء والضراء ، وتقدير ظروفهم فى الشدة والرخاء ، وقبول أعذارهم فيما يقع منهم من شر يصيبه ، والتغاضى عن عيوبهم – فليلزم بيته دَرْءاً للفتنة ، ودفعاً للمفسدة ، وجلباً للمصلحة ، وإراحة لنفسه المعذبة .

وإذا كان المرء لا يسع الناس بخلقه الفاضل وسلوكه النبيل فليسعه بيته ، فالعزلة حينئذ شر لابد منه .

وذلك لأن الإنسان مدنى بالطبع ، كما يقول ابن خلدون ، لا يستطيع أن يعيش بمَعْزِلٍ عن الناس ، ولكن ماذا يفعل !

لا سبيل له من توقِّى شرهم إلا اعتزالهم .

على حد قول القائل : مُكْرَه أخاك لا بطل .

وعلى حد قول القائل أيضاً : ومن السموم الناقعات دواء .

لكن هل قول النبى – ﷺ – : « وليسَعْك بيتك » معناه : الأمر بلزوم البيت ومقاطعة الناس أجمعين، وعدم الخروج للعمل معهم، أو لزيارة مريضهم وقضاء حوائج المحتاجين منهم ، وعدم الخروج للصلاة معهم واتباع جنائزهم وغير ذلك من الأمور التى لابد له منها شرعاً وعقلاً وعرفاً ؟

الجواب : لا ، وإن كان الأمر يفيد بظاهره العموم ؛ فإن العموم مخصوص بالقرائن الشرعية .

ومن لا يعرف القرائن الشرعية يقع كثيراً فى الخطأ ، فيُفْتِى بغير علم ، ويَهْرِفُ بما لا يعرف ، ويُغَيِّرُ ويُبَدِّل فى الأحكام الشرعية بجهله ، وهو يحسب أنه يحسن صنعاً ، فيفسد بذلك دينه ودنياه ، ويُوْقِعُ الناس فى العسر والحرج ، ويُضَيِّقُ عليهم ما وَسَّعَهُ الله لهم .

وربما يؤدى به الجهل بالقرائن الشرعية واللغوية والعرفية إلى هدم الدين من أساسه ، والتَّنطُّع فى الدين يساوى التهاون فيه ، فكل منهما رذيلة ، والفضيلة وسط بين رذيلتين ، كما يقولون .

والوسطية فى الإسلام هى العدل ، واليسر ، والسماحة ، ورفع الحرج ، ودفع المشقة ، والعدالة المُطْلَقة ، والمساواة التامة فى الحقوق العامة ، كما سيأتى بيانه بالتفصيل فى حديث آخر .

فهل يليق بالمسلم أن يعتزل الناس اعتزالاً تاماً بحجة الوقاية من شرِّهم – كما يقول بعض الصوفية – بالطبع لا ؛ فالمؤمن إِلْفٌ مألوف ، ولا خير فيمن لا يَألف ولا يُؤلفُ ، كما جاء فى الحديث .

والعزلة التَّامة رهبنة يأباها الإسلام ، ويرفضها الواقع ، وتأباها طبيعة الإنسان .

وإن كان هناك رهبانية فى الإسلام فهى فى جهاد النفس وجهاد العدو.

فقد جاء فى الحديث الذى رواه ابن حبان فى صحيحه ، والحاكم : « عليك بالجهاد فإنه رهبانية أمتى » [١] .

وإذا عرفت أن قوله – ﷺ – : « وليسعك بيتك » ليس على عمومه فاعلم أن المراد منه : لزوم البيت عند وقوع الفتن ، واستبداد الهوى بالناس ، وشحُّهمْ بما عندهم من الخير المادىّ والمعنوىّ ، واعجاب كل ذى رأى برأيه ، وعدم جَدْوَى النصح والإرشاد .

وهو الوقت الذى يرى فيه المجرمون الآثمون أن التَّدَيُّنَ عائقٌ عن التقدم، ورجوع إلى الوراء ، وجهل وتَخَلُّف ، وإرهاب وسفه ، إلى آخر ما وسعهم أن يقولوه فى ذم الإسلام والمسلمين .

فعندئذ يكون حال الناس كحال قوم لوط مع آل لوط عليه السلام .

فقد قالوا ـ لعنهم الله فى الأولين والآخرين – كما حكى القرآن عنهم : ﴿ أخرجوا آلَ لوط من قريتكم إنهم أُنَاسٌ يَتَطهَّرُون ﴾ [٢] .

فعندئذ يجب العمل بهذه الوصيّة ، وبشرط ألا تكون له قوة على مواجهة الباطل والتَّكيُّف مع هذا المجتمع الضال .

وتَتَّسَع هذه الوصية لكل ما يَتَحَتَّمُ لزوم البيت فيه لضرورة مُلِحَّةٍ ، أو حاجة ماسة، كرعاية شئون أهله، والعناية بتربية أولاده، والخوف من ظالم، ونحو ذلك.

وهذه الوصية تأتى مُؤَكِّدَةً للوصية الأولى، ووسيلة من وسائل تنفيذها؛ فإن لزوم البيت يوفِّر على المسلم كلاماً كثيراً كان سيطلق لسانه به لو عاشر الناس، وغشى مجالسهم ، واختلط بهم كثيراً .

وكأن الرسول – ﷺ – يقول له : الزم بيتك حتى تتمكن من حبس لسانك عما لا ينفعك من الكلام ؛ فإن من خرج من بيته كثر لَغَطُهُ مع الناس ، ومن كثر لغطه كثر غلطه ، ومن قَلَّ كلامه حُمِدَت عاقبتُهُ .

وانظر – أيها الأخ المسلم – إلى البلاغة النبوية فى قوله: « وليسعك بيتك »

---

(١) راجع الوصية رقم (٦٠) من هذا الكتاب، وراجع ما ذكرناه فى الوصية رقم (٢٤).
(٢) العنكبوت : ٥٦ .

كما نظرت إليها فى قوله: « أمسك عليك لسانك » ، وسل نفسك لماذ لم يقل: والزم بيتك ، بدلا من أن يقول : «وليسعك بيتك» .

وأنا أجيبك إن لم يسعفك الجواب: إن قوله : « وليسعك » أبلغ بكثير من قوله : والزم . وذلك من وجوه :

الأول : التَّلَطُّف فى الوصية من حيث صرف الأمر عنه إلى البيت ؛ فإن الأمر بلزوم البيت يصعب على النفس قبوله بسهولة ؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يعيش بمفرده بعيداً عن بنى جنسه ولو كان معه أهله ، ولا غنى له عن الخروج منه إلى عمله، وإلى مسجده، وإلى نزهته ، إلى آخر ما هنالك ، فجاء هذا التعبير فى غاية اللُّطْفِ والمواساة .

الثانى : أن المسلم قد يضيق ذرعاً بالأرض الواسعة إذا كان فيها من يسىء إليه فى دينه وعرضه، فعندئذ يكون بيته أوسع من هذه الأرض – حقاً – وأفضل.

فإن لم يجد فى بيته ما يؤنسه أو ما يكفيه ، فليهاجر إلى أرض أخرى يجد فيها الأمن والسَّعة .

قال تعالى : ﴿ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مُرَاغَماً كثيراً وسَعَةً﴾ [1] ، وهو حَثٌّ على الهجرة ودعوة إليها .

والمعنى : من يخرج من أرض الفتنة والظلم والفقر مهاجراً فى طلب رزقه أو فى نصرة دينه بالجهاد ونشر العلم ونحو ذلك – يجد فى الأرض مُرَاغَماً أى مهجراً واسعاً خَصْباً ، ويحصل منه على ما يُرْغِمُ به أعداءه وحُسَّاده ، ويجد سَعَةً فى العلم والمال ، والراحة النفسية ، والمتعة الجسدية المباحة .

ولماذا لا يهاجر الإنسان من أرض البلاء والشِّدَّة وأمامه أرض واسعة فلاها .

وقد هاجر من قبله من هو خير منه ، من مكة – وهى أعز البلاد إليه – إلى المدينة ، هجرة طلب لا هجرة هرب .

وهاجر أصحابه إليها من قبله ومن بعده .

---

(١) النساء : ١٠٠ .

وكان التَّابعون يضربون فى الأرض شرقاً وغرباً معلمين ومُتَعَلِّمين يطلبون الرزق فى مواطنه ، عملاً بقوله تعالى : ﴿هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾ (١) .

ويقول الله - عز وجل - : ﴿قل يا عبادِ الذين آمنوا اتقوا ربكم لِلَّذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة وأرضُ الله واسعةَ إنما يُوفَّى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ (٢) .

وقد ختم الله هذه الآية هذا الوعد الكريم لأن المهاجر من أرضه إلى أرض أخرى يحتاج إلى الصبر الدّءوب على ترك الوطن ومفارقة الأهل ، ومعاناة الغربة وما فيها من مذلة وإيحاش ، وتعب ومشقة .

وسيأتى الكلام عن الغربة وما فيها من منافع ومضار فى حديث آخر إن شاء الله تعالى .

* * *

بقى لنا أن نتكلم عن الوصية الثالثة والأخيرة ، وهى قوله - ﷺ - : « وابْكِ على خطيئتك » فنقول :

إن البكاء على الخطيئة تعبير صادق عن الندم على اقتراف المعاصى ، والتقصير فى الطاعات .

والندم توبة كما جاء فى الحديث ، بمعنى: أنه ركن من أهم أركانها ، كقوله - ﷺ -: « الحج عرفة » ، أى الوقوف بعرفة ركن من أهم أركانه .

وقد مضى الكلام عن التوبة مستوفياً فى حديث سابق (٣) كما أشرنا فى أول هذا الحديث .

---

(١) الملك : ١٥ . (٢) الزمر : ١٠ .

(٣) راجع حديث رقم : ٥١ .

ونزيدك هنا شيئاً على ما ذكرناه هناك فنقول :

البكاء من خشية الله يُرَقِّقُ القلب ، ويُكَفْكِف من غلواء النفس ، ويطرد الشيطان ، ويكبح جماح الهوى ، ويَزِيدُ المسلمَ خشوعاً وخضوعاً ، وتمسكناً وتواضعاً لله – عز وجل – ، ويقيه من عذاب النار .

والمسلم الحق من يذكر الله خالياً حتى تقيض عيناه بالبكاء ؛ فإنه بذلك يكون من السبعة الذين يُظِلُّهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظلُّه .

فإن لم تُسْعِفْه عيناه بالبكاء تباكى ، أى : استدعى البكاء بشتى الطرق .

ومن أهم هذه الطرق :

محاسبة النفس ، وذكر الموت ، والتخلص من الطمع فى الدنيا بتَذَكُّر ذهاب أكثر العُمُر ، وبالاتّعاظ بما يراه حوله من عبر ، وبتذكُّر من مضى من الملوك والأغنياء والمتكالبين على الدنيا .

وعليه – أيضاً – بالجلوس فى حلقات العلم ؛ فإن العلم يورث الخشية .

قال تعالى : ﴿إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ﴾ (١) .

وعليه بالجلوس مع الصالحين فى الأوقات التى لا تكون فيها مجالس علم ؛ فإن الجلوس مع الصالحين يُذكِّرُ بالله ، ويقى من وساوس الشيطان ، فالشيطان كالذئب ، والذئب لا يأكل من الغنم إلاّ القاصية .

وليكثر من قراءة القرآن والاستماع إليه ؛ فإن للقرآن تأثيراً عميقاً فى النفوس الزكية والقلوب المؤمنة .

وقد وردت فى البكاء من خشية الله آيات وأحاديث كثيرة :

فمن الآيات قوله تعالى :

﴿وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مُكْثٍ ونزلناه تنزيلاً قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يُتلى عليهم يَخِرُّون للأذقان سُجَّداً

---

(١) فاطر : ٢٨ .

ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً ويَخِرُّون للأذقان يبكون ويزيدُهم خشوعاً ﴾ (١) .

ويقول الله – عز وجل – : ﴿ أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممَّن حملنا مع نوحٍ ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تُتلى عليهم آيات الرحمن خَرُّوا سجداً وبُكيًّا ﴾ (٢) .

ومن الأحاديث المروية فى فضل البكاء من خشية الله :

١ – ما رواه البيهقى عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : لما نزلت ﴿ أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون ﴾ بكى أصحاب الصُفَّةِ حتى جرت دُمُوعُهُمْ على خدودهم .

فلما سمع رسول الله – ﷺ – حِسَّهُمْ بكى معهم فبكينا ببكائِهِ .

فقال رسول الله – ﷺ – : « لا يَلِجُ النار من بكى من خشية الله ، ولا يدخل الجنة مُصِرٌّ على معصية، ولو لم تُذْنِبوا لجاء الله بقوم يذنبون فَيَغْفِرُ لهم » .

٢ – وروى الحاكم بإسناد صحيح عن أنس – رضى الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – قال : « من ذكر الله ففاضت عيناه من خشية الله حتى يصيب الأرض من دموعه لم يُعَذَّبْ يومَ القيَامة » .

٣ – وروى الترمذى عن ابن عباس – رضى الله عنهما ـ قال : سمعت رسول الله – ﷺ – يقول : « عينان لا تمسهما النار : عينٌ بكت من خشية الله ، وعينٌ باتت تحرس فى سبيل الله » .

٤ – وروى الطبرانى بسند رجاله ثقات عن معاوية بن حَيْدَةَ – رضى الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – قال : « ثلاثة لا ترى أعينُهُمُ النَّارَ : عَيْنٌ حَرَسَتْ فى سبيل الله ، وعَيْنٌ بكت من خشية الله ، وعين كَفَّتْ عن محارم الله » .

٥ – وروى الحاكم عن ابنِ أبى مُلَيْكَةَ قال : جلسنا إلى عبد الله بن عمرو – رضى الله عنهما – فى الحِجْرِ فقال :

---

(١) الأسراء : ١٠٦ – ١٠٩ .　　(٢) مريم : ٥٨ .

« ابْكُوا ، فإن لم تَجِدُوا بُكَاءً فَتَبَاكَوْا ، ولو تعلموا العلم لصَلَّى أحدُكُمْ حتى ينكسر ظهره ، ولبكَى حتى ينقطع صوتُه » .

* * *

وخلاصة القول فى هذه الوصية أن المسلم الحق من طلب النجاة لنفسه بما وسعه الطلب ، ويستعين على ذلك بسؤال العلماء عن سُبُله المَوَصِّلة إليه كما فعل عقبة بن عامر – رضى الله عنه وأرضاه .

فإن العلماء هم الأطباء – لديهم معرفة بتشخيص الداء ووصف الدواء ، ومعهم من نور الله ما يدعون به الناس إلى الله على بصيرة ، وإليهم تستريح النفوس المؤمنة ، وبهم تكون القدوة .

تَحْيَا بهم كُلُّ أرضٍ ينزِلُوَن بها كأنهم فى بقاعِ الأرضِ أمطارُ

والمسلم الحَقّ من إذا تكلم غَنِم ، وإذا سكت سَلِم .

وهو الذى لا يتكلم الكلمة إلا إذا عرف معناها ومرماها .

وهو الذى يلزم بيته لِرِعايَةِ أهلة والعناية بتربية أولاده ، والاستعانة بذلك على كبح جماح لسانه من أن يزَل أو يضل ، ووقاية نفسه من الفتن ، مع مراعاة حق الله عليه فى صلة الأرحام ، والتعاون مع إخوانه على البر والتقوى ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والجهاد فى سبيل الله بقدر طاقته البشرية .

والمسلم الحق من يحاسب نفسه فيستعظم زلتها ، ويراقب تصرفاتها فى سرِّها وعلانيتها ، ويعصيها فى كثير من مطالبها عقوبة لها ، وتنزيهاً لساحتها عن خوضها فى الباطل أو دخولها فيما لا يعنيها ، والاستغفار من ذنوبها فور وقوعها ، وعدم الاستخفاف بأى ذنب مهما كان صغيراً ؛ فإنه لا صغيرة مع الإصرار ، ولا كبيرة مع الاستغفار .

نسأل الله الهداية والتوفيق .

* * *

(٦٥) لا تُشَدِّدُوا على أنفسكم فَيُشَدَّدَ عليكم

عن أنس بن مالك – رضى الله عنه – قال : إن رسول الله – ﷺ – كان يقول : «لا تُشدِّدوا على أنفسكم فيشدَّدَ عليكم ، فإن قوماً شدَّدوا على أنفسهم فشدَّد الله عليهم ، فتلك بقاياهم فى الصوامع والديار ﴿ رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم ﴾ [١] .

* * *

التشدد فى الدين أخطر من التهاون فيه ، أو قل : هما سواء . فالتفريط والإفراط عدوان للوسطية ، وهى العدل فى كل شىء .

والتشدد على النفس من غير داع يقتضيه قسوة لا مبرر لها ، ومصادرة لخصائص الإسلام التى مضى ذكرها ، وهى اليسر ورفع الحرج ، ودفع المشقة ، وقلة التكاليف .

والتشدد على الناس ظلم لهم وعدوان عليهم ، ومخالفة لميزان العدل الذى جاء به هذا الدين فى تشريعاته كلها .

وأنواع التشدد لا تحصى ، ومع كثرتها تندرج كلها تحت أصلين :

الأول : الغلو فى الدين بقصد المبالغة فى التعبد ، فهذا الغلو شر كله وبدعة أنكرتها الشرائع السماوية بوجه عام ، والشريعة المحمدية بوجه خاص .

« وإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار » – كما جاء فى الحديث الذى سبق بيانه فى هذا الكتاب – .

والثانى : القسوة المفتعلة المفضية إلى ما يصادم الدين ويفرق بين المحبين .

وقد عرفنا فيما سبق أن الإسلام يعامل الناس بشدة لا عنف فيها ، وبلين لا ضعف فيه .

---

(١) رواه أبو داود فى سننه ضمن قصة طويلة رواها سهل بن أبى أمامة عن أنس ، كتاب الأدب ، باب فى الحسد ، حديث رقم ٤٩٠٤ .

وكان الرسول – ﷺ – إذا خُيِّرَ بين أمرين اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً – كما جاء فى الحديث الصحيح – .

وكان – ﷺ – ينهى أصحابه كثيراً عن المبالغة فى التعبد والتكلف له لما فى ذلك من الحرج والفتنة ؛ فإن للإنسان طاقة إذا استنفدها أو كاد يستنفدها فإنه يتبرم مما كان السبب فى ذلك الحرج ، فينقطع عن العمل انقطاعاً تاماً ، وربما لا يعود إليه أبداً ، وربما ينقطع عن أعمال كثيرة كانت أنفع له فى الدنيا والآخرة، وكانت أحب إلى الله من العمل الذى بالغ فيه حتى وصل به إلى هذا الحد .

وكان أحب شىء إلى رسول الله – ﷺ – العمل الدائم وإن قل ، ولكى يكون العمل دائماً لابد أن يكون محتملاً وفى حدود الطاقة واليسر .

* * *

ولهذا قال – ﷺ – لأصحابه الكرام البررة فى هذه الوصية الجامعة : « لا تشددوا على أنفسكم » وهو نهى عام عن التشدد فى كل شىء، يتناول بعمومه التشدد على النفس فى أمور الدين وفى أمور الدنيا، إلاَّ أن الوصية محذرة لهم عن التشدد فى الدين بالدرجة الأولى كما يدل عليه قوله الآتى بعده .

وقد كان أصحاب النبى – ﷺ – يحرصون كل الحرص على أن يقتدوا به فى عباداته، فيقومون الليل معه مهما طال بهم القيام ، وفيهم الضعيف والسقيم وذو الحاجة ، فأشفق عليهم الرسول – ﷺ – وأمرهم أن يكلفوا من الأعمال ما يطيقون، مذكراً لهم بما قاله رب العزة – جل وعلا – فى سورة المزمل : ﴿إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرأوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله فاقرأوا ما تيسر منه وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضاً حسناً﴾ (١) .

ورأوه يواصل الصوم فواصلوا معه، ونهاهم عن ذلك لكنهم لم ينتهوا حباً

---

(١) آية : ٢٠ .

فى الله واقتداءً به، ظناً منهم أن النهى إنما كان للإشفاق عليهم وليس للتحريم . فلما رآهم واصلوا واصل بهم كالمنكل بهم ، أى كالمعاقب لهم على هـذا التشـدد وقال : « أيكم مثلى فإنى أبيت عنـد ربى يطعمنى ويسقينى » [1] .

ومن بينهم رجال كثيرون ونساء كثيرات كانوا يشددون على أنفسهم فنهاهم عن ذلك ، فدل النهى على أن التشدد فى الدين ليس أمراً محموداً ولا مقصوداً ، وإنما المقصود هو الاعتدال ، وبذل الجهد بقدر الطاقة من غير تكلف ولا اعتساف .

وأخطر ما فى التشدد فوق ما ذكرناه هو ما أشار إليه النبى – ﷺ – بقوله : « فيشدد عليكم » وهو أخوف ما كان يخاف النبى – ﷺ – على أمته ، فقد ثبت أنه – ﷺ – كان ينهى عن كثرة الأسئلة التى يخشى منها أن تجلب عليهم الهلكة كما جلبتها على الأمم السابقة .

قال عليه الصلاة والسلام : « فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم » . وقد مضى بيان هذا الحديث بالتفصيل [2] .

وحديث الثلاثة الذين ذهبوا إلى بيوت النبى – ﷺ – ليسألوا عن عبادته فلما أخبروا بها كأنهم تقالوها .

فقالوا : وأين نحن من النبى – ﷺ – وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . فقال أحدهم : أما أنا فأقوم الليل ولا أرقد ، وقال الآخر : وأنا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال الآخر : وأنا لا أتزوج النساء .

فلما سمع النبى – ﷺ – مقالتهم . قال : « أنتم الذين قلتم كذا وكذا ، أما وإنى أتقاكم لله ، وأخشاكم ، ولكنى أصوم وأفطر وأقوم وأرقد ، وأتزوج النساء . فمن رغب عن سنتى فليس منى » .

وقد أشار النبى – ﷺ – إلى ما وقع للذين شددوا على أنفسهم من الأمم السـابقة كرهبان النصارى الذين أخذوا أنفسـهم بالشـدة والقسـوة وبالغوا فى الانقطاع إلى الله تعالى ، وفرضوا على أنفسهم طقوساً خاصة وعبادات لم تفرض عليهم فوقعوا فى الحرج ، وكلّوا وملّوا ولم يوفوا بما عاهدوا الله عليه إلا القليل منهم .

---

(١) رواه البخارى .

(٢) انظر الوصية رقم ١٤ .

وقد شدد الله عليهم فأوجب عليهم الرهبانية التى ابتدعوها وأوجبوها على أنفسهم كالمنكل بهم ، وإن كانوا قد فعلوا ذلك ابتغاء رضوانه ، لأن الله - عز وجل - يرضيه من عباده أن يشكروه ولا يكفروه ، وأن يفعلوا ما أمروا به ويجتنبوا ما نهوا عنه من غير زيادة ولا نقصان ، ومن غير أن يعذبوا أنفسهم بعبادات ابتدعوها وهم لا يعلمون أن الله غنى عنهم وعن عبادتهم ، لا تنفعه طاعتهم ولا تضره معصيتهم ، ولو كانوا يعلمون ذلك ما انقطعوا فى الصوامع ولا لجأوا إلى الكهنوت الذى أذهب دينهم ودنياهم .

قال الله تعالى : ﴿ما يفعلُ الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً عليماً﴾ (١) .

«فتلك بقاياهم في الصوامع والديار ﴿رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم﴾ ».

يشير النبى - ﷺ - بهذا إلى ما يجده المسلمون من الصوامع التى قد صنعها الرهبان فى الطرقات والجبال ، والأديرة التى أقاموها فى الشام والعراق وغيرهما من البلدان ، وهى أمور زائدة على ما أمروا به ، لا ينبغى أن نكون نحن المسلمين على غرارهم فى هذا التحنث المشوب بالتكلف . فديننا يأمرنا بأن نسير فى الأرض ونمشى فى مناكبها ونتخذ لنا فيها مستقراً كريماً نجد فيه ما نشبع به رغباتنا المحمودة من الكسب الحلال بالعمل المتواصل والجدّ المشكور ، فنجمع بين مطالب الدين والدنيا معاً .

فما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا

لا بارك الله فى دنيا بلا دين

ووظيفة الإنسان فى الأرض معروفة فقد خلقه الله لعمارتها وإصلاحها وإخراج ما يحتاج إليه منها . وهذه هى العبادة فى ناحية من نواحيها إذ إن العبادة ليست مقصورة على الصلاة والصيام ، والزكاة والحج ، والذكر - ولكنها تتسع فى مفهومها اللغوى والدينى لكل ما يتعلق بشئون الحياة فى حدود ما أمر

---

(١) النساء : ١٤٧ .

الله به ونهى عنه – كما سيأتى بيانه فى أحاديث أخرى من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى – .

* * *

وبقي لنا فى هذا الحديث أن نفهم قوله تعالى : ﴿ وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفةً ورحمةً ورهبانيةً ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رَعَوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون ﴾(١) .

الآية تشير إلى اتباع عيسى – عليه السلام – فقد كانوا من أنصاره إلى الله وفقهم الله لطاعته ، وجعل فى قلوبهم رأفة ورحمة ، فكانوا من أرق الناس قلوباً وأهداهم سبيلاً ، ثم خلف من بعدهم قوم زادوا فى الدين ونقصوا منه وغيَّروا وبدَّلوا ، وكان منهم من يتمسك بدينه ويبالغ فى ذلك إلى الحد الذى جعله ينقطع فى الصوامع بعيداً عن الناس وضجيجهم فعرفوا بالرهبان .

والرهبان جمع راهب ، ومعناه : الخائف من الله تعالى ، المشفق على نفسه من عذابه .

والرهبانية وصف مشتق من الرَهَب ، وهو شدة الخوف، كما يدل عليه قوله تعالى – حكاية عن زكريا – عليه السلام – وزوجه والصالحين من قومه: ﴿ إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رَغَباً ورَهَباً وكانوا لنـا خاشعين ﴾ (٢) .

وهذه الرهبانية لم تكن فى عهد عيسى – عليه السلام – بل هى مما ابتدعها من بعده – كما تشير الآية – فحرموا على أنفسهم ما أحل الله لهم من الطيبات والتزوج بالنساء ومعاشرة الناس وغير ذلك .

فقوله تعالى : ﴿ ورهبانية ابتدعوها ﴾ جملة مستأنفة وليست معطوفة على قوله تعالى : ﴿ رأفة ورحمة ﴾ لأن الرهبانية لم تكن مما شرع الله لهم ، فلا يستقيم كونها مفعولاً « لجعلنا » – كما قلنا – .

فهم قد ابتدعوها تقرباً إلى الله تعالى ، ومبالغة فى التّمسك بالدين ، وغلوّاً

---

(١) الحديد : ٢٧ .	(٢) الأنبياء : ٩٠ .

فيه ، مع أن الدين الذى ارتضاه الله لعباده يسرٌ كُلُّه ، فالله – جل جلاله - لم يكلف عباده بما لا طاقة لهم به ، ولا قدرة لهم على تحمُّله ، ولهذا قصَّر أولئك الرهبان فى هذه الرهبانية تقصيراً متفاوتاً بحسب قُدُراتهم، فكان منهم المحسن والمسيءُ .

وقوله تعالى : ﴿فما رعوها حق رعايتها﴾ يدل على أنهم رعوها رعاية فيها تقصير أو غلو ، وكلاهما لا يحمدون عليه ، فالأول تفريط ، والثانى إفراط ، والفضيلة وسط بينهما .

والمعنى : فما رعوها الرعاية الحق ، فقدَّم الحقّ وأضاف إليه الرعاية للدلالة على نفى حق الرعاية بأبلغ أسلوب ، وإثبات تقصيرهم فى ذلك ، مع التزامهم البعض دون البعض .

لهذا جاء قوله تعالى : ﴿فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثيرٌ منهم فاسقون﴾ .

فالمؤمنون فريق منهم ، وهم الأقلّون ، والكافرون منهم كثيرٌ ، وهم الذين زعموا أن عيسى ابن الله ، أو هو الله نفسه ، أو الإله ثالث ثلاثة : الأب ، والابن، وروح القدس .

ففى الآية ثناء على المؤمنين منهم ، وهم الذين لم يغيّروا فى الدين ، ولم يحرفوا الكَلم عن مواضعه ، بل كانوا أنصاراً لله ، يدعُون إليه بدعوة عيسى ابن مريم ، وفيها ذم لأولئك الذين مَرَقُوا عن الدين أو زادوا فيه ، أو نقصوا منه ، أو بالغوا فى الرهبانية حتى خرجوا عن حدّ الاعتدال ، فَمَلُّوهَا ورجعوا إلى أسوأ ما كانوا عليه ، فكانوا كما قال العرب فى أمثالهم : « إن المُنْبَتَّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » .

وهذا مثلٌ لمن يبالغ فى الأمر ويتعجّله ويتكلّفُ السعى لتحقيقه ، أو الوصول إليه ، فيُهْلِكُ نفسه ودابته ، دون أن يصل إلى ما يَصْبُو إليه .

* * *

وهذا الحديث وما فى معناه من الأحاديث تحذّر من التشدُّد فى الدين ،

والتَّنَطُّع فى الدعوة إليه ، وتنهى عن الابتداع فيه ، وتردُّ المؤمنين إلى التيسير والسداد ، كلما جمحت بهم الأهواء إلى التعسير والشَّطَط ، وانحرفت بهم الشياطين باسم الدين عن محجَّته البيضاء ، وطريقه المستقيم ، إلى سُبُل مُعْوَجَّة إذا ولَجُوهَا لم يستطيعوا الخروج منها .

فهذه الأحاديث جرت على سَنَنِ القرآن فى هداية الناس إلى التوسط فى الأمور ، والسداد فى الأقوال والأفعال ، والسير على الصراط المستقيم .

فقد قال الله – عز وجل – فى سورة البقرة : ﴿وكذلك جعلناكم أمة وَسَطاً﴾ (١) .

أى خياراً عدولاً ، تلتزمون العدل فى عباداتكم ومعاملاتكم ، وعاداتكم .

وقال – جل شأنه – فى سورة الأنعام : ﴿وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تَتَّبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾ (٢) .

وقال – جل شأنه – فى سورة الملك : ﴿أفمن يمشى مُكبّاً على وجهه أهدى أمن يمشى سوياً على صراط مستقيم﴾ (٣) .

* * *

(١) آية : ١٤٣ . (٢) آية : ١٥٣ . (٣) آية : ٢٢ .

(٦٦) اتَّقُوا النارَ ولو بشِقٍّ تمرةٍ

عن عَدِىٍّ بنِ حاتمٍ ، أن رسول الله - ﷺ - ذكر النار فَتَعَوَّذَ منها ، وأشاح بوجهه ثلاثَ مرارٍ ، ثم قال : «اتَّقُوا النار ولو بِشِقِّ تَمْرَةٍ ، فإِنْ لم تَجِدُوا ، فبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ » [١] .

* * *

كان النبى ﷺ يعظ أصحابه ويذكّرهم بعواقب الأمور، ويرغّبهم فى الجنة ويحذرهم من النار ، وذلك فى أوقات فراغهم من العمل وخلو قلوبهم من شواغل الدنيا ، فكان أحياناً يُبْكِيهم ويبكى معهم من خشية الله، وهو أتقاهم وأخشاهم له جل شأنه ، حتى كان بعضهم يُخَيَّل إليه أنها آخر موعظة يلقيها إليهم .

ولقد ذكر النار يوماً فتعوَّذ بالله منها ، وهو آمن من شرها ، فكيف بنا نحن وقد تراكمت علينا الذنوب وأحاطت بنا الخطايا من كل جانب ، وليس لنا من العمل الصالح ما ينقذنا من حرِّها .

وقد أشاح بوجهه ثلاث مرّات ، أى أعرض عنهم بوجهه ، فالتفت يميناً وشمالاً كأنه يراها فيتقيها ، بدليل ما رواه مسلم فى صحيحه عن عدىّ بن حاتم أيضاً أن رسول الله - ﷺ - ذكر النار فأعرض وأشاح .

فالإعراض هو الإدبار، والإشاحة هى الالتفات يميناً وشمالاً رغبة فى الهرب، وهو نوع من الإعراض وليس مرادفاً له .

ثم قال بعد أن أراهم من نفسه الخشية من عذابها : «اتقو النار ولو بشق تمرة» .

أى اجعلوا لأنفسكم وقاية من عذابها بشىء من أموالكم تخرجونه لوجه الله تعالى .

«ولو بشق تمرة» : أى بحسب طاقتكم وبقدر وسعكم؛ فإن الله - عز وجل- لا يضيع أجر من أحسن عملاً ، ولا يبخسهم شيئاً من أعمالهم أبداً .

---

(١) رواه مسلم ، كتاب الزكاة ، حديث رقم (١٠١٦) جـ ٢ ، ص ٧٠٤ .

يقول الله – عز وجل – : ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفْها ويؤتِ من لدنه أجراً عظيماً﴾ (١) .

ويقول جل شأنه : ﴿ونضع الموازين القسطَ ليوم القيامة فلا تُظلمَ نفس شيئاً وإن كان مثقالَ حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾ (٢) .

ويقول عز من قائل : ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ (٣) .

وقد أراد النبى – ﷺ – بهذه الوصية أن ينزع من قلوبهم صفة البخل ؛ لأنها من أقبح الصفات وأخسّها ، فالبخيل عدو الله وعدو نفسه ، وعدو الناس أجمعين .

فمن بخل بماله أو بعلمه أو بقوته أعرض الله عنه ، ومن أعرض الله عنه فله الويل فى الدنيا والآخرة .

يقول الله – عز وجل – : ﴿هأنتم هؤلاء تُدْعَون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخلُ ومن يبخلْ فإنما يبخلُ عن نفسه والله الغنى وأنتم الفقراء وإن تتولَّوا يستبدلْ قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ (٤) .

وقد وردت أحاديث فى ذم البخل تشيب منها الولدان منها :

١ – ما رواه مسلم فى صحيحه عن جابر بن عبد الله – رضى الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – قال : « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم ، واستحلوا محارمهم » .

٢ – وروى النسائى وابن حبان فى صحيحه بإسناد صحيح والحاكم واللفظ له عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – قال : « لا يجتمعُ غبارٌ فى سبيل الله ، ودخانُ جهنَم فى جوف عبدٍ أبداً ، ولا يجتمعُ شُحٌّ وإيمانٌ فى قلبِ عبد أبداً » .

---

(١) النساء : ٤٠ .
(٢) الأنبياء : ٤٧ .
(٣) الزلزلة : ٧ – ٨ .
(٤) محمد : ٣٨ .

٣ – وروى الترمذى فى سننه عن أبى بكر الصديق – رضى الله عنه – أن النبى – ﷺ – قال : « لا يدخل الجنة خَبٌّ [١] ، ولا منَّانٌ ، ولا بخيل » .

٤ – وروى الترمذى أيضاً فى سننه عن أبى سعيد الخدرى – رضى الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – قال : « خَصْلَتَانِ لا يجتمعانِ فى مؤمنٍ : البخلُ وسوء الخُلُق » .

٥ – وروى الترمذى فى سننه كذلك عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن النبى – ﷺ – قال : « السَّخِيُّ قريبٌ من الله ، قريبٌ من الجنة ، قريب من الناس ، بعيدٌ من النار ، والبخيل بعيدٌ من الله ، بعيد من الجنة ، بعيد من الناس ، قريب من النار ، ولَجَاهل سخيٌّ أحبُّ إلى الله من عابد بخيل » .

والرسول – ﷺ – قدوة للمؤمنين فى كل خلق فاضل وسلوك نبيل ، وهو فى مجال البر أكرم الناس على الإطلاق وأجودهم ، فلقد كان أجود من الريح المرسلة فى جميع أوقاته ، وكان أجود ما يكون فى رمضان ، كما أخبر عنه أصحابه الكرام .

لهذا كان يحثهم على الإنفاق فى سبيل الله ، ويبين لهم جزاء المحسنين مترجماً بأقواله وأفعاله ما جاء فى القرآن الكريم .

مثل قوله تعالى : ﴿من ذا الذى يُقرضُ الله قرضاً حسناً فيضاعفَه له أضعافاً كثيرة﴾ [٢] .

وقوله جل شأنه : ﴿وما تنفقوا من شيء فى سبيل الله يُوَفَّ إليكم وأنتم لا تُظلمون﴾ [٣] .

وقوله عز من قائل: ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يُخْلِفُه وهو خير الرازقين﴾ [٤] .

ولا يقولن قائل : ليس عندى ما أنفقه ، ولا يحتقرن إنسان شيئاً ينفقه، فهذا وذاك لا ينبغى أن يصدر عن المؤمن وقد علم أن الله لا يظلم الناس مثقال ذرة .

ونصف التمرة يقى منفقه من عذاب النار ، وهو شيء هيّن ولا سيما عند أهل المدينة فى عصر النبى – ﷺ – فقد كان التمر لديهم كثيراً ورخيصاً

---

(١) الخَبُّ : الخدَّاع .

(٢) البقرة : ٢٤٥ .

(٣) الأنفال : ٦٠ .

(٤) سبأ : ٣٩ .

وقد قال الله - عز وجل - : ﴿ لِيُنْفِقْ ذو سَعَةٍ من سَعَته ومن قُدِرَ عليه رزقُه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسراً ﴾ (١) .

* * *

وقد قطع النبى - ﷺ - عنق اللُّجاج فى هذا الأمر ، وعذر كل أنسان من نفسه بقوله : « فإن لم تجدوا ، فبكلمة طيبة » .

فماذا بعد ذلك !!

والمعنى : فإن لم تجدوا شق تمرة تخرجون به من البخل الذى يؤدى بصاحبه حَتماً إلى النار ما لم يتب منه - فاتقوا النار بكلمة طيبة تكون لكم قرباناً عند الله وفداءً من عذابه .

وقد قال الله - عز وجل - : ﴿ قولٌ معروفٌ ومغفرةٌ خيرٌ من صدقة يتبعها أذى والله غنىٌ حليمٌ ﴾ (٢) .

ومعنى كونه خيراً من صدقة يتبعها أذى : أن الكلمة الطيبة يكون لها وقْع طيب وقبول حسن عند من وُجِه بها ، وأحياناً تكون هذه الكلمة الطيبة أفضل بكثير من الصدقة التى لا يتبعها أذى .

ومن هذا نعلم أن الصدقة التى يتبعها أذى لا خير فيها أصلاً .

وأفعل التفضيل ليس على بابه ، ولكن جاء لبيان أن من الخير للإنسان أن يكتفى بالكلمة الطيبة عن صدقة لا ثواب له فيها لما يتبعها من الأذى .

والله غنى عن هذه الصدقة المصحوبة بما يبطلها ، وحليم على من يكون حليماً على الناس . والجزاء من جنس العمل .

وقد أوصانا عز وجل بحسن الاعتذار عند عدم وجود ما ننفق منه على

---

(١) الطلاق : ٧ .

(٢) البقرة : ٢٦٣ .

ذوى القربى واليتامى وابن السبيل والمساكين ، فقال جل شأنه : ﴿وإما تُعرِضَنَّ عنهم ابتغاءَ رحمةٍ من ربك ترجوها فقل لهم قولاً ميسوراً﴾ (١) .

والمعنى : إذا ما أردتم أن تعتذروا لهؤلاء الفقراء عن قضاء حوائجهم بسبب فقدان ما تعينونهم فعدُوهم وعداً حسناً ، كأن تقولوا لهم : نحن نبتغى من الله الفرج وسيرزقنا الله قريبا رزقاً حسناً ، ونحن لا ندخر وسعاً فى قضاء حوائجكم إن شاء الله ، وكنا نود أن نكون عند حسن ظنكم بنا . إلى آخر ما هنالك من كلام طيب .

نسأل الله صلاح الحال والتوفيق لصالح الأعمال .

* * *

---

(١) الإسراء : ٢٨ .

(٦٧) ارضخي ما استطعت ولا تُوعِي

عن أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنها - أنها جاءت النبي - ﷺ - **فقالت : يا نبي الله ، ليس لي شيء إلاّ ما أدخل عَلَيَّ الزبيرُ ، فهل عَلَيَّ جُنَاحٌ أن أرْضَخَ مِمَّا يُدْخِلُ عَلَيَّ ؟**

فقال : « ارْضَخِي ما استطعت ، ولا تُوعِي فَيُوعِيَ الله عليك » [1] .

* * *

اشتهرت نساء مكة بحبهن لأزواجهن ، وحسن تبعلهن لهم ، وشدة حرصهن على إرضائهم ، وإدخال السرور عليهم ، وحفظهن لأموالهم في حضورهم وفي غَيْبَتِهِم .

وجاء الإسلام فزادهن حسناً على حسن، فهذب طباعهن ، وعلمهن كيف تحفظ الأمانات ، وتصان الحرمات، وتحفظ الأموال، وأحيا فيهن الفطرة السوية، ووضع لهن الحدود التي يقفن عندها، ورسم لهن المعالم التي يَنْتَهِينَ إليها في عباداتهن ومعاملاتهن لأزواجهن على وجه الخصوص، ولغيرهم على وجه العموم.

وأسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنهما - من الطراز الأول في الخلق الفاضل والسلوك النبيل ؛ فقد كانت زوجة مثالية لزوج مثالي .

لقد كانت تعينه في معاشه ، وتصبر على شظف العيش معه ، وكانت تسوس له فرسه ، وتطحن له النوى ، وتحمله إليه مسافات بعيدة لتعلفه به .

وكان النبي - ﷺ - يراها تمشي على قدميها في شدة القيظ وهي تحمل النوى، فيرق لها ويحنو عليها ويحملها على دابة إن توفرت لديه، ويدعو لها بخير.

وهي التي عرفت بذات النطاقين ؛ لأنها قسمت نطاقها قسمين ليلة أن هاجر النبي - ﷺ - وأبوها - رضي الله عنه - فانتطقت بنصفه، وحملت لهما

---

(١) رواه مسلم - كتاب الزكاة - حديث رقم (١٠٢٩) جـ ٢ ص ٧١٤ .

الطعام في نصفه الآخر ، وصارت خلفهما بأغنامها لتمحو آثارهما ، حتى لا يعرف المشركون مكانهما ، حتى انتهيا إلى غار ثور .

وكانت تأتيهما بالطعام وبأخبار قريش مدة مكثهما فى الغار .

ولها من المحامد ما سجله التاريخ فى أنصع صفحاته ، وسيرتها العطرة جديرة بالبحث والدراسة .

ومن عظيم أمانتها أنها سألت رسول الله – ﷺ – هذا السؤال ؛ لكيلا تقع فى محظور هى فى غنى عنه ، فأجابها النبى – ﷺ – عن هذا السؤال بقوله : « ارضخى ما استطعت ، ولا توعى فيوعىَ الله عليك » .

والرضخ : إعطاء القليل من الطعام ونحوه .

وعلى هذا المعنى يكون النبى – ﷺ – قد أذن لها فى إعطاء القليل الذى تجود به النفس غالباً ، ولا يعاتبها عليه زوجها إذا علم به ، ولا يضر بمعاشه .

وهى - رضى الله عنها – قد سألته عن الرضخ ، فأذن لها فيه ، ولو سألته عن الإعطاء مطلقاً لكان الجواب غير الجواب ؛ لأن الزوجة لا يجوز لها أن تخرج من مال زوجها إلا بإذنه الصريح أو الضمنى ، والإذن الضمنى ما قضى به العرف ، وجرت به العادة .

والكرم شيمة من شيم العرب ، ولا سيما قريشٌ ؛ فقد كانوا فيه مضرب الأمثال .

والناس بعضهم لبعض أعوان لا غنى لأحدهم عن الآخر، فلا بد من الأخذ ولا بد من العطاء .

والإسلام دين الإخاء والمحبة والإيثار ، فكان لزاماً أن يجود كل واحد على أخيه بشىء مما معه تقرباً إلى الله ، وتودداً إلى أخيه ، ووقاية لنفسه من عذاب النار .

وقد أمر الله بالبذل والإنفاق ولم يخص بالأمر الأغنياء دون الفقراء .

وقد قال النبى – ﷺ – : « اتقوا النار ولو بشق تمرة » [1] .

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

فماذا على أسماء بنت أبى بكر – رضى الله عنهما – إذا أعطت القليل من مال زوجها بغير إذنه لجيرانها أو لغيرهم من الفقراء على سبيل الصدقة ، أو للأغنياء على سبيل الهدية .

وقد جاء فى الأثر : « تهادوا تحابُّوا » [1] .

وروى الطبرانى فى الأوسط بإسناد لا بأس به عن عائشة – رضى الله عنها – : « تهادوا تحابوا ، وهاجروا تورثوا أولادكم مجداً ، وأقيلوا الكرام عثراتهم » .

* * *

وقد أوصاها النبى – ﷺ – بوصية ينبغى أن نوليها عناية فى تعاملنا مع أسرنا وجيراننا وغيرهم ، فقال لها : « ولا توعى فيوعى الله عليك » .

أى : لا تدخرى ما عندك وتحبسيه عمن هو فى حاجة إليه إذا زاد عن حاجتك « فيوعى الله عليك » بأن يقطع عنك بسبب بخلك ما أنت فى حاجة إليه ؛ فالجزاء من جنس العمل .

والكريم من شأنه أن يعطى العطاء بطيب نفس من غير أن يحصيه على من أعطاه .

وبذلك يكون قريباً من الله قريباً من الجنة بعيداً عن النار .

والمؤمن من يجود بما عنده لمن هو فى حاجة إليه من غير توانٍ ولا تقصير ، ويغالب نفسه إن أبت عليه ذلك طاعة لله – عز وجل – وهذا ما تقتضيه أخوة الإيمان .

وقد ذكر الإمام الغزالى فى كتاب الإحياء أن الأخوة ثلاث درجات أو مراتب :

الأولى : أن يعطى الأخ أخاه ما هو فى حاجة إليه دون أن يسأله .

والثانية : أن يخلط ماله بمال أخيه فلا يسأله كم أخذ ولمَ أخذ .

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الأدب المفرد وغيره عن أبى هريرة .

والثالثة : أن يؤثر أخاه على نفسه ولو كانت به خصاصة، أى حاجة ملحة .
فأين نحن من هـذه الدرجات ؟

* * *

والرسول – ﷺ – فى هذه الوصية يشير إلى قوله تعالى : ﴿هل جزاءُ الإحسان إلا الإحسان﴾ (١) .

وقوله – جل شأنه – : ﴿وما أنفقتم من شىء فهو يُخْلِفُه وهو خير الرازقين﴾ (٢) .

وقوله – عز من قائل – : ﴿هأنتم هؤلاء تُدعَون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخلُ ومن يبخلْ فإنما يبخلُ عن نفسه والله الغنى وأنتم الفقراء وإن تتولَّوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ (٣) .

ويؤخذ من هذا الحديث وجوب حرص الزوجة على مال زوجها ، واستفتاء العلماء فيما يجوز لها إنفاقه منه وما لا يجوز .

وذلك دليل من أدلة صلاحها وتقواها .

قال رسول الله – ﷺ – : « ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله عز وجل خيراً له من زوجة صالحة ، إن أمرها أطاعته ، وإن نظر إليها سرته ، وإن أقسم عليها أبرته ، وإن غاب عنها نصحته فى نفسه وماله » (٤) .

ويؤخـذ منـه أن للمرأة الحـق أن تتصرف فى مـال زوجهـا بما لا يضره ولا يحرجه ولا يغضبه ، وهى فقيهة نفسها فى ذلك ، والعرف محكم فى مثل هـذا الأمر .

ويستفاد من هذا الحديث فوق ما تقدم أن المسلم ينبغى أن ينفق ولا يخشى من ذى العرش إقلالاً ، فإن من فتح على الناس باباً من أبواب الخير فتح الله له أبواب رحمته فى الدنيا والآخرة ، ومن أمسك الخير عمن هو فى حاجة إليه حبس الله عنه الرزق ، فلا يصيب منه إلا نكداً ، وعذاب الآخرة أكبر .

نسأل الله السلامة والعافية .

* * *

(١) سورة الرحمن آية : ٦٠ .
(٢) سبأ آية : ٣٩ .
(٣) سورة محمد آية : ٣٨ .
(٤) رواه ابن ماجه .

(٦٨) إذا دعا أحدكم فليعزم المسألة

عن أنس – رضى الله عنه – قال : قال : رسول الله – ﷺ – « إذا دعا أحدكم فليعزم المسألة ، ولا يقولن : اللهم إن شئت فأعطنى ؛ فإنه لا مستكره له » [١] .

* * *

من المعلوم لدى كل مؤمن أن جميع الخلق تحت مشيئته وقدرته – جل وعلا – ، ماضٍ فيهم حكمه، وعدل فيهم قضاؤه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ،لاراد لقضائه ولا معقب لحكمه .

وجميع الخلق فقراء إليه وهو غنى عنهم ، لا تنفعه طاعتهم ، ولا تضره معصيتهم .

وما دام الأمر كذلك فما على العبد إلا أن يدعوه سراً وجهراً،تضرعاً وخيفة بالغدو والآصال، ويسأله من فضله وهو موقن من الإجابة واثق كل الثقة فى حلمه وعفوه وكرمه؛ فإنه جل شأنه لا يرد داعياً دعاه بخشوع وخضوع وإخلاص،وكان مطعمه حلالاً ومشربه حلالاً،وملبسه حلالاً وغذى بالحلال،ولم يخالط إيمانه يأس ولا قنوط،ولم يكن دعاؤه مصحوباً بما يخل بالأدب أو يتجاوز الحد فى الطلب .

وهذا الحديث النبوى الشريف يرشد المؤمنين إلى حزم المسألة وعدم التردد فيها لأى سبب من الأسباب التى تدعوه أحياناً إلى التردد فيها، كالشعور بالتقصير من جانبه فى طاعة ربه عز وجل والإحساس بالذنب ونحو ذلك ؛ فإن الله عز وجل أرحم بعباده من أنفسهم على أنفسهم ، ورحمته وسعت كل شيء.

والدعاء مفتاح من مفاتيح أبوابها ؛ فإذا عرف العبد كيف يدعو وبماذا يدعو ومتى يدعو وكان أهلاً للدعاء – فإن دعاءه يقع موقعه ويصيب موضعه بمشيئة الله تعالى وقدرته ، وفق حكمته البالغة وتقديره الدقيق .

فإذا دعا المؤمن ربه عز وجل فليعزم المسألة ويقطع بطلبها، ولا يقولن: اللهم

(١) أخرجه البخارى ، كتاب الدعوات ، باب ليعزم المسألة فإنه لا مكره له .

إن شئت فأعطنى كذا وكذا ؛ لأن هذا الاستثناء يهون من شأن الطلب ويهون أيضاً من إظهار الافتقار إلى المطلوب منه ، والشأن فى العبد ألا يكون لطمعه فى رحمة ربه حدود مهما كانت ذنوبه ومهما كان تقصيره فى طاعته - عز وجل - فإن الله تبارك وتعالى قد يمن عليه بالهداية والتوبة بفضل دعائه وتضرعه ثم يستجيب له ، ويقضى حاجته بما شاء وكيف شاء ومتى شاء .

وقد علل النبى - ﷺ - هذا النهى بقوله : « فإنه لا مستكره له » أى إنما يقال هذا لمن تدعوه ظروفه ويدفعه عجزه على إتيان ما يكرهه .

والله عز وجل قد شرط فى قبول الدعاء شروطاً جمعها فى آية واحدة ، وهى قوله تعالى :

﴿وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يَرشدون﴾ (1) .

الشرط الأول فى الآية : أن يكونوا عباده بمعنى الكلمة ؛ فإن العباد نوعان :

نوع مشتق من العبودية ، وهم جميع الخلق ، ويطلق عليهم غالباً لفظ (العبيد) كما فى قوله تعالى : ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾ (2) .

ونوع مشتق من العبادة والعبودية معاً ، ويطلق عليهم فى الغالب لفظ (العباد) كما فى هذه الآية وغيرها ، كقوله تعالى : ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً﴾ (3) .

وقوله جل شأنه : ﴿ يا عبادِ فاتقون﴾ (4) .

وقوله : ﴿فبشر عبادِ الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنَه﴾ (5) .

والشرط الثانى والثالث فى آخر الآية ، وهما شرطان يوصف بهما عباد الله المخلصين .

---

(1) سورة البقرة آية : 186 .

(2) فصلت : 46 .

(3) الفرقان : 63 .

(4) الزمر : 16 .

(5) الزمر : 17 - 18 .

فقوله تعالى : ﴿ فليستجيبوا لى ﴾ معناه فليخلصوا لى فى القول والعمل وليخضعوا لجبروتى ، ويتواضعوا لعظمتى ، يدعونى رغباً ورهباً .

وقوله : ﴿ وليؤمنوا بى ﴾ معناه : وليستمروا على الإيمان بى والثقة بفضلى والطمع فى عفوى ورحمتى .

فهذا هو السبيل إلى الرشد والفلاح فى دارى الدنيا والآخرة .

والله قريب من عباده قرب إجابة ، فهو معهم أينما كانوا ، وهو عليم بهم لا تخفى عليه خافية من أمرهم ، يسمع دعاءهم وإن لم تنطق به ألسنتهم ، فيستجيب لهم وفق حكمته البالغة وتقديره الدقيق ، كما أشرنا من قبل .

وهناك شرط فى الآية قد يخفى على الكثير من المتأملين فى كتاب الله عز وجل يكمن فى اسم الفاعل، وهو الداعى، فإنه اسم يدل على المدوامة والاستمرار فهو اسم فاعل يدل على النسب – أى المنسوب إلى الدعاء – كالعامل والصانع والتاجر والزارع، أى المنسوب للعمل والصناعة والتجارة والزراعة، فلا يقال له داع إلا إذا ألح فى الدعاء واجتهد فيه .

وانظر أخى المسلم فى الآية من وجوه مختلفة فإنك لو فعلت لوجدت من الشروط المستكنة فى حروفها وضمائرها الكثير ، ولبسط ذلك موضع آخر من هذا الكتاب إن شاء الله .

* * *

ويستفاد من هذا الحديث فوق ما ذكرنا أن الدعاء المستجاب لابد أن يكون مبنياً على العزم ، وهو القطع فى المسألة ؛ ثقة بالله وطمعاً فى رحمته مهما تعطلت الأسباب وكثرت العوائق وبدا للداعى أن طلبه يقارب المستحيل .

وليعتبر بدعاء إبراهيم ودعاء زكريا عليهما السلام ، فكل منهما قد عزم المسألة ولم يتردد فيها أدنى تردد ولم يقل : إن شئت .

فإبراهيم عليه السلام قال كما حكى الله عنه فى سورة الصافات : ﴿ ربِّ هب لى من الصالحين ﴾ (١) وامرأته عجوز عقيم وهو شيخ كبير .

---

(١) آية : ١٠٠ .

وزكريا قال كما حكى الله عنه : ﴿ قال ربِّ إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك ربِّ شقياً وإنى خفتُ الموالىَ من ورائى وكانت امرأتى عاقراً فهب لى من لدنك ولياً يرثُنى ويرثُ من آل يعقوب واجعلْه ربِّ رضياً ﴾ (١) .

ويعقوب عليه السلام قال كما حكى الله عنه : ﴿ عسى اللهُ أن يأتينى بهم جميعاً إنه هو العليم الحكيم ﴾ (٢) وهو رجاء الواثق بربه الموقن بإجابته .

وفى القرآن كثير من هذا القبيل .

ولكن هنا سؤال ينبغى أن نجيب عليه قبل أن نختم شرح هذا الحديث .

وهو فى النهى عن الاستثناء فيه ، هل هو على جهة التحريم أم على جهة الكراهة ؟

فأقول :

قيل : النهى للتحريم لما يحمله هذا القول من الاستخفاف بالطلب والشك فى الإجابة .

وقيل : بل النهى للكراهة ؛ لأن المؤمن لا يقع منه ذلك . والنهى على سبيل النصح والإرشاد والتوجيه إلى الأفضل .

وقيل : إن قصد بقوله : « إن شئت » التبرك جاز .

والأصح عندى أنه يكره ولا يحرم .

والرسول – ﷺ – يريد من المؤمن أن يكون مؤدباً مع الله عز وجل فى الدعاء إلى أقصى حد ممكن .

والناس فى الأدب مع الله على مراتب ودرجات .

وأسماهم منزلة من يجمل فى الطلب مع الإلحاح فيه وانتظار الإجابة دون يأس ولا إبطاء، وبأسلوب راقٍ مهذب مبنى على معرفة الله تعالى بأسمائه الحسنى وأوصافه العلية .

---

(١) مريم : ٤ – ٦ .

(٢) يوسف : ٨٣ .

روى أن رجلاً كان يطوف بالبيت الحرام فسمع داعياً يقول : يامن تَرى ولا تُرى ماذا تَرى فيما تَرى .

وهو دعاء يدل على الرضا والتسليم والقناعة وغير ذلك من الأوصاف التى يتحلى بها العارفون .

قال الرجل : فأخرجت من كيسى دراهم وقلت له : خذ .

فقال : هل أنت تَرى ولا تُرى .

قال : فخجلت وتركته .

وقد ورد هذا الحديث بروايات أخرى لا تخرج عن معناه ، منها : ما رواه البخارى أيضاً عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – قال : « لا يقولن أحدكم : اللهم اغفر لى إن شئت ، اللهم ارحمنى إن شئت . ليعزم المسألة فإنه لا مكره له » .

وبعد : فليكن لدينا يقين صادق بالإجابة حتى يكون دعاؤنا مخ العبادة وفتحاً لباب الرحمة ، وطريقاً إلى الرشد والفلاح فى دارى الدنيا والآخرة .

نسأل الله العفو والعافية وحسن الخاتمة .

* * *

(٦٩) قُمْ ونَمْ وصُمْ وأَفْطِرْ

عن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - : دخل علىّ رسول الله - ﷺ - فقـال : « ألم أُخبَرْ أنك تقُومُ الليلَ وتصُومُ النَّهَارَ » .

قلتُ : بلى .

قال : «فلا تفعل ، قم ونم ، وصم وأَفْطِرْ ؛ فإن لجَسَدك عليك حقاً ، وإن لعَيْنكَ عليك حقاً ، وإن لزَوْركَ عليك حَقّاً ، وإنَّ لزَوجكَ عَليك حقاً ، وإنَّكَ عَسَى أن يَطُولَ بك عُمُرٌ ، وإنَّ من حَسْبكَ أن تصومَ من كل شهرٍ ثَلاثَةَ أيامٍ ؛ فإن بِكُلِّ حسنة عَشْرَ أمثالها فذلك الدَّهْرُ كُلُّهُ» .

قال : فَشَدَّدْتُ فُشُدِّدَ علىّ .

فقلتُ : فَإِنِّى أُطِيقُ غَيْرَ ذلك .

قال : «فَصُمْ من كُلِّ جُمُعَةٍ ثَلاثَةَ أيامٍ» .

قال : فَشَدَّدْتُ فَشُدِّدَ علىَّ .

قلتُ : إنى أُطيقُ غَيْرَ ذلك .

قال : «فَصُمْ صَوْمَ نَبِىِّ الله داودَ» .

قلتُ : وما صوم نَبِىِّ الله دَاوُدَ ؟

قال : « نِصْفُ الدَّهْرِ » (١) .

* * *

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الأدب ، باب حق الضيف ، جـ ٧ / ١٠٣ .

كان عبد الله بن عمرو – رضى الله عنهما – رجلاً عابداً زاهداً يقوم الليل ويصوم النهار ولا يضيع وقتاً فى غير ذكر الله عز وجل ، فلا تكاد تراه يلهو كما يلهو الناس ، ولا يستمتع بما يستمتعون به من الحلال الطيب إلا كفافاً ، ولا ينام إلا قليلاً ، ومع ذلك كان مجاهداً فى سبيل الله لا يفارق رسول الله ﷺ فى حرب ولا فى سِلْم .

وكان شغله الشاغل كتابة القرآن وقراءته ، فقد قيل إنه كان يقرأ القرآن كله فى يوم وليلة ، وكان شغوفاً بالعلم وطلب الحديث حتى صار من أكثر الصحابة علماً بالكتاب والسنة .

قال أبو هريرة – رضى الله عنه – : « ما كان أحد أكثر حديثاً عن رسول الله – ﷺ – منى إلا عبد الله بن عمرو ، فإنه كان يكتب ولا أكتب » .

وكان – رضى الله عنه – قد استأذن النبى – ﷺ – أن يكتب ما يسمعه منه فأذن له ، فكتب ما سمع فى صحف كان يسميها « الصادقة » .

فهو إذن صحابى جليل جمع بين العلم والعمل ، والعبادة والجهاد ، إلا أنه يشق على نفسه كثيراً فى الصيام والقيام والحرمان من المتع المباحة ، فأشفق عليه الرسول – ﷺ – ودعاه إلى الوسطية بأسلوب حكيم يفيض عطفاً وحناناً عليه وعلى أمثاله ممن شغلوا بالدار الآخرة عن الحياة الزائلة .

فالوسطية هى منهج الإسلام فى جميع الأمور ، وهو منهج واقعى يقوم على الاعتدال فى كل شىء . فلا إفراط فيه ولا تفريط ، ولا ضرر ولا ضرار .

* * *

فقد دخل عليه يوماً فقال : ألم أُخْبَرْ أنك تقوم الليل وتصوم النهار . وهو استفهام تقريرى يرتب عليه ما بعده من الوعظ والإرشاد .

قال عبد الله : قلت : بلى . وهو جواب صريح ينتظر به رداً من رسول الله – ﷺ – وكله آذان صاغية ، فقال النبى – ﷺ – قولاً ما كان يتوقعه منه فى بادئ الأمر ، بل كان يرجو أن يأمره بالمزيد من العبادة ؛ لأنها رَوْحه وريحانه .

ولكن الرسول – ﷺ – يجيبه بقوله : « لا تفعل » فوقع منه هذا النهى فى بادئ الأمر موقعاً صَعُبَ عليه تحمله ، فأدركه الرسول – ﷺ – بقوله : «قم ونم ، وصم وأفطر» فاستراحت نفسه بعض الشيء وأدرك قصد النبى ﷺ من هذا النهى ، وعلم أنه يريد التخفيف عليه ، وهو بالمؤمنين رءوف رحيم .

وقد تابع النبى – ﷺ – القول فبين له علة النهى عن الإفراط والحكمة فى التوسط والاعتدال .

فقال : «فإن لجسدك عليك حقاً ... إلى آخره» ؛ ليكون على بصيرة من أمره فى تحرى العدل بينه وبين نفسه ، وبينه وبين زَوْرِه – وهو ضيفه – وبينه وبين زوجه ، ولكى يأخذ من شبابه لهرمه ، ومن صحته لمرضه ، كما سنبين ذلك بشيء من التفصيل .

* * *

وحق الجسد على صاحبه أن يعطيه قسطاً من الراحة ويلبى رغباته الجنسية باعتدال ، ويغذيه بالأطعمة والأشربة المباحة من غير إسراف ، ويقيه من شدة الحر والبرد فى غير تكلف ولا خيلاء ، ويعنى بصحته عناية تقيه شر الأمراض والعلل وتجعله قادراً على تأدية وظيفته على نحو مرض .

ويُحَلِّيه بالزينة المباحة بقدر وسعه ؛ فإِنَّ أَخْذَ الزينة من المروءة التى يحرص على التحلى بها كل كريم حليم .

وحق العين إراحتها بالنوم ؛ لهذا خَصَّها النبى بالذكر بعد الجسد مع أنها منه ؛ ليكون هذا التخصيص مزيدَ بيان لقوله : «قم ونم» .

ومن المعلوم لدينا أن سهر الليل يُضْعِفُ النظر بوجه خاص وسائر الحواس بوجه عام .

وقد جعل الله النوم راحة للأبدان ، فلا يستغنى عنه إنسان ولا حيوان ، فهو نعمة من أَجَلِّ النِّعَمَ .

قال تعالى : ﴿وجعلنا نومكم سُباتاً﴾ (١) أى سكنا وراحة .

---

(١) النبأ : ٩ .

والليل هو أفضل الأوقات التى ينبغى أن يأخذ الإنسان فيه قسطاً من النوم ، ولا سيّما فى أوّلِه .

فمن سَهِرَ الليل كله لا يغنيه عنه نوم النهار كله .

قال تعالى : ﴿ وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشا ﴾ [١] .

واللباس معناه : السَّتْرُ والسكنُ والراحةُ .

والمعاش معناه : السَّعْىُ والكسب .

ومن حقّ العين – أيضاً – غَضُّها عن النظر الحرام ؛ فإن النظر الحرام يُرْهِقُ البصر ، ويُمِيتُ القلبَ ، ويذهب بنور الإيمان وبهاء الوجه .

ومن حق العين – كذلك – تمتيعُها بالنظر إلى ما فى هذا الكون من العجائب الدالة على قدرة الله تعالى ؛ فإن ذلك وظيفة من وظائفها لا ينبغى حرمانها منها .

والعين تَقَرُّ برؤية ما يُدْخِلُ على القلب السرور كرؤية الأولاد والأصدقاء ، والعلماء والصالحين ، ورؤية المـاء الصافى والخضرة ، والوجوه الحسنة التى تجوز رؤيتها .

قال الشاعر :

ثَلاَثَـــةٌ يُذْهِـــبْنَ الحَـــزَنَ   الخُضْرَةُ وَالْمـاءُ والوَجْهُ الحَسَن

وأما حق الزَّوْر وهو الضيف – كما ذكرنا – فإنه يقوم على ما تقضى به المروءة ، وما يحكم به الشرع الحكيم ، وما يجرى وِفْقَ أعراف الناس .

أما المروءة فإنها صفة فطرية فى الإنسان يعرف بها الحسن من القبيح ، والصواب من الخطأ .

وهى – فى نظرى – صفة حساسة تحيا فى ظل ضمير حى وقلب يقظ .

والضمير الحى هو الأمانة فى أسمى صورها وأرقى معانيها .

والقلب اليقظ هو القلب المزهر بالإيمان .

---

(١) النبأ : ١٠ – ١١ .

فمن كان ذا مروءة أكرم ضيفه بما يليق به ، وبقدر وسعه وطاقته من غير خَلَل فى الآداب العامة التى يجرى عليها العرف .

والشرع الحكيم قد بَيَّن حق الضيف على المُضِيف بياناً شافياً ، وفصَّل فيه القول تفصيلاً مُرْضِياً يعرف منه كلٌّ منهما ما يجب عليه نحو الآخر .

وقد بَيَّنْتُ فى الجزء الثالث من كتابى « الفقه الواضح » الآداب العامة التى يراعيها كل من الضيف والمُضِيف بأسلوب واضح فراجعه إن شئت ، ولكن نكتفى منه بما تدعو إليه الحاجة هنا فنقول :

من حق الزائر على المَزُور أن : يبش فى وجهه ، ويحييه بتحية الإسلام ، ويصافحه ، ويحسن لقاءه ، ويدخل على قلبه السرور ، ويدعو له بخير .

روى مسلم فى صحيحه عن أبى ذر – رضي الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – قال : « لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق » .

وعن البراء بن عازب – رضى الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – قال : « إن المُسْلِمَيْنِ إذا التقيا فتصافحا وتكاشرا بود ونصيحة تناثرت خطاياهما بينهما » (١) . ومعنى تكاشرا : ابتسم كل لصاحبه ، فالكشر معناه : إظهار البشاشة بالابتسام .

ومن حقه أن يقدم له من الطعام والشراب ما يكفيه بقدر وُسْعِهِ من غيرِ تكلف ولا إسراف ، مع مراعاة الآداب العامة فى تقديم ذلك .

وقد ذكرت كثيراً من هذه الآداب فى « الفقه الواضح » وفى كتابى « تأملات فى سورة الذاريات » ، وذكرنا طَرَفاً من هذه الآداب فى حديث « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » .

والذى يعنينا هنا هو ما يرمى إليه قوله – ﷺ – : « وإن لِزَوْرِك عليك حقاً » وهو تَفَرُّغه لاستقباله والإحسان إليه ، والاستئناس به ونحو ذلك ، فلا ينبغى أن يعتزل الناس وينقطع عنهم ، ويقضى ليله ونهاره فى العبادة ؛ إذ لا رهبانية فى الإسلام .

---

(١) أخرجه الحسن بن سفيان وأبو يعلى فى مسنديهما .

والعبادة ليست فى الصلاة والصيام فقط ، ولكنها فى كل حركة نافعة ، وعمل مفيد ، ولقاء مثمر ، وتنزه برىء ، ولَهْوٍ مباح .

ولو انقطع الإنسان عن أبناء جنسه فكيف يستطيع أن يقوم بواجبه نحو أقاربه وأصدقائه وجيرانه . وكُلٌّ هؤلاء لهم عليه حقوق .

وقد أمر الله – عز وجل – عباده أن يتعارفوا ويأتلفوا ، ويتعاونوا على البر والتقوى ، فكيف يتسنى له ذلك وهو معتكف فى محرابه ، أو ملازم لبيته يصوم النهار ويقوم الليل ، ولا يَزُورُ ولا يُزَارُ .

وأمّا حق الزوج – وهو لفظ يطلق على الرجل والمرأة – فهو يخضع فى جملته إلى ميزان دقيق غاية فى الدقة ، يشير إليه قوله تعالى : ﴿ ولهن مثلُ الذى عليهن بالمعروف ﴾ (١) .

وهذا الميزان يفيد أن لكل من الرجل والمرأة من الحقوق مِثْلَ ما عليه من الواجبات .

وحقوق الزوجة على زوجها أن يُعِفَّهَا ويُحْسِن عِشْرَتَها ، ويحافظ على عِرْضِهَا ومَالِهَا ، ويُعْنَى بشئونها الخاصة والعامة بقدر وسعه وطاقته .

فلا بد من وقت يُخَصِّصُهُ لها .

والحديث مع الرجل وهو عبد الله بن عمرو وأمثاله ، ولكنه يتناول بعمومه المرأة أيضاً إذا انقطعت للعبادة وشغلت بها عن تأدية حقوق زوجها .

وحقوق الزوج على زوجته أن تَسُرُّه إذا نظر ، وأن تطيعه إذا أمر ، وأن تحفظ عليه ماله وعرضه فى حضوره وغيبته ، وألا تأذن لأحد فى بيته إلا بإذنه ، وأن تعفه عن الحرام بحسن تَبَعُّلِها له ، وأخذ زينتها من أجل إرضائه وإدخال السعادة على قلبه .

* * *

وقد تابع النبى – ﷺ – حديثه مع هذا العابد الزاهد – فبين له أن التوسط

---

(١) البقرة : ٢٢٨ .

والاعتدال فى الصيام والقيام وغيرهما من العبادات يحفظ على العابد صحته ، ويزيد فى قوته ، ويشد من أَزْرِهِ عند الكِبَر ، فيظل ماضياً على ما كان عليه من أنواع العبادات حتى يلقى الله - عز وجل - أو يقضى أمراً كان مفعولاً ، فيقول له: « وإنك عسى أن يطول بك عُمُرٌ » أى لعل عمرك يطول فلا تستطيع أن تقوم بما كنت تقوم به من الصيام والقيام وقراءة القرآن ، فيشتد حزنك وأسفك على عجزك وعدم قدرتك على ما كنت تقوم به ، وتندم فلا ينفعك النَّدم .

وأشار عليه بأمر وسط لا قصور فيه ولا تقصير ، فقال : « وإن من حَسْبِك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام » فإن بكل حسنة عشر أمثالها فذلك الدَّهُر كُلُّه.

أى : وإن مما يكفيك عمله زمنك كلُّه أن تصوم ثلاثة أيام من كل شهر ، لم يُعَيِّنْهَا له ، فمتى شاء صامهن من الشهر ؛ وبذلك يكون كمن صام الدهر كله ؛ فإن السنة اثنتا عشرة شهراً ، وثلاثمائة وستون يوماً تقريباً ، فإذا صام ثلاثة أيام من كل شهر ، فقد نال ثواب صيام السنة كلها ؛ لأن الحسنة بعشر أمثالها .

وصيام شهر رمضان لا يعلم ثوابه إلاَّ الله .

فما على المسلم إلاَّ أن يتوسط فى الأمور ولا يغلو فى الدين ؛ فإن الغلو فى الدين قد أهلك كثيراً من الأمم السابقة .

وقد مضى شرح قوله - ﷺ - : « إن هذا الدين متين ، فَأَوْغِل فيه برفق ، إن الُمنبَتَّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » .

وكل يوم من هذه الأيام الثلاثة يقوم مقام عشرة أيام ، فمن صامها فكأنما صام الدهر كله ، وربك واسع الفضل والرّحمة .

* * *

وكان على عبد الله بن عمرو أن يقبل هذا العرض من رسول الله - ﷺ - وهو أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، ولكنه طمع فى المزيد، فزاده النبى - ﷺ - ، فاعتبر هذا الطلب تَشَدُّداً منه بعد أن كَبِرَت سنُّه ووهن عظمه ، وكان يتمنى أن لو اقتصر على ما كان اشار به عليه ، فقال : فَشَدَّدتُ فَشُدِّدَ عَلَيَّ ، أى فَشَدَّدتُ

على نفسى بطلب المزيد ولم أفطن يومها إلى قوله – ﷺ – : « وإنك عسى أن يطول بك عُمُرٌ » ، وها هو العمر قد طال بى وصرت إلى ما أرى وما يراه أصحابى عَلَىَّ من عجز عن القيام والصيام وقراءة القرآن .

وانظر إلى قوله : فَشُدِّدَ على – ببناء الفعل للمجهول – فقد أبهم الفاعل تَأَدُّباً مع رسول الله – ﷺ – ؛ إذ لا يليق به أن ينسب التشدد إليه وهو الرءوف الرحيم بأمته .

قال كالمُتَحَسِّر على عدم قبول النصح يومئذ : فقلت : فإنى أطيق غَيْرَ ذلك، أى أكثر منه ؛ طمعاً فى المزيد من الجرعة الإيمانية التى يحصل عليها من كثرة الصيام .

ولكن هذه الجرعة كان فى مُكْنَتِه أن يَكْتَسِبهَا بأنواع أخرى من العبادات؛ وذلك بتأدية الحقوق لذويها بالعدل والإنصاف .

وكأنه لم يُقَدِّر ذلك حقَّ قَدْرِه يومها ، وهو العالم بسماحة الشريعة ويُسْرِهَا، ولكن الحب الإلهى قد ملأ شغاف قلبه ، فجعله يتصرف هذا التصرف، وأنساه كَرُّ الأيام وحوادث الزمان ، وتَبَدّل الحال على النحو الذى وصفه الله – عز وجل – فى قوله : ﴿ الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشَيْبَةً ﴾ (١) .

فلما رآه النبى – ﷺ – يريد المزيد زاده فقال : « فصم من كل جمعة ثلاثة أيام » .

أى : فإن أردت المزيد فصم ، فالفاء واقعة فى جواب شرط مُقَدّر .

قال – رضى الله عنه – : فَشَدَّدْتُ فَشُدِّدَ علىَّ .

قلتُ : إنى أُطيقُ غيرَ ذلك .

قال : « فصم صوم نبىِّ الله داود » .

قلت : وما صومُ نبىِّ الله داود ؟

---

(١) الروم : ٥٤ .

قال : « نصف الدَهر » .

فقد كان داود عليه السلام يصوم يوماً ويفطر يوماً ، كما جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود فى سننه .

* * *

وهذا الحديث درس وَعَاهُ عبد الله بن عمرو بعد فوات الأوان ، ورواه لكى يكون عبرة لمن أراد أن يُشَدِّدَ على نفسه ويقسو عليها وهى فى ظروف أحوج ما تكون إلى التوسط والاعتدال .

وفيه من العظات والعبر ، والأحكام والحِكَم ، والآداب الشرعية واللطائف البيانية – الكثير لمن أراد أن يتذكر ويعتبر ، ويُقَدِّر الأمور قدرها ، ويمسك بيده ميزان الأعمال من عبادات ومعاملات وأخلاقيات .

فعبد الله بن عمرو مَثَلٌ للعابد الزاهد لم تعقه عبادته عن الجهاد فى سبيل الله ، ولكن حال زهده بينه وبين التمتع بطيبات الحياة ، فرده الرسول – ﷺ – إلى ميزان التوسط والاعتدال الذى ورد ذكره فى القرآن والسنة .

فمن الكتاب قوله تعالى : ﴿وابتغِ فيما آتاك الله الدارَ الآخرة ولا تنسَ نصيبك من الدنيا﴾ [1] .

وعلى هذه الآية يحمل قوله – ﷺ – : « ازهد فى الدنيا يحبك الله » فيكون معنى الزهد : ترك الحرام والإسراف فى المباحات ، والاقتصار على ما يكفى ويشفى من طيبات الحياة ، جمعاً بين مطالب الدنيا والآخرة .

وقد أمر الله نبيه أن يقوم من الليل ما يطيق فقال : ﴿ يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلاً نصفَه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً ﴾[2] .

وقد أمر الله أمته بما أمره به فقال : ﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يُقَدِّرُ الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تَيَسَّرَ من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى

---

(١) القصص : ٧٧ .   (٢) المزمل : ١ – ٤ .

وآخرون يقاتلون فى سبيل الله فاقرءوا ما تَيَسَّرَ منه وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضاً حسناً وما تُقَدِّمُوا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ﴾ (١) .

وفلاح المؤمنين فى الدنيا والآخرة ليس مُتَرَتِّباً على العبادات وحدها ؛ فالدين عقيدة وعمل ، وأخلاق وسلوك .

وأحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل ، كما جاء فى حديث البخارى ومسلم .

وقد جاء فى حديث أبى داود : «اكلَفُوا من الأعمال ما تطيقون ؛ فإن الله لا يَمَلُّ حتى تملوا» .

نسأل الله الهداية والتوفيق .

* * *

(١) المزمل : ٢٠ .

(٧٠) كثرة الضحك تميت القلب

عن أبى هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ يأخذ عني هولاء الكلمات فيعملُ بهن أو يُعَلِّم من يعملُ بهن ؟ .

فقال أبو هريرة : قلت : أنا يا رسول الله ، فأخذ بيدى فَعَدَّ خَمساً ، وقال : اتق المحارم تكن أعبد الناس ، وارضَ بما قسم الله لك تكن أغنى الناسِ ، وأَحسِن إلى جارك تكن مؤمناً ، وأَحبَّ للناسِ ما تحبِ لنفسك تكن مسلماً ، ولا تُكْثِرِ الضَّحِكَ ؛ فإن كثرة الضحَك تُميتُ القلبَ»[(١)] .

* * *

كان النبى – ﷺ – إذا أراد أن يوصى أصحابه بوصية جامعة لخصال الخير استدعى أسماعهم بمثل قوله : « من يأخذ عني هؤلاء الكلمات » ، فيقول رجل منهم كأبى هريرة – رضى الله عنه وعنهم جميعاً – : أنا يا رسول الله .

أو يقول : « يا فلان ألا أعلمك كلمات ، أو ألا أدلك على أبواب الخير ، أو على كنز من كنوز الجنة، ونحو ذلك من وسائل الترغيب والترهيب، وجلب الانتباه .

وهو أسلوب تعليمي شيق ، ينبغي على المعلمين أن يسلكوه فى تدريس العلوم الدينية وغيرها ؛ شحذاً للعزائم ، واستنهاضاً للهمم فى طلب ما يشوقهم إليه ، وهو أسلوب مقتبس من القرآن الكريم .

قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ﴾ [(٢)] .

فهذا الاستفهام للتشويق إلى ما سيلقى عليهم من أنواع البر التى يتجرون فيها مع الله تبارك وتعالى ، لكى ينالوا مغفرته ورضوانه ونصره .

وقال جل شأنه : ﴿ هل أتاك حديث موسى ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ فقل هل لك إلى أن تزكى ﴾ [(٣)] .

---

(١) أخرجه الترمذى فى الزهد ، باب من اتقى المحارم فهو أعبد الناس ، وقال : حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث جعفر بن سليمان ، ورواه ابن ماجه فى كتاب الزهد ، باب الورع والتقوى . بقريب من لفظه ، وقال فيه البوصيرى ، فى الزوائد : إسناده حسَن .

(٢) سورة الصف آية : ١٠ . (٣) النازعات : ١٥ – ١٨ .

وقال تعالى : ﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرَمين ﴾ [١] .

﴿ هل أتاك حديث الغاشية ﴾ [٢] .

﴿ هل فى ذلك قسم لذى حِجْر ﴾ [٣] .

والمراد بالكلمات : الوصايا الموجزة البليغة ذات الشأن والخطر ، والتى لها فى النفوس المؤمنة أبلغ الأثر .

وقد أهدى إليهم الرسول – ﷺ – هؤلاء الكلمات الخمسة فسعدوا بها علماً وعملاً ، ونقلوها إلينا بأمانة كما سمعوها ؛ لنعمل بهن ، فنسعد كما سعدوا .

وقد كان الرسول – ﷺ – يذكر العدد ليحفظ ، وهذه طريقة مثلى من طرق التدريس يلجأ إليها المعلمون فى ضبط ما ينبغى الحرص عليه ، حتى إذا نسى أحدهم واحدة سأل عنها من سمعها .

* * *

الكلمة الأولى : «اتقِ المحارم تكن أعبد الناس» أى تكن أطوع الناس لله وأسلمهم قلباً ، وأخلصهم ديناً ، وأمثلهم طريقة ؛ فالعبادة : هى التذلل والخضوع ، من قولهم : طريق معبد : أى مذلل سهل المسالك ، مستقيم لا عوج فيه ولا ارتفاع ولا انخفاض .

والعابد : هو من انتهى به الأمر فى العبادة إلى حد لا يؤثر فيه على حب الله ورضاه شيئاً ، ولا يثنيه عن طاعته هوى ، بل يكون هواه فيما جاء به رسوله – عليه الصلاة والسلام – .

وأعبد الناس من جعل لنفسه وقاية تامة من جميع ما حرم الله عليه ، فلا يأتى ذنباً كبيراً ولا صغيراً إلا بغير قصد ، وإن وقع فيه لم يصر عليه .

والمحارم : ما حرم الله على عباده ، جمع مَحْرَم – بسكون الحاء وفتح الراء –

---

(١) سورة الذريات آية : ٢٤ .
(٢) الغاشية : ١ .
(٣) الفجر : ٥ .

ومحارم الليل : مخاوفه التى يحرم على الجبان أن يسلكها –كما قال ابن منظور فى لسان العرب – .

والتقى يخشى من اقتحام محارم الله تعالى ، بل يخاف من الاقتراب منها خشية الوقوع فيها .

وما يقاربها يسمى شبهات ، وهى ثلاثة أنواع :

شبهة إلى الحرمة أقرب : وهى ما كان دليل الحرمة فيها أرجح من دليل الحل .

وشبهة هى إلى الحل أقرب : وهى ما كان دليل الحل فيها أرجح من دليل الحرمة .

وشبهة : بين الحل والتحريم يتنازعها دليلان متساويان لا يدرى المجتهد على وجه التحديد أى الدليلين أقوى من الآخر .

والتقى الورع : هو الذى يجتنب الشبهات خوفاً من الوقوع فى المحرمات استبراءً لدينه وعرضه ، بل يترك الجائزات إن خاف أن تؤدى به إلى الوقوع فى المحرمات .

* * *

الكلمة الثانية قوله – ﷺ – : « وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس » .

وهى وصية تثلج الصدور حقاً ، وتهدى القلوب إلى ما تطمئن به وتستريح له وتسكن إليه .

قال تعالى : ﴿ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شىء عليم﴾ (١) .

والمصيبة ما يصيب الإنسان من خير وشر .

والإيمان بالله يقتضى الرضا بقضائه وقدره : خيره وشره ، وحلوه ومره .

والقدر – فى الحقيقة – خير كله وإن بدا أن بعضه شر وبعضه خير ، فما كان شراً فى الظاهر فهو خير فى الباطن ؛ لأن الله حكم عدل ، والعدل لا يأتى إلا بخير ، وهو بعباده رءوف رحيم .

---

(١) التغابن : ١١ .

ولا يسع المسلم إلا الرضا بما قسم الله له ، فعندئذ يكون أغنى الناس ، لا يسأل أحداً سواه .

لكن ما معنى الرضا ؟

أقول : إن الرضا هو العلم بأن ما قدره الله لابد أن يقع كما قدره ، وفى الوقت الذى أراده ، والصبر على ما أصابه من بلاء وضر ، ومواجهة المكاره بصدر رحب وقلب مطمئن ، والشكر على نعمائه ، والثناء عليه بما هو أهله فى السراء والضراء ، والتسليم له فى جميع الأمور .

ولهذا كان الرضا من أعلى المقامات ، ومن هنا كان كل الغنى فى الرضا .

وقد تكلم العلماء فى هذا المقام ، وتوسعوا فى بيان مراتبه ودرجاته ، وعبر العارفون عنه بحسب مقاماتهم فيه .

وذلك لأن حقيقته غامضة – كما يقول الغزالى – ولا ينكشف الأمر فيه إلا لمن يفهمه عن الله تعالى .

قال بعض العارفين : هو باب الله الأعظم ، وجنة الدنيا ، ومستراح العابدين .

ومعنى كونه باب الله الأعظم : أنه طريق الوصول إلى مرضاته ، فمن رضى فله الرضا منه حتى يرضى .

ومعنى كونه جنة الدنيا : أنه النعيم الذى لا يعرفه إلا الراضون المكثرون من ذكره وشكره .

وقد ذكرت فى شرح بعض الأحاديث أن رجلاً قال : عجبت لمن خرج من الدنيا ولم يستمتع بنعيمها .

قالوا : أوَ فى الدنيا نعيم يا رجل !

قال : نعم فيها نعيم يعدل نعيم الجنة .

قالوا : ما هو ؟ ، قال : ذكر الله .

وقد جاء فى الحديث : « ألا إن الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه ، وعالم أو متعلم » (١) .

---

(١) رواه الترمذى كتاب الزهد – باب ١٤ – حديثه ٢٣٢٢ ، وابن ماجه كتاب الزهد باب ٣ ، والدارمى مقدمة ٣٢ .

ولا يتأتى الرضا لعبد إلا إذا غمر ذكرُ الله قلبَه واستغرق عقلَه فى حبه .

وأما كون الرضا مستراح العابدين ، فإنه الحيـاة الطيبة التى وعد الله بها من آمن وعمـل صـالحاً فى قوله – جل شـأنه – : ﴿من عمـل صـالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ (١) .

وهو المتاع الحسن الذى وعد الله به فى قوله – جل شأنه : ﴿ألاَّ تعبدوا إلا الله إننى لكم منه نذيرٌ وبشير . وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضلَه ، وإن تولَّوا فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير﴾ (٢) .

وهو ثواب الدنيا الوارد فى قوله تعالى : ﴿فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين﴾ (٣) .

قال عمر بن عبد العزيز – رضى الله عنه – : ما بقى لى سرور إلا فى مواقع القدر .

وقيل له : ما تشتهى ؟ قال : ما يقضى الله عز وجل .

ولنا عودة إلى هذا المقام الأعلى فى حديث آخر إن شاء الله تعالى .

* * *

الكلمة الثالثة : قوله – ﷺ – « وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً » .

وقد مضى الكلام على إكرام الجار والإحسان إليه فى حديث « من كان يؤمن بالله واليوم والآخر فليكرم جاره » .

ولكن نزيدك هنا فيه علماً فنقول :

الإحسان على أربع مراتب أعلاها وأسماها أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، كما قال الرسول – ﷺ – فى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى ومسلم .

---

(١) النحل آية : ٩٧ . (٢) هود آية : ٢ – ٣ . (٣) آل عمران : ١٤٨ .

والمرتبة التى تليها : هى الإتيان بما يستحسنه أهل الإحسان من الأعمال الصالحة .

والمرتبة الثالثة : هى إتيان ما لا يستقبح فعله عند عامة الناس .

والمرتبة الرابعة : هى ترك الإساءة فقط .

والإحسان إلى الجار أقل درجاته أن يأمن الجار أذى جاره .

وهذا ما يتمناه كل جار من جاره فى هذا الزمان .

فلو ترك الجار أذى جاره ، فلم يحقد عليه ، ولم يحسده ، ولم يشمت فيه، ولم يتتبع عوراته ، ولم يقل فيه ما يكره ، فهو محسن ، بل ربما يعتبره الناس أحياناً من خيار المحسنين .

ولما كان الإحسان إلى الجار عظيماً عند الله – كما سبق بيانه فى الحديث المتقدم – كان برهاناً من براهين صحة الإيمان ، إذ هو ثمرة من أعظم ثمراته .

ومعنى قوله – ﷺ – « تكن مؤمناً » أى تكن مؤمناً حقاً إيماناً كاملاً .

* * *

الكلمة الرابعة : قوله – ﷺ – : « وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً » أى تكن مخلصاً صادقاً مع الله – عز وجل – ومع نفسك ومع الناس .

فالإسلام له عدة معانٍ منها : الإخلاص ، والانقياد ، والتسليم ، والرضا .

ولا يقولن قائل : كيف جعل الرسول – ﷺ – الإحسان إلى الجار أمارة من أمارات الإيمان الكامل ، وجعل حب الإنسان لأخيه ما يحبه لنفسه أمارة من أمارات الإسلام ، مع أن الثانى أفضل من الأول ، والإيمان أخص من الإسلام ؛ فإن معنى الإسلام فى الحديث ما ذكرناه وليس هو التصديق الجازم بكل ما جاء به النبى – ﷺ – .

وذلك لأن الخطاب فى الحديث لخيار المؤمنين ، فلابد أن يحمل الإسلام فيه على معنى أعمق من المعنى المشهور عند علماء التوحيد ، وهو المعنى الذى ذكرناه .

وعلى أساسه يفهم ما جاء فى قصة إبراهيم – عليه السلام – من قوله : ﴿ ربنا واجعلنا مُسْلِمَيْن لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾ [1] .

ومن قوله تعالى : ﴿ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ﴾ [2] أى أخلصت له الدين وانقطعت انقطاعاً تاماً عمن سواه .

* * *

الكلمة الخامسة : قوله – ﷺ – « ولا تكثر الضحك ؛ فإن كثرة الضحك تميت القلب » .

وهذا صادق بالتجربة ، فلا يضحك كثيراً إلا من به هوس فكرى ، وفساد خُلُقى ، وقلب مريض يأن ويتوجع ، وهو يريد – بلا جدوى – أن يطرد من قلبه ألماً مفجعاً ، وهماً موجعاً ، وحزناً داكناً ، وسفهاً متحكماً ، فيكون مثله كمثل العصفور المذبوح الذى يرقص من شدة الألم .

ولو يعلم هؤلاء المغرورون بدنياهم ، والمعجبون بأنفسهم ما وراءهم من عذاب وبيل وشر مستطير ما ضحكوا إلا قليلاً .

والرسول – ﷺ – لم يقل الضحك يميت القلب ، ولكن قال : « كثرة الضحك تميت القلب » .

فلابد للإنسان من أن يروح عن نفسه ولكن من غير إسراف ولا تكلف ، وفى مواطن دون مواطن ، وفى وقت دون وقت ، وفى حال دون حال .

والعاقل يعرف متى يضحك ، ومتى يكف عن الضحك .

والله هو الموفق والهادى إلى سواء السبيل .

* * *

---

(١) البقرة آية : ١٢٨ .

(٢) البقرة آية : ١٣١ .

(٧١) لأن تذر ورثتك أغنياء
خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس

عن سعد بن أبى وقاص – رضى الله عنه – قال : جاء النبى – ﷺ – يعودنى – وأنا بمكة – وهو يكره أن يموت بالأرض التى هاجر منها .

قال : «يرحم الله ابن عفراء» .

قلت يا رسول الله : أوصى بمالي كله ؟

قال : «لا» .

قلت : فالشّطر .

قال : «لا» .

قلت : الثلث .

قال : «فالثلث ؛ والثلث كثير ؛ إنك أن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس فى أيديهم ، وإنك مهما أنفقت من نفقة فإنها صدقة حتى اللقمةُ تدفعها إلى فِى امرأتك ، وعسى الله أن يرفعك فينتفع بك ناس ويُضَرٌّ بك آخرون» ، ولم يكن له يومئذ إلا ابنة (١) .

* * *

الحياة المطمئنة : عقيدة صحيحة ، وعمل صالح ، وخلق فاضل ، وسلوك نبيل .

وينبنى هذا كله على معرفة الله تعالى بأسمائه الكمالية وأوصافه العليا .

ومن أهم عوامل التوفيق الإلهى فى هذه الحياة أن ينظر الإنسان فيدرك ثم

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب الوصايا ، باب : أن يترك ورثته أغنياء خير من أن يتكففوا الناس ، حديث (٥٥) جـ ٣ . ورواه مسلم بألفاظ متقاربة فى كتاب الوصية .

يعتقد ، ويؤمن ثم يخلص فى إيمانه ، ويعيش على مبادئه فيلتزمها ، ويدعو إليها بالحكمة والموعظة الحسنة والحوار البناء ، ويدافع عنها ويضحى من أجلها بالنفس والنفيس ، ويحقق لهذه المبادئ الإيمانية صورة صادقة فى أقواله وأفعاله وأحواله .

فإذا صفا القلب ، ونقت السريرة ، وصح القصد ، وحَسُنَت النية ، وطاب القول ، وصلح العمل ، واستقام السلوك فقد صار هذا العبد موصول الأسباب بالله جل جلاله ، إذا سأله أعطاه ، وإذا قصده لا يضام .

ولقد ضرب لنا أصحاب النبى – ﷺ – أروع الأمثال فى هذا المجال فكانوا ربانيين – رهباناً بالليل وفرساناً بالنهار ، لا يدخرون جهداً فى نصرة الإسلام ، ولا يتركون فى الخير طريقاً إلا سلكوه راشدين مسترشدين .

منهم الفارس المغوار سعد بن أبى وقاص الزهرى – رضى الله عنه وأرضاه – .

فهو سابع سبعة بادروا إلى الإسلام، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، ومات النبى – ﷺ – وهو راض عنهم، وهو أحد الستة الذين رشحهم عمر بن الخطاب ليختار المسلمون للخلافة من بعده واحداً منهم بعد أن طعنه أبو لؤلؤة المجوسى .

وكان سعد – رضى الله عنه – أول من رمى بسهم فى سبيل الله ، وكان بارعاً فى الرمى إلى حد أثار إعجاب النبى – ﷺ – وأصحابه الكرام البررة .

وقد واصل سعد – رضى الله عنه – جهاده مع الرسول – ﷺ – يحمل روحه على راحته ، ويقدمها فى كل موطن من مواطن البذل والفداء لنصرة دين الله وإعزاز كلمته .

وظل بعد وفاة النبى ﷺ موضع ثقة أبى بكر وعمر – رضي الله عنهما – فى الريادة والقيادة، فكان كل منهما يقدمه على غيره فى إمرة الجيوش الإسلامية، فخاض كثيراً من المعارك وأبلى بلاء حسناً فى أكثرها ، وفتحت على يديه المدائن عاصمة الفرس ، وعمر حياته كلها بالإيمان ، وتَوَّجَ جهاده بالموت فى سبيل الله ، فقد عاش ثمانين سنة حافلة بالبطولات النادرة ، والتضحيات الغالية ، فكان قدوة للأبطال فى جميع الأجيال .

ولهذا البطل الفذ مآثر خالدة ذكرها أصحاب التواريخ والسِّيَر لا غنى للمسلم عن معرفتها .

من أهمها أنه كان مجاب الدعوة ، ولقد دعا له الرسول – ﷺ – فقال : «اللهم استجب لسعد إذا دعاك» (١) .

وقال أيضاً : «اللهم سدد سهمه، وأجب دعوته، وَحبِّبه إلى عبادك» (٢) .

واستجاب السميع العليم لنداء رسوله ورجائه ، فما دعا سعد ربه يوماً إلا استجاب دعاءه .

ومن ذلك ما روته كتب السير (٣) أن رجلاً فاجراً كان يسب عليًّا وطلحة والزبير فنهاه سعد عن ذلك ، وحذره من غضب الله وعذابه ، وتهدده بأن يدعو عليه دعوة تفت في عضده إذا لم يكف عن سب هؤلاء الأخيار .

فقال مستخفاً : يتهددنى سعد كأنما يتهددنى نبى .

فدعا سعد ربه فقال : اللهم إن كنت تعلم أنه سب أقواماً قد سلفت لهم منك سابقة ، وأسخطك سبه إياهم ، فأره اليوم آية تكون للعالمين .

ولم يمض إلا قليل حتى عدت عليه ناقة شاردة فوطئته فمات من إصابته .

وصدق الله إذ يقول : ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾ (٤) .

ومن مآثره – رضوان الله عليه – أنه مع صرامته فى الحق وغيرته على الإسلام والمسلمين كان يحمل بين جوانحه قلباً نقياً طهوراً لا يعرف حقداً ولا حسداً ، ولا يفكر أدنى تفكير فى أذى مسلم مهما وجد منه ما يكره .

وروى أن الرسول – ﷺ – قال لصحابته : «يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة ، وتطلع الصحابة فإذا سعد مقبل ، ولما سأله عبد الله بن عمرو بعد ذلك عن السبب فى استحقاقه هذه البشرى ، أجابه سعد بقوله : لا شيء أكثر مما نعمل ونعبد ، غير أنى لا أحمل لأحد من المسلمين ضغناً ولا سوءاً» (٥) .

---

(١) رواه الترمذى فى المناقب ، حديث رقم (٣٨٣٥) .

(٢) رواه موسى بن عقبة وغيره بأسانيد ذكرها ابن كثير فى البداية جـ٨ ص ١٠٨ .

(٣) انظر البداية جـ ٨ ص ٨٣ .

(٤) المائدة : ٢٧ .

(٥) الحديث بطوله رواه أحمد وغيره عن أنس من عدة طرق ذكرها ابن كثير فى البداية والنهاية جـ٨ ص ٨٠ .

وكان سعد – رضى الله عنه – يفتدى دينه بأغلى الأشياء لديه ، ويشير إلى هذا أنه حينما أسلم ، كانت أمه على شركها ، وقالت له غاضبة : ياسعد ، ما هذا الدين الذى قد أحدثته ؟ لتتركن دينك هذا ، أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت ، فيعيرك الناس ويقولون لك : ياقاتل أمه .

فقال لها سعد : لا تفعلى يا أماه ، فإنى لا أترك دينى هذا لشىء . فأضربت عن الطعام والشراب حتى ضعفت . فجاءها فقال لها فى عزم وتصميم : يا أماه ، والله لو كانت لك مائة نفس ، فخرجت نفساً نفساً ما تركت دينى ، فإن شئت فكلى أو لا تأكلى . فلما رأت منه الجد أكلت .

وفى هذه الحادثة وأمثالها نزل قول الله تعالى : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلىَّ المصير وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إلىَّ ثم إلىَّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾ (١) .

ولقد فاز سعد بحب النبى – ﷺ – فوزاً عظيماً ، وفاخر به أصحابه ، فكان يقول كما روى الترمذى – فى سننه – : « هذا خالى فليرنى امرؤ خاله » .

وكان – رضى الله عنه – كما أشرنا من قبل – من بنى زهرة ، أجداد النبى – ﷺ – من جهة أمه (٢) .

ومعذرة إن كنا قد أطلنا الحديث عن هذا الصحابى الجليل ؛ فإننا أردنا أن نعطر أنفاسنا بسيرته العطرة ، قبل أن نتعرف على ما جاء فى هذا الحديث الذى رواه عن رسول الله – ﷺ – .

* * *

---

(١) لقمان : ١٤ – ١٥ .

(٢) انظر سيرته فى « الإصابة فى تمييز الصحابة » المجلد الثانى جـ ٣ ص ٨٣ ، ٨٤ ، وانظر الطبقات الكبرى جـ ٣ ص ٩٧ وما بعدها ، وانظر البداية لابن كثير جـ ٨ ص ٧٨ .

قال – رضي الله عنه – : «جاء النبى – ﷺ – يعودنى – وأنا بمكة – وهو يكره أن يموت بالأرض التى هاجر منها» .

وقد كان النبى – ﷺ – يزور أصحابه فى بيوتهم إذا كانوا مرضى ، أو قدموا من سفر ، أو شغلوا بأنفسهم عن الحضور إلى مسجده الجامع ، فوافق يوماً عاد فيه سعداً – رضى الله عنه – إذ كان يعانى من مرض شديد ألمَّ به فحسبه مرض الموت ، ففكر فى أمره ماذا يفعل بماله ، وهو بمكة يومئذ ولم يكن بالمدينة، دار الهجرة ، وكان – رضى الله عنه – يكره أن يموت بمكة خشية أن ينقص أجره عن أجر من مات بالمدينة .

وقيل : إن النبى – ﷺ – هو الذى كان يكره ذلك .

قال ابن حجر : فى قوله : «وهو يكره أن يموت بالأرض التى هاجر منها» ، يحتمل أن تكون الجملة حالاً من الفاعل أو من المفعول ، وكل منهما محتمل ؛ لأن كلاً من النبى – ﷺ – ومن سعد كان يكره ذلك ، لكن إن كان حالاً من المفعول وهو سعد ففيه التفات؛ لأن السياق يقتضى أن يقول وأنا أكره .

وقد أخرج مسلم من طريق حميد بن عبد الرحمن عن ثلاثة من ولد سعد عن سعد بلفظ : «فقال : يا رسول الله خشيت أن أموت بالأرض التى هاجرت منها ، كما مات سعد بن خولة» .

وللنسائى من طريق جرير بن يزيد عن عامر بن سعد : لكن البائس [١] سعد بن خولة مات فى الأرض التى هاجر منها .

وله من طريق بكير بن حمار عن عامر بن سعد فى هذا الحديث ، فقال: يا رسول الله أموت بالأرض التى هاجرت منها ؟ ، قال : «لا إن شاء الله تعالى» ا.هـ [٢] .

وقد كان أصحاب النبى – ﷺ – يحبون الموت فى دار الهجرة ؛ لأن النبى

---

(١) المراد بالبائس : الذى أراد شيئاً ولم يتيسر له .

(٢) انظر فتح البارى كتاب الوصية جـ ١ / ٢٠٠ ط الكليات .

- ﷺ - أثنى عليها ، ولعلهم عرفوا أنه سيموت بها ، ويدفن فيها ، وقد مات فيها كثير من السابقين إلى الإسلام .

وقوله - ﷺ - : « يرحم الله ابن عفراء » وهو سعد بن خولة [1]، رثاءً له أن مات بمكة ولم يمت بدار الهجرة، وكان يتمنى - سعد بن خَولة - أن يموت بها .

وسعد بن خولة هذا : رجل من بنى عامر بن لؤى ، كما ذكر ابن حجر عن ابن عيينة ، وقد ذكره النبى - ﷺ - ورثا له حين كان عند سعد بن أبى وقاص ؛ لأن الشيء بالشيء يذكر .

ويطيل سعد بن أبى وقاص فى مقدمة الحديث شارحاً موقفه ، ومستحضراً قصته مع رسول الله - ﷺ -؛ لأن هذا الذى يذكره من الذكريات التى لا تنسى، وفيها ما فيها من الدلالة على التقدير العظيم لتواضع النبى - ﷺ - فى معاملة أصحابه ، وحسن معاشرتهم ، وخفض جناحه لهم ، ومشاركته آمالهم وآلامهم .

* * *

قال سعد بن أبى وقاص - رضى الله عنه - بعد هذه المقدمة ، قلت يا رسول الله : أُوصى بمالى كله ؟

وهو استفهام له ما بعده ، فسعد يريد أن يقدم لنفسه فى آخرته كل ما يجمعه من مال ، لكنه يخشى أن يكون فى ذلك ظلم لورثته ، وهو يتمنى من أعماق قلبه أن يأذن له الرسول - ﷺ - فى ذلك ، فماله فى الحقيقة خير من مال وارثه .

ومال المرء ما قدمه ، ومال وارثه ما خلفه وراءه بعد موته . كما سيأتى بيانه فى حديث آخر مفصلاً إن شاء الله تعالى .

وقد سأل سعد رسول الله - ﷺ - هذا السؤال ، لشعوره بقرب أجله ، وهذا شأن من يريد أن يتخلص من كل ما يتعلق به قلبه من حطام الدنيا ، ويدخره عند الله - عز وجل - لينمو ويزيد ، حتى تكون الثمرة مثل جبل أحد ، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق - ﷺ - .

---

(١) عفراء أمه ، واسمها أيضاً خولة ، وقيل : خولة اسم أبيه .

وأصحاب النبى – ﷺ – يَعُونَ كل كلمة سمعوها منه ، ويضعونها نصب أعينهم ، ويروونها للأجيال من بعدهم بأمانة ؛ لتكون حافزاً لهم على العمل الصالح ، والخلق الفاضل .

سمع النبى – ﷺ – سؤاله ووعاه وأدرك فحواه ، فأجابه بقوله : « لا » .

قال : قلت : فالشطر ؟ ، أى فالنصف أتصدق به وأبقى النصف الآخر لورثتى .

قال الرسول – ﷺ – : « لا » .

قال سعد : قلت : فالثلث ؟

قال الرسول – ﷺ – : « فالثلث ، والثلث كثير » . أى فالثلث تصدق به وهو كافيك ، وإنه كثير فى الأجر .

وقيل : هو كثير عليك إخراجه ، ولكن عليك أن تتحرى حاجة ورثتك إلى مالك فتخرج منه ما لا يضر بهم .

وإن كانوا فى حاجة إليه فلا تخرج منه إلا اليسير كالسدس ونحوه . والباقى يكون للورثة ولك أجر ما تركت لهم .

وهذه المسألة تحتاج منا إلى تحقيق سيأتيك ذكره قريباً إن شاء الله تعالى .

وقد علل النبى – ﷺ – هذا الجواب بقوله : « إنك أن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس فى أيديهم » .

والمعنى : لو أنك تركت ورثتك أغنياء خير لك ولهم من أن يكونوا فقراء يسألون الناس بأكفهم ، فيضعون فى أيديهم شيئاً مما لديهم ، فتكون المسألة مذلة لهم فى الدنيا والآخرة .

والمراد بالغنى فى الحديث : الكفاية ، وليس المراد كثرة المال ، فقد لا يتوفر لهم ذلك .

فمن وجد فى الحياة ما يكفيه من المأكل والمشرب ، والملبس والمسكن وغير ذلك مما هو فى حاجة إليه فقد حيزت له الدنيا بحذافيرها .

والعالة : هم الذين يكونون حملاً على غيرهم بمعنى : أنهم يستجدون منهم حوائجهم ، ويسألونهم من فضول أموالهم .

يقال : فلان عالة على فلان . يعنى : حِمْل عليه يعيش على ما يعطيه .

وفلان عال فلانا يعنى : أعطاه ما يقتات به .

وسمى الأولاد عيالاً : لحاجتهم إلى من يعولهم .

والعَيْلة : الفقر ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وإن خفتم عَيْلَةً فسوف يغنيكم الله من فضله ﴾ (١) .

و« أن » فى قوله : « إنك أن تدع » مفتوحة الهمزة للتعليل ، وقيل : يجوز كسرها على أنها شرطية ، والصواب الأول .

وقال : « يتكففون الناس » ولم يقل يسألون الناس - مبالغة فى تصوير حالهم عند السؤال . إذ يمدون أكفهم لهذا وذاك ، فيضع الناس فيها ما تحمله الكف ، وهو شىء غالباً ما يكون قليلاً تافهاً .

وأصل التكفف : طلب الكفاف ، وهو القليل الذى يكف عن المرء جوعته إلى حين ، وهو شىء مذموم لا يلجأ إليه إلا من عضه الجوع وأضناه الفقر . فتأمل ذلك ولا يغب عن ذهنك فصاحة خير الخلق فى التعبير ، ودقته فى التصوير ، وروعته في البيان .

* * *

ويواصل النبى - ﷺ - كلامه النفيس مع خاله وحِبِّه فيقول : « وإنك مهما أنفقت من نفقة ؛ فإنها صدقة حتى اللقمة تدفعها إلى فى امرأتك » .

والمعنى واضح مشرق يحمل فى طياته البشرى والسرور بوعد الله - عز وجل - الوارد على لسانه ﷺ ، وهو لا ينطق عن الهوى .

وكأنى برسول الله - ﷺ - يشير إلى آيات بينات تطمئن المؤمن على يومه وغده ، وتبشره بصلاح الحال والمآل ، وقبول الأعمال مهما قل حجمها أو نفعها .

من هذه الآيات قوله تعالى : ﴿ وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه ﴾ (٢) .

---

(١) التوبة آية : ٢٨ .

(٢) البقرة : ٢٧٠ .

وقوله : ﴿ فاستجاب لهم ربهم أنى لا أُضِيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض ﴾ إلى قوله : ﴿ والله عنده حسن الثواب ﴾ [1] .

وفى هذا القول الحكيم لطيفة من اللطائف الشرعية يستنبطها الفقيه المتمكن فى الأصول والفروع .

خلاصتها : أن الإنفاق على من تجب علينا نفقته ثوابه أعظم من الإنفاق على من لم تجب علينا نفقته .

فالورثة مثلاً ، فيهم من تجب عليك نفقته فى حياتك فما تركته لهم بعد موتك يكون امتداداً لما أنفقته عليهم في حياتك ، وبهذا يكون سعيك موصولاً أوله بآخره ، إلى أن تلقى ربك – عز وجل – يوم القيامة .

وذلك لأن وارثك قد يترك جزءاً من مالك لوارثه ، ووارثه يترك شيئاً منه لوارثه وهكذا . . .

ولو دعا لك واحد من ورثتك يكون دعاؤه من سعيك وكسبك ؛ لأن دعاءه عندئذ يكون مرفوعاً إلى الله بعملك الصالح الذى يرفع به الكلم الطيب من دعاء وغيره .

والمرء مسئول عمن يعول وهو حى وهو ميت أيضاً إذا كان لديه ما يعينه به مما يبقى بعد خروجه من الدنيا صفر اليدين .

والناس ذكرى ، والذكر للإنسان عمر ثان ، فلا بد أن يترك الإنسان ما يذكر به من مال وغيره .

ورسول الله – ﷺ – يواسى سعداً فيخبره أن ما تركه للورثة لا يضيع عند الله أبداً ، بل قد يكون أعظم مما أنفقه .

وقد ينفعه ماله إذا طال به العمر ، فلا ينبغى أن يتسرع بإخراجه كله أو بإخراج نصفه أو ثلثه مادام يأمل فى أن يطول أجله ويحسن عمله .

وإن كان لابد أن يوصى فليكن ذلك فى حدود الثلث .

---

(١) آل عمران : ١٩٥ .

وخلاصة الخلاصة فى بيان هذه اللطيفة : أن الله عز وجل يحصى لعبده ما لا يعلم أنه حسنة من حسناته ، بل يحصى له ما يظن أنه هنة من هناته ، كاللقمة التى يضعها في فِى امرأته – أى فى فمها – بقصد ملاعبتها وإرضائها ، فإنه يثاب عليها ثواباً حسناً ، لاسيما لو سلم القصد وخلصت النية .

واللقمة شيء هين ، ولكنه عند الله عظيم ، وزوجة الرجل هى أقرب الناس إليه ، فهى الصاحب بالجنب ، ورفع اللقمة إلى فمها إحسان إليها ، وتعبير عن حبه لها ، وتقديره لحسن تبعلها ؛ لهذا قال عليه الصلاة والسلام : «لترضيها» فالثواب إذاً على أمرين – على رفع اللقمة وعلى الغرض منها .

* * *

وقد بشره النبى – ﷺ – بطول العمر مع حسن العمل ، فقال : «وعسى الله أن يرفعك فينتفع بك ناس ويُضَرُّ بك آخرون» .

أى عسى الله أن يبقيك إلى أجل مسمى فينتفع بك المؤمنون ويُضر بك غيرهم ، هذا هو المتبادر من سياق الكلام ، فقد عبر عن طول الأجل بالرفع ، ولا يخفى ما فى الرفع من رفعة ، ولا يغيب عن ذهنك – أيضاً – ما فى التعبير من اختيار اللفظ الموحى بها .

وعسى فعل من أفعال الرجاء ، وهو فى جانب الله رجاء محقق ، والمتكلم هو رسول الله – ﷺ – ولا يصدر عنه ذلك من تلقاء نفسه .

وإخباره بذلك من قبيل الإنباء بالغيب ، وهو من معجزاته – ﷺ – فقد عاش سعد بعد ذلك نحو خمسين سنة ، ولقى منه المؤمنون خيراً كثيراً ، ولقى منه أعداء الله شراً مستطيراً ، فهو من الذين قال الله فيهم : ﴿أشداءُ على الكفار رحماءُ بينهم﴾ [1] .

* * *

قال الراوى عن سعد – وهو ابنه عامر – : وكانت له ابنة ، وذلك يوم عاده النبى – ﷺ – وأوصاه بذلك ، وإلا فإن له أولاداً كثيرين ذكرهم ابن حجر فى فتح البارى نقلاً عن كتب السير .

---

(١) الفتح آية : ٢٩ .

وفائدة ذكر هذه الفقرة ، أن النبى - ﷺ - منعه من التصدق بأكثر من الثلث مع عدم وجود غيرها ممن يعوله ، وهى لا ترث إلا النصف والنصف الآخر يرثه باقى الورثة ، وهم من عصبته فلا ينبغى أن يحرمهم من حقهم فى الميراث ، لعدم وجود من يحوز التركة كلها من أبنائه ، فإن ذلك يعتبر تدخلاً سافراً فيما فرضه الله واعتداءً على حدوده ، وكثير من الناس فى هذا الزمان يحرمون الورثة من حقهم إذا لم يكن لديهم ولد يحوز التركة كلها ، مع أن الورثة من الإخوة والأعمام يكونون حماة لبنات المورث ، مسئولين عنهن مسئولية كاملة ، فكيف يكونون كذلك ويحرمون من حقهم فى الميراث ، إنه لظلم بين ، وعدوان صارخ ، وخطر داهم يتعرض له البنات من الورثة ، فقد يتخلى عنهن أعمامهن انتقاماً من آبائهن ، وغيرة منهن ، وحقداً عليهن ، (والبادى أظلم) .

هل عرفت الحكمة إذاً من قول الراوى - عامر بن سعد -: وكانت له ابنة ؟!

* * *

ويؤخذ من هذا الحديث فوق ما ذكرناه عدة فوائد وأحكام منها :

١ - أن إمام المسلمين ينبغى عليه أن يتحسس أمر الرعية ، ويخفض جناحه لهم ، ويكون فى حاجتهم ، فيعزّى مصابهم ، ويعود مريضهم ، ويوصيهم بما فيه الخير لهم فى دنياهم وآخرتهم ، فكذا كان يفعل النبى - ﷺ - مع أصحابه ، فقد كان لهم أباً رحيماً ، وأخاً ودوداً يشاركهم آلامهم وآمالهم ، ويتواضع لهم حتى يبدو كأنه واحدٌ منهم . إذا جاء غريب لا يعرفه من بينهم إلا بصباحة وجهه وحسن منطقه .

ولقد جعل له أصحابه مكاناً مرتفعاً عن مجلسهم بقليل ؛ ليعرفه من يَقْدُمُ عليهم من هنا وهناك .

ولا شك أن الحاكم إذا كان على مثال هذا الخلق الفاضل والسلوك النبيل أحبه الناس وأطاعوه ، وتعاونوا معه على البر والتقوى ، وفاز بثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة .

٢ - وفى الحديث وجوب استشارة العلماء وذوى الرأى السديد فى الأمور

الهامة ، واستفتائهم فيما يخفى حكمه ، كما فعل سعد بن أبى وقاص – رضى الله عنه وأرضاه – .

والعلماء ورثة الأنبياء في العلم ، ينبغي على الناس ألا يقطعوا أمراً دونهم ، عملاً بقوله تعالى : ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ (١) .

وأهل الذكر : هم أهل العلم بالكتاب والسنة ، والتواريخ والسِّيَر وغيرها من العلوم التى لا غنى للناس عنها .

٣ – وعلى المستشار أن يكون ناصحاً أميناً ، يرعى حال المستشير وحال من يعولهم ، ومن يعنيهم أمره ، والمستشار مؤتمن ، كما جاء فى الخبر .

فقد أرشى النبى – ﷺ – سعداً بما ينفعه وينفع ورثته ، فكانت وصية قائمة على العدل المطلق ، تحقيقاً لقوله تعالى : ﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ﴾ (٢) .

٤ – وعلى المستشار أن يُغَلِّفَ مشورته بالكلم الطيب ، والقول الرشيد ، والوعد بما يَسُرّ ، كما فعل النبى – ﷺ – مع سعد – رضى الله عنه – .

٥ – وينبغي على المسلم أن يراعى حقوق ورثته فلا يظلمهم بالوصية ، فإن كانوا فقراء فليترك لهم المال كله وله أجره ، وإن كانوا أغنياء أوصى لغيرهم بالثلث .

ولو أوصى بالربع لكان أولى ؛ لأن النبى – ﷺ – استكثَرَ الثلث ، وهو ما أشار به ابن عباس – رضي الله عنهما – .

فقد روى البخارى ومسلم أن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : لو أن الناس غضوا من الثلث إلى الربع ؛ فإن رسول الله – ﷺ – قال : « الثلث والثلث كثير » .

والإذن فى الوصية لمن اقترب أجله منحة من الله تعالى ، لكيلا يحزن على فوات ماله كله .

روى الدارقطنى عن أبى الدرداء – رضي الله عنه – عن النبى – ﷺ – قال : « إن الله تصدق عليكم بثلث أموالكم عند وفاتكم زيادة فى حسناتكم ؛ ليجعلها لكم زيادة فى أعمالكم » .

---

(١) النحل : ٤٣ ، الأنبياء : ٧ .　　(٢) الأنعام : ١٥٢ .

٦ – وهذا الحديث تقييد لمطلق القرآن ، فقد قال الله – عز وجل – : ﴿ من بعد وصية يوصى بها أو دين ﴾ (١) ، فلم يقيد الوصية بالثلث ، فجاء الحديث فقيّد هذا الإطلاق وَحَدَّه بالثلث ، فمن زاد عن الثلث ، بطلت الزيادة إلاّ إذا أجازها الورثة ، وعندئذ تكون منحة منهم لمن أُوْصِى له .

٧ – لكن إذا لم يكن للميت وارث جاز له أن يوصى بماله كله لمن شاء ، تقرباً إلى الله عز وجل؛ لأن الحديث حَدّ الوصية بالثلث حرصاً على حقوق الورثة .

(وهذا هو قول الحسن البصرى ، وأبى حنيفة وأصحابه ، وشريك القاضى ، وإسحاق بن راهويه .

وقال مالك ، وابن شبرمة ، والأوزاعى ، والشافعى ، وأحمد ، وأبو سليمان : ليس له أن يوصى بأكثر من الثلث ، كان له وارث أو لم يكن) (٢) .

والأصح الأول ؛ لأنه لا يوجد للمسلمين بيت مال ، فمن الذى يحقّ له أن يأخذه إذاً !! إن صاحب المال أولى بإخراجه إلى الجهة التى يراها ، فقد يعطيها للمقربين إليه ، أو لطلاب العلم ونحوهم .

ولو كان هناك بيت مال للمسلمين لرجحنا القول الثانى على القول الأول ؛ لأن الإمام أبصر منه حينئذ بتصريف ما ترك ووضعه فى محله ، والله أعلم .

وبعد ، فهذا ما وسعنى ذكره فى هذه الوصية ، ولو شرحها غيرى لقال فيها أكثر مما قلت .

قيل لعلى – رضى الله عنه – : العلم عند من ؟ قال : عند كل الناس .

أى أن الله – عز وجل – قد وهب من العلم لإنسان ما لم يهبه لآخر ، فصار بعضهم فى حاجة إلى بعض فى العلم ، كما هم فى حاجة بعضهم إلى بعض في أمر المعاش ، « وفوق كل ذى علم عليم » .

نسأل الله – تبارك وتعالى – أن يعلمنا من لدنه علماً نافعاً ؛ إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير .

* * *

---

(١) النساء : ١١ .

(٢) انظر أوجز المسالك إلى موطأ مالك جـ ١٢ ص ٣٢٩ ، ط المكتبة الإمدادية مكة المكرمة .

(٧٢) إنما الصبر عند الصدمة الأولى

عن أنس بن مالك – رضى الله عنه – أنَّ رسول الله – ﷺ – أتى على امرأةٍ تبكى على صَبىٍّ لها ، فقال لها : « اتَّقِى الله واصبرى » .

فقالت : وما تبالى بمصيبتى . فَلَمَّا ذَهَبَ ، قيل لها : إنه رسول الله – ﷺ – فأخذها مِثْلُ الموت .

فأَتَتْ بَابَهُ ، فلم تجد عَلَى بابه بَوَّابين ، فقالت : يا رسول الله ، لم أَعْرِفْكَ .

فقال : «إنما الصبر عند أوَّل صَدْمَةٍ» .

أو قال : «عند أول الصدمة» (١) .

*   *   *

التقوى مع الصبر من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد .

وللتقوى آثارها العميقة فى القلوب المؤمنة ، وقد تقدم الكلام فيها أكثر من مرة .

والقول الجامع لآثارها قول عائشة – رضى الله عنها – : لله در التقوى ما تركت لذى غيظ شفاءً .

والصبر أثر من آثارها ، بل هو قرينها الذى لا يفارقها ، ولكن ما هو الصبر – ما هى حقيقته وما هى أمارته ؟

هذا ما سنعرض له إجمالاً ، وسنعرض له بشىء من التفصيل فى موضع آخر؛ لأن الأمر بالصبر فى هذا الحديث خاص بالصبر عند مصيبة الموت ، فلنقصر كلامنا فيه فنقول :

الصبر هو : مواجهة الصعاب بصدر رَحْب وقلب مطمئن بالرضا بقضاء الله وقدره ، والتخلى عن كل ما يجلب اليأس والجزع بقدر الطاقة والاستعانة

---

(١) رواه مسلم كتاب الجنائز رقم (٩٢٦) جـ٢ ص ٦٣٨ ، ورواه البخارى بألفاظ متقاربة ٣ / ١٣٨ ، وفيه : «إنما الصبر عند الصدمة الأولى» .

على ذلك كله بكثرة الذكر وقراءة القرآن ، والصلاة فى جوف الليل ، والدعاء الخالص ، وسماع المواعظ ، ومفارقة الأماكن التى يشعر فيها بضيق الصدر وانقباض القلب ، والذهاب إلى الأماكن التى تشرح الصدر ، وتُذهب الحَزَنْ بشرط ألاّ يكون فيها ما لا يباح رؤيته أو مجاورته أو النزوح إليه .

ومن هذا يتبين لنا عظمة الصبر ومنزلته من الإيمان .

وقد قسَّم العلماء الصبر إلى أقسام باعتبارات مختلفة .

فقالوا : ينقسم الصبر إلى صبر على الطاعات ، وصبر عن المعاصى ، وصبر على البلاء .

أما الصبر على الطاعات فمعناه : تأدية الواجبات والسنن والمُستَحَبَّات من غير تقصير ولا تباطؤ ؛ ابتغاء مرضات الله تعالى ، وطمعاً فى رحمته وخوفاً من عذابه.

وعلامة الصبر على الطاعات ، أن يجد العبد فى الطاعات لذة لا يجدها فى غيرها مما تَشْتَهِيه نفسه ، ويشعر عند تأديتها براحة نفسية عجيبة لا يجدها إلاّ فيها .

وأما الصبر عن المعاصى فهو لا يقل شرفاً عن القسم الأول ولا يفارقه ؛ فالطاعة : امتثال الأوامر واجتناب النواهى ، ولا يسمى العبد مطيعاً إلاّ بهما .

وعلامة الصبر عن المعاصي أن يتذوق العبد حلاوة النصر على النفس ، والهوى ، والشيطان ، والدنيا ، كلما هَمَّ بمعصية ولم يفعلها .

وحلاوة النصر لا يعرفها إلاّ من ذاقها ، وهى منتهى أمل السَّاعين إلى ثواب الدنيا والآخرة معاً .

قال تعالى : ﴿وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبَشِّر المؤمنين﴾ (١) .

والنصر والفتح القريب : هو قسط من ثواب الدنيا ولا يحصل إلا بالصبر والمجاهدة .

---

(١) الصف : ١٣ .

وبشرى المؤمن نوعان : دنيوية وأخروية ، فالمؤمن يَتَقَلَّب فى أَنْعُم الله الظاهرة والباطنة ، ولا يرى فيها ما يراه غيره من النَّكد ، والكمد ، والقلق ، والحرج ، والحرمان من المتعة الحقيقية ، وذلك بسبب رضاه بقضاء الله وقدره ، وصبره على طاعته ، وتخَلّيه عن معصيته ، وشكره على نعمائه .

فهو في سعادة لو علم بها الملوك لقاتلوه عليها بسيوفهم ، فهو فقير إلى الله ، غنى بالله ، مجاهد في الله ، متوكّل على الله ، فأى سعادة أعظم من هذه السعادة ! وأى نعمة أعظم من هذه النعمة !

يقول الله عز وجل : ﴿وكأيِّن من نبى قاتل معه ربِّيُّونَ كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحبُّ الصابرين وما كان قولهم إلاَّ أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين﴾ (١) .

وثواب الدنيا يتمثّل فى القناعة والرضا ، والشعور بالأمن والاكتفاء الذاتى .

ومبدأ هذا كله من الصبر ومنتهاه إليه .

لهذا أمر الله المؤمنين أن يستعينوا به فى جميع أمورهم ، وأن يستعينوا فى تحصيله بالصلاة .

قال جل شأنه : ﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين﴾ (٢) .

وقد بين الله ثواب الدنيا فى آيات كثيرة فقال فى سورة هود : ﴿كتاب أحكمت آياته ثم فُصِّلت من لدن حكيم خبير ألا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمىً ويؤت كل ذى فضلٍ فضلَه وإن تولَّوا فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير﴾ (٣) .

والمتاع الحسن ليس فى المال والجاه ، والمنصب وكثرة الملذات ، ولكنه فى القناعة فهى كنز لا يفنى ، وهى الحياة الطيبة التى أشار الله إليها بقوله :

---

(١) آل عمران : ١٤٦ – ١٤٨ .   (٢) البقرة : ١٥٣ .

(٣) آية : ١ – ٣ .

﴿من عَمِلَ صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينّه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ (١) .

وأما القسم الثالث من أقسام الصبر ، وهو الصبر على البلاء فإنه ناشئ عن الرضا بقضاء الله وقدره كما أشرنا من قبل ، وملازم للنوعين الأولين وداخل فيهما .

والثواب على قدر المشقة ، والدرجات فى الجنة على قدر الإخلاص . ويكفيك إذا أردت أن تعرف عظمة ثواب الصابرين أن تتدبر قوله تعالى : ﴿ولَنَبْلُوَنَّكُمْ بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾ (٢) .

وانظر على وجه الخصوص إلى هذا الوعد الجامع فى قوله : ﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾ ، لتعلم بعد التأمل الدقيق : أن المراد بالصلوات النفحات التى لا يعلم مداها إلاّ الله .

والرحمة : هى الجنة ، بدليل قوله تعالى فى سورة آل عمران :

﴿وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون﴾ (٣) .

ولكن ما معنى قوله تعالى : ﴿وأولئك هم المهتدون﴾ ؟

أرى – والله أعلم – أنهم مهتدون في الدنيا إلى ما يرضاه الله لهم ، ويرضونه لأنفسهم .

ومهتدون فى الآخرة إلى الصواب فى القول .

أخذاً من قوله تعالى : ﴿لا يتكلمون إلاّ من أذن له الرحمن وقال صواباً﴾ (٤) ، فهم أهل الصواب في الدنيا والآخرة .

وهم مهتدون فى الآخرة أيضاً إلى طريق الجنة ، وإلى ما أعده الله لهم فيها

---

(١) سورة النمل : ٩٧ .
(٢) البقرة : ١٥٥ – ١٥٧ .
(٣) آية : ١٠٧ .
(٤) النبأ : ٣٨ .

بحيث يعرف كل مؤمن درجتـه ومسـكنه وأهله فيهـا بيسر مُيَسّر بلا نصب ولا لغوب .

قال تعالى : ﴿ فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يُحاسب حساباً يسيراً وينقلب إلى أهله مسروراً ﴾ (١) .

والصبر على البلاء درجات ، من أعظمها الصبر عند الصدمة الأولى ؛ فإنها تسلب الإنسان غالباً لُبَّهُ ، وتفزع قلبه ، وتفسد مزاجه وتتلف أعصابه – فَيَنْسَى عند وقوعها حلمه ، فيقول ما لا ينبغى أن يقال ، ويأتى من الأعمال ما لا يليق بمثله أن يأتيها .

فإذا ما ملك نفسه عند وقوع الصدمة ، واسترد حلمه على وجه السرعة ، أقلع عما بدر منه فوراً أو بعد وقوعها بقليل ، واسترد عافيته ، واستلهم رشده ، وعاد إلى ما كان عليه حاله قبلها ، بل ربما ازداد بها إيماناً مع إيمانه ، وسكينة على سكينته ، بل ربما يفرح بوقوع الصدمة ويعتبرها فى ميزان حسناته وتكفيراً لسيئاته ، ويقول فى نفسه : « ذنب عُجِّلت عقوبته » و « عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة » .

وأعظم ما يُعَبِّرُ به المسلم عن الرضا بالقضاء والقدر قوله : « إنا لله وإنا إليه راجعون » ، بحيث تَصْدُرُ من أعماق قلبه .

ولكى تهون عليه مصيبته ينبغى أن يُرَدِّدها كثيراً كلما لاح له شبح الصدمة ، أو أطلّ عليه من بعيد .

والشيطان يحاول جهده أن يستدعى للإنسان خواطره السابقة ، ويوردها عليه كلما نسيها أو حاول أن يتناساها ؛ ليُحزِنَ قلبه ، ويُشَتِّت ذهنه ، ويجلبَ عليه اليأس والقنوط والجزع والهلع ، ويعوقه عن الفرار إلى الله .

ولا يردّ الشيطان عن هذه الوسوسة إلاّ ذكر الله – عز وجل – .

وأعظم أنواع الذكر عند نزول المصيبة هى تلك الكلمة التى كان يرددها النبى – ﷺ – فى كل شئ نزل به أو بأهله .

* * *

---

(١) الانشقاق : ٧ – ٩ .

... ونعود إلى النظر فى الحديث من أوله فنجد أن المرأة التى تبكى على صبى لها قد مات يأمرها النبى - ﷺ - بالتقوى والصبر ، ولم ينهها عن البكاء ؛ لأنها لا تستطيع أن تكفكف دمعها بسهولة ، وهو لا يتنافى مع الصبر ؛ لأنه رحمه ، وإنما يتنافى معه إظهار الجزع والهلع بلطم الخدود وشقّ الجيوب وغير ذلك مما كان يقوله الناس ويفعلونه فى الجاهلية .

وقد أفتى جمهور الفقهاء بجواز البكاء على الميت ولو بصوت مرتفع إذا لم يصحبه صراخ ، أو لطم للخدود ، أو شق للجيوب - كما ذكرنا - أو دعاء بالويل والثبور ، وذِكْر ما كان للميت من نسب منيع ، ومقام رفيع ، ونحو ذلك من الدعاوى .

فقد بكى النبى - ﷺ - على ولده إبراهيم حين مات وهو ابن سبعة عشر شهراً ، وبكى على بعض أصحابه ، كعثمان بن مظعون ، وسعد بن معاذ - رضي الله عنهما - ، وبكى على بعض بناته - رضى الله عنهن - ، ووردت فى ذلك أحاديث كثيرة .

منها ما رواه ثابت البنانى - رضى الله عنه - عن أنس - رضى الله عنه - قال : دخلنا مع رسول الله - ﷺ - على أبى سيف القيّن [١] وكان ظئراً [٢] لإبراهيم ، فأخذه رسول الله - ﷺ - فقبله وشمه ، ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه ، فجعلت عينا الرسول - ﷺ - تزرفان ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : وأنت يا رسول الله ؟ !

فقال : « يا ابن عوف ، إنها رحمة » ، ثم اتبعها بأخرى .

فقال رسول الله ﷺ : « إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون » [٣] .

وعن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : اشتكى [٤] سعد بن عبادة شكوى له فأتاه النبى - ﷺ - يعوده مع عبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن

---

(١) القين : هو الحداد .
(٢) الظئر : زوج المرأة المرضعة .
(٣) رواه البخارى .
(٤) مَرِض .

أبى وقاص ، وعبد الله بن مسعود ، فلما دخل عليه وجده فى غشية فقال : قد قضى [1] ؟ .

فقالوا : لا يا رسول الله .

فبكى - ﷺ - فلما رأى القوم بكاءه بكوا .

قال : «ألا تسمعون ! إن الله لا يعذب بدمع العين ، ولا بحزن القلب ولكن يعذب بهذا - وأشار إلى لسانه - أو يرحم » [2] .

وعن عائشة رضى الله عنها - قالت : إن سعد بن معاذ لما مات ، حضره رسول الله - ﷺ - وأبو بكر وعمر .

فوالذى نفس محمد بيده إنى لأعرف بكاء عمر من بكاء أبى بكر وأنا فى حجرتى ، وكان كما قال الله تعالى : ﴿ رحماء بينهم ﴾ [3] .

وهذا الحديث يدل على جواز البكاء بصوت مرتفع ؛ لأن عائشة استطاعت أن تميز بكاء عمر من بكاء أبى بكر - رضى الله عنهما - .

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه لما ماتت زينب - رضى الله عنها - بكى النساء ، فجعل عمر يضربهن بسوطه ، فأخذ رسول الله - ﷺ - بيده وقال : «مهلا ياعمر» . ثم قال : «ابكين وإياكن ونعيق الشيطان» ، ثم قال : «إنه مهما كان من العين والقلب فمن الله - عز وجل - ومن الرحمة ، وما كان من اليد واللسان فمن الشيطان » [4] .

والإسلام واقعى فى منهجه لا يأمر إلاّ بما فى طاقة الإنسان ، ولا ينهى عن شيء فيه مصلحته .

* * *

---

(١) أى هل مات .
(٢) رواه البخارى ومسلم .
(٣) رواه أحمد .
(٤) رواه أحمد أيضاً .

وحين قال النبى – ﷺ – للمرأة : « اتقى الله واصبرى » – لم ترض بهذا القول لشدة حزنها على صبيِّها ، فقالت : وما تبالى بمصيبتى ! . أى : أو ما تبالى بها، أو إنك لا تبالى بها .

وفى رواية البخارى قالت : إليك عنى فإنك لم تصب بمصيبتى .

ولم يُصَرِّح فى روايته أنها تبكى على صبى لها ، ولكن جاء فى صحيحه أنها كانت تبكى عند قبر ، فأفصحت رواية مسلم أن هذا القبر لصبى لها .

قال في رواية البخارى : ولم تعرفه .

فلما ذهب الرسول – ﷺ – عنها . قيل لها : إنه رسول الله – ﷺ – .

فلما أخبرت بذلك أصابها شىء من الإغماء من شدة الفزع والخجل ، والخوف من عذاب الله ومن غضب رسوله – عليه الصلاة والسلام – حتى بدا للناس أنها أشرفت على الموت .

فلما أفاقت من صدمتها التى ربما كانت أعظم من صدمتها فى صَبِيِّها أتت إلى النبى – ﷺ – فى بيته أو مسجده ؛ لتعتذر إليه حتى يرضى عنها ، ويصفح عن ذلتها ، فلم تجد من يحرسه ويقف ببابه ليرد الناس عنه ، أو يستأذن لهم فى الدخول عليه ، فهالها ذلك أيضاً ، وأدهشها حاله – كيف يكون بهذه العظمة وليس له من يرُد الناس عن بابه ، ويحرسه فى ليله ونهاره .

فقالت والحزن والأسف يملأ قلبها كلمة فيها العذر كله : يا رسول الله ، لم أعرفك . ولم تزد عليها ، فتقبّل النبى – ﷺ – عذرها ، وهو يعرفه سلفاً بنور بصيرته ، وبادرها بقوله : «إن الصبر عند أول صدمة» أو قال : «عند أول الصدمة» شك من الراوى .

والمعنى متقارب ، إلاّ أن الفقرة الأولى تفيد أن الصدمة الأولى في حياة الإنسان إذا صبر عليها تَدَرَّب على غيرها من الصدمات التى تدانيها أو تساويها أو تعلوها ، وحصلت له بكثرة الصبر قوة خارقة للعادة على تحمُّل الشدائد ومواجهة الصعاب ، وصار من أولى الحزم والعزم فى جميع الأمور .

﴿ ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ [1] .

والفقرة الثانية : تدل على أن الصدمة إذا وقعت يكون وقعها فى بادئ أمرها شديداً ، ثم تزول شدته شيئاً فشيئاً ، فإذا ما صبَّر المرء نفسه فى أولها تلاشى وقعها على نفسه في وقت قريب ، وربما يتلاشى بعد وقوعها بلحظة إذا ما استجمع قواه واستحضر فى ذهنه. قوله تعالى :

﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ [2] .

وقوله تعالى :

﴿ ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير لكيلا تأسَوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور﴾ [3] .

وقوله تعالى :

﴿ ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يَهْدِ قلبه والله بكل شيء عليم﴾ [4] .

وغير ذلك من الآيات والأحاديث التى تحث على الرضا والصبر والشكر ، والزهد والقناعة ، وتهون على المسلم هول المصاب .

وفى رواية البخارى أن النبى – ﷺ – قال لها : « إنما الصبر عند الصدمة الأولى » .

أى إنما الصبر الذى يحمد عليه المسلم كل الحمد ما كان عند الصدمة الأولى ، أو عند مفاجأة المصيبة .

ولعل الرسول – ﷺ – قد عدل عن التصريح بقبول عذرها ولم يفصح عن رضاه عنها ، لكى يُلَقِّنها درساً ينفعها في دينها ودنياها ، وهى تفهم من خلال هذه المقولة أنه قد قبل عذرها وعفا عنها ضمناً ؛ إذ لم يصرح لها بعدم القبول والرضا .

---

(١) الشورى : ٤٣ .
(٢) التوبة : ٥١ .
(٣) الحديد : ٢٢ – ٢٣ .
(٤) التغابن : ١١ .

وكأنه قال لها : دعك من الاعتذار فقبوله أمر هين ، وأنا لا أغضب إلاّ لله ، فانظرى فى أمرك واصبرى على مصيبتك لتحصلى على أجر الصابرين ؛ فإن جزعك على ولدك قد فَوَّت عليك الكثير مما أنت فى حاجة إليه فى أمر معاشك ومعادك ، إلى آخر ما تحتمله هذه الوصية من العظات والعِبَر .

ويكفينا ما ذكرناه فى فضيلة الصبر ، وسيأتى الكلام عنه في مواضع أخرى كما وعدناك – أيها القارئ الكريم .

وبالله التوفيق .

*　　*　　*

(٧٣) أَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا ما يَسُرُّكُمْ

عن عمرو بن عوف الأنصارى – رضى الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – بعثَ أبا عبيدة بن الجراح – رضى الله عنه – إلى البحرين يأتى بجزْيَتِهَا ، فقدم بمالٍ من البحرين ، فَسَمِعَتِ الأنصار بقدوم أبى عبيدة ، فَوَافَوْا صلاةَ الفجر مع رسول الله – ﷺ – .

فَلَمَّا صلى رسول الله – ﷺ – ، انصرف ، فَتَعَرَّضُوا له ، فَتَبَسَّمَ رسول الله – ﷺ – حين رآهم ، ثم قال : «أَظُنُّكُم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشىء من البحرين ؟ » فقالوا : أجل يا رسول الله .

فقال : «أبشروا وأَمِّلوا ما يَسُرُّكُمْ ، فوالله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكنِّي أخشى أن تُبْسَطَ الدنيا عَلَيْكُم كما بُسطَتْ على مَنْ كان قبلكم ، فتَنَافَسُوها كما تَنافَسُوهَا ؛ فَتَهلِكَكُمْ كما أَهْلَكَتْهِمْ» (١) .

* * *

المال عصبُ الحياة وعمودها الفقرى وشريانها الحيوىّ ، لا غنى عنه ، والزهد فى طلبه مكابرة ، والعيب كل العيب ، والخزى كل الخزى فى اتخاذه معبوداً .

قال عليه الصلاة والسلام : «تعس عبد الدرهم والدينار ، وعبد الخميصة ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش» (٢) .

فالرسول – ﷺ – لم يقل : تعس طالب الدرهم والدينار ، وإنما قال : «تعس عبد الدرهم والدينار» .

والفرق بين اللفظين ظاهر .

والأنصار لم يكونوا أبداً من عباد الدرهم والدينار ، وإلا ما كان هذا حالهم من الفقر والجوع ، فى الوقت الذى كان فيه اليهود من حولهم يكنزون الذهب

---

(١) أخرجه مسلم كتاب الزهد والرقائق ح (٢٩٦١) ، ورواه البخارى فى الجزية (١) ، وفى المغازى (١٢) ، وفى الرقاق (٧) وغيرهما .

(٢) رواه البخارى وغيره .

والفضة في بيوتهم ، ويملكون نواصي الأسواق هنا وهناك ، فلا عجب أن يأتي جماعة منهم إلى النبي - ﷺ - حين علموا أن مالاً جاءه من البحرين ، ويتعرضوا له ؛ ليفطن إلى حالهم فيعطيهم من فضل الله تعالى .

نعم لا عجب في هذا ، فهو من باب الأخذ بالأسباب ، والسعي على الرزق الحلال وطلبه ممن بيده الأمر والنهي ، والعطاء والمنع بإذن الله تعالى ، وهو الرسول - ﷺ - ، وهو الرءوف الرحيم بالمؤمنين ، فهو أرحم بهم من أنفسهم على أنفسهم ، وأشد بهم رأفة من الوالد على ولده .

وما جيء بالمال إلا من أجلهم ، وحاجتهم إليه مُلحَّةٌ ، والضرورات تبيح المحظورات ، وإنهم لم يكونوا على هذا التعرض بملومين ، ولا في طلب المال مُلحِّين ، بدليل أنهم عرضوا أنفسهم على النبي - ﷺ - دون أن يسألوه حياءً مِنَ الله - عز وجل - وحياءً منه - ﷺ - .

وهكذا حال المؤمنين مع الله - عز وجل - يسألونه بقلوبهم ، ويباشرون الأسباب كما أمرهم ، وهذا منتهى التوكل على الله .

أما من لم يباشر الأسباب ولم يسع لتحصيل المطالب ، فهو متواكل وليس بمتوكل .

وقد عرف النبي - ﷺ - حالهم ، وأدرك أنهم ما تعرضوا له إلا لشدة ما بهم من الفقر والمسغبة ، فعذرهم في ذلك ، ولكنه حذرهم من مَغَبَّة التمادي في طلب المال إلى الحد الذي يتنافسون في جمعه وتحصيله ، فقال - ﷺ - وهو يبتسم : «أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء من البحرين ؟ » ، وهو سؤال يفيض حباً وحناناً وإعجاباً بهذا الحرص المحمود على طلب الرزق ، وابتسامه خير شاهد على ذلك .

إن هذا التَّبَسُّم - فوق أنه دليل على ما ذكرت - يبدد ما قد يلحقهم من خجل عند سماع هذا السؤال والجواب عليه .

إنه يقول لهم بتبسمه هذا كلاماً كثيراً يقتحم أعماق القلوب دون أن تسمعه الآذان ، يفسره كل واحد منهم على حسب حاله من القرب والحب ، فما أكرم هذا الرسول وما أحلمه ! وما أعظم خلقه الفاضل وسلوكه النبيل !

النظرة منه نضارة فى وجه المنظور إليه ، والبسمة منه بلسم شافٍ لمن يلقاه بقلب مخلص ووجه بشوش .

ثم يغتنم النبى – ﷺ – هذه السانحة ليذكرهم بما قد يتعرضون له فى مستقبل حياتهم من الفتن ، ويبشرهم بما سوف يلقونه من خير كثير على أيدى الفاتحين منهم لبلاد الفرس والروم وغيرهما ؛ إذ يُبْتَلَون بفتنة أكبر من فتنة الفقر فى طغيانها المغرى بالأثرة وحب الذات ، والعجب والكبر والرياء وغيرها من آفات الغنى .

والفقر والغنى محنتان ومنحتان كما سنبين بعد قليل .

إنه يقول لهم بعد أن اعترفوا بالمقصد الذى جاءوا من أجله : «فأَبْشِروا وأَمِّلُوا ما يَسُرُّكُمْ ... إلخ» .

والفاء واقعة فى جواب شرط مُقَدَّر ، والمعنى : فإن كان الفقر سبباً فى تعرضكم لى وطلبكم منى شيئاً من المال الذى جاءنى لسد حوائجكم ، فأبشروا بذلك ؛ فإنى لا أرد سائلاً سألنى ، ولا أقطع رجاء عبدٍ ارتجانى ، والمال مال الله ، والناس فيه شركاء ، وأنا خليفة الله فيه ، إلى غير ذلك مما يتسع له هذا الأمر المنتظر حصوله، فهو جواب على سؤالٍ دلّ عليه حالهم ، فاغنت الحال عن المقال .

والعرب إذا وعدوا بشىء قالوا : أبشر ، أى قضيت حاجتك أو ستقضى عن قريب ، فهى كلمة ذات وقع طيب على القلوب ، وفيها ما فيها من جمال التَّلَقِّى وحسن التفاؤل .

وأما قوله : «وأملوا» فمعناه : اطلبوا ما تشاءون فإنى لا أرد لكم طلباً مادمت قادراً على تلبيته ، والأمل فى الخير محبوب ، ولا سيما إذا أصاب موضعه، وأنتم مؤمنون ، تأملون الغنى وتخشون الفقر وهذا أمر لا يقدح فى إيمانكم ؛ لأنه طبع من طبائع البشر ، وجبلة لا تفارقهم ، والمال خَضِرَةٌ حلوة ، وفيه من المنافع الكثيرة ما لا يحصى ، وقد قلنا إنه عصب الحياة ، وعمودها الفقري ، وشريانها الحيوى ، فكيف يكون الأمل فيه عبثاً ، أو باطلاً ، أو قادحاً فى الإيمان ؟

ولكن وراء قوله – ﷺ – : «فأبشروا وأملوا» كلام حكيم يضع حَدّاً لهذا الأمل ينتهى إليه ، ويرده إلى الوسطية وهى : الإجمال فى الطلب .

فإذا كان الفقر له مضاره ، فللغنى – أيضاً – آفاته .

والخير كل الخير فى الوسط والاعتدال ، بحيث يكون المسلم عنده ما يكفيه وليس لديه ما يطغيه .

* * *

يقول النبى – ﷺ – : «فوالله ما الفقرَ أخشى عليكم ، ولكنى أخشى أن تُبْسَطَ الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم ، فَتَنَافَسُوهَا كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم» .

إنه يقسم بالله على أمر مُحَقَّق الوقوع ، فهو يخشى عليهم الفقر حقاً ، ولكن خشيته عليهم من الغنى أشد ، وذلك لأن الفقر وإن كان فيه بؤس وشدة ومذلة فهو محمود العواقب فى الغالب بالنسبة للمؤمن ؛ لأن عزة الإيمان تنفى ذل الفقر ، وحاجة المؤمن إلى رضا الله أعظم بكثير من حاجته إلى رضا النفس ، وهواه فى طاعة الله أعظم ألف مرة من هواه فى الشهوات والملذات ؛ فالمؤمن الحق ما كان هواه تبعاً لما جاء به الرسول – ﷺ – .

بل إن الفقر أحياناً يذكر بالله ، ويحمل العبد على التضرع والدعاء ، وإظهار الافتقار ، وهذا كله من كمال العبودية .

بخلاف الغنى فإنه يشغل المرء حتى عن نفسه ، فتراه يتفانى فى جمع المال ليلاً ونهاراً فلا يريح ولا يستريح ، حتى يُوَسَّد فى التراب دفيناً .

يقول رسول الله – ﷺ – : «لو كان لابن آدم واديان من مالٍ لابتغى ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلاّ التراب ، ويتوبُ الله على من تاب » [١] .

ويقول : «منهومان لا يشبعان : منهوم فى العلم لا يشبع منه ، ومنهوم فى الدنيا لا يشبع منها» [٢] .

---

(١) رواه البخارى ومسلم وغيرهما .

(٢) رواه الدارمى فى المقدمة ٣٢ .

وبسط الدنيا : فتح أبواب الخير فيها ، وفتحها محنة لبعض الناس ، وهم الذين يتكالبون على حطامها ، ويشغلهم ذلك عن تأدية الواجبات ، ويحملهم على ارتكاب المعاصى ، ويشغلهم عن ذكر الله ، وينسيهم أنفسهم ، حتى يأتيهم الموت فيندمون ندماً لا ينفعهم .

﴿ يومئذٍ يتذكَّر الإنسان وأنَّى له الذكرى يقول ياليتنى قدمت لحياتى ﴾ (١) .

ومنحة للأخيار من الرجال ، فنعم المال الصالح مع الرجل الصالح . والغنى الشاكر أفضل من الفقير الصابر ، كما قال أكثر العلماء .

فالفقر والغنى محنتان ومنحتان إذاً – كما أشرت من قبل .

قال تعالى : ﴿ ونَبْلُوكُم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ﴾ (٢) .

والرسول – ﷺ – لا يخشى من فتح أبواب الخير على المسلمين فذاك ما يرجوه لهم ، ولكنه يخشى عليهم من أن يتنافسوها ويتجاذبوها فيما بينهم كما فعل الذين من قبلهم ، فيقتتلون عليها ، ويشغلون عن عدوهم بأنفسهم ، وتقوم بينهم الحروب على بعض كيلو مترات من الأرض ، أو عدة آبار من البترول ، مما لا يساوى النظر إليه . وقاتل الله الشحّ حيث كان ؛ فالهلاك كل الهلاك فيه .

قال تعالى : ﴿ ومن يُوْقَ شحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ (٣) .

ومفهوم الآية أن من لم يتق الشح فليس بمفلح أبداً لا فى دنياه ولا فى آخرته .

وقوله – ﷺ – : « فتهلككم كما أهلكتهم » المراد بها الدنيا ؛ فإنها تَغُرُّ أكثر الناس حتى العلماء الذين من شأنهم أن يكونوا قدوة للناس فى الزهد والورع .

وقد تكلمنا عن الزهد فى الدنيا عند شرح حديث « ازهد فى الدنيا يحبك الله » فلا نعيد الكلام فيه هنا .

* * *

---

(١) الفجر : ٢٣ – ٢٤ . (٢) الأنبياء : ٣٥ . (٣) الحشر : ٩ .

ويؤخذ من هذا الحديث فوق ما ذكرنا عدة فوائد منها :

١ – أن أمير القوم ينبغي أن يكون أحسنهم خُلُقاً ، وأزكاهم نفساً ، وأذكاهم عقلاً ، وأطيبهم منطقاً ، وأرحمهم بمن يستحق الرحمة ، وأشدهم على من يستحق الشدة ، يحب قومه فيحبونه ، يلين لهم فَيَلينُونَ له ، ويكون لهم حافظاً لحقوقهم ، أميناً على أعراضهم وأموالهم ، قواماً على شئونهم بالليل والنهار ، يتحسس الفقير منهم فيعطيه ، ويتتبع الغنى منهم فيأخذ منه حق الفقير والمسكين وابن السبيل ، ويكون قدوة لهم فى الخير دائماً ، وإمامهم فى التقى والخوف من الله – عز وجل – فعندئذ لا يخاف على نفسه ولا على دينه ولا على أمته من شيء يأتيه من غير عدوه .

واعتبر بقول الرومى الذى جاء إلى المدينة فوجد خليفة المسلمين عمر ينام فى المسجد من غير حرس ، قد وضع رأسه على حجر ، اعتبر بقوله : حكمت فعدلت فأمنت فنمت ياعمر .

٢ – أن أموال المسلمين ينبغى أن تصرف فى مصالح المسلمين وأن تبذل لمن يحتاج إلى المعونة منهم من غير تعرض لمذلة ولا عناء ، حتى يشعر بحلاوة العدل وروح التعاون وأخوة الإيمان .

فإذا تعرض فقير لغنى يريد منه شيئاً وهو قادر على تحقيقه فلا ينبغى أن يحمله على السؤال ، بل يجب أن يعطيه قبل أن يسأله متى فطن لحاله ، فهذه هى الأخوة الصادقة ، وهذا هو الإيمان .

وقد ذكرت فى حديث سابق : أن الأخوة على ثلاث مراتب ، كما يذكر الغزالى فى الإحياء .

المرتبة الدنيا : أن تعطى أخاك ما هو فى حاجة إليه دون أن يسألك ؛ فإن حملته على السؤال ، فلست له بأخ .

والمرتبة الوسطى : أن تخلط مالك بمال أخيك ، فلا تسأله كم أخذ ولِمَ أخذ .

والمرتبة العليا :أن تؤثر أخاك على نفسك،مع شدة حاجتك إلى ما تؤثره به .

٣ – ينبغى على المسلم إن رأى أخاه قد بدأ يأخذ فى طلب الدنيا ، ولاحظ أنه يترك بعض الواجبات الدينية في سبيل ذلك – أن يذكره بالله ، ويحذره من التفانى فى طلبها ، ويبين له مغبّة ذلك ، ويقص عليه من أخبار الماضين ما يحمله على الزهد فيها ، والتغاضى عن شهوات النفس وأطماعها ، كما فعل النبى – ﷺ – بأولئك النفر من الأنصار .

ولا تظن – أيها الأخ القارئ – أن الأنصار جاءوا كلهم إلى النبى – ﷺ – وتعرضوا له ؛ فالجمع فى الحديث ليس مراداً ، فليس من المعقول أن يأتوا جميعاً عن بكرة أبيهم ؛ فإن منهم الغنى ، ومنهم الزاهد الورع ، ومنهم من منعه الحياء، إلى غير ذلك من الموانع .

نسأل الله أن يرزقنا وإياك فهما صحيحاً وعلماً نافعاً فى كتابه – عز وجل – وسنة رسوله – ﷺ – .

* * *

(٧٤) إذا أبصر أحدُكم امرأة فليأت أهله

عن جابر بن عبد الله – رضي الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – رأى امرأة ، فأتى امرأتَهُ زينب ، وهى تَمْعَسُ مَنِيئَةً لها ، فقضى حاجَتَهُ .

ثم خرج إلى أصحابه فقال : «إن المرأة تُقْبِلُ فى صورة شيطان ، وتُدْبِرُ فى صورة شيطان ، فإذا أبصر أَحَدُكُمُ امرأة فليأت أهله ؛ فإن ذلكَ يردُّ ما فى نفسه» [١] .

* * *

كان النبى – ﷺ – يعطى أصحابه القدوة من نفسه ، فيريهم كيف تكون الخشية من الله فى أسمى صورها ، وكيف تكون الوقاية من الفتن حين تَعْرِض للمسلم فى وقت يظن أنه مواقعها .

إنه يُبْصِرُ امرأة من بعيد ، فيخشى على نفسه – وهو المعصوم – أن يقع فى نفسه شيء، كأن يعجبه منظرها أو مظهرها ، أو يشعر نحوها بشيء ما من الحب، وهو أمر لا يملكه ، أو بشيء ما من الميل الجنسى ، وهو أمر قد لا يستطيع التحكم فيه ، فيدخل على زوجته زينب بنت جحش – رضى الله عنها – ، وهى تغسل منيئة لها [٢] ، فلا يمهلها حتى تنتهى من غسلها ، فيقضى معها حاجته منها ، ثم ينصرف فيغتسل ، ثم يخرج على أصحابه ، وقد أمن على نفسه من الوقوع فيما يعاب به ، والعيب لا يلحقه أبداً ، والخطيئة لا تحوم حوله بأى حال ، ولكن ذنبه من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين ، وهو مغفور كله ما تَقَدَّم منه وما تَأَخَّر، فيقول لهم ناصحاً مرشداً: «إن المرأة تقبل فى صورة شيطان، وتدبر فى صورة شيطان، فإذا أبصر أحدكم امرأة فليأت أهله فإن ذلك يرد ما فى نفسه» .

يعنى يدفع عنه ما وقع فى نفسه نحوها من وساوس الشيطان ونزغات الهوى، وكوامن الحس ، وميل الطبع ، ومعاودة النظر إليها .

---

(١) رواه مسلم كتاب النكاح ، باب من رأى امرأة فوقعت فى نفسه جـ ٢ ص ١٠٢١ حديث رقم (١٤٠٣) .

(٢) المعس فى أصل اللغة الدلك ، والمنيئة هى الجلد أول ما يوضع فى الدباغ .

فإنه إن قضى حاجته مع امرأته انكسرت شهوته ، وذهبت حِدَّتُهَا ، واستوت عنده النساء ، ووجد أنّ ما معها هو الذى معها ، فامتلأت عينه بما معه، واستقام طبعه ، وهدأت نفسه ، وانقطع فى غير الحلال رجاؤه .

ومن أجل هذا شرع النكاح ، فكان واجباً على من اشتدت حاجته إليه ، وخشى على نفسه الزنا ، وكان قادراً على النفقة .

واستحب لمن كان فى حاجة إليه ، وكان قادراً على النفقة ، ولكن لا يخشى على نفسه الزنا ؛ لأنه لا يأمن على نفسه منه فى جميع الأحوال .

والزواج من الأمور التى تعتريها الأحكام الخمسة كما قال الفقهاء ، فليراجع تفصيل ذلك فى كتبهم .

* * *

ومعنى قول الراوى : أن النبى – ﷺ – رأى امرأة : أى أبصرها بعينيه قبل أن يبصرها قلبه ؛ فإن قلوب الأنبياء مصونة عن مثل هذا ، فقلوبهم بالله مشغولة، وبَوَاطنهم طاهرة لا يعتريها شيء من التفكير فيما سوى الله .

وقد عرفنا فى أحاديث سابقة : أن الطهارة بمعناها الواسع أربعة مراتب :

١ – طهارة الباطن مما سوى الله تعالى ، وهو مقام الأنبياء .

٢ – وطهارة القلب من كل ما يعكر صفو الإيمان من الحقد والحسد والعجب والكبر والغرور والرياء وما إلى ذلك من الصفات المرذولة والأخلاق المذمومة .

٣ – وطهارة الجوارح مما حرّم الله .

٤ – وطهارة الظاهر من الأحداث والأخباث والفضلات ، وهو واجب على كل الناس تحصيله .

وعينه التى رأى بها هذه المرأة لم تكن رسولاً لقلبه ؛ لأن قلبه مشغول بذكر ربه ، فهو قد أبصرها دون أن يتعمد ذلك ، أو يطرأ على ذهنه .

هذا هو الفهم الصحيح للعصمة النبوية ، فلا يغب عن ذهنك ذلك .

والمرأة فى عصر النبى - ﷺ - كانت مُحتشِمَةً لا تَمَكّن أحداً من النظر إليها ، ومع ذلك تبدو فى صورة شيطان .

بل إن المرأة المُحتشِمَة تكون أحياناً أشد إغراءً للرجل من المتبرجة إذا خالطت الرجال ؛ لأن أحب شيء إلى الإنسان ما منع .

والاحتشام مرغوب فى المرأة ، يبعث فى النفس كوامن الحس .

وعليها وقار يُرَغِّب الرجال فيها حلالاً أو حراماً ، ويدعوهم إلى النظر إلى ما تحت الحجاب ، وللشيطان فى ذلك مداخل كبيرة .

وحُرّ النساء بُعْدُهْن عن الرجال .

صحيح أن التبرج فيه فتنة ، لكن للمهاويس من الرجال الذين يَغُرُّهُم حسن المظهر فقط .

أمّا العقلاء من الرجال فيعجبهم فى المرأة حسن المظهر وحسن المخْبر معاً ، فهم من أجل هذا ينظرون فيما وراء النقاب ليتعرفوا من الوجه على الأمرين معاً ؛ إذ إن حسن المخْبر ينعكس على الوجه فينيره بنور الإيمان ، ويتوجه بسماحة الإسلام ، فيكون للوجه وجاهتان : وجاهة ظاهرة ، ووجاهة باطنة .

والرجل يميل إلى المرأة ميلاً نفسياً وجنسياً ، ولكن لا يميل إليها جنسيا إلاّ بعد أن يتحقق الميل النفسى ، فالميل النفسى هو الأصل ، والميل الجنسى تبع له .

ومن هنا نعلم أن المرأة تقبل فى صورة شيطان ، وتدبر فى صورة شيطان ، ولو كانت محجبة منقبة ، فالحكم عليها بذلك عام .

ولو لم يكن كذلك ما عمم النبى - ﷺ - الحكم بقوله : «فإن المرأة تقبل فى صورة شيطان وتدبر فى صورة شيطان» .

فأداة التعريف فى المرأة للجنس كله ، فتدبر هذا تجده صحيحاً .

والرسول - ﷺ - ناموسٌ ينفذ من خلاله الوحى منعكساً على أمّتِه ، فيكون الخطاب له والمراد أمته ، كقوله تعالى : ﴿يا أيها النبى اتق الله﴾ .

وقوله جل شأنه : ﴿ولا تجعل مع الله إلهاً آخر﴾ .

وقوله عز شأنه : ﴿ والرجز فاهجر ﴾ .

وكذلك حين رأى المرأة لم يكن ليتأثر برؤيتها لكنه كان يطبق القرآن بحذافيره تطبيقاً تاماً، فيتعلم منه الناس معانيه ومراميه من خلال أفعاله وأقواله. وكانوا يتعلمون من أفعاله أكثر مما كانوا يتعلمونه من أقواله .

وقد قلت فيما سبق : إن النبى – ﷺ – ذِكْرٌ ترجم الذكر بخلقه الفاضل وسلوكه النبيل ، فقد عمل بالقرآن حتى تَقَرْأن ، فبدا للناس قرآناً تراه أعينهم كما تسمعه آذانهم .

* * *

وتصوير المرأة بأنها شيطان ليس ذمًّا لها ، ولا حَطًّا من شأنها ، ولا لتزهيد الرجال فيها ، فهذا غير مقصود .

إنما المقصود فى الحقيقة هو حفظ الرجال من الوقوع فى حبالها ، وحفظها أيضاً مما يتأتى منهم من اختلاس النظر إلى مفاتنها ، وإيذائهم لها بالألسنة والأيدى .

ولهذا أمر الله الرجال والنساء على السوية بغض النظر، وحفظ الفرج فقال: ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجَهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون وقل للمؤمنات يغضُضْنَ من أبصارهن ويحفظْنَ فروجَهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخُمُرهن على جيوبهن ... ﴾ (١)الآية .

وقال الله – عز وجل – : ﴿ يا أيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يُدنينَ عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يُعرفن فلا يُؤذين وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ (٢) .

والشيطان يأتى الرجال من قِبَل النساء مقبلات ومدبرات .

فإن أقبلت أغراهم بوجهها وثدييها .

وإن أدبرت عنهم أغراهم بعجيزَتها .

---

(١) سورة النور : ٣٠ – ٣١ .	(٢) سورة الأحزاب : ٥٩ .

حتى ولو كانت عجوزاً ؛ فإن الشيطان يُلبِّس على الرجال بأنها أنثى ولا كل النساء ، ويملى لهم أن بها جمالاً نادراً ، وأنوثة ساحرة ، ويوسوس لهم بما يحملهم على النظر إليها ، والابتسام لها ، والكلام معها ، و .. و .. إلى آخره ، حتى يتم مراده منهما .

فالأَوْلى ثم الأَوْلى أن الرجل إذا رأى امرأة أن يغض الطرف عنها قبل أن يسلك الشيطان به خطوات لو دخل فى الأولى ربما يتمكن من العدول عنها حتى يدخل الثانية والثالثة إلى آخر ما يريده الشيطان له .

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خُطُواتِ الشيطان ومن يتَّبعْ خُطُواتِ الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضلُ الله عليكم ورحمته ما زكَى منكم من أحد أبداً ولكن الله يُزكِّى من يشاء والله سميع عليم ﴾ [١] .

وقد ضرب الله حصاراً شديداً على الرجال والنساء فمنع اختلاط بعضهم ببعض من أجل تلاشى الفتنة بجميع صورها ، حتى يظل المؤمن على طهره ونبله وحسن خلقه بعيداً بعيداً كل البعد عن هواجس النفس ونزغات الهوى ووساوس الشيطان . ولا يخفى ما فى ذلك من استبراء للدين والعرض .

قال الله – عز وجل – : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون ﴾ [٢] .

وقال – جل شأنه – : ﴿ وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن ﴾ [٣] .

وخاطب أزواج النبى بقوله : ﴿ يا نساء النبى لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولاً معروفاً . وقرنَ فى بيوتكن ولا تبرجن تبرجَ الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسولَه إنما يريد الله ليُذهبَ عنكم الرجس أهلَ البيت ويطهركم تطهيراً ﴾[٤]

---

(١) النور : ٢١ .
(٢) النور : ٢٧ .
(٣) الأحزاب : ٥٣ .
(٤) الأحزاب : ٣٢ – ٣٣ .

والخطاب لأزواج النبى – ﷺ – بالأصالة ولسائر المؤمنات بالتبعية .

وقد وردت أحاديث كثيرة تُرَغِّب الرجال فى غض البصر ، وصيانة العرض ، والبعد عن النِّسَاء اللاتى لا يجوز النظر إليهن ولا الجلوس معهن ، بل ولا التفكير فيهن ؛ لأن ذلك يشغل القلب بما لا طائل تحته .

قال رسول الله – ﷺ – : «النظرة سهم من سهام إبليس ، فمن غض بصره عن محاسن امرأة أورث الله قلبه حلاوة العبادة إلى يوم القيامة» [1] .

فالنظر بريد الزنا ، ومقدمة له وسبيل موصل إليه ، فمن أطلق نظره أورد نفسه موارد الهلكة .

وهو أصل عامة الحوادث التى تصيب الإنسان ، فإن النظرة تولد الخطرة ، ثم تولد الخطرة فكرة ، ثم تولد الفكرة شهوة ، ثم تولد الشهوة إرادة ، ثم تقوى فتصير عزيمة جازمة فيقع العمل ولابد ما لم يمنع منه مانع .

وفى هذا قيل : الصبر على غض البصر أيسر من الصبر على ألم ما بعده .

ولهذا قال الشاعر :

كل الحوادث مبدأها من النظـــر

ومعظم النـار من مستصغر الشررِ

كم نظرةٍ بلغت فى قلب صاحبها

كمبلغ الســهم بين القوس والوترِ

والعبـــد ما دام ذا طرف يقلِّبـــه

فى أعين العِين موقوفٌ على الخطرِ

يسرُّ مقلتـــه ما ضر مهجتـــه

لا مرحبـــاً بسرور عاد بالضررِ

(١) رواه أحمد فى مسنده .

ومن آفات النظر أنه يشغل القلب عن ذكر الله تعالى ، ويورثه همًّا واصباً ، وغمًّا دائماً وحسرة قد لا تزول عنه حتى يتقطع هذا القلب ويفنى .

ولهذا قيل :

وكنتَ إذا أرسلت طرفك رائداً

لقلبك يوماً أتعبتك المنـــاظر

رأيت الذى لا كلـــه أنت قادرٌ

عليــه ولا عن بعضـه أنت صابر

وقد قيل : إن حبس اللحظات أيسر من دوام الحسرات .

واللحظات هى النظرات التى يختلسها العبد إلى ما حرم الله عليه .

هـذا ، وفى غض البصر عمـا حـرم الله تعـالى عنـه فوائد لا غنى للعبـد عن واحدة منهـا :

أولاها : أنه امتثال لأمر الله الذى هو غاية سعادة العبد فى معاشه ومعاده ، وليس للعبد فى دنياه وآخرته أنفع من امتثال أوامر ربه - تبارك وتعالى - وما سعد من فى الدنيا والآخرة إلا بامتثال أوامره ، وما شقى من شقى فى الدنيا والآخرة إلا بتضييع أوامره .

ثانيها : أنه يمنع من وصول أثر السهم المسموم الذى قد يكون فيه هلاكه إلى قلبه .

ثالثها : أنه يورث القلب أنساً بالله واتصالاً به ، فإن إطلاق البصر يفرق القلب ويشتته ويبعده عن الله ، وليس على العبد شىء أضر من إطلاق البصر ؛ فإنه يوقع الوحشة بين العبد وبين ربه .

رابعها : أنه يقوى القلب ويفرحه ، كما أن إطلاق البصر يضعفه ويحزنه .

خامسها : أنه يكسب القلب نوراً ، كما أن إطلاقه يكسبه ظلمة ، ولهذا ذكر الله سبحانه النور عقيب الأمر بغض البصر ، فقال : ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصـارهـم ويحفظوا فروجهم﴾ ، ثم قال إثر ذلك : ﴿الله نـور السـماوات

والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ﴾ ، أى مثل نوره فى قلب عبده المؤمن الذى امتثل أوامره واجتنب نواهيه .

وإذا استنار القلب أقبلت وفود الخيرات إليه من كل جانب ، كما أنه إذا أظلم أقبلت إليه سحائب البلاء والشر من كل مكان .

سادسها : أنه لا يورث الفراسة الصادقة التى يميز بها بين المحق والمبطل والصادق والكاذب .

وكان شاه بن شجاع الكرمانى يقول : « من عمر ظاهره باجتناب الشهوات، واعتاد أكل الحلال لم تخطئ له فراسة » .

وكان شجاع هذا لا تخطئ له فراسة .

والله سبحانه يجزئ العبد على عمله بما هو من جنس عمله ، ومن ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه ، فإذا غض بصره عن محارم الله عوضه الله بأن يطلق بصيرته عوضاً عن حبسه بصره لله ، ويفتح له أبواب العلم والإيمان والمعرفة والفراسة الصادقة المصيبة التى إنما تنال ببصيرة القلب .

سابعها : أنه يفرغ القلب للتفكير فى مصالحه والاشتغال بها ، وإطلاق البصر يشتت ذلك ويحول بينه وبينها ، فتفرط عليه أموره ويقع فى اتباع هواه وفى الغفلة عن ذكر الله [1] .

قال تعالى : ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فُرُطاً ﴾ [2] .

وإطلاق النظر يوجب هذه الأمور الثلاثة جميعها .

نسـأل الله السـلامة والعافية .

* * *

---

(١) انظر كتابى تفسير سورة النور ، وانظر كتاب الجواب الكافى لابن القيم .

(٢) الكهف : ٢٨ .

(٧٥) ارجع فأحسن وضوءك

عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - أن رجلاً توضأ فترك موضع ظُفُرٍ على قَدَمه ، فأبصره النبى - ﷺ - فقال : «ارجعْ فأحسن وُضُوءَكَ» . فرجع ثم صَلَّى [١] .

* * *

الوضوء مأخوذ من الوضاءة، وهى الطُّهر والضياء، والحسن والبهاء والبهجة.

ويطلق فى اللغة على الوضوء الشرعى المعروف ، وعلى غسل اليدين .

ومنه قوله - ﷺ - : «الوضوء قبل الطعام ينفى الفقر وبعده ينفى اللمم»[٢] .

ومعناه : غسل اليدين ، كما ذكرنا .

والمراد باللمم : بقايا الطعام اللاصقة باليد .

وحمل بعضهم عليه قوله : «توضأوا مما غيَّرت النار» أى اغسلوا أيديكم فإنه أهنأ للأكل .

وقد عرّف الفقهاء الوضوء بأنه : طهارة مائية لأعضاء مخصوصة بنية التعبد .

ويسمونه : بالطهارة الصغرى .

ويسمون الغسل من الجنابة والحيض والنفاس : بالطهارة الكبرى .

وللوضوء فروض وسنن ، ومستحبات وشروط وآداب ذكرها الفقهاء فى كتبهم .

---

(١) رواه مسلم كتاب الطهارة ، حديث رقم (٢٤٣) جـ ١ ص ٢١٥ .

(٢) هذا الحديث أخرجه القضاعى فى مسند الشهاب من رواية موسى الرضا متصلاً بهذا اللفظ ، وللطبرانى فى الأوسط من حديث ابن عباس : «الوضوء قبل الطعام وبعده مما ينفى الفقر» ، ولأبى داود والترمذى من حديث سلمان : «بركة الطعام الوضوء قبله والوضوء بعده» .

ولكى يكون وضوؤك أيها الأخ المسلم تاماً عليك أن تَراعىَ هذه الآداب فإنك تؤجر على ذلك ويزداد إيمانك .

وإياك أن تترك لمعة فى عضو من أعضاء الوضوء دون أن يصيبها المـاء ؛ فإن ذلك يفسد الوضوء ، وبفساده تفسد الصلاة .

فهذا الرجل الذى ذكره عمر – رضى الله عنه – فى هذا الحديث ترك موضع ظفر على قدمه لم يصبه المـاء ، فرآه النبى – ﷺ – فأمره أن يرجع إلى موضع المـاء ليغسل ما تركه من قدمه ، وما ذاك إلاّ ليعلم الرجل أن وضوءه فاسدٌ لا تجوز الصلاة به حتى يتدارك ما فاته غسله .

وقد رجع الرجل فأحسن وضوءه كما أمره النبى – ﷺ – .

ولو كان الأمر هيِّناً ما أمره بإحسان الوضوء .

لكن ينبغى أن نعلم أن إحسان الوضوء معناه فى الحديث تحصيل الفريضة، وهو غسل العضو ، وتعميمه بالمـاء طاعة لله عز وجل .

والأعضاء التى يجب غسلها : الوجه من منابت الشعر إلى أسفل الذقن طولاً ، ومن شحمة الأذن إلى شحمة الأذن الأخرى عرضاً ، مع تتبع جفون العين وأرنبة الأنف .

وغسل اليدين إلى المرفقين مع إدخال المرفقين فى الغسل ؛ ليتحقق المتوضئ من استيعاب العضو كله مع تخليل أصابع اليدين .

وغسل الرجلين إلى الكعبين مع إدخال الكعبين فى الغسل .

والكعبان هما : العظمان البارزان على جانبى القدم .

أما الرأس فإنه يمسح ولا يغسل .

ويتقدم هذه الفروض – النية ، فإنها هى : القصد المقترن بالفعل ، بحيث يكون عند الشروع فيه .

وقد وردت هذه الفروض فى قوله تعالى من سورة المـائدة : ﴿ يا أيها الذين

آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهَكم وأيديَكم إلى المرافِق وامسحوا برءوسِكم وأرجلَكم إلى الكعبين﴾ [1] .

أمَّا إحسان الوضوء بعد تحصيل هذه الفروض فيدخل فيه ما سواها من السنن والمستحبات ، وهو مطلوب أيضاً ، لكن طلباً غير جازم .

وقد جمعت من كتب الفقه والحديث وكتب التصوف آداباً كثيرة ، وألقيت فيها محاضرة مستفيضة فى بعض المساجد الكبرى بعنوان : وضوء الصالحين . نقتبس لك هنا شيئاً منها :

وضوء الصالحين شطر الإيمان في بابه :

إذا أردت أن يزداد إيمانك ويقوى يقينك ويصفو قلبك ، وتخشع في صلاتك خشوع العارفين بالله ، فاحرص على ثلاثة أمور من أول عضو تغسله إلى آخر عضو .

وهى أن تذكر نعمة الله عليك في كل عضو تغسله فتشكره عليه ، وتذكر ما وقع منه من الذنوب فتستغفر الله له ، وتعزم على أن تعصمه مما وقع فيه ، فتخرج من وضوئك ذاكراً شاكراً مستغفراً تائباً .

فإذا جلست عند الماء فاذكر نعمة الله عليك فى إيجاده وتمكينه لك من استعماله ، واشكر الله على ذلك بقلبك ولسانك .

وإذا غسلت كفيك فاذكر نعمة الله عليك فى إيجادهما ، واشكره على ذلك ، واذكر خطاياهما ، واستغفره من ذلك ، وتب لهما توبة نصوحاً ، فعسى الله أن يقبلها منك .

وإذا تمضمضت فاذكر نعم الله عليك فى هذا الفمّ وما يحتويه ، واشكره على ذلك ، واستغفر الله من ذنوب لسانك ، وما أكثرها !! ، واستغفر له وتب مما جناه .

---

(١) آية : ٦ .

وهكذا فافعل فى غسل وجهك ويديك ، وفى مسح رأسك وفى غسل رجليك ، فإنك لو فعلت ذلك كما وصفت لك عرفت أنه هو الوضوء بمعناه الصحيح ، وأدركت أن ما سواه هو وضوء الغافلين ، وأبصرت بنور بصيرتك أن الطُّهور شطر الإيمان حقّاً فى بابه .

وذلك لأن الطهور له معنى أوسع مما يعرفه أكثر الناس .

وقد ذكر الغزالى فى كتاب الطهارة من «إحياء علوم الدين» أن لها أربعة مراتب :

الأولى : طهارة الباطن مما سوى الله تعالى ، وهو مقام الأنبياء والمرسلين .

والثانية : طهارة القلب من الحقد والحسد والعجب والرياء والغرور وغير ذلك مما يعكر صفو الإيمان .

والثالثة : طهارة الجوارح ، يَعْنِي كفُّها عما حرّم الله – عز وجل – .

والرابعة : طهارة الظاهر من الأحداث والأخباث والفضلات .

ولا شك أن الوضوء الذى وصفته لك يحقق لك الطهارة بأنواعها الثلاثة ، التى هى من أوصاف الصالحين .

وعندئذ يستطيع المتوضئ أن يدخل الصلاة بقلب طاهر مستنير قد تحصَّن من الشيطان ، فلا يستطيع أن يقتحمه ليصرف صاحبه عن صلاته ، ويحول بينه وبين الخشوع فيها كما يفعل مع عامة الناس .

والصلاة عماد الدين وركنه الركين ، لو أدّاها المسلم بخشوع وخضوع لنهته عن الفحشاء والمنكر .

ولو انتهى عن الفحشاء والمنكر لصار عبداً ربَّانياً مُقَرَّباً . فكيف يتركه الشيطان يصل إلى هذه المرتبة !

يقول الله – عز وجل – : ﴿إنّ الشيطان لكم عدوٌ فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ (١) .

---

(١) فاطر : ٦ .

إن الوضوء إجراء تحضيرى يتقدم الصلاة فلابد أن يكون على هذا النحو ، لا على النحو الذى يفعله عامة الناس .

فالوضوء على النحو الذى ذكرته مجال للتأمل والنظر ، ووقت قصيرٌ لمحاسبة النفس والشفاعة لها عند خالقها وبارئها ، وتجديد العهد مع الله بالتوبة النصوح مما اقترفته أعضاء الوضوء من الذنوب .

هذا ، وبعد الوضوء سنن ينبغى مراعاتها ، منها :

أن يرفع المتوضئ يده إلي السماء ويقول : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، رب اجعلنى من التوابين واجعلنى من المتطهرين .

فمن قال هذا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء ، كما جاء فى الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه ، وأحمد فى مسنده ، والترمذى فى جامعه .

ثم يصلى ركعتين سنة الوضوء فى غير أوقات النهى .

وقبل أن يقبل على صلاة الفريضة يستحضر قلبه بذكر الموت ، ويتحصن من الشيطان بالاستعاذة ، ويقبل على صلاته وكأنه مُوَدِّع .

وسوف أتكلم عما ينبغى على المسلم فعله قبل الصلاة فى موضع آخر إن شاء الله ، وبالله التوفيق .

* * *

(٧٦) اتَّقُوا اللَّعَّانَيْن

عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – قال : «اتَّقُوا اللَّعَّانَيْن» .

قالوا : وما اللَّعَّانان يا رسول الله ؟

قال : «الذى يَتَخَلَّى فى طريق الناس أو فى ظِلِّهِمْ» [١] .

* * *

الإسلام يدعو إلى الطهر والنظافة والنزاهة عن كل ما يخل بالمروءة ، أو يسوء الناس فى مظهره ومخبره ، فالطهارة شطر الإيمان ، والنظافة برهان على سلامة الفطرة واستقامة الطبع ، والنزاهة عن كل ما يعاب به دليل على الخلق الفاضل والسلوك النبيل .

وقد وردت أحاديث كثيرة تحث المسلمين على الطهارة بمعناها الواسع ، الذى يشمل بعمومه طهارة الظاهر والباطن ، وهذا الحديث واحد منها ، يحذر فيه النبى – ﷺ – من عمل يخل بالآداب العامة ، ويضر بالناس ويمنعهم من مزوالة حقوقهم فى السير فى الطرقات ، والتمتع بالظل ونحوه من المجالس التى لابد لهم منها .

ومعنى قوله – ﷺ – : «اتقوا اللَّعَّانين» احذروهما وابتعدوا عن التخلى فيهما .

وقد أبهم المراد بهما أولاً ليسألوه عنهما ؛ فيخبرهم بهما .

وذلك أسلوب من أساليب البيان عجيب ، وهو ما ينبغي أن يسلكه المعلم مع تلاميذه ، جلباً لانتباههم واستخصاراً لعقولهم ، وتشويقاً لما يدفع الإجمال ويرفع الإشكال .

وقد سألوا رسول الله – ﷺ – عن اللَّعَّانين ما هما ؟ .

---

(١) رواه مسلم ، كتاب الطهارة رقم (٢٦٩) جـ ١ ص ٢٢٦ .

فأخبرهم بهما بأسلوب بليغ يحتاج السامع فى فهمه إلى تأمل ونظر فيقول: «الذى يتخلى فى طريق الناس أو فى ظلهم» .

أى هو الذى يتبول ويتبرز فى الطريق العام وفى المواضع التى اعتاد الناس الجلوس فيها وهى التى ينتشر فيها الظل - تحت الأشجار - أو تحت الجدران - ونحو ذلك .

(قال أبو سليمان الخطابى : المراد باللَّعَّانين ، الأمرين الجالبين للعن ، الحاملين الناس عليه ، والداعيين إليه .

وذلك أن من فعلهما شُتم ولُعن ، يعنى : عادة الناس لعنه .

فلما صارا سبباً لذلك أضيف اللعن إليهما) أ.هـ (١) .

* * *

ويؤخذ من هذا الحديث :

النهى عن المضارة بكافة أنواعها ، وما ذكر فى الحديث صورة منها .

فكما أنه لا يجوز التخلى فى طريق الناس وظلهم لا يجوز إلقاء الحجارة والشوك وقشر الموز وسائر القاذورات والعوائق التى تعوق المرور وتعطل حركة السير وتحرم الناس من الراحة .

ويقاس على ذلك ارتفاع الأصوات فى المجالس والطرقات والمنازل والمساجد وغيرها ، والتلفظ بالألفاظ النابية التى يخجل من سماعها أهل الحياء والمروءة .

والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده ، كما قال الرسول - ﷺ - .

والإسلام فى تشريعاته العامة والخاصة يرد الناس إلى فطرتهم التى فطرهم الله عليها ، ويقضى على كل عادة تتنافى مع هذه الفطرة السوية .

فمن عرف هذه التشريعات وتمسك بها نجا من كل عمل يخدش الحياء أو يتنافى مع الطبع السليم .

---

(١) انظر صحيح مسلم جـ ١ ص ٢٢٦ .

وذلك لأن الحياء شعبة من شعب الإيمان ، وهو بعد كلمة التوحيد بمنزلة الروح من الجسد ؛ فمن لا حياء له لا إيمان له .

روى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله – ﷺ – : «الإيمان بضع وسبعون شعبة – أو بضع وستون شعبة [1] – فأفضلها : قول لا إله إلا الله ، وأدناها : إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان» .

وشعب الإيمان كلٌّ لا يتجزأ ؛ لأن كل شعبة تتشعب من غيرها ، وغيرها يتشعب منها . لهذا سميت شعبة .

وتحت كل شعبة خصال من الخير لا تنحصر .

والحياء جماع الفضائل كلها تحت كلمة التوحيد .

وقد روى مسلم فى صحيحه عن عمران بن حصين – رضى الله عنه – أن النبى – ﷺ – قال : «الحياء لا يأتى إلا بخير» .

وفى رواية أخرى عنه أن النبى – ﷺ – قال : «الحياء خير كله» .

نسأل الله الهداية والتوفيق .

* * *

---

(١) شك من الراوى .

(٧٧) إن هذا الطاعون رجز سلط على من كان قبلكم

عن أسامة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : «إنَّ هذا الطَّاعُونَ رِجْزٌ سُلِّطَ على مَنْ كان قَبْلَكُمْ ، أو على بنى إسرائيل ، فإذا كان بأرض ، فلا تخرجوا منها فِراراً منه ، وإذا كان بأرض فلا تدخلوها»[١] .

* * *

الإسلام واقعى فى منهجه ، عدل فى تشريعاته ، يُسْرٌ فى أوامره ونواهيه ، يقوم على رعاية مصالح العباد فى عاجل أمرهم وآجله .

ومصالح العباد تَتَمَثَّل فى أمرين هما درء المفاسد وجلب المنافع .

ودرء المفاسد مقدم على جلب المنافع ، كما يقول علماء الأصول، والتَّخْليةُ مُقَدَّمة على التَّحْلية ، كما يقول شيوخ الأزهر ، والوقاية خير من العلاج ، كما يقول الأطباء .

وهذا الحديث دليل من أدلة واقعية المنهج الإسلامى ، وبرهان على سلامته مما يُعَاب به غيره من التشريعات الأرضية ، ودليل قاطع على صلاحيته للتطبيق وخلوّه من العوائق التى تحول بين الناس وتحقيق رغباتهم المشروعة فى الحياة .

إن هذا الحديث أصل من أصول الوقاية من الأمراض الضارة والآفات المهلكة ، فهو يُمَثِّلُ ما سُمِّىَ عند الأطباء بالحَجْرِ الصحى ، وهو مَنْع اتصال الأصحاء بالمرضى ومنع اتصال المرضى بالأصحاء .

والطاعون وَرَمٌ قَتَّالٌ يحدث فى الإبط وخلف الأذن ، وفى أرنبة الأنف ، وفى اللحوم الرخوة ، وهو مرض يفسد العضو ويغير ما يليه ، وربما رشح دماً وصديداً يؤدى إلى الموت السريع .

وهناك أورام خبيثة لا تقل خطورة عنه ، وهناك أوبئة سريعة الانتشار قد ظهرت فى هذا العصر لأسباب كثيرة معروفة يتناولها هذا الحديث بالقياس .

* * *

---

(١) رواه مسلم كتاب السلام ، باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها ح ٢٢١٩ .

وقوله ﷺ : «إن هذا الطاعون رجز» - أى عذاب شديد سُلِّطَ على بنى إسرائيل ومن على شاكلتهم عقوبة لهم فى الدنيا .

واسم الإشارة فيه دليل على خطورته ، ومبالغة فى التَّخْويف والتحذير من مَغَبَّته ، فإن الشأن فى اسم الإشارة أن يكون للمُشَاهَد فَنُزِّلَ غير المُشَاهَد هنا منزلةَ المُشَاهَد لما ذكرناه . وهو أسلوب بلاغى معروف ، كأنَ المتكلم يستحضر فى ذهنه صورة المشاهَد حين يخاطب من يريد نصحه أو تحذيره ، أو تهويل ما يشير إليه أو تعظيمه أو تحقيره ، إلى آخر ما هنالك من الأغراض البلاغية .

وقوله ﷺ : «فإذا كان بأرض فلا تخرجوا منها فراراً منه » نهى شديد يقابل ما هم فيه من خطر ، فإن خروجهم منها يكون سبباً لانتشار هذا الوباء القَتَّال إلى الأرض التى فَرُّوا إليها ، ثم ينتقل منها إلى غيرها ، فيكون الذين فروا أولاً قد تسببوا فى قتل من مات به ، وقد لا يُحْصَون عدداً ؛ لسرعة انتشار هذا المرض بواسطة الهواء وغيره من الوسائل المعروفة لدى الأطباء .

وقد قال النبى - ﷺ - فى الحديث الصحيح الذى رواه مالك وغيره : «لا ضرر ولا ضرار» .

وقوله ﷺ : «وإذا كان بأرض فلا تدخلوها» نهى مؤكد تكون مخالفته سبباً فى إصابة الداخلين إليها بهذا المرض اللعين .

وهو ترجمة لقوله تعالى : ﴿ولا تُلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً﴾ (٢) .

وهناك مرض مثل الطاعون فى الخطر أو هو أشد - وهو الجذام - قد حذر النبى - ﷺ - منه تحذيراً شديداً ، فقال كما فى صحيح البخارى : «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ، وفر من المجذوم كما تفر من الأسد» .

أى لا يعدى بعضكم بعضاً ، فالجملة خبرية لفظاً طلبية معنى ، بدليل قوله فى آخر الحديث : «وفر من المجذوم كما تفر من الأسد» وذلك لأن الجذام - أعاذنا الله وإياكم من شره - يفترس الأعضاء بشراهة كما يفترسها الأسد الجائع .

---

(١) البقرة : الآية ١٩٥ .　　(٢) النساء : الآية ٢٩ .

وقد تقدم شرح هذا الحديث فلا نعيد القول فيه ، ولكن هناك سؤال طرحه عَلَيَّ بعض الشباب أجبت عنه في الجزء الخامس من كتابي بين السائل والفقيه إجابة وافية .

قال هذا السائل الكريم في سؤاله : قدمت بالطائرة إلى مطار القاهرة من بلد قد انتشر فيها مرض من الأمراض المعدية ، فلما نزلنا من الطائرة حجزونا في إحدى المصَحَّات ؛ ليتبينوا إن كنا نحمل العدوى أم لا ، وقد كنت أنا وكثير من الركاب راضين كل الرضا بهذا الحجز ؛ لأنه أمر ضروري لوقاية أهل البلد من هذا الوباء المنتشر في البلد التي كنا فيها ، وقد كنا سعداء بالفحوصات التي أجريت لنا من أجل أن نتأكد من سلامتنا وخلونا من الوباء ويتأكد المسئولون من أننا لم نحمل العدوى إلى غيرنا .

أما باقي الركاب فقد تذمروا من هذا الحجز وسموه : حجراً وتعطيلاً بلا داعي يقتضيه ، وقالوا : إن هذا أمر ينافي التوكل ، والحذر لا يغني عن القدر ، وقالوا كلاماً لا يخرج عن هذا المعنى .

والذي أرجوه من فضيلتكم أن توجهوا إمثال هؤلاء إلى ضرورة الخضوع إلى هذا الحجز الصحي أو الحجر الصحي كما يسميه الأطباء ، وذلك من خلال ما تذكرونه لهم من أحاديث نبوية تجعلهم على ثقة تامة من ضرورة هذا الحجر ، لأنه في نظري من قدر الله ؛ إذ كل ما يقع في هذا الوجود إنما يقع بعلمه وإرادته وقدرته ؟ .

وخلاصة الجواب أن عدم الأخذ بالأسباب ينافي التوكل من جميع الوجوه ويسمى في نظر الشرع تواكلاً لا توكُّلاً .

وهؤلاء الذين يعترضون على الحجر الصحي واتخاذ الحيطة والحذر من نقل العدوى وانتشار الأمراض عن طريق القادمين من أرضها بحجة أن هذا يتنافى مع القدر واهمون ومخطئون وجاهلون بسنة الله الكونية وأحكامه الشرعية .

والحديث الذي معنا خير شاهد على ذلك .

وما جاء في الصحيحين أيضاً من أن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه –

خرج إلى الشام ، حتى إذا كان بسَرْغَ – قرية فى طرف الشام مما يلى الحجاز – لقيه أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام ، فاختلفوا ، فقال لابن عباس : ادع لى المهاجرين الأولين ، قال : فدعوتهم ، فاستشارهم ، وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشام ، فاختلفوا ، فقال له بعضهم : خرجت لأمر فلا نرى أن ترجع عنه . وقال آخرون : معك بقية الناس وأصحاب رسول الله – ﷺ – فلا نرى أن تُقْدِمَهم على هذا الوباء ، فقال عمر : ارتفعوا عنى ، ثم قال : ادع لى الأنصار ، فدعوتهم له ، فاستشارهم ، فسلكوا سبيل المهاجرين ، واختلفوا كاختلافهم ، فقال : ارتفعوا عنى ، ثم قال : ادع لى مَنْ ها هنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح ، فدعوتهم له ، فلم يختلف عليه منهم رجلان ، قالوا : نرى أن ترجع بالناس فلا تقدمهم على هذا الوباء ، فأذن عمر فى الناس : إنى مصبح على ظهر ، فأصبحوا عليه .

فقال أبو عبيدة بن الجراح : يا أمير المؤمنين أفراراً من قدر الله تعالى ، قال : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ! ، نعم نَفرٌ من قدر الله تعالى إلى قدر الله ، أرأيت لو كان لك إبل فهبطت وادياً له عُدْوَتَان ، إحداهما خِصبة والأخرى جَدْبَةٌ ، ألست إن رعيتها الخصبة رعيتها بقدر الله تعالى ، وإن رعيتها الجدبة رعيتها بقدر الله تعالى ؟ .

قال : فجاء عبد الرحمن بن عوف وكان متغيباً فى بعض حاجاته ، فقال : إن عندى فى هذا علماً ، سمعت رسول الله – ﷺ – يقول : « إذا كان بأرض وأنتم بها ، فلا تخرجوا فراراً منه ، وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه » .

ومن نظر بعين البصيرة وفَكَّر بعقله بعيداً عن الأهواء والتقليد الأعمى أدرك حقيقة ذلك بوضوح .

نسأل الله الهداية والتوفيق .

* * *

(٧٨) لا تقولوا : ياخيبة الدهر

عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – قال : «قال الله – عز وجل – : يُؤْذِينى ابنُ آدم ، يقول : يَاخَيْبَةَ الدَّهْرِ ! فلا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ : ياخيبة الدهر ؛ فإنى أنا الدَّهْرُ أُقَلِّبُ لَيْلَهُ وَنَهارَهُ ، فإذا شئت قَبَضْتُهُمَا» (١) .

* * *

الحلْمُ فى نظر الإسلام سيد الأخلاق ، والصبر على المكاره نصف الإيمان ، وشكر الله على النِّعم نصفه الآخر ، فإذا فَقَدَ المسلم الحلم والصبر والشكر ، اتصف بضدها حَتْماً وهى : السَّفَه والجزع والكفران .

والأمر الذى يترتب على الحلم والصبر والشكر هو : معالجة الأمور بالحكمة والأناة والتَّرَيُّث ، ومواجهة الشدائد بصدر رحب وقلب مطمئن ، ومقابلة النِّعَم بفعل ما يحفظها ويَزِيدُ فيها .

والأمر الذى يترتب على ضدّ هذه الصفات الفاضلة هو : التَّهَوُّر فى اتخاذ القرار، والتَّعجُّل فى الحكم على الأشياء، والحزن على ما فات ، والهَمُّ مما هو آت، والغَمُّ مما هو حاضر ، ونقصان النِّعم باطراد إلى حدٍّ تتحول فيه المنح إلى محن، وينقلب الخير إلى شر ، وذلك معروف من الكتاب والسنة .

أما الحلْم وهو : لين الجانب وخفض الجناح ، وكظم الغيظ والعفو والصفح – فقد دعا الله إليه وأشاد بفضله ، وأثنى على صاحبه ، ووعده جنة عرضها السماوات والأرض .

اقرأ قوله تعالى فى أوصاف أهل الجنة : ﴿والكاظمين الغيظَ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾ (٢) .

واقرأ قوله تعالى : ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾ (٣) .

---

(١) رواه مسلم جـ ٤ ، كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها ، باب النهى عن سب الدهر. حديث رقم : (٢٢٤٦) .

(٢) آل عمران : ١٣٤ .   (٣) الشورى : ٤٠ .

وأما الصبر فهو : عزمة من عزمات الأمور العالية ، جعله الله خير عون للإنسان على فعل الطاعات وترك المعاصى وبلوغ الغايات .

قال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين﴾ (١) .

وأما الشكر فيكفينا أن نعرف أنه روح العبادة وريحانها من قوله تعالى : ﴿واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون﴾ (٢) .

ولبيان فضل الحلم والصبر والشكر مواطن أخرى قد تقدم بعضها ، وسيأتى بعضها الآخر فى أحاديث أخرى إن شاء الله تعالى ، وإنما ذكرت هذا تمهيداً لبيان معانى الحديث ومراميه .

* * *

يقول الله – عز وجل – فى الحديث القدسى : « يُؤْذِينى ابن آدم . يقول ياخيبة الدهر» .

يعنى يؤذينى بقوله هذا . والله – عز وجل – لا يلحقه الأذى ، فلابد من حمل اللفظ على معنى يليق بذاته جل شأنه ، فيقال : المعنى يعاملنى معاملة توجب الأذى فى حقكم .

أو المعنى : أنه يقول قولاً لا يرضيه جل شأنه ، فكان فى هذا التعبير مجازٌ لغوىٌّ حيث أطلق الأذى على ما يوجب الغضب ، فيكون معنى « يؤذينى » : يُغْضِبُنى .

ومعنى « ياخيبة الدهر» : دعاءٌ بالخيبة والحسرة على نفس القائل ، فحرف الندا حرفُ تَحَسُّرٍ على ما وقع من المكروه ، أو على ما فات من المحمود .

ونسبة الخيبة إلى الدهر هى المنهى عنها فى هذا الحديث ، والنهى للتحريم .

وذلك مُعَلَّلٌ بما جاء فى آخره ، فقد قال الله – عز وجل – : « فإنى أنا الدهر ... » أى أنا الذى خلقت الدهر وَصَرَّفْتُ الأمور فيه بعلمى وقدرتى

---

(١) البقرة : ١٥٣ .

(٢) البقرة : ١٧٢ .

وإرادتي ، وقلبت ليله ونهاره ، فإذا شئت قبضتهما إليّ وأنهيت الزمان الدنيوى قبضتهما فلا يكون هناك ليلٌ ولا نهار .

«فلا يقولن أحدكم : ياخيبة الدهر» كما كنتم تقولون فى الجاهلية ، فإنكم تسبون ربكم الذى خلق الزمان والمكان ، وأنتم تعلمون أن الزمان لا يتعلق به مدح ولا ذم ، ولا عيب ولا حسن ، وإنما يتعلق ذلك بالإنسان على وجه الخصوص ؛ فهو المكلف بإقامة الدين عقيدة وشريعة .

نَعيبُ زَمانَنَا والعَيْبُ فينا
وَمَا لزَمَاننَا عَيّبٌ سِـــوانَا

والمؤمن الحق لا يكون سَبَّاباً ولا لَعَّاناً ، بل يكون حليماً رشيداً ، رحيماً ودوداً ، لا يؤذى نفسه ولا أحداً غيره بلسانه ولا بيده ، ولا يصدر منه إلاّ الخير .

وقد جاء فى الحديث الصحيح : «عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله له خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر ، وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيراً له» (١) .

* * *

واعلم – أيها الأخ المسلم – أن أعظم ما يتقرب به العبد إلى ربه – عز وجل – هو التأدب معه فى الأقوال والأفعال والأحوال ، فلن يرقى أحدٌ إلى مقام من مقامات القرب إلا بحبس لسانه حبساً تامّاً عن كل كلمة نابية تخلو من حمد الله والثناء عليه، أو تفرغ من مضمون يحبه الله – عز وجل –، أو تكون سبباً فى إيذاء عبداً من عباده، ولن ينجوَ أحدٌ من عذاب الله – جل جلاله – إلا إذا طابقت أفعاله أقواله ، بحيث لا يقول ما لا يفعل ، أو يفخر بما ليس فيه أو بما ليس له .

يقول الله – عز وجل – : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كَبُرَ مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ (٢) .

ولا يقبل الله عمل عامل من ذكر أو أنثى إلا وهو مؤمن به مخلص له الإخلاص كله .

نسأل الله – عز وجل – أن يرزقنا حسن الأدب معه وصدق الإخلاص له .

* * *

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه فى كتاب الزهد ، حديث رقم (٢٩٩٩) .

(٢) الصف : ٢ – ٣ .

(٧٩) أسألك من خير ما سألك منه نبيك ﷺ

عن أبي أُمَامَةَ - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - دَعَا بدُعَاء كثير ، لم نَحْفَظْ منه شَيئاً ، فقال : «ألا أدُلُّكم علي ما يَجْمَعُ ذلك كُلَّهُ ؟». تقول : «اللَّهُمَّ إني أسأَلُكَ من خيرِ ما سَأَلَكَ منه نَبِيُّكَ مُحَمَّدٌ - ﷺ - وأعُوذُ بكَ من شر ما استعاذ منه نَبيُّكَ مُحَمَّدٌ - ﷺ - وأَنْتَ المُسْتَعَانُ ، وعليك البلاغ ، ولا حول ولا قُوَّةَ إلاَّ بالله» (١) .

* * *

كان النبى - ﷺ - يدعو الله - عز وجل - بأدعية كثيرة جامعة لخصال الخير كلها ، بأسلوب بيانى ساحر ، يأخذ بمجامع القلوب المؤمنة ، ويملك على السامعين مشاعرهم ، ويسيطر على أحاسيسهم ، فلا يسعهم إلا أن يجتهدوا في تحصيلها وحفظها ، ليلهجوا بها خاشعين خاضعين ضارعين أسوة به - ﷺ - ؛ لما عرفوا من أن الدعاء مخ العبادة ، وترجمة صادقة عن العبودية الخالصة ، ومظهر عميق الدلالة على كمال الافتقار إلى الواحد القهار .

وقد كان أبو أمامة - رضى الله عنه - يتتبع دعاء النبى - ﷺ - هو ومن معه من خيرة أصحابه بكل إنصات وإعجاب ، ليحفظوه ، فلم يستطيعوا ذلك لكثرته ، وعرف النبى - ﷺ - ذلك فى وجوههم بنور بصيرته ، وقوة فطنته ، فعرض عليهم عرضاً رقيقاً رفيقاً ، أن يعلمهم دعاءً موجزاً بليغاً ، فقال - ﷺ - : «ألا أدلكم على ما يجمع ذلك كله ؟ » ، أى ألا أدلكم على دعاء جامع لما قد سمعتموه منى على كثرته وطوله ، ليكون لكم زخراً ، تجدون له حلاوة فى قلوبكم ، وتشعرون بخفته على ألسنتكم ، فتشوفت قلوبهم لهذا العرض الذى طالما تمناه هؤلاء الأخيار ، فقال : تقول «اللهم إنى أسألك من خير ما سألك منه نبيك محمد - ﷺ -» إلى آخر الحديث .

---

(١) رواه الترمذى رقم (٣٥١٦) وفى سنده ليث بن أبى سليم وهو سيىء الحفظ ، لكن له شاهد بنحوه من حديث عائشة عند أحمد ٦/١٣٤ ، ١٣٧ ، وابن ماجه (٣٧٤٦)، وصححه ابن حبان (٢٤١٣) .

وقد خاطب الراوى وهو أبو أمامة ، أو وجه الخطاب لكل من أراد أن يدعو بهذا الدعاء الجامع .

ومعناه واضح مشرق لا يحتاج إلى بيان ، ولكنه يشتمل على لطائف بيانية، وأحكام شرعية ، نجملها فيما يلى :

١ – كان الدعاء ديدن الأنبياء ، فهم من أكثر الناس تضرعاً إلى الله – تبارك وتعالى ، وأعظمهم فى ذلك أفضلهم وأتقاهم وخاتمهم محمد – صلوات الله عليه وعليهم جميعاً – .

ونهج نهجهم فى ذلك أولياء الله الصالحون من كل أمة ، وكان أسبقهم إلى الخيرات ، وخالص الدعوات أصحاب محمد – ﷺ – ثم التابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين .

وقد عرفنا – فيما سبق – أن الدعاء مخ العبادة ، بل هو روحها وريحانها وعمدتها وسلطانها .

٢ – ولا شك أن الدعاء بالوارد عن رسول الله – ﷺ – أولى وأفضل ، وأقرب إلى القبول ، وأعظم للأجر ، وإلا فلماذا حرص أصحاب النبى – ﷺ – على أن يحفظوا كل ما دعا به الصادق المصدوق – ﷺ – .

وعلى المسلم أن يتخير منه ما يسهل عليه حفظه ، ويخف على لسانه النطق به ، ويجد له فى قلبه حلاوة ، ويكون أصدق تعبيراً على ما يرجوه من ربه عز وجل .

٣ – وعلى المعلم أن يتعرف حال من يتلقى منه العلم ، فيخاطبه على قدر عقله ووعيه ، ويعلمه ما هو فى حاجة إليه بأسلوب لا يشق عليه فهمه ، ولا يصعب عليه تعليمه .

ومن هنا كان من الأوصاف التى ينبغى أن يتحلى بها المعلم أن يكون فطناً ذكياً حاذقاً ، بصيراً بتشخيص الداء ووصف الدواء ، حكيماً فى تحريه مواطن العظة والعبرة ، وأوقاتها وطرقها ومسالكها .

وليس هناك من يدانى رسول الله – ﷺ – فى ذكائه وفطنته وحكمته وبصيرته ، فهو – ﷺ – حكيم تفجرت من ينابيعه الحكمة ، بل هو الحكمة

نفسها – كما ذكرنا فى مقدمة هذا الكتاب – ، فهو ذِكْرٌ ترجم الذكر بخلقه الفاضل ، وسلوكه النبيل ، فقد عمل بالقرآن حتى تقرأن فبدا للناس قرآناً تراه أعينهم ، كما تسمعه آذانهم .

٤ – قال – ﷺ – : «تقول : اللهم إنى أسألك من خير ما سألك منه نبيك محمد – ﷺ –» ولم يقل من كل خير سألك منه نبيك محمد . أتدرى لماذا ؟

أقول : إن النبى – ﷺ – يدعو لتحصيل خير قد خصه الله به ، وفتح له أبواب الدعاء فيه ، ويدعو لتحصيل خير له ولأمته ، وفتح له ولأمته أبواب الدعاء فيه ، فلا يليق بمسلم أن يسأل ربه من كل خير سأله منه نبيه محمد – عليه الصلاة والسلام – ولكن يسأله بعضه تأدباً مع الله – عز وجل – ، واعترافاً لنبيه بهذه الخصوصية ، وإجمالاً فى الطلب ؛ فإن الله – عز وجل – لا يعطى عبده كل ما يسأله إياه ، ولكن يعطيه بقدر معلوم عنده ، رعاية لمصلحته ، ومصالح الآخرين ممن يعيشون معه على هذه الأرض ، وحرصاً على عبوديته أن يعتريها ما يفسدها قال تعالى : ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغَوا فى الأرض ولكن يُنزِّل بقَدَر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير﴾ (١) .

ولو قال العبد اللهم إنى أسألك من كل خير سألك منه نبيك محمد لجاز من غير كراهة ؛ لأن لفظ كل لا يعنى الجميع، فهو من الألفاظ التى تفيد الأكثرية والحكم فيها يكون على المجموع لا على الجميع ، كما فى قوله تعالى : ﴿تدمِّر كلَّ شىء بأمر ربها فأصبحوا لا يُرى إلا مساكنهم﴾ (٢) فالريح إذاً لم تدمر كل شىء بدليل قوله تعالى : ﴿فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم﴾ .

وعليه يحمل أيضاً قوله تعالى حكاية عن سليمان – عليه السلام – : ﴿وأوتينا من كل شىء إن هذا لهو الفضل المبين﴾ (٣) .

وقوله تعالى حكاية عن بلقيس على لسان الهدهد : ﴿وأوتيتْ من كل شىء ولها عرش عظيم﴾ (٤) .

---

(١) الشورى : ٢٧ .
(٢) الأحقاف : ٢٥ .
(٣) النمل : ١٦ .
(٤) النمل : ٢٣ .

٥ – وإذا سأل العبد ربه من الخير يجدر به أن يستعيذ به من الشر ، وبذلك يكون قد سأل الله الخير مرتين ؛ لأن دفع الشر هو جلب للخير .

وقد وضع الدين – كما يقول علماء الأصول – رعاية لمصالح العباد فى العاجل والآجل ، ومصالح العباد تتمثل فى دفع المفسدة وجلب المنفعة .

ودفع المفسدة – كما يذكر الشاطبي فى الموافقات – جلب للمنفعة ، فمصالح العباد إذاً كلها مبنية على جلب المنفعة الدنيوية والأخروية .

والشأن فى الدعاء أن يكون مطنباً (١) لإظهار كمال الافتقار إلى الله – عز وجل – ومع إطنابه يكون جامعاً .

وهذا الحديث فيه إطناب ما ؛ إذ لو اقتصر على قوله : « اللهم إنى أسألك من خير ما سألك منه نبيك محمد – ﷺ –» لكفى ، ولو اقتصر على قوله : « وأعوذ بك من شر ما استعاذ منه نبيك محمد – ﷺ –» لكفى ، ولكن هذا الطباق (٢) فيه امتاع للقلب ، وإشباع للعاطفة ، وتوكيد للرجاء .

٦ – وقد ختم هذا الدعاء بما يرفعه إلى الله – عز وجل – وهو قول الداعى : « وأنت المستعان ، وعليك البلاغ ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

وقد تضمن هذا الختام براهين صحة الإيمان وسلامة اليقين كلها .

فهو المستعان الذى يستمد منه العون والتوفيق فى جميع الأمور ، فقول العبد فى آخر دعائه : « وأنت المستعان » وقوف به على آخر مراتب الإيمان ، وذلك لأن جميع مقامات الصالحين ومنازلهم من القرب منحصرة بين قوله تعالى : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ ، فمن ﴿ إياك نعبد ﴾ يكون البدء ، وإلى ﴿ إياك نستعين ﴾ يكون القرب إلى ساحات الجلال والجمال والكمال .

وأما قوله : « وعليك البلاغ » فمعناه : عليك تحقيق الآمال تفضلاً منك علينا ورحمة بنا .

وأما قوله : ﴿ ولا حول ولا قوة إلا بالله ﴾ فمعناه لا يتحول حال عن حال إلا

---

(١) أى طويلاً مفيداً ، أما الطويل غير المفيد فإنه يسمى إسهاباً .

(٢) الطباق هو ذكر المعنى وضده .

بإرادة الله النافذة ، وقدرته المنفذة ، وهى تعبير صادق عن التسليم الكامل لله – عز وجل – بكل ما يقدره ويقضى به .

وهذه الكلمة كنز من كنوز الجنة كما سبق بيانه فى حديث سابق .

٧ – وكما يختتم الدعاء بمثل هذه الكلمات الثلاثة ينبغي أن يبدأ بالثناء على الله بما هو أهله ؛ فبالبدء والختام يرفع الدعاء ، ويقبل ويستجاب .

روى الترمذى – فى سننه – عن فضالة بن عبيد – رضى الله عنه – قال :

« بينما رسول الله – ﷺ – قاعد إذ دخل رجل فصلى . فقال : اللهم اغفر لى وارحمنى . فقال رسول الله – ﷺ – : « عجلت [1] أيها المصلى ، إذا صليت فقعدت فاحمد الله بما هو أهله ، وصلِّ علىَّ ثم ادعه » .

قال : ثم صلى رجل آخر بعد ذلك ، فحمد الله ، وصلى على النبى – ﷺ – . فقال له النبى – ﷺ – : « أيها المصلى ادع تجب » وسيأتى لهذا الحديث شرح فيما بعد .

ولكن لماذا لم يأمر أصحابه بما أمر به فى حديث فضالة ؟

أقول : ربما يكون أصحابه قد علموا بما جاء فى حديث فضالة من قبل ، فاعتمد على علمهم ، فلم يأمرهم بما أمر به الرجل الذى تعجل فى دعائه فلم يحمد الله قبله ، ولم يثن عليه بما هو أهله ، والله أعلم بالصواب .

* * *

وبعد ، فهذا ما وسعنى استنباطه من اللطائف والأحكام ولا يفوتنى هنا أن أنبه على حقيقة هامة تتعلق بقبول الدعاء ورده .

خلاصتها : أن للدعاء آداباً ينبغى مراعاتها إذا اختل أدب منها ربما يرد الدعاء على صاحبه ، ولا يرفع فوق رأسه شبراً .

---

(١) يقال عجِلت بكسر الجيم . وعجَّلت بتشديدها .

وهذه الآداب كثيرة نكتفى هنا بذكر أهمها فنقول :

الأدب الأول : أن يدعو العبد بقلبه ولسانه معاً بإخلاص ورجاء صادق ، فإن الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى . كما جاء فى الحديث الصحيح المشهور عن رسول الله – ﷺ – .

فإن لم يشترك القلب مع اللسان ، فلا عبرة به ، ولا يرجى نفعه غالباً .

فليجمع المسلم قلبه عند الدعاء ما أمكن .

الأدب الثانى : أن يكون الداعى موقناً بالإجابة ، فإن ذلك يجعل دعاءه مقبولاً ، يؤجر عليه ، وإن لم يجب فيه ، فالإجابة أمر يتوقف على إرادته وحكمته جل شأنه ، على ما سيأتى بيانه قريباً .

روى الترمذى فى سننه والحاكم عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – قال :

« ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة ، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قبل غافل لاه » [1] .

الأدب الثالث : ألا يتعجل فى دعائه بل يقدّم بين يديه شىء من الحمد والثناء – كما ذكرنا آنفاً – .

الأدب الرابع : ألا يتعجل الإجابة ، بل يكل الأمر لخالقه – عز وجل – ، فقد يكون فى تأخير الإجابة خير له ، وقد يكون عدم الإجابة – أيضاً – خيراً له؛ فالإنسان قد يدعو على نفسه ، وهو يعتقد أنه يدعو لها .

يقول الله – عز وجل – ﴿ ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولاً ﴾ [2] .

وقد روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – قال : « يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول : دعوت فلم يستجب لى » .

---

(١) الحديث ضعفه جماعة ، وقال الحاكم هو مستقيم الإسناد . انظر تخريجه والحكم عليه فى فيض القدير جـ ١ / ٢٢٩ .

(٢) الإسراء : ١١ .

ولابن عطاء الله حكمة فى هذا الأدب ينبغى أن يعمل بها كل مسلم يقول – رضي الله عنه – فى حكمه : (لا يكن تأخير العطاء مع الإلحاح فى الدعاء أمراً يوجب يأسك ؛ فقد ضمن لك الخير فيما يختاره لك ، لا فيما تختاره أنت لنفسك ، وفى الوقت الذى يريد هو لا فى الوقت الذى تريده أنت) .

الأدب الخامس : ألا يكون فى دعائه إثم أو قطيعة رحم ؛ فإن ذلك عدوان يمنع قبول الدعاء ، والمسلم بطبعه محبٌ للخير لا يدعو على أحد بما يؤذيه ، أو يطغيه، بل يدعو لكل الناس بالهداية والتوفيق، ويثق بأن الله لن يخلف وعده معه فى قوله : ﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعانِ فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يَرشدون ﴾ (1) .

فإن الله – عز وجل – يستجيب له بواحدة من ثلاثة وردت فى الحديث الصحيح الذى رواه أحمد والبزار وأبو يعلى والحاكم وغيرهم عن أبى سعيد الخدرى – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله – ﷺ – : «ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ، ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث : إما أن يعجل له دعوته ، وإما أن يدخرها له فى الآخرة ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها . قالوا : إذاً نكثر . قال : الله أكثر» .

الأدب السادس : أن يتخير المسلم لدعائه الأوقات التى يغلب على ظنه أن الدعاء يستجاب فيها ، والتى وردت فى فضلها نصوص شرعية كيوم عرفة وشهر رمضان ، ويوم الجمعة ، ووقت السحر ، والوقت الذى بين الأذان والإقامة ، وفى السجود، وعقب الصلوات المفروضة وغيرها، ويغتنم وجوده فى الأماكن المفضلة كالمسجد الحرام ، والمسجد النبوى ، والمسجد الأقصى ، وسائر المساجد الأخرى .

الأدب السابع : أن يستقبل القبلة فى دعائه ، ويرفع يديه إلى أعلى ، وكفاه مبسوطتان ، ولا يرفع صوته جداً بالدعاء بل يجعله بين المخافته والرفع .

وأن لا يتكلف السجع فى الدعاء ، وألا يدعو بما لا يفهم . كما يفعل المقلدون فى الطواف والسعى وغيرهما .

---

(1) البقرة : ١٨٦ .

الأدب الثامن : أن يلح فى الدعاء ويكرره ثلاثاً .

فقد كان النبى – ﷺ – إذا دعا دعا ثلاثاً ، كما رواه غير واحد من أهل السنن عن ابن مسعود – رضى الله عنه – .

هذه هى أهم الآداب التى ينبغي مراعاتها في الدعاء ، ذكرتها إجمالاً هنا ، وسيأتى لها تفصيل فى أحاديث أخرى متفرقة .

والله ولى التوفيق ، وهو الهادى إلى سواء السبيل .

* * *

(٨٠) سل الله العافية

عن أبى الفضل العباس بن عبد المُطَّلب - رضى الله عنه - قال : قلتُ : يا رسولَ الله ، عَلِّمْنى شَيْئاً أَسْأَلُهُ الله تعالى ، قال : «سلِ الله العافية» .

فَمَكَثْتُ أياماً ، ثم جئتُ فقلتُ : يا رسول الله ، عَلِّمْنى شيئاً أسألُهُ اللهَ تعالى ، قال لى : «ياعباسُ ياعَمَّ رسولِ الله ، سَلُوا الله العافية فى الدنيا والآخرة» [١] .

* * *

كان العباس بن عبد المطلب – رضى الله عنه – رجلاً طيب القلب ، رقيق المشاعر ، يحب الناس ويحبُّونه ، وكان – رضى الله عنه – يحب رسول الله – ﷺ – قبل إسلامه ، ويحنو عليه ، ويحسن إليه ، ويدفع عنه الأذى ، وقد حضر معه بيعة العقبة الثانية وهو على شركه ، ووثق عهده مع الأوس والخزرج ، وقال لهم : إن كنتم تُوَفُّونَ له فدونكم وإلا فدعوه ؛ فإن له فى قومه منعة .

وقد كان – رضى الله عنه – من أجود قريش كفًا بعد رسول الله – ﷺ – ، وكان الرسول – ﷺ – يحبه ويواسيه ويدعو له ، وكان يقول : « من آذى العباس فقد آذانى ؛ فإنما الرجل صنو أبيه » [٢] .

وقد أسلم العباس بعد غزوة بدر ، وحسن إسلامه وصار من أجلاء الصحابة – رضوان الله عليهم أجمعين – .

وكان العباس يتميز بالحلم والعلم ، ويحب الدعاء ، ويسأل عن أحسنه وأفضله ؛ ليلهج به فى ليله ونهاره ، فسأل رسول – ﷺ – عن أجوده وأنفعه ، فقال : يارسول الله ، علمنى شيئاً أساله الله تعالى .

---

(١) رواه الترمذى (٣٥٠٩) وقال : حديث صحيح ، وورواه أحمد عن أبى بكر الصديق – رضى الله عنه – (٥)، (١٧) ، وابن ماجه (٣٨٤٩) ، وغيرهم بالفاظ مختلفة .

(٢) رواه الترمذى .

أى علمنى ما ينفعنى من خيرى الدنيا والآخرة أطلبه من ربى طلباً جازماً ألح فيه .

فقال له النبى – ﷺ – : « سَلِ الله العافية » ، فأخذها العباس وانصرف ، ثم جاءه بعد أيامٍ يُعيدُ عليه السؤال نفسه ، وكأنه يريد شيئاً فوق العافية أو أفضل منها ، وهو يعلم معنى العافية ولا يجهله ، ولكنه الطمع فى المزيد من فضل الله الواسع .

فيقول له النبى – ﷺ – : « يا عباسُ ياعم رسول الله ، سلوا الله العافية فى الدنيا والآخرة » .

والخطاب هنا للتعظيم والتفخيم، والمدح والثناء، ولهذا ناسب أن يقول له : « سلوا » بصيغة الجمع .

والأمر له ولسائر المؤمنين والمؤمنات سواء كانت الصيغة بالإفراد كما جاء أولاً ، أو بالجمع كما جاء ثانياً .

* * *

والعافية : هى رفع البلاء ، ورفع الأذى ، والوقاية مما لا تحمد عواقبه ، والشفاء من كل داءٍ ، ويقال للصحة : عافية .

وقال ابن منظور فى لسان العرب : يقال : عافاهُ الله وأَعْفَاه ، أى وَهَبَ له العافية من العلل والبلايا .

والعافية والمعاناة بمعنى واحد ، وقيل المعافاة : هى أن يُعَافِيَكَ الله من الناس ويُعَافِيَهُم منك ، أى يُغْنِيَكَ عنهم ويُغْنِيَهُمْ عنك ، ويصرِفَ أذاهم عنك ، وأذاكَ عنهم .

ومن هذا يتبين لنا أن العافية ما كانت في شيء إلا زانته ، وما نزعت من شيء إلاَّ شانته ؛ فهى جماع الخيرِ كله ، ليس وراءها من مطلب .

فإذا سأل العبد ربه العافى فقد سأله العفو والمغفرة ، ويتبع ذلك الجنة قطعاً، إذا ما قُبِلَ دعاؤه .

لهذا لم يمده النبى – ﷺ – بشىء آخر فوق الوصية الأولى ، ليعلم أنها أعظمُ وصية أهديت إليه وإلى سائر المؤمنين والمؤمنات .

وقد كان النبى – ﷺ – يسأل الله العافية فى أمره كله ، فى دنياه وآخرته .

روى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة ، عن عائشة – رضي الله عنهما – قالت : فَقَدْتُ رسولَ الله – ﷺ – ليلة من الفراش ، فَالْتَمَسْتُهُ ، فَوَقَعَتْ يَدِى على بطن قَدَمَيْهِ وهو فى المسجد ، وهما منصوبتان ، وهو يقول :

« اللهم ، أعوذ برضاك من سَخَطِكَ ، وبمعافاتك من عُقُوبَتِكَ ، وأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ ، لا أحصى ثَنَاءً عليك ، أنت كما أَثْنَيْتَ على نفسك » .

وفى استعاذته – ﷺ – برضا الله من سخطه ، وبمعافاته من عقوبته – طلب للرضا والمعافاة بأبلغ وجه وأرقى أسلوب ، فكأنه قال : أسألك الرضا والمعافاة ، وأعوذ بك من ضدهما .

وفى قوله : « وأعوذ بك منك » إظهار للأحدية ونفى الضِّدِّ من كل وجه .

ثم أثنى على الله بما هو أهله بأعظم ما يكون الثناء ، إذ اعترف بالعجز التام عن إحصاء الثناء عليه كما أثنى هو – جل شأنه – على نفسه ؛ إذ الكمال المطلق له ، والحمد كله من صفاته ، فهو جل شأنه مستغنٍ بحمده لذاته عن حمد سائر مخلوقاته .

* * *

(٨١) أنفقْ أُنفق عليك

عن أبى هريرة رضى الله عنه أنَ رسول الله - ﷺ - قال :

«قال الله عز وجل : أنفِقْ يا ابن آدم أُنفق عليك» [١] .

* * *

هذا حديث قدسى عبر النبى ﷺ عن معناه بألفاظ من عنده ، كما ذكرنا فى موضع سابق وبينا الخلاف بين العلماء فى الحديث القدسى والحديث النبوى فراجعه إن شئت .

ومعنى هذا الحديث ظاهر ولكن لنا فيه تأملات نريد أن نعرضها عليك أيها الأخ المسلم لتنظر فيها وتشاركنا النظر فى كلها أو فى بعضها .

١- قوله : «أنفقْ» فعل أمر يقتضى الوجوب تارة والندب تارة أخرى ، فهو للوجوب فيما يجب كالزكاة ونفقة الزوجة والعيال ، والنفقه على الوالدين ومن فى حكمهما كالجد والجدة ، والنفقة على الأخ العاجز والأخت التى لا عائل لها.

وهو للندب فيما يندب فعله كالصدقات التى يخرجها المسلم تطوعاً للفقراء والمساكين ومن فى حكمهم من ذوى الحاجات ولا سيماً إذا كانوا من الأقارب والجيران والأصدقاء وطلاب العلم والصالحين .

٢ - ومعنى «أنفق» ابذل من مالك بسخاء ، كما تقتضيه مادة الكلمة ؛ فهى من قولهم : نفقت السلعه أى كثر طلابها ، ونفقت السوق أى راجت وكثر فيها البيع والشراء .

والمسلم لا يقال إنه كريم إلا إذا أكثر من إخراج الصدقات وجاد بأجود ماله فى سبيل الله ، ولا ينجو من عذاب الله تعالى إلا إذا تخلص من آفات البخل والحرص والطمع والشح ، وهانت عليه الدنيا فزهد فيها وطمع فيما عند الله عز وجل .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه جـ٧ ص ٨٠ .

٣ – وقوله : «أُنفق عليك» جواب لفعل الأمر مترتب عليه . ومعناه : تنفق أنفق عليك ، ولايخفى ما فى هذا الجواب من ترغيب فى الإنفاق وحث على الإكثار منه بأسلوب بليغ يفيد بعمومه أن الجزاء من جنس العمل .

وهذا الحديث مؤكد لقوله تعالى : ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يُخلِفُه وهو خير الرازقين﴾ [١] .

أى وما أنفقتم من أى شيء فيه خير للناس فإن الله عز وجل سيعوضكم عنه خيراً منه فى الدنيا والآخرة ، وهو واسع الفضل لا ينقطع مدده أبداً ، فهو جل شأنه يرزق عباده دون أن يسألوه ويبارك لمن آمن به وأنفق مما جعله مستخلفاً فيه قال تعالى :﴿آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلَفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير﴾ [٢] .

ونلاحظ فى قوله : « أُنفق عليك » معنى آخر وهو كثرة الإغداق والمنح والعطايا التى تتوالى ولا تنقطع ، مأخوذ من مادة الكلمة وهى الرواج والكثرة – كما أشرنا .

لكن قد يقال إن الرزق مضمون ومقدر فكيف يكون الإغداق مترتباً على الإنفاق .

فيقال : إن الكثرة على نوعين ، مادية ومعنوية ، فالكثرة المادية قد لا تكون مرادة فى هذا الحديث ، وقد تكون مرادة ولكنها معلقة على الإنفاق من جهة العبد ، فإذا أراد الله أمراً يسر أسباب وقوعه .

وأما الكثرة المعنوية فهى مرادة كالبركة فى الرزق وعظمة الانتفاع به والتوفيق فى حفظه واستعماله فى وجوه الخير والقيام بشكر الله عليه .

* * *

وقد كان النبى – ﷺ – أجود الناس على الإطلاق فكانت يده كالرياح المرسلة ، يؤثر غيره على نفسه ، ولا يدخر وسعاً فى إكرام الضيف وإغاثة الملهوف وإطعام الجائع وقضاء الدين عن المديونين ،كما عرفنا من سيرته العطرة .

---

(١) سبأ : ٣٩ .　　(٢) الحديد : ٧ .

وكان صدّيقه وصديقه يقتدى به فى ذلك ولكن لا يدانيه ، فقد جاد بماله كله فى غزوة من الغزوات ، فقال له الرسول – ﷺ – : «ماذا تركت لأهلك يا أبا بكر ؟ » .

قال : تركت لهم الله ورسوله .

وكان سائر أصحابه – ﷺ – يتسابقون فى فعل الخيرات ويتنافسون فى البذل والسخاء ابتغاء مرضاة الله تعالى ، وطمعاً فى فضله ورحمته حتى صاروا فى ذلك مضرب الأمثال .

وقد تكلمنا عن الإنفاق فى سبيل الله فى أحاديث سابقة وسيأتى الكلام عنه أيضاً فى أحاديث أخرى .

وليأخذ المسلم من هذا الحديث وعداً صادقاً من الله تعالى يوقن به ويعمل على تحقيقه ، فيتخلص من شحه شيئاً فشيئاً حتى لا يكون فى نفسه شىء منه وذلك يحتاج منه إلى رياضة خاصة يغالب بها نفسه وشيطانه وهواه .

يقول الله عز وجل : ﴿ومن يُوقَ شحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ [1] .

نسأل الله أن يهدينا سواء السبيل .

* * *

---

(١) الحشر : ٩ ، التغابن : ١٦ .

(٨٢) كلكم عبيد الله

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – قال : «لا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ : عَبْدِى وأَمَتِي ؛ كُلُّكُمْ عبيد الله ، وكل نِسَائِكُمْ إماء الله ، ولكِنْ لِيَقُلْ : غُلامِي وَجَارِيَتِي ، وَفَتَايَ وَفَتَاتِي» (١) .

* * *

الأدب مع الله – تبارك وتعالى – ومع الناس مقام رفيع لا يدانيه – فضلاً عن أن يعتليه – خواص الناس من أولى العلم والنُّهى ، وذلك لأنه خُلق الأنبياء والمرسلين .

ولأتباعهم فيه قدم أصدق ، إذ جعلوهم مثلهم الأعلى فى عاداتهم وعباداتهم ، ففازوا برضوان الله تعالى فى دنياهم وآخرتهم .

وشريعة الإسلام من أتم الشرائع نعمة ، وأكملها منهجاً للدين والحياة ، فما من صغيرة ولا كبيرة مما يحتاج الناس إليها إلا شملتها هذه الشريعة الغراء ، ووسعها بيانها .

ولقد تعلم أصحاب النبى – ﷺ – منه كيف يكون الخطاب مع الناس ، وكيف يختار المسلم الألفاظ التى لا تجرح المشاعر ، ولا تمجها الآذان ، كما جاء فى هذا الحديث .

فقد قال النبي – ﷺ – : «لا يقولن أحدكم عبدى وأمتى» أى هذا عبدى، وهذه أمتى ؛ تأدباً مع الله – تبارك وتعالى – واستحياءً منه وإجلالاً له ، ولا يخاطبن الرقيق بقوله : ياعبدى ويا أمتى ؛ لما فى هذا الوصف من المهانة والاحتقار للمخاطبين ، ولما فيه من العجب والخيلاء ، والغرور والكبر .

ومن استحيا من الله لم يتفوه بهذا أبداً ، فكلنا عبيد الله – تبارك وتعالى – وكل نسائنا إماء الله حقّاً وصدقاً ، عرفنا ذلك بفطرتنا ، وآمنت به قلوبنا إيماناً لا ريب فيه ولا شبهة .

---

(١) رواه مسلم جـ ٤ كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها ، باب حكم إطلاق لفظة العبد والأمة والمولى والسيد ، حديث رقم : (٢٢٤٩) .

ولقد علمنا رسول الله - ﷺ - ما ينبغى أن نقوله عند التعريف بما ملكت أيماننا أو عند مخاطبتهم ، فقال عليه الصلاة والسلام : «ولكن ليقل : غلامى وجاريتى ، وفتاى وفتاتى» وهى كلمات تنطق بالحب ، وتفيض بالحنان ، وتنطق بالإعزاز والإكبار ، وتشهد للمتكلم برقة المشاعر ولطافة الحس وحسن الأدب مع الله أولاً ومع الناس ثانياً ، ومع النفس أيضاً ؛ لتكفكف من غلوائها ، وتُحِدّ من كبريائها وغطرستها ، وتتواضع لعظمة الخالق - جل جلاله - .

ولا شك أن لفظ الغلام والفتى ، والفتاة والجارية - أعذب وأحب للأسماع والقلوب من لفظى العبد والأمة ، فالفتى لفظ مأخوذ من الفتوة ، وهى : القوة والنباهة وسلامة الحواس والشباب المتدفق .

والغلام لفظ مأخوذ من الغلمة وهى : القوة أيضاً ، وشدة الشبق إلى النساء؛ لتوفر الصحة والشباب .

والجارية اسم مشترك بين الأمة والبنت الصغيرة ، وهذا الاشتراك يجعل اللفظ عند سماعه مقبولاً لا تَتَبَرَّمُ به الأمة حين تسمعه ، بل ربما تختال بنفسها إعجاباً ؛ لوصفها بالصغر وإن لم يرد المتكلم ذلك ، لكن أوحى به الطبع السليم والذوق الإسلامى الراقى .

وقد كان الإسلام حريصاً كل الحرص على إلغاء الرق ولكن بالأسلوب الهادئ الهادف ، الذى لا يُخِلُّ بالاقتصاد ، ولا يتعارض مع العدل ، ولا يتنافى مع الرحمة ورعاية مصالح العباد فى العاجل والآجل .

وقد كتب العقاد فى كتابه «بلال مؤذن الرسول - ﷺ - » بحثاً نفيساً في الخطوات التى سلكها الإسلام فى تحرير الرقيق ، فأجاد وأفاد ، وأزاح الستار عن الحكمة فى إقرار الرِّقّ فى الإسلام ريثما تتاح الظروف لإلغائه أو حصره فى أضيق نطاق ، وأزال ما فى طريق هذا الأسلوب من شبهات أوردها أعداء الإسلام على معاملته للرقيق .

* * *

ويؤخذ من هذا الحديث فوق ما تقدم أمراً هاماً ، وهو أن نتحرى أطيب

الكلام وأنفسه وأنفعه وأمتعه ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً ، ونتوقى من الكلام ما يُخِلُّ بالأدب مع الله ومع الناس ويتعارض مع القيم الإنسانية والمبادئ الخُلُقِيَّة ، ويتنافى مع العادات الحميدة المستقيمة ، ويتجافى عن الصواب والسداد .

وهذا يتطلَّبُ من المسلم أن يكون مُلِمّاً بمفردات اللغة العربية والعامية المنتقاة التى ترد على ألسنة خيار الناس ، ويتتبع أساليب النبى – ﷺ – وأصحابه فى مخاطباتهم ، وقد رُوِىَ لنا منها الكثير .

قيل للعباس – مَثَلاً – أنت أكبر أم رسول الله – ﷺ – ؟ ، فقال : هو أكبر منى وأنا أَسَنُّ منه .

وكان عمر – رضى الله عنه – يقول في حق أبى بكر وبلال : أبو بكر سيدنا أعتق سيدنا .

إن مقاييس الفضل عندهم هى التقوى والعمل الصالح ، كما أرشدهم ربهم – عز وجل – فى قوله : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ (١) .

ولقد علمنا القرآن هذا الأدب الوارد فى الحديث فقال – جل شأنه – : ﴿ وإذ قال موسى لفتاه لا أبرحُ حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حُقُباً ﴾ (٢) . وكان فتاه عبداً له ، وهو يوشع بن نون – رضى الله عنه – .

وقال جل وعلا : ﴿ ولا تُكرهوا فيتاتكم على البغاء إن أردن تحصناً ﴾ (٣).

وهن الإماء اللاتى أسلمن وكان سادتهن يكرهونهن على الزنا ؛ رغبة فى الحصول على المال .

لكن قد تقول : كيف تجمع بين هذا الأدب ، وما جاء من سورة النور فى الآية التى قبلها : ﴿ وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم ﴾ .

فاقول : عُبِّرَ فى هذه الآية بالعباد والإماء للتنصيص على إصلاح أمر الرقيق ذكوراً وإناثاً بترويجهم وتزويجهن إن رأوا فى ذلك صلاحاً وإصلاحاً .

---

(١) الحجرات : ١٣ . (٢) الكهف : ٦٠ . (٣) النور : ٣٣ .

ولو قال سبحانه : وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من فِتْيانِكُم أو غلمانكم وفَتَيَاتِكُم أو جواريكم لالْتَبَسَ الأمر فلا ندرى هل أراد الأحرار والحرائر أم أراد العبيد والإماء ، فذكر ما ذكر رفعاً للإجمال ودفعاً للإشكال الذى ينشأ من الاشتراك اللفظى ، فتأمل ذلك ولا تغفل عنه .

وأثنى جل شأنه على أهل الكهف ، وكانوا رعاة بسطاء فى مؤخرة الناس فقال : ﴿ إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ﴾ (١) .

ولقد تبنى النبى – ﷺ – زيد بن حارثة وهو غلام كان لخديجة بنت خويلد – رضى الله عنها – فوهبته له ، فكان الناس يدعونه زيد بن محمد ، حتى حَرَّمَ الله التبنى ، فقيل له : زيد حِبُّ محمد – ﷺ – .

وكان يقال لابنه أسامة : هو الحِبُّ ابن الحِبّ .

فما أعظم سماحة الإسلام ! وما أرقى أسلوبه فى المعاملات الخاصة والعامة !!

فأين نحن اليوم من هذا الدين ، وفينا من يضرب الخدم ويحتقرهم احتقاراً شديداً مزرياً بآدَمِيَّتِهِمْ ، ويعتبرهم أحط شأناً من الحيوان ، فقد يطعم كلبه أو قطته من أطيب أنواع اللحم ، ويعطى خادمه الفتات من الطعام المتبقى أو المتعفن، ويفرش لكلبه أو قطته فراشاً وثيراً ، ولا يكاد يفرش لخادمه إلا شيئاً من بقايا الكرتون أو الخيش أو ما أشبه ذلك ، ويجعله ينام وحده فى المطبخ أو فى مكان منزوٍ فى أقصى البيت ، ويكلفه من الأعمال ما لا يطيق ، وقد يكون الخادم صغيراً رمته أمه أو أبوه فى بيت لا يرحم .

وقد سمعنا أن كثيراً من ربات البيوت قَتَلْنَ الخدم بطرق شنيعة مُفْجِعَة ، فأين هؤلاء من الإنسانية ، إنهم قد فَقَدُوا هويتهم ، وتناسوا إنسانيتهم ؛ لأن الإنسان قلب حَىّ وضمير يقظ ، فإذا مات قلبه ونام ضميره فليس بإنسان على الحقيقة ، بل هو شيطان رجيم .

وقد قال النبى – ﷺ – : «الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء» وقد سبق شرح هذا الحديث بالتفصيل .

---

(١) الكهف : ١٣ .

وقال رسول الله – ﷺ – فى شأن الخدم بالذات : «إخوانكم خولُكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، ولْيُلْبِسه مما يَلْبَسْ ، ولا تكلّفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم» (١) .

إن الإسلام فى الثريا ونحن منه فى الثرى . . .

وسيأتى لهذا الحديث شرح مُفَصَّل فيما بعد إن شاء الله تعالى .

نسأل الله – تبارك وتعالى – أن يرزقنا السداد فى القول والعمل .

* * *

---

(١) رواه البخارى عن أبى ذر فى كتاب الإيمان باب ٢٢ .

(٨٣) إِخوانُكم خَوَلُكم

عن المَعْرُورِ بن سويد الأسدى الكوفى - رضى الله عنه - قال : لقيت أبا ذَرٍّ بالرَّبَذَة وعليه حُلَّةٌ وعلى غلامه حُلَّةٌ ، فسألته عن ذلك ، فقال : إنِّي سَابَبْتُ رجلاً فَعَيَّرْتُهُ بأُمِّه فقال لى النبي - ﷺ - : «يا أبا ذَرٍّ ، أَعَيَّرْتَهُ بأُمِّه إنَّك امرؤٌ فيك جَاهليَّةٌ ، إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ جعَلَهُمُ اللهُ تحتَ أَيْديكُمْ ، فمن كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَده ، فَلْيُطْعمْهُ ممَّا يأكل ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ ، ولا تُكَلِّفُوهُمْ ما يَغْلِبُهُمْ ، فإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ» (١) .

* * *

أبو ذر الغفارى صحابى جليل ، زاهد ورع ، قد خطّ لنفسه فى الحياة خطاً لم يدانيه فيه أحدٌ ، ولم يحمل أحداً على أن يَحْذُوَ حَذْوَهُ فيه ، فقد عزم عزماً مُؤَكَّداً ألاّ يَدَّخِرَ فى بَيْتِهِ درهماً واحداً فى صباحه ولا فى مسائه .

وقد سبق الكلام عن سيرته العطرة بشىء من التفصيل .

ومن أمارات زهده أن جاد على خادمه بحُلَّةٍ مساوية لِحُلَّتِهِ .

والحلة : إزارٌ ورداء ، فسأله المعرور بن سويد الأسدى الكوفى عن السر والحكمة فى هذه التسوية بينه وبين خادمه ، فقصَّ عليه من أمره ما وَرَدَ فى هذا الحديث .

قال : إنِّى ساببت رجلاً ، أى سَبَّنى وسَبَبْتُه فعيَّرْتُهُ بأمه ، ولا ندرى على وجه التحديد من هو هذا الرجل ، ولا نريد أن نعرفه ؛ لأن معرفتنا له لا تفيدنا فى شىء ، والتَّقَصِّى عن اسمه نوع من التَّطفُّل .

قيل : إن أبا ذر قال له : يا ابن السَّوْدَاء ، والسواد شىء لا تُعَيَّرُ به المرأة ، بل ربما يكون هذا الوصف إلى الثناء أقرب .

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الإيمان باب المعاصى من أمر الجاهلية ... ، وفى كتاب العتق باب قول النبى - ﷺ - العبيد إخوانكم ... .

ومع ذلك لأمَهُ النبى – ﷺ – وقال له كالمنكر عليه : « يا أبا ذر ، أعَيَّرْتَهُ بأمه ، إنك امرُؤٌ فيك جاهلية » أى لازلت تعانى من حَمِيَّتِهَا وعصبِيَّتِهَا ، فكان هذا القول منه – ﷺ – درساً أفاد منه أبو ذر – رضى الله عنه – فى حياته كلها ؛ إذ قضى على بقية ما كان فيه من جاهلية ، وتحلّى بالخلق الفاضل والسلوك النبيل، وتلاشت من قلبه بواعث العصبية ، حتى لم يعد يفرق بينه وبين عبده فى مَلْبَسِهِ ولا مأكله ولا مشربه ، فياله من خلق زان صاحبه ، وازدانت به الفئة المؤمنة التى حاكته فيه .

* * *

ثم قال النبى – ﷺ – مسترسلاً فى الوعظ والإرشـــاد : «إخوانكم خولكم » .

أى إخوانكم هم خَدَمُكُمْ ، ولم يقل : «خولكم إخوانكم» مبالغة فى إثبات الأخوة لهم على وجه الاختصاص بتقديم الخبر على المبتدأ ؛ لأن ملازمة الخدم لمخدوميهم لا تَقِلُّ عن الأخوة النَّسَبِيَّةِ فى شىء إذا كان الإيمان هو الداعى إليها والباعث عليها .

وقد يصنع الخادم لمخدومه ما لا يصنعه الأخ لأخيه وهو ابن أمه وأبيه .

ولذا قالوا : رب أخ لك لم تلده أمك .

ولقد أكد الله الأخوة الإيمانية فى كثير من الآيات القرآنية كقوله تعالى : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تَفَرَّقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ﴾ (١) .

وقوله جل شأنه : ﴿إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخوَيكم واتقوا الله لعلكم تُرحمون ﴾ (٢) .

قال ابن منظور فى لســان العرب : الخَوَلُ : العبيــد والإماء وغــيرهم من الحاشـية ، الواحد والجمع والمذكر والمؤنث في ذلك سواء . . .

---

(١) آل عمران : ١٠٣ .　　(٢) الحجرات : ١٠ .

قال : وخَوَلُ الرجل : حَشَمُهُ ، الوَاحدُ خائِلٌ ، وهو اسم يقع على العَبْدِ والأَمَةِ ، وهو مأخوذ من التَّخْوِيلِ وهُوَ التَّمْليكَ ...

يقال : خَوَّلَكَ الله مالاً أى مَلَّكَكَ .

والخَائِلُ : المُتَعَهِّدُ للشىء والمُصْلِحُ له القَائِمُ به .

ونخلص من هذا البحث اللغوى إلى أن الخَوَلَ هم : العبيد والإماء والخدم والأتباع والموظفون عند صاحب العمل ، صُنَّاعاً كانوا أو تُجَّاراً ، أو معلمين أو سياسيين ، فمدلول الكلمة واسع جداً كما تذكر كتب اللغة .

ويخصص المعنى بالقرينة .

وسياق الحديث يدل على أنهم العبيد والإماء ، فقد قال – ﷺ – : « جعلهم الله تحت أيديكم » أى ملككم رقابهم ، ولكنه بعمومه يشمل الخدم والأجراء ومن فى حكمهم .

والمسلم أخو المسلم لا يخذله ، ولا يحقره ، كما جاء فى الحديث الذى تَقَدَّمَ بيانه في المجلد الأول من هذا الكتاب .

ولعل سائلاً يسألنى : من هم العبيد والإماء ؟

فأقول : هم الذين يؤخذون أسرى وسبايا فى حرب دينية لإعلاء كلمة الله – عز وجل – ، وليسوا هم الذين خَطَفَهُمُ اللصوص وباعوهم فى أسواق الرقيق .

وليس العبد هو أسود اللون ، كما يعتقد كثير من الناس .

وليس الخدم من العبيد ، كما يظن الكثير من أرباب الثراء والنعمة .

وقد جاء الإسلام والرِّقُّ موجود ، فأقره رَيْثَمَا يتاح له إلغاؤه بأسلوب حكيم لا ضرر فيه ولا ضرار .

وقد رغَّبَ المسلمين في تحرير الرقيق بشتى الطرق ، فجعله مَصْرَفاً من مصارف الزكاة كما فى آية التوبة ، وهى قوله تعالى : ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب ... الآية﴾ (١)

---

(١) التوبة : ٦٠ .

وجعل تحريرهم نوعاً من كفارة اليمين وكفارة القتل الخطأ .

وقد وردت أحاديث كثيرة تبشر من يعتق عبده أو أَمَتَه بأن له فى الجنة كذا وكذا .

منها ما رواه البخارى فى صحيحه عن أبى موسى الأشعرى – رضى الله عنه – أن النبى – ﷺ – قال : « مَنْ كانت له جارية فَعَلَّمَهَا فأحسنَ إليها ثُمّ أعتقها وتزوجها ، كان له أجران » .

ومنها ما رواه أبو داود عن عمرو بن عَبْسَةَ – رضى الله عنه – قال : سمعت رسول الله – ﷺ – يقول : « مَنْ أعتق رقبةً مُؤْمِنَةً كانت فِداءَهُ من النار » .

وللرق أحكام كثيرة تَخُصُّهُ لا مجال لذكرها هنا .

وحسبنا أن نُبَيِّن ما يؤخذ من هذا الحديث فوق ما ذكرنا فنقول :

قوله – ﷺ – : « فمن كان أخوه تحت يده ، فليطعمه مما يأكل » أمر لا يقتضى الوجوب فى كل ما يأكل ، ولكن يقتضى الوجوب فى بعضه ، فإنه قد يتناول من الأطعمة ما يَشِحُّ به عادةً عن العبيد ومن فى حكمهم فى المعاملة كالخدم ، ولكن يستحب أن يعطيه منه شيئاً مرة بعد مرة ، ولا يحرمه تماماً منه فيشعر بالحزن والأسى ، ويحسده على ما يأكله أو يحقد عليه فيه ، وقد يلعب الشيطان برأسه، فيفعل الأفاعيل مما هو مشهور عنهم ، ولا سِيَّمَا الأَخِسَّاءُ منهم .

فليكن المخدوم عطوفاً على خدمه رءوفاً بهم ، مقدِّراً لمشاعرهم مراعياً لظروفهم ومدى حاجتهم وتطلعهم إلى ما فى أيدى المخدومين من مُتَعِ الحياة ، ولاسيما الطعام ؛ لأنه يتكرر حدوثه وتناوله فى اليوم ثلاث مرات أو أكثر .

فلو أعطاه شيئاً منه طابت نفسه وَسَلِمَ قلبه من الغيرة والحقد والحسد ، والشعور بالمذلة والمهانة والحرمان ، وأحسّ أنه واحد من الأسرة ، فبالغ فى تأدية واجبه على النحو الذى يرضاه مخدومه ، وكان حريصاً على مصلحته لا يأتى من الأعمال ما يسوؤه ، وإن وقع شىء مما يسوؤه خجل من نفسه ، وبادر بالاعتذار إليه .

فالخادم يطيعك بقدر ما تعطيه ، ويحرص على منفعتك بقدر ما تحرص على شعوره وكرامته كإنسان .

فهذا الطعام هو الذى يُعدُّه لك ، أو يقربه إليك ، أو يشرف عليه قبل أن تشرف عليه ، ونفسه تتطلع إليه قبل أن تتطلع إليه نفسك ؛ لأنه يعانى من الحرمان أكثر بكثير مما تعانى غالباً ، فلو حرمته منه فقد كسرت نفسه وقطعت عنقه ، وسلطته على حربك ، ولو بطريق غير مباشر ، وأنت غير قادر عليه وإن بدا لك ذلك .

فهو إما أن يكون أميناً وإما أن يكون خائناً ، فالأمين يجب إكرامه والإنعام عليه ، والخائن يجب طرده وعدم الإبقاء عليه .

إن الكريم حين تكرمه تملك عليه مشاعره وأحاسيسه وتجعله مطيعاً لك ، ودوداً لأسرتك ، محباً لك الخير دائماً فى حضورك وفى غيبتك ، بخلاف اللئيم؛ فإنك مهما أعطيته لم يشكرك ، ومهما أحسنت معاملته لم يحسن إليك .

وصدق قول أبى تمام :

إن أنت أكرمت الكريمَ ملكتَه

وإن أنت أكرمت اللئيمَ تَمرَّدا

فأحسن اختيار خدمك وعمالك وموظفيك ، وأكرمهم وأحسن معاملتهم، وأطعمهم مما تأكل ولو أن تجود عليهم بالقليل ، فهم لا يطمعون فى أن يأكلوا معك ولا يطمعون فى أن يساووك فى كل ما تأكل ، ولكن يريدون أن يأخذوا القليل من هذا وذاك مما يكون تطلعهم إليه أكثر ، وشوقهم إلى تناوله أشد وأكبر.

فإن أعطيتهم منه ، فقد استعطفت قلوبهم وأملتها إلى حبك وإجلالك ، ونلت منهم بقدر عطائك من الخدمة والتقدير :

أَحسِنْ إلى الناسِ تَسْتَعْبِدْ قُلُوبَهُمُو

فلطالما استعبد الإنسانَ إحسانُ

والدليل على ما ذكرناه ما رواه البخارى فى صحيحه عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – قال : «إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه فإن لم يُجلسْهُ معه فليُناولْهُ لُقمةً أو لُقمتَيْنِ ، أو أُكْلَةً أو أُكْلَتَينِ ؛ فإنَّهُ وَلِيَ عِلاَجَهُ» . أى تولّى صنعه وإعداده وتقديمه .

وقوله – ﷺ – «وليلبسه مما يلبس» أمر على سبيل النصح والإرشاد والتوجيه ، معناه : أن يلبسه بعض ما يَلْبَس ، على أن «من» : للتبعيض ، أو من جنس ما يلبس ، ولو من القديم المقبول الذى لا يُزْرى به ولا يُسَبِّبُ له إحراجاً ، ولا يشعره بالخسة والمَعَرَّة .

فإن المسلم لا ينال الأجر من الله تعالى فى الدنيا ولا فى الآخرة إلا إذا جاء بما يُحِبُّ ، وأنفق من الطَّيِّب بإخلاص وطيب نفس .

يقول الله – عز وجل – : ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تَيَمَّمُوا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تُغمضوا فيه واعلموا أن الله غنى حميد﴾ (١) .

ويقول – جل شأنه : ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شىء فإن الله به عليم﴾ (٢) .

والمؤمن حكيم فى تصرفاته ، يعرف ما ينفعه فيأتيه وما يضره فيجتنبه .

وهو كريم إما بطبعه وإما بتطبعه .

والإسلام يخرج الإنسان من بخله شيئاً فشيئاً ، حتى يبرأ منه ، ثم يخرجه من شحه (٣) شيئاً فشيئاً ، حتى ينجو منه ، فيفلح غاية الفلاح .

﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ (٤) .

وقوله – ﷺ – : «ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم» حَثٌّ للمخدومين على الرحمة بالخدم ، فلا ينبغى أن يدفعهم البخل والشح ، والرياء وحب الظهور والرغبة فى الانتقام إلى أن يكلفوهم ما لا طاقة لهم به .

وإن كان ولابد من أن يكلفوهم ببعض الأمور الشاقة فليتعاونوا معهم فى إنجازها ولو بطريق غير مباشر ، فإن مشاركة الخدم فى بعض أعمالهم تواضع محمود ، له آثاره الإيجابية فى نفوس الخدم وغيرهم ممن هم على مقربة منهم .

---

(١) البقرة : ٢٦٧ . (٢) آل عمران : ٩٢ .

(٣) الشح : داء أعظم من داء البخل ، فهو بخل وحرص وطمع وجشع كما مرَّ بيانه فى حديث سابق . (٤) التغابن : ١٦ .

وقد قال الله – عز وجل – : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾ (١) .

والتواضع صفة من صفات عباد الرحمن كما تقدم بيانه فى حديث سابق .

والدليل على ذلك قوله تعالى فى وصفهم : ﴿ وعبادُ الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾ (٢) .

يقول الشـاعر :

تواضع تكن كالنجم لاح لناظر   على صفحات المـاء وهـو رفيع

ولاتك كالدخان يعلو بنفسـه   على طبقات الجـو وهـو وضيع

ولنا فى رسول الله – ﷺ – أسوة حسنة ، فقد كان يشارك نساءه وخدمه مهنتهم بسرور وحبور ، فكان يخيط ثوبه ، ويخسف نعله ، وغير ذلك .

وكان يشارك أصحابه فى أعمالهم ولا يحب أن يتميز عليهم ، بل كان يقوم بالأعمال التى تغلبهم .

وقد حفلت كتب السِّيَر بذكر ما يدل على ذلك .

واقتدى به أصحابه ، كأبى بكر وعمر وعثمان وعلى وأبى ذر الغفارى راوى هذا الحديث وغيرهم .

إلا أن أبا ذر قد بالغ فى التسوية بينه وبين خادمه ، شأنه في ذلك شأن سائر أعماله في البر والصلة ، فقد تميز بمذهب لم يحمل عليه أحداً كما ذكرنا ، ولم يتبعه أحد فيه إلا بالقدر الذى يطيقه .

وقد جعل الله لكل منهم سبيلاً يسلكه فى طاعته له والوصول إليه .

وكلها سبل محبوبة مرضية .

يقول الله – عز وجل – : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾ (٣) .

نسأل الله أن يجعلنا منهم .

* * *

---

(١) المـائدة : ٢ .   (٢) الفرقان : ٦٣ .   (٣) العنكبوت : ٦٩ .

(٨٤) لا تَسُبِّي الحمَّي فإنها تُذْهِبُ خطايا بنى آدم

عن جابر بن عبد الله - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - دخل على أم السَّائب ، أو أُمِّ المُسَيِّبِ ، فقَال : « مالك يا أمَّ السَّائب ، أوْ يَا أُمَّ المُسَيِّبِ ، تُزَفْزِفِينَ؟ » .

قالت : الحُمَّى ، لا بَارَكَ اللهُ فيها ، فقال : « لاتَسُبِّى الحُمَّى ؛ فإنَّها تُذْهِبُ خَطَايَا بنى آدَمَ ، كما يُذْهِبُ الكِيرُ خَبَثَ الحَدِيدِ » (١) .

* * *

كان النبى – ﷺ – يزور بعض أصحابه فى بيوتهم براً بهم ، وتوكيداً لمودته لهم ، وإجابة لهم إذا دعوه لزيارتهم حباً له وتبركاً به .

وكانت عنايته بزيارة المرضى منهم أكبر لمواساتهم وتسلية قلوبهم ، وإدخال السرور عليهم ، والدعاء لهم . وقد دخل يوماً على أم السائب الأنصارية ، وهى مصابة بالحمى . فقال : « مالك يا أم السائب ، أو يا أم المسيب (٢) ، تزفزفين» أى مالك ترتعدين وتضطربين ، وتهتزين اهتزازاً شديداً .

وفى رواية : « ترفرفين» ، وفى رواية لغير مسلم : « ترقرقين» والمعنى واحد .

وقد سألها النبى – ﷺ – هذا السؤال رقة لحالها ورفقاً لها ، ومواساة لها ، ولكى تفرغ ما فى قلبها من الأحزان ، وتعبر عما تعانيه من الآلالم فيتعامل معها فى الوعظ والإرشاد على وفق ما يسمع منها .

فهو – ﷺ – طبيب الأطباء، يعرف كيف يشخص الداء ، ويصف الدواء.

---

(١) رواه مسلم جـ ٤ ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه ... حديث رقم : (٢٥٧٥) .

(٢) شك من الراوى ، ويحتمل أن يكون لها ولدان : السائب والمسيب – بفتح الباء وكسرها – ولم يذكر ابن حجر فى الإصابة اسمها .

سألها هذا السؤال الحانى ، وهو يرى ما بها ، ويعلم أنها الحمى ، ولكن تركها لتجيب عن هذا السؤال لعلها تفصح عن شيء لا يرى بالأبصار بقدر ما يرى بالبصائر .

قالت أم السائب - رضى الله عنها - : «الحمى، لا بارك الله فيها» . وهو جواب موجز بليغ ، وكأنها تقول : هى الحمى ، وأى شيء غير الحمى !! وما أدراك ما الحمى !! إلى آخر ما يعتمل فى صدرها من بغضها ، والتبرم منها ، والخوف من عواقبها .

لكنها أضافت كلمة تؤكد هذا كله ، ما كان يستحب لها أن تتفوه بها ، وهى مؤمنة بقضاء الله وقدره . فالكلمة فى حقها ربما تكون سيئة .

وهى كلمة لا تتجاوز معناها ، ومع ذلك اعتبرها النبى - ﷺ - نوعاً من السب ، إذ هو قول يشبه اللعن والشتم ؛ لما فيه من إظهار الغيظ والغضب والضجر .

فهى تقول فى دعائها على الحمى : لا زاد الله فيها ، ولا ضاعف من آلامها، ولا قدر الله على الناس شرها ، ونحو ذلك من المعانى المتقاربة .

وهى تريد بهذا الدعاء - كما هو واضح - أن يزحزحها الله عنها ، وعن كل من أصيب بها ؛ لأنها مرض قتّال لا يسلم منه المرء غالباً .

وقد سمع النّبىُّ - ﷺ - مقالتها فعذرها فيما قالت ، ونهاها عن سب الحمى ؛ لأنها محنة تعقبها منحة ، وشر فى طياته خير .

قال لها : «لا تسبى الحمى ؛ فإنها تُذْهِبُ خطايا بنى آدم كما يذهب الكير خبث الحديد» .

أى : لا تتبرمى منها ، ولا تتشاءمى من وجودها ؛ فإنها سبب فى محو الخطايا، وتكفير الذنوب ، وفى ذلك الخير كله .

فمن غفر الله له ذنوبه ، وحط عنه خطاياه ، فقد رفع عنه العذاب فى الدنيا والآخرة ، وأدخله الجنة بفضله ورحمته .

قال تعالى : ﴿ فمن زُحزح عن النار وأُدخل الجنة فقد فاز ﴾ [1] .

والحمى وما شاكلها من الأمراض تحط من خطايا ابن آدم شيئاً فشيئاً مدة وجودها حتى يطهر منها تماماً إن صبر عليها ، ورضى بقضاء الله وقدره فيها .

روى مسلم - في صحيحه - عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « ما من شىء يصيب المؤمن ، حتى الشوكة تصيبه إلا كتب الله له بها حسنة ، أو حُطت عنه بها خطيئة » .

وروى - أيضاً - عن أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة - رضى الله عنهما - أنهما سمعا رسول الله - ﷺ - يقول : « ما يصيب المؤمن من وَصَب ولا نصب ولا سقم ولا حَزَن حتى الهم يُهَمُّهُ إلا كُفر به من سيئاته » .

والأحاديث فى هذا المعنى كثيرة .

والتشبيه فى الحديث غاية فى الدقة والبلاغة ، فالكير - وهو آلة الحداد - تزيل تماماً صدأ الحديد ، حتى يبدو وكأنه جديد ، وهكذا الحمى فهى نار كنار الحداد تظل تنظف صاحبها من ذنوبه - وهى خبثه - إلى ما شاء الله ، فكلما طالت نفعت، فهى محنة تعقب منحة - كما أشرت من قبل .

* * *

ويؤخذ من هذا الحديث فوق ما ذكرنا فوائد منها :

١ - استحباب زيارة المرضى، ومواساتهم ، وسؤالهم عما يعانونه من الألم، ووعظهم وتذكيرهم بالله ، وإدخال السرور عليهم ، والدعاء لهم ، ونحو ذلك من الآداب التى مرت بنا فى حديث سابق .

٢ - إخبار المريض بما يلقاه من ربه - عز وجل - من غفران الذنوب ، ورفع الدرجات إذا ما صبر واحتسب أجره عليه - جل شأنه - .

٣ - نهيه عما لا ينبغى أن يقوله أو يفعله أثناء مرضه بدافع الجزع والهلع وتوقع المكروه .

٤ - استخدام الوسائل التوضيحية فى بيان المعانى كالتشبيهات البلاغية ، وضرب الأمثال ونحو ذلك مما يزيدها إيضاحاً وإفصاحاً ، ويجعلها أكثر تَقَبُّلاً والتزاماً .

---

(١) آل عمران : ١٨٥ .

وقد كان النبى – ﷺ – يستعين كثيراً بضرب الأمثال وإبراز المعانى بصور مُحَسَّة اقتداءً بالقرآن الكريم .

٥ – ومن هذا الحديث نتعلم الأدب مع الله تعالى ، فلا نتفوه بكلمة تنبئ عن عدم الرضا بالقضاء والقدر ، أو توحى ولو بطريق غير مباشر بأن قائلها قد يئس أو قارب اليأس ، فينكر عليه سامعه أو يَبْغَضُه وينفر منه ، أو يحاكيه فى هذا القول إذا كان إِمَّعَةً، يُقَلِّد الناس فى أقوالهم وأفعالهم من غير تَعَقُّلٍ ولا رَوِيَّةٍ.

والكلمة إذا خرجت من الفم احتُسبت على قائلها ، وهو لا يستطيع أن يعيدها إلى قلبه مرَّةً أخرى ، وربما لا يقبل عذره إن اعتذر منها ، وربما يكون فيها حتفه وهلاكه .

والأدب مع الله من أرفع المقامات كما ذكرنا أكثر من مرة فى هذا الكتاب .

٦ – وكذلك نتعلم من هذا الحديث الأدب مع زُوَّارِنَا ، ولاسيما إذا كانوا من أهل العلم والفضل ، فلا نتكلم بالكلمة إلا إذا عقلنا معناها وعرفنا مرماها ، وأدركنا أبعادها وتأثيرها فى نفس سامعها .

فهذه أم السائب لم تزد على قولها : الحمى ، لا بارك الله فيها ؛ إذ لم تقل لعنها الله ؛ تأدباً مع الله – عز وجل – ومع رسوله – ﷺ – ، ومع ذلك أراد النبى – عليه الصلاة والسلام – أن يرفع من مكانتها ، فقال لها : « لا تَسُبِّى » ، واعتبر قولها من باب السَّبِّ مع أنه ليس كذلك ؛ لأنه صدر منها ، ومثلها لا ينبغى أن يصدر منه ذلك .

وحسنات الأبرار سيئات المقربين كما يقولون .

وهذه الكلمة تجرى على ألسنة الناس بغير تَعَمُّد فلا يلام قائلها ، ولكن إذا كان قائلها قدوة عِيْبَ عليه ذلك .

وإنها لتربية حكيمة من رسول قد جمعت له الحكمة فى قلبه ، فكان هو ينبوعَها ومَصَبَّها ، فهو من بحار حكمة الله يغترف ؛ ليرتوى منها الأخيار من أصحابه ثم من دونهم إلى يوم القيامة .

فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

* * *

(٨٥) لا تَسُبُّوا الأمواتَ

عن عائشة – رضي الله عنها – أن النبى – ﷺ – قال : «لا تَسُبُّوا الأموات؛ فإنهم قد أفْضَوْا إلى ما قَدَّمُوا» (١) .

* * *

كان العرب فى الجاهلية يتفاخرون بالأنساب والأحساب ، فيؤدى بهم التفاخر إلى هجاء الأحياء وسبِّ الأموات ، ويَتَفَنَّنون فى ذلك ، ويُغْرِون شُعَرَاءهم بذكر محاسنهم ومساوى غيرهم ؛ فتنبعث فى قلوبهم الأحقاد من مكامنها ، وتَطُلُّ الفتن من أوكارها ، وتَدُقُّ طبول الحرب بين عشية وضحاها ؛ فَيُصَبِّح أو يُمَسِّى بعضهم بعضاً ، فلا تكاد الحرب تضع أوزارها حتّى تنشب من جديد .

فجاء الإسلام فقضى بتشريعاته السمحة على تلك الحمية الجاهلية والعصبية القبلية وحَدَّ من خطرها كثيراً ، وظل رسول الله – ﷺ – يُعَلِّم الناس مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم حتى لقى ربه – عز وجل – والناس على المَحَجَّة البيضاء ، ليلها كنهارها لا يحيد عنها إلا من سفه نفسه وفَقَدَ عقله .

من هذا تتبين لنا الحكمة فى هذا النهى .

ولكن ما معنى السَّبّ ، ومن المراد بالأموات ، هل المسلمون دون الكفار ، أم هو لفظ عام يشمل المسلمين والكفار جميعاً ؟

أقول : المراد بالسبّ معناه الواسع ، الذى يشمل كل كلمة تحمل شرّاً من صاحبها إلى غيره بغير حَقٍّ .

وقد جمع الله أنواع السبّ كُلَّهَا فى آيتين اثنتين من سورة الحجرات .

قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يَسْخَرْ قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكنَّ خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تَنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوقُ بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم

---

(١) رواه البخارى جـ ٢ كتاب الجنائز ، باب ما ينهى من سَبِّ الأموات .

الظالمون يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه مَيْتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم ﴾ [1] .

فهاتان الآيتان جمعتا فى طيَّاتهما القواعد الكلية للسبِّ بالأقوال والأفعال، وحذرتا منها تحذيراً شديداً بأبلغ أسلوب وأعذب بيان .

وقد بدأت كل آية منهما بخطاب يهيبُ بالمؤمنين أن يضعوا ما بعده موضع التنفيذ ، وأن يدركوا خطورة ما يترتب على عدم التزامه من وَيْلاَتٍ وأهوال .

فباسم الإيمان ينهاهم ربهم – عز وجل – عن السخرية ، وهى : الاستهزاء والاحتقار والغَضّ من شأن الناس ، وما إلى ذلك مما يدل على الكبر والتعالى والعجب والغرور .

وباسم الإيمان نهى عن اللمز ، وهو : الخدش فى الأعراض والأنساب ، وإيقاع الفتنة بين الأفراد والأسر والمجتمعات .

ومن لمز غيره فقد لمز نفسه ، لهذا قال: ﴿لا تلمزوا أنفسكم﴾ ، ولم يقل: ولا تلمزوا بعضكم مثلاً .

ونهى عن التنابز بالألقاب ، وهو : التَّنَادى بالألقاب القبيحة ، التى يكره المرء أن ينادى بها ، واعتبر ذلك كله فسوقاً ، أى : خروجاً عن صفات المؤمنين .

ونهى عن سوء الظن والتجسس والغيبة ، وكلها داخلة تحت السَّبِّ .

وسيأتى لهذا مزيد بيان فى حديث آخر .

والذى نريد أن نقرِّره هنا أن المراد بالسَّبِّ كل ما يؤذى الأموات والأحياء معاً ؛ فإن سَبَّ الأموات يؤذى أقاربهم وجيرانهم ، وأصدقاءهم ، وغيرهم من أصحاب المروءات والقلوب الرحيمة .

روى الترمذى فى سننه عن المغيرة بن شعبة – رضى الله عنه – قال : سمعت رسول الله – ﷺ – يقول : «لا تَسُبُّوا الأموات ؛ فتؤذوا الأحياء» .

---

(١) آية : ١١ – ١٢ .

والمراد بالأموات فى الحديث : أموات المسلمين ، أما أموات الكفار فقد قال المناوى فى فيض القدير : سَبُّهُم قربة .

وأنا لا أفهم ما يعنيه المناوى – رحمه الله – بأن سَبَّهُم قربة على إطلاقه ، ولكن أحياناً يكون سبُّهم عدواناً على أقاربهم ومن يعنيهم أمرهم ، ثم إن سَبَّهم على أنواع .

فإن كان عاماً كقولنا : لعن الله الكفار ، فهو مباح ، وقد يكون قربة إذا تَضَمَّنَ ما يعود على المسلمين بخير .

وإن كان خاصاً فلا يجوز ، كأن يقول القائل : لعن الله الكافر فلاناً ، فإنه لا يدرى هل مات على الكفر أم لا ، وقد يؤذى بهذا السبّ أهله وذويه ، وقد يؤدى إلى فتنة ، فالأولى أن يترك سب الأشخاص من أموات الكفار .

وعلى ذلك يكون المراد من الأموات فى الحديث أموات المسلمين ومن لا نقطع بكفره ، والله أعلم .

وسبّ الأموات من المسلمين عدوان عليهم وعلى أهليهم وذوى قرباهم ، وهو يدل على أن فاعله جبان ؛ لأنه يعلم أن من سبّه لا يستطيع الدفاع عن نفسه ، ولو كان حيّاً لكان له معه شأن .

ويدل أيضاً على أنه عديم المروءة قليل الحياء ؛ إذ لو كان ذا مروءة وحياء ما أقدم على سبّ من حبسه الموت على أن ينال منه مثل ما نال منه .

والمؤمن الحق من يُعَظِّم أمر الموت ، فيرحم الأموات من شَرِّه وشرّ لسانه بالذات ، فلا يذكر مساويهم التى وقعت منهم فى الدنيا ، إلا إذا كان مضطراً لذلك فى إحقاق حق وإبطال باطل ، ويكون ذلك بالقدر الذى تدعو إليه الضرورة.

والضرورة تُقَدَّر بقَدْرِهَا كما يقول الفقهاء .

وذكر محاسن المَوْتى أمر مُرَغَّب فيه شرعاً ؛ لما رواه أبو داود في سننه عن ابن عمر – رضى الله عنهما – أن رسول الله – ﷺ – قال : «اذكروا محاسن موتاكم وكفوا عن مساويهم» .

وعلى المسلم أن يراقب ربه فى أمره كله ، ويستحضر قلبه إذا هَمَّ بمعصية ، ويستعيذ بالله كلما أصابه من الشيطان نزغ ، وليذكر أنه صائر إلى ما صار إليه هؤلاء الأموات ، وملاقٍ ما يلاقونه ، وأن أعماله ستعرض عليه كما عرضت عليهم ، فإن كانت خيراً فخير وإن كانت شراً فشر .

ولقد علل النبى - ﷺ - النهى عن سب الأموات بقوله : « فإنهم قد أَفْضَوا إلى ما قدموا » .

فالفاء للتعليل ، وأفضوا - بفتح الضاد وسكون الواو - أى صاروا إلى ما قدموا لأنفسهم من خير وشر .

وكأنه - بهذا التعليل - يقول لنا : اهتموا بأموركم ، وعالجوا أنفسكم من وساوسها ، وطهروا قلوبكم من الغل والحقد والحسد ، والكبر والعجب والغرور ، وصونوا ألسنتكم عن القيل والقال ، وقدموا لأنفسكم من الخير مثل ما قَدَّم الأخيار لأنفسهم ، وليكن كل واحد منكم مشغولاً بإصلاح شأنه وترك ما سواه لله .

ومن حسن إسلام المرء : «تركه ما لا يعنيه» (١) كما قال عليه الصلاة والسلام .

وخير الناس من شغله عيبه عن عيوبهم .

وعلى المسلم إذا حضر مريضاً أو ميتاً أن يقول قولاً سديداً ، ويدعو دعاءً نافعاً له وللمريض أو الميت ؛ فإن الدعاء عند حضور المريض أو الميت يكون مقبولاً فى الغالب ؛ لأن الملائكة تؤمن عليه . كما سيجئ فى الحديث الآتى .

والله هو الموفق والهادى إلى سواء السبيل .

* * *

---

(١) رواه الترمذى .

(٨٦) إذا حضرتم المريض أو الميت فقولوا خيراً

عن أُمِّ سَلَمَةَ - رضى الله عنها - أن رسول الله - ﷺ - قال : «إذا حَضَرْتُمُ المريضَ ، أو الميِّتَ ، فقولوا خيراً ؛ فإن الملائكة يُؤَمِّنُونَ على ما تقولون» .

قالت : فلمَّا مات أبو سلمة أتيت النبى - ﷺ - فقلت : يا رسول الله ، إن أبا سلمة قد مات .

قال : «قولي : اللهم ، اغفر لى وله ، وأَعْقِبْنِى منه عُقْبَى حَسَنَةً» .

قالت : فَقُلْتُ ، فأعقبنى اللهُ من هو خيرٌ لى ، مُحَمَّداً - ﷺ -[١] .

* * *

حضور المسلم عند أخيه المسلم فى حال مرضه بركة عليه وعلى أهل بيته - يواسيه بخير الكلام وأطيبه ، ويخفف عنه آلامه بما لديه من وعظ وإرشاد وتوجيه وفكاهة وغير ذلك مما يفرح به أخوه المريض ، مع مراعاة الآداب العامة التى نص عليها الرسول - ﷺ - ونقلها عنه أصحابه قولاً وعملاً .

وحضوره عند موته شفاعة له ؛ إذ يدعو له بما وسعه من الدعاء النافع له فى قبره ويوم القيامة .

وهذا هو المراد بقوله - ﷺ - : «فليقلْ خيراً» بدليل قوله : «فإن الملائكة يؤمِّنون على ما تقولون» والتأمين طلب الإجابة عقب الدعاء .

فليس هناك خير للمريض والميت من الدعاء .

وعلى المسلم أن يتخير لنفسه ولأخيه من الدعاء أجمله وأكمله ، وهو المأخوذ مباشرة من القرآن والسنة .

وليكن الدعاء موافقاً لحال المريض وحاجته ، وملائماً للميت نافعاً له فى آخرته .

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الجنائز ، باب ما يقال عند المريض والميت ، حديث رقم (٩١٩) جـ ٢ ص ٦٣٣ .

بل ينبغى أن يشمل بدعائه أهل المريض وأهل الميت ، فيدعو لهم بما يذهب عنهم الحزن والأسى ، ويردهم إلى الرضا بقضاء الله وقدره .

وهو الأمر الذى يجلب عليهم السكينة والطمأنينة ، ويبشرهم بحسن العاقبة وعظيم الأجر على الصبر والشكر .

* * *

قالت أم سلمة – رضى الله عنها وأرضاها – : فلما مات أبو سلمة أتيت النبى – ﷺ – فقلت : يا رسول الله إن أبا سلمة قد مات .

إنها جاءت تخبره بموته وهى فى شدة الحزن عليه ؛ لأنها ما أحبت رجلاً مثله بعد رسول الله – ﷺ – ، لعلها تجد عنده عزاءً يسرى عنها ويسكن قلبها ، فقال لها : « قولى : اللهم اغفر لى وله ، وأعقبنى منه عُقبى حسنة » .

وهو دعاء جامع لخيرى الدنيا والآخرة ، فالمغفرة هى خير ما يرجوه العبد من ربه – عز وجل – فمن غفر الله له عافاه فى دنياه وآخرته .

والمسلم إذا دعا بدأ بنفسه كما فى هذا الحديث ؛ لأن الدعاء قربة ، والقربات لا يُفَضِّل فيها المسلم أحداً على نفسه .

ومعنى قوله – ﷺ – : « وأعقبنى منه عقبى حسنةً » : وَلِّى عَلَىَّ من الرجال زوجاً تُحْمَدُ عواقبه، وتؤمن بوائقه، ويكون لى كأبى سلمة أو أفضل منه.

وهذا ما ينبغى أن تدعو به كل امرأة مسلمة يموت عنها زوجها ، بدلاً من أن تصرخ وتولول ، وتشق الجيوب وتلطم الخدود ، وتدعو بدعوى الجاهلية ؛ فتبوء بإثمها وإثم من يشترك معها فى ذلك ، وإثم من يراها ولا ينهاها .

فإن دعت ربها بهذا الدعاء أعقبها الله عقبى حسنة ، وأصلح من شأنها فى الدنيا ، وعظم أجرها يوم القيامة ، وليس هناك ما يتقرب به العبد إلى ربه أعظم من الصبر والشكر والدعاء ، فالصبر : نصف الإيمان ، والشكر : نصفه الآخر ، والدعاء : مخ العبادة .

﴿ أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ﴾ (١) .

وهو الذى قال وقوله الحق : ﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعانِ فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يَرشدُون ﴾ (٢) .

* * *

قالت أم سلمة – رضى الله عنها – : فقلت ، فأعقبنى الله من هو خيرٌ منه ، محمداً – ﷺ – . أى قلت ما أمرنى أن أقول فبدلنى الله خيراً من أبى سلمة خَلْقاً وخُلُقاً ، وأكرم منه حسباً ونسباً ، وأفضل منه حالاً ومآلاً ، وهو محمد – ﷺ – ، فبه عظمت المنة وتمت النعمة .

وقد ذكرت ذلك أم سلمة لعدة خواطر كانت تدور فى نفسها ، منها :

أنها قد عبرت بما قالت عن شدة حبها لزوجها أبى سلمة ، وعظيم فرحها وسرورها وحُبُورها بصيرورتها من أمهات المؤمنين وفى صحبة خير المرسلين وخاتم النبيين فى الدنيا وفى جنات النعيم ، فى مقام تقطعت دونه الأعناق .

ودار فى خاطرها يوم مات زوجها أنها لا تجد خيراً منه ، ولكنها راجعت نفسها فور هذا الخاطر وأدركت أن الله سيؤجرها فى مصيبتها ويعوضها خيراً من أبى سلمة فاسترجعت ، أى قالت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، فكان الله عند حسن ظنها به ، فأبدلها خير خلقه ، فنعمت بعشرته ، وسعدت به أيَّما سعادة .

وقد حدثها أبو سلمة قبل موته حديثاً أخرجه مسلم فى صحيحه أنه سمع رسول الله – ﷺ – يقول: « ما من عبد يصاب بمصيبة فيفزع إلى ما أمره الله به من قول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم آجِرْنى فى مصيبتى، وعوضنى خيراً منها– إلا آجره الله فى مصيبته، وكان قمناً – أى جديراً – أن يعوضه خيراً منها » .

قالت – رضى الله عنها – : فلما هلك أبو سلمة ذكرتُ الذى حدثنى به عن رسول الله – ﷺ – فكنت أقول : « إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم آجرنى فى مصيبتى وعوضنى خيراً منها » ، ثم قلت : أنَّى أعاض خيراً من أبى سلمة !! وأنا أرجو أن يكون الله قد آجرنى فى مصيبتى .

---

(١) النمل : ٦٢ .　　(٢) البقرة : ١٨٦ .

وذكر ابن سعد بإسناده فى الطبقات الكبرى أن أبا سلمة – رضي الله عنه – دعا لها قبل موته فقال : اللهم ارزق أم سلمة بعدى رجلاً خيراً منى ، لا يحزنها ولا يؤذيها . فلما مات أبو سلمة قالت : من هذا الذى هو خير من أبى سلمة [1] !! .

وذكر ابن عبد البر فى الاستيعاب أن أبا سلمة قال عند وفاته : « اللهم اخلفنى فى أهلى بخير» فأخلفه رسول الله – ﷺ – على زوجته أم سلمة فصارت أمًّا للمؤمنين ، وعلى بنيه : سلمة وعمر وزينب ودرّة .

* * *

ولكن من هو أبو سلمة ومن هى أم سلمة ؟ ليكن جوابنا عن هذين السؤالين مسك الختام ، فنقول :

أبو سلمة هو : عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، الصحابى ذو الهجرتين ، ابن عمة المصطفى – برة بنت عبد المطلب بن هاشم – وأخوه – ﷺ – من الرضاعة ، أرضعتهما ثويبة ، مولاة أبى لهب .

وأما أم سلمة فهى : هند بنت أبى أمية بن المغيرة بن عبد الله بن مخزوم، القرشية المخزومية .

أبوها : أحد وجوه قريش المعدودين، وأجوادهم المشهُورِين، وقد ذهب على الدهر بلقب « زاد الركب » ؛ لأنه كان يطعم الركب كله فى ذهابه وإيابه من زاده .

وأمها : عاتكة بنت عامر بن ربيعة بن مالك بن جذيمة بن علقمة الكنانية ، من بنى فراس الأمجاد ، وكان جدها علقمة ، يلقب بجذل الطعان .

وكان لأبى سلمة ، ولزوجه هند ، إلى جانب النسب العريق ، ماض مجيد فى الإسلام ، فقد كانا من بين السابقين الأولين ، وهاجرا مع العشرة الأولين إلى الحبشة ، حيث ولدت هندٌ هناك ابنهما سلمة .

ثم قدما مكة ، بعد تمزيق صحيفة المقاطعة ، وقد ضرى اضطهاد قريش

---

(١) انظر الطبقات جـ٨ / ٨٨ .

للمسلمين . فلما أذن النبى – ﷺ – لأصحابه فى الهجرة إلى يثرب بعد بيعة العقبة الكبرى ، أجمع «أبو سلمة» أمره على الهجرة بأهله ، فكانت قصة خروجهما مأساة ما تزال – على بعد العهد بها وتطاول الآماد – مثيرة أليمة الوقع .

حدثت أم سلمة – رضي الله عنها – قالت : « ... لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة ، رحل بعيراً له وحملني وحمل معي ابني سلمة ، ثم خرج يقود بعيره ، فلما رآه رجال بنى المغيرة قاموا إليه فقالوا : هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتنا هذه ، علام نتركك تسير بها فى البلاد !!

ونزعوا خطام البعير من يده وأخذوني ، فغضبت عند ذلك بنوعبد الأسد ، وأهووا إلى ولدنا سلمة ، وقالوا لرهط زوجي :

والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا . فتجاذبوا ابني سلمة حتى خلعوا يده ، وانطلق به رهط أبيه ، وحبسني بنو المغيرة عندهم .

ومضى زوجي أبو سلمة حتى لحق بالمدينة . وفُرِّقَ بيني وبين زوجي وابني ، فكنت أخرج كل غداة وأجلس بالأبطح ، فما أزال أبكي حتى أمسي ، سنة أو قريباً منها .

حتى مر بي رجل من بني عمي ، أحد بني المغيرة ، فرأى ما بي ، فرحمني فقال لبني المغيرة : ألا تخرجون هذه المسكينة ؟ ، فرقتم بينها وبين زوجها وبين ابنها .

وما زال بهم حتى قالوا : الحقي بزوجك إن شئت وَرَدَّ عليَّ بنو عبد الأسد عند ذلك ابني ، فرحلت بعيري ووضعت ابني فى حجري ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة ، وما معي أحد من خلق الله . . .

حتى إذا كنت بالتنعيم – على فرسخين من مكة – لقيت عثمان بن طلحة [1] فقال : أين يابنت أبي أمية ؟

---

(١) كان عثمان يومئذ على كفره ، وإنما أسلم فى هدنة الحديبية ، وهاجر قبل الفتح مع خالد بن الوليد . فلما فتحت مكة ، دفع النبى – ﷺ – مفاتيح الكعبة إلى عثمان بن طلحة وإلى ابن عمه : شيبة بن عثمان بن أبى طلحة ، وقتل عثمان شهيداً بأجنادين فى خلافة عمر – رضى الله عنهما – .

قلت : أريد زوجي بالمدينة . قال : هل معك أحد ؟

فقلت : لا والله ، إلا الله وابنى هذا .

فقال : والله ما لك من مَتْرَك .

وأخذ بخطام البعير فانطلق معى يقودنى ، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب أراه كان أكرم منه . إذا نزل المنزل أناخ بى ثم تنحى إلى شجرة فاضطجع تحتها ، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيرى فقدمه ورحله ، ثم استأخر عنى وقال : اركبى ، فإذا ركبت واستويت على بعيرى ، أتى فأخذ بخطامه ، فقاد حتى ينزل بى ، فلم يزل يصنع ذلك حتى قدم بى المدينة ، فلما نظر إلى قرية بنى عمرو بن عوف بقباء – وكان بها منزل أبى سلمة فى مهاجره – قال : إن زوجك فى هذه القرية ، فادخليها على بركة الله ، ثم انصرف راجعاً إلى مكة .

فكانت أم سلمة أول ظعينة دخلت المدينة ، كما كانت من المهاجرين الأولين إلى الحبشة ، وكذلك كان زوجها أبو سلمة : عبد الله بن عبد الأسد المخزومى ، أول من هاجر إلى يثرب من أصحاب رسول الله – ﷺ – رضى الله عنه وعنها ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى أصحابه الطيبين الطاهرين .

* * *

(٨٧) إذا قضى أحدكم الصلاة فى مسجده فليجعل لبيته نصيباً من صلاته

عن جابر بنِ عبد الله – رضى الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – قال : «إِذَا قَضَى أَحَدُكُمُ الصَّلاَةَ فى مَسْجِدِهِ فَلْيَجْعَلْ لِبَيْتِهِ نَصِيباً من صلاته ؛ فَإِنَّ اللّهَ جَاعِلٌ فى بَيْتِهِ من صَلاَتِهِ خَيْراً» (١)

* * *

الصلاة عماد الدين ، وركنه الركين ، من أقامها فقد أقام الدين ، ومن أضاعها فقد هدم الدين ، وهى النور المبين لمن أداها بخشوع وخضوع وتمسكن وتواضع ، وحافظ عليها فى أوقاتها ، وكان مراعياً لفرائضها وسننها ومستحباتها، وجعلها رَوْحه وريحانه .

وهى الصلة الوثيقة بين العبد وربه ، يعبر له فيها عن كمال عبوديته ، وتمام فقره إليه ؛ فليس هناك عبادة يعبر فيها العبد عن ذلك مثل الصلاة ؛ إذ يضع جبهته وأنفه على الأرض مهما كان وضعه الاجتماعى ، ومهما بلغ من القوة والسلطان .

وقد ذكرت فى كتابى (الفقه الواضح) فضائلها وفرائضها وسننها ومستحباتها ، فراجعه إن شئت .

* * *

وفى هذه الوصية أحكام ولطائف وأسرار سنتكلم عنها بإيجاز ، فنبدأ ببيان الأحكام فنقول :

١ – المراد بالصلاة التى يقضيها المسلم فى مسجده هى الصلوات المفروضة وتوابعها القبلية والبعدية ، فإذا أتى المسلم إلى المسجد صلّى تحية المسجد ، وذلك فى غير أوقات النهى على التفصيل الذى ذكرناه فى الفقه الواضح .

---

(١) رواه مسلم فى كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب استحباب صلاة النافلة فى بيتى وجوازها فى المسجد ، حديث رقم (٧٧٨) جـ ١ ص ٥٣٩ .

فإذا أذّن المؤذن للصلاة صلينا السنة المنصوص عليها فى الأحاديث النبوية فإذا قضيت الصلاة صلينا السنة البعدية ، ثم إذا أتينا بيوتنا صلينا فيها ما شئنا .

ويحتمل أن يكون المراد بها الصلاة المفروضة فقط .

٢ - وقوله - ﷺ - : « فى مسجده » أى القريب منه ، فالإضافة للقرب والتمكين ، بحيث لا يتكلف المسير إلى المسجد الأبعد إلا إذا كان رواده أكثر ، أو لسماع درسٍ من الدروس الدينية .

٣ - وجواب الشرط قوله : « فليجعل لبيته نصيباً من صلاته » أى من نوافله ، فيكون بذلك قد أعطى المسجد حقه والبيت حقه من الصلاة .

٤ - ومن هذا الشرط وجوابه نفهم أن الصلاة المفروضة لابد أن تؤدى فى جماعة إلا إذا كانت هناك ضرورة مانعة وعذر قاهر ، فلا يتخلف عنها إلا منافق أو ضعيف الإيمان .

روى مسلم فى صحيحه عن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : « من سره أن يلقى الله غداً مسلماً فليحافظ على هؤلاء الصلوات ، حيث ينادى بهن ، فإن الله شرع لنبيكم - ﷺ - سنن [١] الهُدَى وإنهن من سنن الهدى ، ولو أنكم صليتم فى بيوتكم - كما يصلى هذا المتخلف فى بيته - لتركتم سنة نبيكم ، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم .

وما من رجل يتطهر الطهور[٢] ، ثم يعمد إلى مسجد من هذه المساجد ، إلا كتب له بكل خطوة يخطوها حسنة ، ويرفعه درجة ، ويحط عنه بها سيئة ، ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق ، ولقد كان الرجل يؤتى به يُهَادَى [٣] بين الرجلين حتى يقام فى الصف » .

وفى رواية - لمسلم أيضاً - : «لقد رأيتنا وما يتخلف عن الصلاة إلا منافق

---

(١) قال النووى : بضم السين وفتحها ، وهما بمعنى متقارب، أى طرائق الهدى .جـ ٥ ص ١٦٦ صحيح مسلم .

(٢) الطهور بضم الطاء : القيام بالتطهير ، أما الطهور - بفتح الطاء - : فهو ما يتطهر به من ماء أو تراب .

(٣) أى يمشى بين رجلين يسندانه .

قد علم نفاقه ، أو مريض ، إن كان المريض ليمشى بين رجلين حتى يأتى الصلاة » .

وروى الطبرانى وأحمد عن جابر – رضى الله عنه – قال : «أتى ابن أم مكتوم النبى – ﷺ – فقال : يا رسول الله ، إن منزلى شاسع [1] وأنا مكفوف البصر وأنا أسمع الأذان ، قال : فإن سمعت الأذان فأجب ، ولو حبواً أو زحفاً» .

من هذه الأحاديث أخذوا حكم وجوب الصلاة المفروضة فى المسجد .

ومعنى هذا أنه من لم يؤد الصلوات المفروضة فى المسجد أثم وصلاته صحيحه ؛ لأن حضور الجماعة واجب لذاته ، وليس شرطاً فى صحة الصلاة .

وقد ذهب كثير من الفقهاء إلى أن حضور الجماعة فى المسجد سنة مؤكدة، وليست واجبة ، وحملوا الأحاديث التى استدل بها الموجبون على الاستحباب .

وفعل الصحابة يدل على أنها سنة مؤكدة لا يتخلف عنها من غير عذر إلا منافق .

قال الشوكانى فى نيل الأوطار : (أجاب البعض عن حديث الأعمى بأن النبى – صلى الله عليه وآله وسلم – علم منه أنه يمشى بلا قائد لحذقه وذكائه كما هو مشاهد فى بعض العميان ، يمشى بلا قائد لاسيما إذا كان يعرف المكان قبل العمى ، أو بتكرر المشى إليه استغنى عن القائد ، ولابد من التأويل لقوله تعالى : ﴿ليس على الأعمى حرج﴾ .

وفى أمر الأعمى بحضور الجماعة مع عدم القائد ومع شكايته من كثرة السباع والهوام فى طريقه كما – فى مسلم – غاية الحرج .

ولا يقال : الآية فى الجهاد ؛ لأنا نقول هو من القصر على السبب ، وقد تقرر فى الأصول أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ... إلى آخر ما قال) [2] .

* * *

---

(١) بعيد عن المسجد .

(٢) نيل الأوطار جـ٣ باب صلاة الجماعة ص ١٥٤ .

وأما اللطائف والأسرار التى اشتملها هذا الحديث فهى تتمثل فى الأمور الآتية :

١ – قوله : « فليجعل لبيته نصيباً من صلاته » فيه دلالة على أن البيوت لم تبن للسكنى والنوم فقط ، ولكنها بنيت لتكون – أيضاً – معبداً يخلو فيه المسلم بنفسه ليكون أبعد عن الرياء والغرور وحب الظهور ، فتقع صلاته مقبولة عند الله عز وجل ، ولكى يكتب من السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله . ومنهم الذى ذكر الله خالياً ففاضت عيناه . والصلاة أفضل الذكر كما هو معلوم . ولكى يقتدى به أهل بيته فيصلون بصلاته ويتعلمون منه أحكام الصلاة وآدابها ، ولا يحرمهم من الصلاة خلفه والاقتداء به فى حسن التلاوة وطول الركوع وطول السجود والخشوع فيها وغير ذلك مما ينبغى أن يتعلموه ويفعلوه .

٢ – وقوله : « فإن الله جاعل فى بيته من صلاته خيراً » فيه تعليل للأمر ، والأمر للإرشاد والتوجيه لا للوجوب ، والعمل به سنة مؤكدة ؛ لأن الرسول – ﷺ – كان يواظب على ذلك ، وكان أصحابه يقتدون به .

والخير : كلمة عامة واسعة الدلالة تحمل فى طياتها كثيراً مما يرجوه المسلم لأهل بيته من أمور الدين والدنيا والآخرة ، والتنكير للتعميم والتعظيم .

ومن الخير الذى يعم البيوت وأهلها بسبب الصلاة حصول البركة فى الرزق ، وشهود الملائكة هذه الصلاة وسماعهم ما يقرأ فيها ، وتنويرها بنور الله تبارك وتعالى ، وتعميرها بالذكر ، وإلحاقها بالمسجد فى الحرمة وغير ذلك مما نعلمه وما لا نعلمه .

روى مسلم فى صحيحه عن أبى موسى الأشعرى – رضى الله عنه – عن النبى – ﷺ – قال : « مثل البيت الذى يذكر الله تعالى فيه والبيت الذى لا يذكر الله فيه مثل الحى والميت » .

وروى مسلم – أيضاً – عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – قال : « لاتجعلوا بيوتكم مقابر ؛ إن الشيطان ينفر من البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة » أى لا تجعلوا بيوتكم كالمقابر التى لا يصلى فيها .

وقد كان أصحاب النبى – ﷺ – يقرأون فى بيوتهم سورة البقرة كل ليلة بقدر ما استطاعوا لعلمهم أنها تمنع الشياطين من دخولها .

وبعد : فإن من عمل بهذه الوصية نال خيراً عظيماً فى الدنيا والآخرة ، وكان مسلماً حقاً ، متبعاً للسنة معطياً للمسجد حقه وللبيت حقه ، وكان قدوة لأهل بيته ولجيرانه فى إحياء البيوت وتعميرها بذكر الله – عز وجل – ، وليكن لنا فى رسول الله – ﷺ – إسوة حسنة ؛ فقد كان يصلى فى بيته الليل كله إلاَّ قليلاً حتى تورمت قدماه ، فإن لم نستطع أن نقوم الليل كله أو نصفه أو ثلثه فلا نحرم أنفسنا من ركعتين نصليهما والناس نيام ، وإن عجزنا عن الصلاة فى جوف الليل صلينا بالنهار ركيعات نعمر بها بيوتنا لكيلا تكون مقفرة كالقبور .

نسأل الله الهداية والتوفيق .

*　　*　　*

(٨٨) اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحَزَن

عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - قال : دخل رسول الله - ﷺ - ذات يوم المسجد ، فإذا هو برجل من الأنصار يقال له : أبو أمامة ، فقال : «يا أبا أمامة ، ما لى أراك جالساً فى المسجد فى غير وقت الصلاة ؟» .

قال : هموم لزمتنى وديون يا رسول الله ، قال : «أفلا أعلمك كلاماً إذا أنت قلته أذهب الله - عز وجل - همك ، وقضى عنك دينك ؟ » .

قال : قلت : بلى يا رسول الله ، قال : «قل إذا أصبحت وإذا أمسيت : اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحَزَن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال»، قال : ففعلت ذلك ، فأذهب الله - عز وجل - همى ، وقضى عنى دينى» (١) .

* * *

كان أصحاب النبى - ﷺ - يحبون الخلوة فى بيوتهم وفى المساجد ؛ للذكر والدعاء ، والتفكر فى مخلوقات الله عز وجل، وذلك إذا فرغوا من أعمالهم المعيشية . وكان الرجل منهم إذا حزبه أمر هُرع إلى الصلاة أسوة برسول الله - ﷺ - ؛ لأن العبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد ، كما جاء فى الحديث الذى أخرجه مسلم فى صحيحه .

وقد دخل النبى - ﷺ - المسجد ، فإذا هو برجل من الأنصار يقال له : أبو أمامة ، لم يتحقق الرواة من اسمه ونسبه ، فأدرك النبى - ﷺ - بنور بصيرته أن الرجل مهموم فلم يسأله عما أهمه وأحزنه ، ولكن سأله عن جلوسه فى المسجد فى غير وقت الصلاة ، ليفصح له عن مكنون صدره ، وسبب جلوسه بالقول الصريح فيقضى له حاجته أو يعلمه دعاءً يقوله فى صباحه ومسائه ، وهو فى المسجد أو فى أى مكان طاهر ، يفرج الله به همه ، ويذهب حزنه ، ويطرد عنه شبحَ اليأس والملل والضيق والأسى .

فهو - ﷺ - لم ينكر عليه مكثه فى المسجد فى غير وقت الصلاة ؛ لأن هذا ليس بمستغرب ، فالمسلم قلبه معلقٌ بالمساجد ، يلجأ إليها فى أى وقت ؛ ابتغاء رحمة من ربه يرجوها .

---

(١) رواه أبو داود ، كتاب الصلاة ، رقم (١٥٥٥) وهو حديث حسن .

فما كان سؤاله إذاً عن مكثه في المسجد إلاّ عن حاجة في نفسه ، ولعلها هي التي ذكرتها : من تفقد أحواله ، والوقوف على حوائجه التي يرجوها من ربه، ليقضيها له إن استطاع إلى ذلك سبيلاً .

وقد قضاها له حقاً حين علمه هذا الدعاء ، وهو وحي من الله تعالى ، يستجلب به العبد سحائب رحمته ، وينال به رضاه .

وقد تلطف النبي – ﷺ – به في تعليمه هذا الدعاء ، كما تلطف به في السؤال ، وهو أرحم بالمؤمنين من أنفسهم على أنفسهم ، فقال : «أفلا أعلمك كلاماً إذا أنت قلته أذهب الله – عز وجل – همك ، وقضى عنك دينك ؟ » .

فهذا أسلوب عرض – وهو الطلب برفق ولين – فيه جلب للانتباه ، وتشويق لما سيخبره به ويطلعه عليه ، وفيه بشرى طيبة يحملها إليه من لدن ربّه – عز وجل – فكان أبو أمامة أسرع ما يكون إليه بالجواب : «بلى يارسول الله» ، أي : أخبرني بهذا الكلام الذي يذهب الله به همي ويقضي ديني .

وقد عبر النبي – ﷺ – عن الدعاء بالكلام ؛ لأنه دعاء ينبغي أن يصدر من الأعماق عن يقين بالإجابة ، حتى يبدو للداعي كأنه يكلم ربه بقلبه ولسانه وكيانه كله .

* * *

قال : «قل إذا أصبحت وإذا أمسيت» أي في الصباح من أول اليوم إلى آخره ، وفي المساء من أوله إلى آخره ، أي قل في أي وقت شئت في صباحك ومسائك كلما أحسست بشيء من الغم أو عاودك شيء من الحزن ، أو خطر في قلبك شيء من الهم .

ويحتمل أن يكون المعنى : قل في وقت الصباح – وهو من طلوع الفجر إلى الضحى – وفي وقت الإمساء – وهو من المغرب إلى ثلث الليل الأول – والراجح عندي القول الأول ، والله أعلم .

ونشرع الآن في شرح هذه الدعوات المباركات .

«اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن» .

أي اعتصم بك وألوذ بجلالك وأحتمي بحماك من شر الهم والحزن ، وأسألك بقدرتك أن تدفعهما عن قلبي دفعاً ، وأن ترفع عني كل سبب يؤدي

إليهما ، وأن تشرح صدرى بنور الإيمان حتى لا يحزننى الشيطان بما يورده علىّ من الوساوس والهواجس والشبهات ، وبما يلقيه فى قلبى علي حين غفلة منى ؛ ليعكر به صفو إيمانى ، وغير ذلك مما يعد عقبة فى طريق الرضا بالقضاء والقدر .

وهناك فرق بين الهم والحزن والغم .

فالهم : هو الشدة البالغة بسبب توقع المكروه – يقال : أهمه الأمر أى أتعبه التفكير فيه والخوف من وقوعه على غير ما يرجو ويؤمل .

والحزن : هو الشدة البالغة بسبب تذكر ما فات . يقال : فلان حزين يعنى على موت عزيز لديه، أو فقد شيء من ماله، فهو يقع بسبب التفكير فيما مضى.

والغم : هو الكرب الشديد الذى يقع للإنسان لأسباب كثيرة ، فيجمع بسببه الهم والحزن معه ، فيغم عليه الأمر ويلتبس عليه حتى لا يعرف كيف يتخلص منه – من قولهم غمّ الهلال أ ى : استتر عن أعين الناس ، وصعب عليهم رؤيته .

فالمغموم تتوارد عليه الخواطر ، وتتداعى المعانى ؛ فيحزن فيصاب بالغم فيخشى مما قد يحدث له بسبب استمرار هذا الغم فيصاب بنكبة عظيمة تعطل فكره وحواسه ، فلا يكاد يعقل ولا يكاد يسمع أو يبصر .

وفى ذلك يقول الله – عز وجل – فى تذكير المؤمنين بما وقع لهم فى غزوة أحد : ﴿ إذ تُصعدون ولا تلْوون على أحد والرسول يدعوكم فى أُخراكم فأثابكم غماً بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون ﴾ (١) .

قال القرطبى : (قال مجاهد وقتادة وغيرهما : الغمّ الأول : القتل والجراح ، والغم الثانى : الإرجاف بقتل النبى – ﷺ – .

وقيل : الغم الأول : ما فاتهم من الظفر والغنيمة ، والثانى : ما أصابهم من القتل والهزيمة) (٢) .

فأنت ترى من هذين القولين : أن الغم يجمع فى طياته الحزن على ما فات والهم بما سيقع .

نسأل الله السلامة والعافية .

* * *

---

(١) آل عمران : ١٥٣ . (٢) الجامع لأحكام القرآن جـ ٤ ص ٢٤٠ .

قوله – ﷺ – : «وأعوذ بك من العجز والكسل» معناه : أعوذ بك من أن أتأخر عن تأدية واجباتى ، وأتخلف عن تحقيق ذاتى وصالح عملى ، وأن أفتقد القدرة المادية والمعنوية فى بلوغ آمالى من دنياى وآخرتى .

وقد سمى العجز عجزاً : لأنه يجعل صاحبه دائماً فى العَجُز – أى فى المؤخرة – يقال : فلان فى عَجُز المجلس : أى فى مؤخرته .

والكسل : هو التقاعد عن نيل المطالب ، والتباطؤ فى تأدية الحقوق والواجبات ، والشعور بالإحباط عند الدعوة إلى العمل ، والإحساس بخيبة الأمل فى كل ما يعرض عليه من المشروعات المعيشية والأفكار الإيجابية .

فالعاجز : من يرى القريب بعيداً ؛ فيصعب عليه إدراكه أو تناوله مع وفور صحته وقوة عضلاته وثاقب فكره ، فياله من مرض عضال يعجز الأطباء عن علاجه؛ إذ لا دواء له إلا الاستغاثة بالله – عز وجل – من شره وشر ما يؤدى إليه .

والكسول : إنسان خامل يتثاقل عن تأدية أخف الأعمال وأهمها ، فيفوت على نفسه خيراً كثيراً .

فالكسول والعاجز صنوان كل منهما يؤدى إلى الآخر ، بل لك أن تقول : كل عاجز كسول ، وكل كسول عاجز ، إذا كان العجز معنوياً .

* * *

وقوله – ﷺ – : «وأعوذ بك من الجبن والبخل» معناه : أسألك أن تعصمنى من شرهما ، وأعتصم بك من أن أتصف بهما فأخسر دنياى وآخرتى .

والجبن : هو التقاعس عن حماية الأعراض والحرمات ، والتقاعد عن الجهاد فى سبيل الله ، والتخلى عن تأدية الواجبات ، والإقدام على الأعمال التى تخل بالمروءة وتتنافى مع الشهامة والشجاعة .

فالجبان يأبى أن يجود بنفسه أو بماله فى مواطن العز والشرف ، ويعطى الدنية فى دينه إذا تعارضت الواجبات مع شهواته ونزواته ومآربه الشخصية .

والبخل : هو التمسك بالمال وحبسه عمن يحتاج إليه ، والحرص الشديد على نموه بشتى الطرق .

وربما يؤدى البخل إلى الطمع بما فى أيدى الغير ، ولا يلبث أن ينقلب إلى شح مطاع ، وعندئذ يصعب على صاحبه التخلص منه .

والبخيل : إنسان حقير لا يبالى الناس به، غاب أم حضر؛ لأنهم لا ينتفعون بشيء مما في يديه ، ويخشون من سطوته على ما فى أيديهم ، فهم يبغضونه بغضاً شديداً ، أو يكرهون لقاءه ؛ فهو عبد للمال يتفانى فى طلبه ، ويشغل نفسه بإحصائه وجمعه وتنميته بشراهه ونهم .

نسأل الله أن يقينا من شر ذلك بفضله وكرمه .

* * *

وقوله – ﷺ – : «وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال» أى أعوذ بك من ثقل الدين وعدم القدرة على سداده ، وما يحمله المدين من هَمٍّ وغم ، وما يجده من المطالبين به من إحراج ومذلة ، وأعوذ بك من أن يقهرني الرجال ، فيغلوبننى على نفسى ومالى ، ويهزموننى فى ميادين العز والشرف .

قال أبو أمامة (١) – رضى الله عنه وأرضاه – : «ففعلت ذلك ، فأذهب الله – عز وجل – همى ، وقضى عنى دينى» .

وهذا يرجع إلى ثلاثة أمور :

الأول : الدعاء بهذه الكلمات ؛ لأنها صادرة عمن لا ينطق عن الهوى .

والثانى : إخلاص الداعى وتقواه ، ويقينه بأن الله يستجيب له إذا دعاه .

والثالث : مراعاة آداب الدعاء التى تكلمنا عنها فى حديث سابق ، ومن أهمها :

أن يبدأ الدعاء بالحمد والثناء ، والصلاة على النبى – ﷺ – ويختمه بذلك ، وأن يستحضر عظمة خالقه – عز وجل – ، وأن يكون موقناً بالإجابة ، وأن يكون قد أطاب مطعمه ومشربه وملبسه ، وأن يكرر الدعاء ثلاث مرات كما كان النبى – ﷺ – يفعل .

* * *

---

(١) قيل : القائل هو أبو سعيد راوى الحديث ، وكلا القولين محتمل .

وهذه الآفات الثمانية بعضها من بعض ، إذا خطرت آفة منها على القلب جلبت الأخرى ، حتى يصير المرء قتيلها أو أسيرها ، فلا يستطيع الخلاص منها جميعاً إلا بهذه الدعوات المباركات ، فهن الدواء الناجع لهذه العلل الفتاكة .

وقد جربتها فى كثير من أوقات الشدة ، فأنقذتنى من نفسى وشيطانى ، وهواى ودنياى ، وأهلتنى إلى أن أكون منطلقاً دائماً لا أعرف اليأس ولا اليأس يعرفنى .

فخذ أيها الأخ المسلم هذه الوصية النبوية الغالية هدية منه إليك ، والزمها ، واعمل بها ؛ فإنها ترياق لكل داء يعجز عن علاجه الأطباء .

نسأل الله لنا ولك الهداية والتوفيق .

* * *

(٨٩) قل أعوذ بكلمات الله التامة

روى مالك عن يحيى بن سعيد – رضي الله عنه – قال : بَلَغَنى أنَّ خالدَ ابنَ الوليدِ – رضى الله عنه – قال لرسول الله – ﷺ – : إنى أُرَوَّعُ فى مَنَامِى ، فقال له رسول الله – ﷺ – :

«قل : أَعُوذُ بكلمات الله التَّامَّة من غَضَبِه وعِقَابِه وَشَرِّ عِبَادِه ، ومن هَمَزَاتِ الشَّياطِين وأن يَحْضُرُون» (١) .

* * *

كان خالد بن الوليد – رضى الله عنه – قائداً مُلْهَماً ، لم يهزم فى معركة قط ، بل كان يُرْهِبُ العدو قبل أن يلقاه ، فزعاً من سطوته وإقدامه ، وفراراً من سيفه المسلول ، ومع ذلك كان يُفَزَّعُ فى منامه ويُرَوَّعُ ، وهذا ليس بالعجيب من أمر أمثاله ، فغالباً ما يحدث للعظماء ما يعكر عليهم صفو الحياة ، ويُحِدُّ من شعورهم البالغ بقوتهم وإحساسهم بسمو مكانتهم بين الأبطال والعظماء من الرجال .

جاء يوماً يشكو إلى النبى – ﷺ – ما يجده فى نومه من أرق وفزع ، فيعلمه النبى – ﷺ – دعاءً يذهب الله عنه به ما يساوره فى منامه، فيقول: «قل: أعوذ بكلمات الله التَّامة ...» إلى آخر هذا الدعاء الذى رواه مالك فى موطئه عن يحيى بن سعيد الأنصارى .

وهذا الدعاء معناه ظاهر لا يحتاج إلى شرح وإيضاح ، إلا فى بعض كلماته، فلنبين أولاً بعض هذه الكلمات التى تحتاج إلى شىء من البيان ، ثم نذكر ما يفتح الله به علينا فيه من أبواب العلم .

* * *

قوله – ﷺ – : «قل : أعوذ بكلمات الله التامة» أى : عندما تضع جنبك على فراشك ، كما هو المتبادر من الشكوى .

(١) الموطأ جـ ٢ / ٩٥٠ ، كتاب الشَّعْر ، باب ما يؤمر به من التعوذ .

(وفى المُحَلَّى لابن حزم ، والنسائى فى سننه ، أن خالداً كان يُفَزَّعُ فى منامه ، فذكر ذلك للنبى – ﷺ – فقال : «إذا اضطجعت قل : بسم الله» .

وفى مسند أحمد عن خالد بن الوليد أنه قال : يا رسول الله ، إنى أجد وحشة ، قال : «إذا أخذت مضجعك فقل : أعوذ بكلمات الله التامة ، من غضبه وعقابه وشر عباده ، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون ، فإنه لا يضرك ، وبالحرى أن لا يضرك» .

وقد اختلفت الروايات فى كون القصة له أو لأخيه الوليد بن الوليد ، ولا مانع من الجمع . أهـ) [1] بأن يقال : إن كليهما شكا إلى النبى – ﷺ – ما يجده فى نومه من فزع .

وكلمات الله التَّامة كما قال النووى : هى الكاملات التى لا يدخل فيها نقصٌ ولا عيب .

وقيل : هى النافعة الشافية ، وقيل : المراد بها ههنا القرآن ، وقيل : هى أسماؤه وصفاته ، كما قال ابن حزم فى المحلى ، وقيل : هى جميع ما أنزله الله على أنبيائه ؛ لأن الجمع المضاف إلى المعارف يعم ، كما قال الزرقانى فى شرح الموطأ ، وقيل : هى الثابت حكمها ، قال تعالى : ﴿وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدلَ لكلماته وهو السميع العليم﴾ [2] .

وقوله تعالى : ﴿وتمت كلمة ربك الحسنى﴾ [3] .

والراجح عندى – والله أعلم – أن الكلمات التامة : هى سبحان الله – والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ؛ إذ إن كل كلمة منها تدل على التوحيد الخالص والتنزيه المطلق ، ومنتهى الجلال والجمال والكمال .

وكل منها تؤيد الأخرى وتؤكدها وتسد مَسَدَّها عند الإطلاق .

وهمزات الشياطين : وساوسها وهواجسها ، وخطراتها ونزغاتها وما فى هذا المعنى .

---

(١) انظر أوجز المسالك إلى موطأ الإمام مالك جـ ١٥ ص ٣٢ ، ٣٣ .

(٢) الأنعام : ١١٥ . (٣) الأعراف : الآية ١٣٧ .

والأصل فى الهمز : الضغطُ والعَصْرُ ، والدفع والقطع ، فالشياطين تضغط على الإنسان ، وتعصر قلبه بالأحزان ، وتدفعه إلى الشر ، وتقطعه عن الخير ، وتمنعه عما هو في حاجة إليه ، وتورثه الجنون ، وتصده عن الصراط المستقيم ، وتحضره عند الموت ؛ لترده عن دينه إن استطاعت ، وتحول بينه وبين التلفظ بكلمة التوحيد .

ولهذا أمر الله نبيه – ﷺ – أن يستعيذ بالله من همزات الشيطان ، فقال – جل وعلا – : ﴿وقل ربِّ أعوذُ بك من همزاتِ الشياطين .وأعوذُ بك ربِّ أن يَحضُرُون﴾ (١) . يعنى عند الموت ، وعند الصلاة ، وعن الصدقات وسائر أفعال الخيرات ، فهم يحضرون الإنسان فى هذه المواطن كلها .

يقول الله – عز وجل – : ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ (٢) .

إنه ينفث فيه سمومه ، وينفخ فيه ما يدعوه إلى الرياء والغرور والكبر ، ويناجيه خفية ؛ ليدخل عليه الحزن والهم والغم .

قال تعالى : ﴿إنما النجوى من الشيطان ليَحْزُنَ الذين آمنوا وليس بضارهم شيئاً إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ (٣) .

* * *

١ – ويؤخذ من هذا الحديث : وجوب الأخذ بالأسباب ، ومنها الذهاب إلى الطبيب ؛ لتشخيص الداء ووصف الدواء ، وتناوله من أجل الشفاء والاعتماد على الله مع ذلك كله .

ولما كان محمد – ﷺ – طبيب الأطباء وأحكم الحكماء ، جاءه خالد بن الوليد يشكو إليه علَّتَهُ ؛ ليجد عنده النصح النافع والدواء الناجع ، فكان عند حسن ظنه به .

---

(١) سورة المؤمنون : ٩٧ ، ٩٨ .

(٢) سورة فاطر : ٦ . (٣) المجادلة : ١٠ .

٢ – ويؤخذ منه : أن الدواء قد لا يكون مادياً فحسب ، بل يكون معنوياً أيضاً .

وكثيراً ما يكون الدواء المعنوى أقوى تأثيراً من الدواء المادى ،وذلك معروف عند أهل الطب ؛ فإن أكثر الأمراض العصبية والنفسية والبدنية بوجه عام إنما تحدث بسبب نقصان المناعة الروحية ، وعدم الأخذ بالأدوية المعنوية ، التى تتمثَّل فى الذكر والدعاء والاتجاه إلى الله – عز وجل – .

وهذه الأدوية المعنوية أو الروحية إنما يصفها للناس أرباب العلم بالكتاب والسنة ، وأهل المعرفة بطبائع البشر وأمزجتهم وأحوالهم .

ويتلقى هذه الأدوية أصحاب القلوب الواعية والعقول النَّيِّرة والعقائد السليمة ، فهم الذين ينتفعون بها دون غيرهم ﴿ وذَكِّرْ فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ (١) .

من أجل ذلك صعب على الكثير من المرضى أن ينتفعوا بهذه الأدوية الروحية ، ولو جاءتهم من غير طلب ولا تكلف .

وذلك لأنهم لا يؤمنون بها ، إلا إيماناً ظاهراً ، لم يتعمق فى قلوبهم ، ولا يوقنون بأن الدعاء يرفع البلاء ويحقق الشفاء من كل داء .

وقد يدعو الداعى بهذا الدعاء الوارد وبغيره من الأدعية الواردة دون أن يجد إجابة ، فيسىء الظن بالله ، ويقول : دعوت فلم يستجب لى ، فيترك الدعاء ويشك فى وعد الله تعالى الوارد فى قوله – جلا وعلا – : ﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وقال ربكم ادعونى استجبْ لكم ﴾ (٣) .

وقوله عز شأنه : ﴿ أَمَّنْ يجيبُ المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ﴾ (٤) .

---

(١) الذاريات : ٥٥ .
(٢) البقرة : ١٨٦ .
(٣) غافر : ٦٠ .
(٤) النمل : الآية ٦٢ .

لكن خالد بن الوليد يدعو الله بهذا الدعاء وهو موقن كل اليقين بأن الله – عز وجل – سيعافيه مما يعانيه ، فيزول أرقه وفزعه بعد ليالٍ قليلة بأمر الله تعالى وقدرته .

روى الطبراني في هذا الحديث زيادة تعتبر دليلاً على ما ذكرت : «عن عائشة قالت : فلم ألبث إلاّ ليالي حتى جاء خالد فقال : يا رسول الله بأبي أنت وأمي ، والذي بعثك بالحق ما أتممت كلماتي التي علمتني ثلاثاً ، حتى أذهب الله عني ما كنت أجد . ما أبالي لو دخلت على أسد في خِيسه» .

والخِيسُ – بالكسر – : موضع الأسد ، كما في مختار الصحاح .

ومعنى قوله هذا : أن الله – عز وجل – قد استجاب له ، فرفع عنه البلاء ، وأمده بقوة عظيمة في مواجهة جميع المفزعات من جن وإنس وحيوان ، فهو الكريم الذي يعطي عبده أكثر مما يسأله ويتمناه .

فعلى كل مسلم أن يضرع إلى الله – عز وجل – بالدعاء الوارد عن رسول الله – ﷺ – ؛ فإنه أدوية روحية خارقة للعادة ؛ والدعاء كما نعلم مخ العبادة ، والشفاء بيد الله تعالى ﴿وإذا مرضتُ فهو يشفين﴾ (١) .

وليكن الداعي حسن الظن بالله ؛ فالله – عز وجل – يقول في الحديث القدسي : «أنا عندَ ظنِّ عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإنْ ذَكَرني في نفسه ، ذكرتُهُ في نفسي ، وإن ذَكَرني في ملإٍ ، ذكرتُهُ في ملإٍ خيرٍ منهم ، وإن تَقرَّبَ إلَي بشبرٍ تَقَرَّبْتُ إليه ذراعاً، وإن تَقرَّبَ إلَيَّ ذِراعاً تقربتُ إليه باعاً، وإن أتاني يَمْشِي، أتَيتُهُ هَرْوَلَةً» (٢) .

٣ – ويؤخذ من هذا الحديث : أن العبد ينبغي إذا دعا الله – عز وجل – أن يذكر ذنوبه ويعترف بتقصيره في حق ربه ، ويسأله أن يقيَهُ غضبه وعقابه قبل أن يسأله شيئاً من مطالب الدين والدنيا ، ولو بقلبه ، فإن الاعتراف بالذنب والخوف

---

(١) سورة الشعراء : ٨٠ .

(٢) رواه البخاري في كتاب التوحيد ، باب «ويحذركم الله نفسه» ، وقوله جل ذكره : ﴿تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك﴾ .

من عاقبته يمهدان العذر للداعى ، فيستجاب له مع تقصيره وعدم استحقاقه لقبول الدعاء منه .

وهذا ديدن الأنبياء والمرسلين والأولياء الصالحين .

فآدم – عليه السلام – دعا ربه هو وحواء فقالا كما حكى القرآن عنهما : ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ (١) .

ويونس – عليه السلام – قال كما حكى القرآن عنه : ﴿ لا إله أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ﴾ (٢) .

والاعتراف بالذنب والخوف من عقوبته فيه ما فيه من التواضع الجم لعظمة الخالق – جل شانه – وإظهار الافتقار التام إليه ، وهذا هو ما يؤهل الدعاء للقبول .

نسأل الله تبارك وتعالى أن يجعلنا ممن تجاب دعوتهم إنه سميع قريب مجيب الدعاء .

* * *

(١) الأعراف : ٢٣ .

(٢) الأنبياء : الآية ٨٧ .

(٩٠) لا تسأل الإمارة

عن عبد الرحمن بن سَمُرَةَ – رضى الله عنه – قال : قال لى رسول الله – ﷺ – : «يا عبدَ الرحمنِ بنَ سَمُرَةَ ، لا تَسْأَلِ الإمارة ، فإنك إن أُعْطيتها عن مسألة وُكِلْتَ إليها ، وإنْ أُعْطيتها عن غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعنْتَ عليها .

وإذَا حَلَفْتَ على يَمِينٍ فَرَأَيْتَ غَيْرَهَا خيراً منْهَا فَكَفِّرْ عن يمينِكَ ، وَائْتِ الذى هو خير» [1] .

* * *

كان النبى – ﷺ – يسبر أغوار أصحابه ، ويعرف أقدارهم ، ويدرك بنور بصيرته ما تنطوى عليه نفوسهم ، فيوصيهم بما يصلح فساد قلوبهم ويرشدهم إلى ما ينفعهم فى دينهم ودنياهم ، ويدلهم على مواطن الخير حيث كانت ، ويحذرهم من كل ما يعكر صفو إيمانهم ، ويعوقهم عن تأدية أماناتهم والوفاء بحق الله عليهم .

وهذا واحد من أولئك الأعلام الذين أوصاهم النبى – ﷺ – بوصيتين – إحداهما ألا يسأل الإمارة ، والثانية ألا يصر على يمين رأى غيرها أفضل منها .

وفى هاتين الوصيتين من الأحكام والحكم والعظات والعبر ما يجعل المسلم أشدَّ تمسكاً بدينه ، وأعظم حرصاً على ما ينفعه فى دنياه وآخرته .

* * *

الوصية الأولى «لا تسأل الإمارة» أى : لا تطلبها لنفسك ، ولا تتمناها ، ولا تستشرف لها، ولا تتطلع إليها فى يوم من الأيام ؛ فإنها أمانة يثقل على الضعفاء تحملها والقيام بحقها ، ومهما بذل الأمير جهده فى تحرى العدل والإنصاف فلابد أن يكبوَ كبوات يُسأل عنها يوم القيامة ، فهى محنة فى الغالب، وليست منحة كما يظن الكثير من الناس .

وقد علل النبى – ﷺ – هذا النهى بتعليلٍ ينبغى أن يضعه المسلم نُصب عينيه عندما تتطلع نفسه لوظيفة قد لا يكون كفئاً لها ، فقال :

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الأيمان ، باب من حلف يميناً ، فرأى غيرها خيراً منها – حديث رقم (١٦٥٢) جـ٣ ص ١٢٧٣ .

« فإنك إن أُعطيتَها عن مسألة وكلت إليها » .

أى : إن سألتها فأُجبت إليها ، وأُسندت إليك قصَّرت فى حقها ، ولم تجد من يعينك عليها ؛ لأنك شدَّدت على نفسك فشدد الله عليك ، وطلبت ما كنت فى غنى عن طلبه ، ولم تعرف لنفسك حقها ، ولم تعتبر بالذين ظلموا أنفسهم بتوليهم ما ليسوا له بكفء فكان عاقبة أمرهم خسراً .

فكم من أناس غرتهم أنفسهم وظنوا أنهم أهل للإمارة والرياسة ، وأنهم أولى من غيرهم وأقدر ، فلمَّا نالوها عجزوا عن القيام بواجباتها ، وفى الوقت نفسه عزَّ عليهم أن يتخلوا عنها ، ويخلِّصوا أنفسهم من تبعاتها ، لما لها من مظهر برَّاق ومكانة مرموقة .

والنهى عن سؤال الإمارة لا يدل على التحريم ، ولكنه من باب النصح والإرشاد والتوجيه ، فيكون سؤال الإمارة مكروهاً لا محرماً ، إلا إذا كان السائل غير كفء لها ، أو يغلب على ظنه أنه لا يستطيع أن يقوم بأعبائها على أكمل وجه ، أو كان يريد من ورائها نفعاً دنيوياً خالصاً .

ولا شك أن طلب الإمارة يُوجب الريبة فى أمر الطالب ، ويؤدى إلى سوء الظن به ، ويحتم على الحاكم أن يولى غيره دفعاً للشك وإزالة للشبهة .

وقد كان النبى - ﷺ - لا يولى الإمارة من سألها ، والأحاديث فى ذلك كثيرة منها :

ما رواه مسلم في صحيحه عن أبى موسى الأشعرى - رضي الله عنه - قال : « دخلت على النبى - ﷺ - أنا ورجلان من بنى عمّى فقال أحد الرجلين : يارسول الله ! أمِّرنا على بعض ما ولاك الله عزّ وجل .

وقال الآخر مثل ذلك .

فقال : إنّا والله لا نولّى على هذا العمل أحداً سأله ولا أحداً حرص عليه » .

وروى مسلم - أيضاً - عن أبى ذر - رضى الله عنه - قال : قلت يا رسول الله ! ألا تستعملنى ، قال : فضرب بيده على منكبى ، ثم قال : « يا أبا ذر ! إنك ضعيف وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزى وندامة إلاَّ من أخذها بحقها وأدَّى الذى عليه فيها » .

أمَّا من أعطى الإمارة من غير سؤال ثقةً فيه وقبلها على خوف من الله - تبارك وتعالى - وطاعة له ، فإن الله عزّ وجلّ يعينه عليها ، فيوفقه إلى ما يحبه ويرضاه ، ويسخر له من يشدُّ أزره ، ويطيع أمره ، ويكون له ناصحاً ، إن نسى ذكَّره ، وإن ضل أرشده ، وإن حاد عن الصراط المستقيم قوّمه .

وهذا هو معنى قوله - ﷺ - : « وإن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها » .

وهنا حكم شرعى ينبغى أن ننبه إليه قبل أن نفارق هذه الوصية إلى ما بعدها ، وهو أن المسلم إذا رأى نفسه كفئاً لعمل من الأعمال ، أو وظيفة من الوظائف ، ولم ير فى الناس أحداً أقدر على ذلك منه ، ولم يكن الحاكم يعلم بمكانه ولا بمكانته - عرض نفسه عليه وسأله أن يوليه على هذا العمل ، أو على تلك الوظيفة ، وأخبره بمؤهلاته وقدراته حسبة لله - تعالى - ، وهو أعلم بنيته ، إسوة بيوسف عليه السلام .

﴿ قال اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم ﴾ [(١)] .

وهذا واجب يحتمه الإخلاص لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامّتهم .

ولا يخشى حينئذ أن تساء به الظنون ، أو يقال عنه ما لا ينبغى أن يقال ، أو يرفض الحاكم طلبه ، فإن الله - عزّ وجلّ - يؤيده بروح منه ، ويمده بقوة يواجه بها من يتصدّى له حقداً عليه .

﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوّان كفور ﴾ [(٢)] .

ويجب علي الحاكم أن يولّى الأمر أهله ، ويضع الرجل المناسب في المكان المناسب ، فإن لم يفعل فقد باء بإثمه وإثم من ولاّه ، وخسر دنياه وأخراه . نسأل السلامة والعافية .

وسيأتى لهذه الوصية مزيد بيان فى حديث آخر إن شاء الله - تعالى - .

* * *

---

(١) يوسف : ٥٥ .

(٢) الحج : ٣٨ .

الوصية الثانية فى هذا الحديث قولُه – ﷺ – :

« وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها ، فكفر عن يمينك ، وائت الذى هو خير » .

والمعنى : إذا حلف أحدكم على فعل شىء أو تركه ، ورأى خيراً مما حلف عليه فلا يقيد نفسه باليمين الذى حلفه ، بل يفعل ما فيه خير له ، وليكفر عن يمينه .

وهذه رخصة من الله – تبارك وتعالى – أجراها على لسان نبيه – ﷺ – تفتح لنا أبواب التعقل فى الإقدام والإحجام ، بحيث لا نرتبط بما انعقدت على فعله أو تركه قلوبنا فى وقت الغضب ، وأكدناه باليمين ؛ فإن المرء أحياناً يحلف على شىء ، فيبدو له أن فعله يضره ، أو يضر غيره ، أو أن تركه أولى من فعله .

وأحياناً يحلف ألا يفعل شيئاً فيرى فى فعله مصلحة له أو لغيره من المسلمين .

فحينئذ يجد نفسه فى حرج شديد ، لا يدرى ماذا يفعل ، فيأتيه الفرج من الرسول – ﷺ – فيفعل ما فيه خير له دون أدنى مشكلة ، ويكفر عن يمينه بالكفارة المعروفة ، وينتهى الأمر .

والإسلام دين سماحة ويسر ، لا عسر فيه ولا حرج .

وقد روى البخارى ومسلم : أن رسول الله – ﷺ – قال :

« والله لأن يَلِجَّ أحدكم بيمينه فى أهله آثم له عند الله من أن يُعطى كفارته التى افترض الله عليه » .

ومعنى أن يَلِجَّ : أن يتمادى فى الأمر ولو تبين له خطؤه .

فهذا أشدُّ إثما من حنثه فى اليمين ، فلو حنث وكفَّر كان ذلك أولى من تماديه فى الخطأ بعد أن تبين له ، وعسى الله أن يغفر له حنثه فى يمينه بالتكفير والتوبة .

وروى البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن أبى موسى الأشعرى – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله – ﷺ – : «إنى والله – إن شاء الله – لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذى هو خير وتحللتها» أى : كفرت عنها .

ويبدو أنه لا تناسق بين هاتين الوصيتين ، إذ الأولى فى النهى عن سؤال الإمارة ، والثانية في النهى عن التمادى في اليمين إذا رأى غيرها أفضل منها – لكن لو عرفنا الظروف التى أوصى الرسول – ﷺ – عبد الرحمن بن سمرة لأدركنا مدى التناسب بينهما ، فربما كان هذا الصحابى الذى أسلم يوم الفتح يتطلع إلى الإمارة ويكثر الحلف ويصر عليه ، فأراد النبى – ﷺ – أن يعالج هذين الدائين فيه ، فأوصاه بما أوصاه ، لعله يرتدع عن هذا وذاك .

ولنا نحن زبدة هذه الوصية بقسميها فلنضعها موضع الاعتبار ، شأننا فى ذلك كشأننا فى سائر الوصايا التى ترد عن الصادق المصدوق – ﷺ – فلكل وصية من وصاياه حكمة بالغة ، ودواء ناجع ، وعظة لمن اعتبر ، وذكرى لمن تذكر .

نسأل الله الهداية والتوفيق .

* * *

(٩١) عليكم بالصدق

عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : «عَلَيْكُمْ بالصِّدْق ؛ فإن الصِّدْقَ يَهْدى إلَى البرِّ ، وإن البرَّ يهدى إلَى الجنَّة ، وما يزال الرَّجُلُ يَصْدُقُ ويَتَحَرَّى الصِّدْقَ حتي يُكْتَبَ عند الله صدِّيقاً ، وإيَّاكُمْ والكَذبَ ؛ فإن الكَذبَ يَهْدى إلَى الفُجُور ، وإنَّ الفُجُورَ يَهْدى إلَى النَّارِ ، وما يزال الرَّجُلُ يَكْذِبُ ويَتَحَرَّى الكَذِبَ حتَّى يُكْتَبَ عند الله كَذَّاباً» (١) .

* * *

هذه وصية جامعة لخصال الخير كُلِّها ، يتلقاها المؤمن بقلبه ، فيستوعبها عقله وفكره ، فلا يجد وصية مثلها ، يستريح لها ضميره ، إلاَّ إذا كانت فى حَيِّزِها وتحت سلطانها ؛ إذ ليس وراء الصدق من مَطْلب ، فهو الإيمان فى أسمى صوره وأرقى معانيه .

وقد سمى الله الإيمان صدقاً فى كثير من الآيات ، فقال جل شأنه فى سورة المائدة : ﴿ قال الله هذا يومُ ينفع الصادقين صدقُهم ﴾ (٢) . يعنى : ينفع المؤمنين إيمانهم .

وقال - عز من قائل - فى سورة الأحزاب : ﴿ليسأل الصادقين عن صدقهم ﴾ (٣) .

وقال فى السورة نفسها : ﴿ ليجزى الله الصادقين بصدقهم ﴾ (٤) .

والصدق في اللغة : القوة المادية والمعنوية ، يقال : سَيْفُ صِدْقٍ - بفتح الصاد وكسرها - أى قوىٌّ صلب متين .

ويقال : رجل صِدْقٍ ، أى : شجاع مِقْدَام ، يقول الحق ، ولا يخشى فى الله لومة لائم .

---

(١) رواه مسلم جـ ٤ كتاب البر والصلة والآداب ، باب قُبْح الكذِب ، وحسن الصدق ، وفضله حديث رقم : ٢٦٠٧ .

(٢) آية : ١١٩ . (٣) آية : ٨ . (٤) آية : ٢٤ .

وهو يعنى الثبات في مواطن الجهاد والعزِّ والشرف .

ومنه قول الأنصار فى غزوة بدر لرسول الله – ﷺ – : « وإنَّا لصُدُقٌ فى الحرب » أى : نثبت ولا نَفِرّ .

ومن معانى الصدق أيضاً : الصلاح ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وبشِّر الذين آمنوا أن لهم قَدَمَ صدق ﴾ (١) أى عملاً صالحاً ، قدموه لأنفسهم .

ولو تتبعنا لغة القرآن لوجدنا له من المعانى أكثر مما ذكرنا ، وكلها تنبع من الإيمان وفيه تصب ؛ فما من صفة محمودة إلا وهى شعبة منه .

وشُعَبُ الإيمان كل لا يتجزأ ، وقد سميت شُعُباً لأن بعضها يَتَشَعَّبُ من بعض .

وإذا كان الصدق هو الإيمان ، والإيمان هو الصدق ، فإن كل شعبة إيمانية يكون موردها ومردها منه وإليه .

فالأمانة صدق ، والوفاء صدق ، والصبر صدق ، والشكر صدق ، كل ذلك وما إلى ذلك من سائر الشُّعَبِ والخصال الإيمانية مبناها عليه ومنتهاها إليه .

ومن هذا البيان تَعْلَم مقدار هذه الوصية ومكانتها في نفوس المؤمنين ، ولاسيما إذا كانوا من أهل العلم والنُهى (٢) .

وهذه الوصية تَتَضَمَّنُ من الوسائل التربوية ما يغرس فى النفوس الأَبِيَّةِ جميع الفضائل الإنسانية والمكارم الخُلُقِيَّةِ بلا استثناءٍ ، كما سيظهر لنا جلياً من خلال شرحها وبيان معانيها ومراميها .

* * *

قوله – ﷺ – : « عليكم بالصدق » أسلوب حكيم يُسَمِّيه علماءُ اللغة : أسلوب إغراءٍ ، أى : أسلوب تزيين وتشويق ، وتهييج للعواطف وشحذ للعزائم ، واستنهاض للهمم ، وإلزام بالشيء المُغْرَى به على وجه السرعة ، واغتنام ما فيه من خير وإصلاح .

---

(١) يونس : ٢ .

(٢) النهى : جمع نهية – بضم النون – ، أو هو مفرد لا جمع ، ومعناه : العقل السليم ، الذى ينتهى إليه الفهم الصحيح .

وهو أقوى من أسلوب الأمر بصيغة افعل ؛ لما فيه من المعانى التى ذكرناها ؛ إذ الأمر بهذه الصيغة يبرهن على أنه رحيم بالمأمور ، حريص عليه ، راغب فى تحصيله لخير ما أمره به على أتم وجه وأحسنه .

كما أن فى هذا الأسلوب دعوة إلى التدبر فيما أمره بفعله ، وكأنه يحمل إليه سلفاً عاجل البشرى بما يترتب على امتثاله كما ينبغى أن يكون الامتثال .

والمعنى : تَعَرَّفُوا على الصدق فى مواطنه ، واستشربوا حبه فى قلوبكم ، والزموه فى جميع أقوالكم وأفعالكم وأحوالكم ، مع ربكم – عز وجل – ومع أنفسكم ومع الناس أجمعين ، ولا تُفَرِّطُوا فى تَحَرِّيه أبداً ولو كانت السيوف على رءوسكم ؛ فإن فى الصدق نجاتكم ، ولا تلجأوا إلى التعريض والتورية إلاّ عند الضرورة القصوى ، واتخذوه ديدنكم ؛ لأن فيه عصمة أمركم وصلاح دينكم ودنياكم ، وهو برهان صحة إيمانكم وسلامة قلوبكم وحسن تَوَكُّلِكُم على ربكم .

وقد أكد النبى – ﷺ – هذا الأسلوب الحكيم بقوله : « فإن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة » ، فهو تعليل لهذا الأمر ، وبيان لعاقبته ، فالصدق يرشد مُعْتَنِقَهُ إلى أسباب البر ووسائله ومواطنه ، ويحمله عليه ، ويمده بالقوة ، التى ترغبه فيه ، وتعمق فى قلبه حبه .

والبر : كلمة جامعة لكل ما أمر الله بفعله .

فإذا تَحَلَّى المسلم بالصدق مع الله ومع النفس ومع الناس ، لم يكد يرتكب إثماً إلا عن جهل أو غفلة منه .

ولا شك أن البر يقود صاحبه إلى الجنة بقدر اتساع مجاله فيه .

وقد رسم النبى – ﷺ – للصادقين الطريق إلى الترقى فى منازل الصدق ومدارجه ليسلكوها حتى يصلوا إلى أرقاها وأسماها فقال : «وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صِدِّيقاً» ، والمعنى : ما يزال الرجل يحمل نفسه على الصدق مرة بعد أخرى حتى يتذوق حلاوته ، فينفر من الكذب شيئاً فشيئاً ، ويتحرى الدقة فى إصابة الحق والتعرف على مواطنه ، حتى يكتب عند الله صِدِّيقاً ، وهو مقام رفيع دون مرتبة النبوة .

فالمسلمون الورعون على أربع مراتب ، ذكرتها فى أوائل كتابى الفقه الواضح نقلاً عن الإمام الغزالى بتصرف :

الأولى : مرتبة العدول : وهم الذين يجتنبون الكبائر والصغائر .

والثانية : مرتبة الصالحين : وهم الذين يتركون المتشابهات استبراءً لدينهم وأعراضهم .

والثالثة : مرتبة المتقين : وهم الذين يتركون ما لا بأس فيه ؛ خوفاً من أن يؤدى بهم إلى الوقوع فيما فيه بأس .

والرابعة : مرتبة المقربين : وهم الصِّدِّيقون ، الذين يكتفون من دنياهم بما يَسُدُّ الرَّمق ويستر العورة .

وقد وصفوا بالصِّدِّيقية لتوغلهم فى الصدق ومبالغتهم فى تَحَرِّيهِ .

والصديقون مع النبيين فى الجنة رفقاء .

قال تعالى : ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحَسُنَ أولئك رفيقاً ﴾ [1] .

* * *

وكما حضَّ النبى – ﷺ – على الصدق حذرهم من ضدّه فقال : « وإياكم والكذب ؛ فإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار » .

وهذا التحذير توكيد للأمر بالصدق ؛ لأن الأمر بالشىء يستلزم النهى عن ضده – كما يقول أكثر علماء الأصول – لكنه لما كان الإيصاء بالصدق أمراً فى غاية الأهمية أتبعه بهذا التحذير ؛ مبالغة فى الحث على تحرى الصدق ما أمكن، فقال : « وإياكم والكذب » أى : لا تقربوه ، ولا تحوموا حوله ، ولا تسلكوا من المسالك ما يحملكم على ارتكابه .

وهذا الأسلوب يُسمَّى عند أهل اللغة : أسلوب تحذير، وأنا أسميه : أسلوب تنفير ، وهو ضد الإغراء .

وذلك لأن الكذب من أبغض الخصال إلى الله تبارك وتعالى ، فهو أم الكبائر وينبوع الرذائل ، وأساس الشر كله .

---

(١) سورة النساء : ٦٩ .

وهو دليل على خسة الطبع وخبث النفس ، وسوء الخلق وقلة المروءة أو فقدانها ؛ لهذا حذرنا الإسلام منه كما حذرنا من الكفر ؛ لأنه قريب منه ، فما يلبث الكذاب حتى يذهب الإيمان من قلبه تماماً ، وتذهب عنه ربقته ونوره وبهاؤه ، ويصبح فى المجتمع إنساناً بلا إنسانية ، وشخصاً بلا شخصية ، وفرداً معزولاً بلا هوية ، يبغضه الناس ، ويفقدون الثقة فيه ، وينفَضُّون من حوله ويحثون التراب عليه .

ولقد كان النبى – ﷺ – من أشد الناس بغضاً للكذب والكاذبين .

روى أحمد فى مسنده عن عائشة – رضى الله عنها – قالت : « ما كان من خلق أبغض إلى رسول الله – ﷺ – من الكذب ، ما اطلع على أحد من ذلك بشئ فيخرج من قلبه حتى يعلم أنه أحدث توبة » .

وفى رواية عنها لابن حبان قالت : « ما كان من خلق أبغض إلى رسول الله – ﷺ – من الكذب ، ولقد كان الرجل يكذب عنده الكذبة فما يزال فى نفسه حتى يعلم أنه قد أحدث فيها توبة » .

ولقد كان السلف الصالح – رضوان الله عليهم – يتلاقون على الفضائل ويتعارفون بها ، فإذا أساء أحد السيرة ، وحاول أن ينفرد بمسلك خاطئ ، بدا – بعمله هذا – كالأجرب بين الأصحاء، فلا يطيب له مقام بينهم حتى يبرأ من عِلَّتِهِ .

وقد كان الكذب من أبغض الرذائل عندهم لما عرفوا من أخطاره وويلاته .

والكذاب لا تنفر منه الناس فحسب ، ولكن تنفر منه الملائكة أيضاً وتتباعد عنه بغضاً له وسخطاً عليه .

روى الترمذى فى سننه أن النبى – ﷺ – قال : «إذا كذب العبد تباعد المَلَكُ عنه ميلاً من نتن ما جاء به» .

والكذب بهتان يبهت وجه صاحبه ، فيجعله مُصْفَرًّا مُغْبَرًّا مظلماً ؛ لانعكاس ظلمة قلبه عليه .

وهو إفك يأفك صاحبه ، بمعنى : أنه يصرفه عن البر ويبعده عن مواطنه ، حتى يكتب مع الفجار ، فيكون مصيره النار وبئس القرار .

والكذب ريبة وحيرة ، وقلق واضطراب ، فالكذاب يرتاب فى نفسه قبل أن يرتاب فيه غيره ، ويشعر بمرارة كذبه وإن تغاضى عنها أحياناً ؛ لسوء خلقه ، وفساد قلبه وموت ضميره .

ومن مرارة الكذب : أن الكذاب يشعر أن الناس جميعاً يكذِّبونه أو يرتابون فى أمره على الأقل ؛ فيضطر إلى توكيد أقواله الباطلة وإخفاء كذبه اللعين بأغلظ الأيمان ، كما هو شأن المنافقين دائماً .

قال تعالى : ﴿ اتخذوا أيمانهم جُنَّةً فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴾ (١) . أى : وقاية لهم من اكتشاف أمرهم والإيقاع بهم .

وهو – مع ذلك – أمره مفضوح بشكل أو بآخر .

واعتبر بإخوة يوسف ، وانظر كيف رسموا خيوط المكيدة ودبروا لها ، وتفنَّنوا فى أخذه من أبيه وتخلصهم منه ، واعتذارهم بأن الذئب قد أكله وانتهى الأمر ، وجاءوا بأمارات زعموا أنها تدل على صدقهم ، فكانت هى الكذب نفسه .

فقد جاءوا أباهم عشاءً يبكون ؛ ليكون مجيئهم فى وقت العشاء دليلاً على فجيعتهم فيه ، ولئلا يتفرس الكذب فى وجوههم ، وتصنعوا البكاء وأمعنوا فيه ؛ ليكون ذلك من براهين صدقهم فى زعمهم .

وقالوا : ﴿ وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب ﴾ (٢) وهو الذى كنت تخاف منه ، كما صرحت بذلك يا أبانا .

مع أن قولهم : ﴿ وتركنا يوسف عند متاعنا ﴾ يتناقض مع قولهم حين طلبوه من أبيهم : ﴿ أرسله معنا غداً يرتع ويلعب ﴾ .

وعلى حد قول القائل : كاد المريب أن يقول خذونى ، قالوا : ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ﴾ .

ثم أنهم جاءوا على قميصه بدم كذب ؛ أى : هو الكذب نفسه ، ونسوا

---

(١) المنافقون : ٢ . (٢) يوسف : ١٧ .

أن وجود الدم على القميص لا يدل على ما ذكروه من قريب ولا من بعيد ، فهو عمل صبيانى لا أدرى كيف استساغوه وهم عصبة من العقلاء !

وقد قيل : إن يعقوب - عليه السلام - قد نظر إلى القميص فقال متهكماً بهم : ما أكرم هذا الذئب وما أحلمه !! أكل ولدى وترك قميصه كما هو !!

وكم فى قصص القرآن من عظات وعبر [1] راجع كتابى : من لطائف البيان فى سورة يوسف - عليه السلام - .

إن الكذوب لا حجة له عند الله ولا عند الناس ، وكذبه وبالٌ عليه وعلى الناس ، فهو فاسق بعيد عن الإيمان قريب من الكفر - والعياذ بالله تعالى - .

روى مالك فى موطئه ، أن النبى - ﷺ - سئل : «أيكون المؤمن جباناً ؟ قال : نعم ، وقيل له : أيكون المؤمن بخيلاً ؟ ، قال : نعم ، وقيل له : أيكون المؤمن كذاباً ؟ ، قال : لا» .

وروى ابن أبى شيبة ، أن النبى - ﷺ - قال : «كل خصلة يطبع أو يطوى عليها المسلم ، إلا الخيانة والكذب» .

وقوله - ﷺ - : «وما يزال الرجل يكذبُ ويتحرى الكذب حتى يُكتب عند الله كذاباً» يفيد أن الرجل إذا تَخَلَّى عن الصدق تماماً كان فى أسفل سالفين، والجزاء من جنس العمل .

وقد توعد الله الكذابين بالويل والثبور يوم القيامة فوق العذاب الذى يلاقونه فى الدنيا ، فقال - جل شأنه - : ﴿فمن أظلم ممن كذَبَ على الله وكذَّب بالصدق إذ جاءه أليس فى جهنم مثوى للكافرين﴾ [2] .

وقال - جل وعلا - : ﴿ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوهُهم مُسْوَدَّةٌ أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين﴾ [3] .

وقال سبحانه : ﴿يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون كَبُرَ مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾ [4] .

---

(١) انظر كتابى : من لطائف البيان فى سورة يوسف عليه السلام .

(٢) سورة الزمر : ٣٢ . (٣) سورة الزمر : ٦٠ . (٤) سورة الصف : ٢ - ٣ .

والمقت : هو الغضب الشديد ، فمن مقته الله تعالى ، فلن يفلح أبداً فى الدنيا ولا فى الآخرة .

قال النبى – ﷺ – : « رأيت الليلة رجلين أتيانى ... قالا لى : أما الذى رأيته يشق شدقه فكذاب ، يكذب الكذبة فتحمل عنه حتى تبلغ الآفاق ، فيصنع به هكذا إلى يوم القيامة » (١) .

وفى الحديث : « ثلاثة لا يدخلون الجنة : الشيخ الزانى ، والإمام الكذاب، والعائل المزهو » (٢) . والمراد بالعائل : الحاكم .

وقال – ﷺ – : « رأيت كأن رجلاً جاءنى فقال لى: قم، فقمت معه ، فإذا أنا برجلين أحدهما قائم والآخر جالس ، بيد القائم كلوب من حديد يلقمه (٣) فى شدق الجالس فيجذبه حتى يبلغ كاهله ، ثم يجذبه فيلقمه الجانب الآخر ، فيمده ، فإذا مده رجع الآخر كما كان ، فقلت للذى أقامنى : من هذا ؟ فقال : هذا رجل كذاب يعذب فى قبره إلى يوم القيامة » (٤) .

وقال – ﷺ – : « ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، وملك كذاب ، وعائل متكبر» (٥) .

وقال – ﷺ – وكان متكئاً : «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، ثم قعد وقال : ألا وقول الزور» (٦) .

والزور : هو الكذب ، وهو مخالفة الخبر للواقع .

والكذب أنواع ، أشدها وأعتاها : الكذب على الله تعالى ، وله صور لا تحصى أقبحها : أن ينسب العبد إلى الله ما لا يليق بذاته ، ثم يليه فى القبح أن

---

(١) رواه البخارى فى حديث طويل . (٢) رواه البزار .

(٣) أى بيده آلة تشبه الكماشة يدخلها فى فمه حتى تصل إلى كتفيه .

(٤) رواه البخارى من حديث طويل لسمرة بن جندب .

(٥) رواه مسلم . (٦) رواه البخارى ومسلم .

يقول المرء : هذا حلال وهذا حرام بغير علم ، إلى غير ذلك مما هو مبسوط فى كتب التوحيد والفقه .

قال تعالى : ﴿ فمن أظلم ممن كَذَبَ على الله وَكَذَّبَ بالصدق إذ جاءه أليس فى جهنم مثوى للكافرين ﴾ [1] .

ويليه فى الجرم الكذب على رسول الله - ﷺ - بأن ينسب إلى رسول الله - ﷺ - قولاً لم يقله أو شيئاً لم يفعله متعمداً ذلك لأى غرض فى نفسه ، حتى ولو كان الذى نسبه يحث على فضيلة وينهى عن رذيلة ، فإن دين الله - عز وجل - فى غنى عن أن يزاد فيه ، فقد جاءنا رسول الله - ﷺ - بما يكفى ويشفى ، وأكمل الله على يديه الدين ، وأتم به النعمة .

وقد أخطأ قوم من الوعاظ فى العصور الماضية خطأً شنيعاً حين وضعوا كثيراً من الأحاديث فى الزهد وذم الدنيا ، والترغيب فى الآخرة والتخويف من عذاب النار ؛ بحجة أنهم يدعون الناس إلى ترك المعاصى وفعل الطاعات ، والتحلى بالفضائل والتخلى عن الرذائل .

وحين قيل لهم : كيف تضعون الحديث على رسول الله - ﷺ - وقد حذر من ذلك تحذيراً شديداً فى مثل قوله - ﷺ - : « إن كذباً عَلَىَّ ليس ككذب على أحد ، فمن كذب على متعمداً ، فليتبوأ مقعده من النار » [2] - قالوا فى تبجح : نحن لا نكذب عليه وإنما نكذب له ، فلبئس ما كانوا يصنعون .

ويدخل فى نطاق هذا الافتراء سائر ما ابتدعه الجهال ، وأقحموه على دين الله من محدثات لا أصل لها ، عَدَّها العوام ديناً ، وما هى بدين ، ولكنها لهو ولعب .

وقد نَبَّه النبى - ﷺ - أمته إلى مصادر هذه البدع المكفرة ، وحذر من الانقياد إلى تيارها ، وحثهم على التمسك بالكتاب والسنة ، فقال - صلوات الله وسلامه عليه - : « يكون فى آخر أمتى أناس دجالون كذابون ، يحدثونكم بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم ، فإياكم وإياهم ، لا يضلونكم ولا يفتنونكم » [3] .

---

(١) الزمر : ٣٢ .

(٢) حديث متواتر ، رواه البخارى وغيره .

(٣) رواه مسلم .

ويليه فى الجرم الكذب فى الرؤيا ، فمن يكذب فيها ، كان كمن ادعى أن الله نبأه بشيء ، وهو سبحانه لم يفعل .

«فالرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة» كما جاء فى الحديث الصحيح الذى أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما .

وقد روى البخارى ، عن أبى الأسقع واثلة بن الأسقع – رضى الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – قال : «إن من أعظم الفرى أن يدعى الرجل إلى غير أبيه ، أو يُرِى عينَهُ ما لم تر ، أو يقول على رسول الله – ﷺ – ما لم يقل» .

والفرى : جمع فرية ، وهى الكذبة العظيمة .

وقوله : «أو يرى عينه ما لم تر» معناه : أن يقول : رأيت فى منامى كذا وكذا ، ولم يكن رأى شيئاً مما ذكر .

ومثله ما رواه البخارى عن ابن عمر – رضى الله عنهما – أن رسول الله – ﷺ – قال : «أفرى الفرى – أى أكذب الكذب – أن يُرِى الرجل عَيْنَيْهِ ما لم تَرَيَا» .

وروى البخارى عن ابن عباس – رضى الله عنهما – عن النبى – ﷺ – قال : «من تحلم بحُلم لم يره كلف أن يعقد شعيرتين ولن يفعل ...» .

ومن أشد جرائم الكذب : شهادة الزور ؛ إذ المطلوب من المسلم وغير المسلم : أن يؤدى الشهادة على وجهها المطلوب ، دون تحريف أو تبديل .

فمن بَدَّلَ الحقيقة أو شهد بما لم ير ويسمع ، فقد ارتكب بهتاناً وإثماً مبيناً .

وكذلك من كتم الشهادة ، فإنه يلحق بالمزور ؛ لأن كلا منهما قد ضَيَّعَ الحق على صاحبه .

ويلحق بالتزوير فى الشهادة التزوير فى كل شىء ، كما سيأتى بيانه فى حديث آخر .

ومن الكبائر : الكذب فى البيع والشراء ؛ لأنه من باب الغش والخداع والتدليس .

وقد قال النبى - ﷺ - كما روى أصحاب السنن : «من غشنا ، فليس منا» .

وهناك الكذب فى الوعد ، واختلاق المعاذير ، والكذب فى المزاح ، والمبالغة فى المدح ، والكذب على الأطفال وغير ذلك مما سيأتى بيانه مفصّلاً فى حديث آخر ، وسيأتى أيضاً - بيان الفرق بين الكذب والتعريض وغير ذلك مما يتعلق به من الأحكام .

نسأل الله الهداية والتوفيق .

* * *

(٩٢) إنى حَرَّمتُ الظلمَ على نفسى

عن أبى ذرٍّ – رضى الله عنه – عن النبى – ﷺ – فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال :

«ياعبادى ، إنى حرَّمتُ الظلمَ على نفسى وجعلته بينكم مُحرَّماً فلا تَظَالَمُوا .

ياعبادى ، كلكم ضال إلا من هديته فاستهدُونى أهدكُم .

ياعبادى ، كلكم جائع إلا من أطعمتُهُ فاستطعمونى أطعمكُم .

ياعبادى ، كلكم عار إلا من كسوتُهُ فاستكسُونى أكسُكُم .

ياعبادى ، إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفرونى أغفرْ لكم .

ياعبادى ، إنكم لن تبلُغُوا ضَرى فتضرونِى ولن تبلغوا نفعى فتنفعُونى .

ياعبادى ، لو أن أولَكم وآخرَكم وإنسَكم وجنَّكم كانوا على أتقى قلبِ رجلٍ واحدٍ منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً .

ياعبادى ، لو أن أولَكم وآخرَكم وإنسَكم وجنَّكم كانوا على أفجَرِ قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكى شيئاً .

ياعبادى ، لو أن أولَكم وآخرَكم وإنسَكُم وجنَّكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيتُ كل إنسان مسألتَهُ ما نقص ذلك مما عندى إلا كما يَنْقُص المخيط إذا أدخل البحر .

ياعبادى ، إنما هى أعمالكم أحصيها ثم أوفيكم إياها . فمن وجد خيراً فليحمد الله . ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه » (١) .

* * *

---

(١) أخرجه مسلم باب تحريم الظلم ح ٢٥٧٧ .

هذا الحديث القدسى شديد اللهجة قوى الحجة واضح المحجة .

فيه البلاغ لمن تدبر ، وفيه العظة لمن اعتبر ، وفيه الهدى لمن استهدى ، وفيه البشرى لمن استبشر ، وفيه الخير كله لمن أراد أن يتذكر أو أراد شكورا .

وقد أنزل الله معناه على رسوله – عليه الصلاة والسلام – فترجمه بألفاظه على هذا النحو البليغ ؛ فالحديث القدسى هو ما صرح فيه النبى – ﷺ – بقوله : قال الله تعالى ، أو يقول الله تعالى .

وهذا هو الراجح من أقوال العلماء عندى .

وهناك قول آخر قد ذكرته فى حديث سابق وهو أن الحديث القدسى ما نزل لفظه ومعناه من الله تبارك وتعالى .

وهذا التعريف يحوجنا إلى معرفة الفرق بين القرآن والحديث القدسى .

وقد ذكر العلماء الفرق بينهما فقالوا فيما قالوا :

١ – القرآن معجزة تحدى الله به الأنس والجن ، والحديث القدسى ليس كذلك .

٢ – القرآن متعبد بتلاوته والحديث القدسى ليس كذلك .

٣ – القرآن متواتر كله ، والحديث القدسى فيه الصحيح والحسن والضعيف .

٤ – القرآن لا تجوز روايته بالمعنى ، والحديث القدسى تجوز روايته بالمعنى .

ولو أخذنا بالتعريف الأول ما احتاجنا إلى ذكر هذه الفروق .

* * *

ومن دواعى العظمة وبواعث السرور فى هذا الحديث أن الله عز وجل قد خاطب عباده فيه عشر مرات بقوله : ياعبادى ، وهو خطاب يشعر المؤمن من خلاله بأمارات الحب والقرب والإيناس .

فهو خطاب رقيق فى مبناه رفيع فى معناه ، فليس هناك وصف أعظم من وصف العبودية ، فهى وصف مقدم على أى وصف أخر ، بل إنه مقدم على وصف الرسالة .

فقد شهد النبى – ﷺ – لنفسه أولا بالعبودية ثم شهد لها بالرسالة، فقال : «وأشهد أن محمداً عبده ورسوله» .

ولشرف محمد - ﷺ - جعل العبودية علماً عليه ، فقال : ﴿سبحان الذى أسرى بعبده﴾ [1] .

وقال : ﴿الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب﴾ [2] .

وقال : ﴿تبارك الذى نزّل الفرقان على عبده﴾ [3] .

وقد خاطب الله المؤمنين فى القرآن بقوله : ﴿ياعبادى﴾ فى مواضع كثيرة؛ تشريفاً لهم وتعظيماً لحقهم وسمواً بمكانتهم عنده، فقال: ﴿ياعبادِ فاتقون﴾[4] .

وقال جل شأنه : ﴿قل ياعبادِ الذين آمنوا اتقوا ربكم﴾ [5] .

وقال جل وعلا : ﴿قل ياعبادِىَ الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله﴾ [6] .

وقال سبحانه : ﴿ياعبادِىَ الذين آمنوا إن أرضى واسعةٌ فإيَاى فاعبدون﴾[7] .

ولا يخفى ما فى هذا الخطاب من شحذ للعزائم واستنهاض للهمم وتحريض على الإخلاص لله فى القول والعمل ، والاتجاه إليه وحده ، وإظهار الافتقار إليه فى كل شيء ، والاعتماد عليه والثقة بفضله العظيم فى جميع الأمور .

ولقد كان المؤمنون يتلقون هذا الخطاب بقلوبهم النيرة ، ويتأملون فى أسراره وآثاره بعقولهم المبصرة فيزدادون به سروراً وحبوراً ، ويجدون فيه استراوحاً لنفوسهم ، وتجديداً لعهدهم معه جل شأنه .

وما أحسن قول شاعرهم :

لقد زادنى فرحاً وتيهاً
وكدت بأَخْمَصى أطأُ الثريَّا
دخولى تحت قولك ياعبادى
وأن صَيَّرت أحمدَ لى نبيّا

* * *

---

(1) الاسراء : 1 . (2) الكهف : 1 . (3) الفرقان : 1 . (4) الزمر : 16 .
(5) الزمر : 10 . (6) الزمر : 53 . (7) العنكبوت : 56 .

قوله : «إنى حرمت الظلم على نفسى» معناه : إنى نزهت نفسى عنه تنزيهاً تاماً .

كما قال جل شأنه : ﴿وما أنا بظلام للعبيد﴾ [1] .

﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾ [2] .

﴿وما الله يريد ظلماً للعالمين﴾ [3] .

﴿وما الله يريد ظلماً للعباد﴾ [4] .

وقال عز وجل: ﴿ أن الله لا يظلم مثقال ذرة﴾ [5] .

والآيات فى ذلك كثيرة .

ورتب سبحانه على نفى الظلم عن نفسه نفياً قاطعاً وجوب الكف عن الظلم والبعد عنه وعن مرتكبيه وعن الأسباب التى تؤدى إليه ، فقال : «وجعلته بينكم محرّماً فلا تظالموا» ، أى لا يظلم بعضكم بعضاً فى شىء ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

والظلم نوعان :

أحدهما : ظلم الإنسان نفسه ، وأعظمه الشرك بالله ، كما قال تعالى : ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ [6] .

ثم تليه المعاصى على اختلاف أجناسها من كبائر وصغائر .

والثانى : ظلم العبد لغيره ، وهو لا يخلو من ظلم النفس قطعاً ، فمن ظلم غيره فقد ظلم نفسه .

والظلم فى اللغة معناه : المنع والنقص .

فمن منع حقاً لإنسان أو نقص منه فقد ظلمه .

---

(١) سورة ق : آية ٢٩ .
(٢) سورة فصلت : آية ٤٦ .
(٣) سورة آل عمران : آية ١٠٨ .
(٤) سورة غافر : آية ٣١ .
(٥) سورة النساء : آية ٤٠ .
(٦) سورة لقمان : آية ١٣ .

وجاء الظلم بمعنى النقص فى آيات منها قوله تعالى : ﴿ كلتا الجنتين آتت أُكُلَها ولم تظلم منه شيئاً ﴾ (١) .

وآثار الظلم وخيمة وعاقبته أليمة .

يقول الله – عز وجل – : ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسَّكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تُنصرون ﴾ (٢) .

ويقول الله – عز وجل – : ﴿ وكذلك أَخْذُ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أَخْذَه أليم شديد ﴾ (٣) .

ويقول سبحانه: ﴿ وعَنَتِ الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلماً ﴾(٤) .

وإذا انتشر الظلم بين الناس واستفحل خطره فقد أذنت الأرض بالزوال ، وأتاها أمر الله ليلاً أو نهاراً فدمرها على أهلها تدميراً كما فعل بأمثالهم من الأمم .

قال تعالى : ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قريةً أمرنا مُترَفيها ففسقوا فيها فحق عليها القولُ فدمرناها تدميراً . وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً ﴾ (٥) .

أى إذا أردنا هلاك قرية من القرى أمرنا المُنَعَّمينَ فيها بطاعتنا والانقياد إلينا ، وأمهلناهم مدة كافية للتدبر والتَّذكُّرِ والامتثال ، فأكثروا فيها من المعاصى، فحق عليهم العذاب فأهلكناهم جميعاً ، كما أهلكنا أمثالهم من قبل بذنوبهم .

وتلك سنَّة الله فى خلقه « ولا تجد لسنّة الله تبديلا » .

قال تعالى : ﴿ فكلاًّ أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ (٦) .

* * *

---

(١) سورة الكهف : ٣٣ .

(٢) سورة هود : ١١٣ .

(٣) سورة هود : ١٠٢ .

(٤) سورة طه : ١.١١ .

(٥) سورة الإسراء : ١٦ – ١٧ .

(٥) سورة العنكبوت : ٤٠ .

قوله : « ياعبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم » أى كلكم إذا تخليت عنكم ضال ، لا هادى لكم غيرى ، فاطلبوا الهدى منى أهدكم إلى ما فيه خيركم وسعادتكم فى الدنيا والآخرة .

قال تعالى : ﴿من يَهْدِ الله فهو المهتدِ ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً﴾[١] .

وقال جل شأنه : ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم﴾[٢] .

أى : والذين طلبوا الهدى منه – جل شأنه – زادهم هدى على هداهم؛ لأنهم لو لم يكونوا مهديين ما طلبوا الهدى فى جميع أقوالهم وأحوالهم وأفعالهم، وأعطاهم من الوسائل والأسباب ما يعينهم على وقاية أنفسهم من الضلال والآثام : كبيرها وصغيرها .

وقد أضاف التقوى إليهم لتمكُّنها منهم وتَمَكُّنِهِم منها ، فالإضافة إذاً للتمكين .

وقال جل وعلا : ﴿ويزيد الله الذين اهتدوا هدى والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير مردًّا﴾[٣] .

ولما كانت الهداية أعظم مطلب من مطالب الدين ، وأقوم سبيل إلى إرضاء رب العالمين ، أمرنا الله أن ندعوه فى كل ركعة أن يهدينا إلى الطراط المستقيم : صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وقد وفر الله لنا سبل الهداية وبينها لنا كأعظم ما يكون البيان ، وما علينا إلا أن نسأله من فضله الهداية والتوفيق والسداد فى القول والعمل .

وقد قال الله عز وجل : ﴿وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعِ إذا دعانِ فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يَرشدون﴾[٤] .

﴿وقال ربكم ادعونى استجب لكم﴾[٥] .

---

(١) سورة الكهف : ١٧ . (٢) سورة محمد : ١٧ . (٣) سورة مريم : ٧٦ .

(٤) سورة البقرة : ١٨٦ . (٥) سورة غافر : ٦٠ .

ونلاحظ أن لفظ الضلال ولفظ الهدى فى الحديث عامٌّ ، ويشمل بعمومه جميع ما تتسع له دلالة كل منهما .

فجميع الخلق ضالٌّ لا يعرف خالقه بأسمائه الحسنى وأوصافه العلا ؛ فأرسل إليهم الرسل ؛ فعلموهم كيف يعبدون الله ولا يشركون به شيئاً ، ووضعوا لهم أصول التوحيد وقواعده .

وجميع الخلق ضال عن إصلاح أنفسهم وتحصيل معاشهم ؛ فهداهم الله إلى ذلك بواسطة الرسل أيضاً ، فلم يكن العقل وحده كافياً فى إدراك وجوه الخير على كثرتها وتَشَعُّبِهَا .

وكان الجميع ضالاً حائراً فى تحليل ما يراه من الظواهر الكونية وغيرها مما يعتمل فى أنفسهم ويُلِحُّون فى السؤال عنه ؛ فهداهم إلى التأمل والنظر فيما يقع تحت حواسهم من الآيات الكونية ، وكشف لهم عن بعض أسرارها بالقدر الذى تستوعبه عقولهم ، وبالقدر الذى يحتاجون إليه فى إصلاح دينهم ودنياهم .

وهم ضالون عن الأمور الغيبية التى لا يستطيعون إدراكها ؛ فهداهم الله بواسطة الرسل إلى معرفة بعضها بالقدر الذى يتسع إدراكهم له .

فالضلال أنواع كثيرة لا تنحصر ، والهدى واحد لا يتعدد ، وإن بدا أنه مُتَعَدِّدٌ .

وذلك لأن الضلال ظلمة ، والظلمة متعددة ، والهدى نور ، ومصدر النور واحد ، وهو الله – جل شأنه – .

يقول الله – عز وجل – : ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتَّبع رضوانه سُبُلَ السلام ويخرجُهُم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾ (١) .

* * *

وقوله : « يا عبادى ، كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم » أى : كلكم عالة عَلَىَّ ، وأنا الذى أُطْعِمُ ولا أُطْعَمُ ؛ فاطلبوا منى الطعام

(١) سورة المائدة : ١٥ – ١٦ .

أطعمكم ، ولا تسألوا غيرى ؛ فالرزق مضمون لكم عندى ، لن تموت نفس منكم حتى تستوفى رزقها وأجلها .

ويعجبنى ما يقوله الحسن البصرى - رضى الله عنه - فى هذا المقام .

يقول : عجباً لابن آدم يسأل الله الرزق وهو مضمون ، ولا يسأله حسن الخاتمة وهو أمر غير مضمون .

وهذه الفقرة من الحديث تشعرنا بمنتهى فقرنا إلى الله تعالى ، فأعظم شيء نحتاج إليه هو الطعام ، وليس لدينا قدرة على تحصيله إلا إذا مكننا الله من ذلك ، فنحن جياع على الحقيقة ، ولو كنا نملك فى أيدينا أصناف الطعام كلها .

فقد يكون المرء قادراً فى الظاهر على جلب الطعام ولكن لا يكون له قدرة على تناوله .

وقد يستطيع تناوله ولكنه لا يَسُدُّ جوعته ، ولا يفيد منه جسمه شيئاً ، ولا يتذوق له طعما أصلاً ، وقد يفتك به ويهلكه .

فعلى العبد أن يسأل الله الطعام النافع ، وأن يسأله القدرة على تناوله وهضمه وإخراج فضلاته ، ومعافاته من آثاره الجانبية .

* * *

وقوله : « ياعبادى ، كلكم عار إلا من كسوته فاستكسونى أكسُكُم » - توكيدٌ لقوله : « كلكم جائع » ، وتفصيل لعوامل الفقر إلى الله - تبارك وتعالى - فهم عالة عليه فى الكسوة كما هم عالة عليه فى الطعام .

ولا يخفى ما فى هذا التوكيد من شحذ همَّة العبد إلى تكرار الدعاء وإظهار الافتقار إليه بذكر حاجاته كلها بالتفصيل بقلبه ولسانه ، فكلما عَدَّدَ حوائجه شَعَرَ بالافتقار إليه أكثر وأكثر ، حتى تتصاغر إليه نفسه ، فلا يرى لها شيئاً تملكه أو تستطيع أن تملكه ، إلا بمشيئة العلىّ القادر جل شأنه .

ولا يخفى ما فى العرى من مهانة وقبح وكشف للعورات ، فإذا طلب العبد من الله الكسوة ، استحب له أن يطلب معها الستر المعنوى ؛ ليجتمع له الأمران معاً .

فاللباس نوعان : لباس محله الجسد ، ولباس محله القلب ، كما أن الزاد نوعان : زاد مادىّ ، وزاد معنوىّ .

اقرأ قول الله تعالى : ﴿ يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوءاتكم وريشاً ولباسُ التقوى ذلك خير ﴾ [1] .

والريش هو : الفراش الناعم الوثير وما فى معناه .

واقرأ قوله تعالى : ﴿ وتزوّدوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب ﴾ [2] .

* * *

وقوله : « ياعبادى ، إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفرونى أغفر لكم » – فيه بيان لصفة متأصلة فى الإنسان ، وهى الخطأ الدائم فى أمور الدين والدنيا معاً .

يقول النبى – ﷺ – كما روى الترمذى وابن ماجه من حديث أنس – رضى الله عنه – : « كُلُّ بنى آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون » .

والخطأ نوعان : خطأ هو من قبيل الخطيئة ، وخطأ ليس هو من قبيلها .

فالأول : ذنب يعاقب المرء عليه ما لم يتب منه .

والثانى : لا يعاقب عليه المرء ؛ بل يعذر فيه ، ما لم يكن متعمداً ، فإن كان متعمداً صار من قبيل الخطيئة ؛ لأن الله – عز وجل – يقول : ﴿ وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفور رحيماً ﴾ [3] .

ولفظ : « كلكم » فى الحديث عام ، يشمل حتى الأنبياء ، إلا أن ذنوب الأنبياء من قبيل الأخطاء لا من قبيل الخطايا .

ويصح أن نقول : إنها من باب : حسنات الأبرار سيئات المقربين .

---

(١) الأعراف : ٢٦ . (٢) البقرة : ١٩٧ . (٣) الأحزاب : ٥ .

وعليه يُحمل قوله تعالى: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ (١) .

فالذنب يطلق ويراد به فى حقه الخطأ دون الخطيئة .

والرسول – ﷺ – يجتهد فى الأمور التى لم ينزل فيها وحى فيصيب ويخطئ ؛ فيجىء الوحى فيصحح له المسار .

وخطؤه لا يحرم حلالاً ولا يحل حراماً ، ولكن لا يعدو أن يكون خلاف الأولى ، فافهم ذلك واثبت عليه ؛ فإنه دقيق .

والله – عز وجل – قد عذر عباده فيما يأتون من الآثام ؛ بشرط أن يتوبوا إليه ويستغفروه فور وقوعهم فى الإثم . كما دل عليه قوله تعالى :

﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يُصِرُّوا على ما فعلوا وهم يعلمون أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين﴾(٢) .

والاستغفار : طلب المغفرة ، وهى أعم من العفو والصفح .

فالعفو : ترك العقاب ، والصفح : ترك العتاب ، والغَفْرُ : محو ما كان حتى كأنه لم يكن .

فإذا تاب العبد ، تاب الله عليه ، وأنسى الحفظة ذنوبه ، وأنسى كذلك معالمه وجوارحه .

والله – عز وجل – يبسط يده بالليل ليتوب مسيئ النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيئ الليل ، كما جاء فى الحديث الصحيح .

فليغتنم كل مسلم هذا الوعد الكريم ؛ فيبادر بالتوبة ، ويكثر من الاستغفار بالليل والنهار ؛ فالخير كل الخير فيه .

---

(١) الفتح : ٢ .　　(٢) آل عمران : ١٣٥ – ١٣٦ .

قال تعالى : ﴿وأن استغفروا ربَّكم ثم توبوا إليه يمتعْكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمّى ويؤتِ كلَّ ذى فضل فضلَه﴾ (١) .

وقال - عز وجل - حكاية عن نوح عليه السلام مع قومه :

﴿فقلت استغفروا ربَّكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويُمددْكم بأموال وبنينَ ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً﴾ (٢) .

لكن لا ينبغى أن يستغفر المسلم ربه من أجل تحصيل حطام الدنيا ، وإنما يستغفره من ذنوبه خوفاً من عقابه وطمعاً فى ثوابه « والآخرة خير وأبقى » .

* * *

وقوله : « ياعبادى ، إنكم لن تبلغوا ضُرِّى فتضرُّونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى » - فيه إخبار على وجه التحدى والإنذار أنه مستغن بذاته عنهم وعن سائر خلقه ، فهو - جل شأنه وتقدست أسماؤه وصفاته - لا تنفعه طاعتنا ولا تضره معصيتنا ، فلا يجرؤ أحد على مبارزته بالعدوان البتة ، فهو القاهر فوق عباده، خضعت الإنس والجن لجبروته ، وسبح كل شىء بحمده ، نواصيهم بيده، ماض فيهم حكمه ، عدل فيهم قضاؤه ، وما فى السماوات والأرض جميعاً قبضته .

﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد إن يَشَأْ يُذهبْكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز﴾ (٣) .

وفى هذه الفقرة من الحديث فوق ما ذكرنا تحجيم لقدرة الخلق ، وتحديد لأبعادها ، وبيان لهم على وجه التحدى - كما ذكرنا - أنهم أعجز ما يكون عن ضره أو نفعه ، وأنه لا قدرة لهم مع قدرته ، ولا إرادة لهم مع إرادته ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

* * *

---

(١) سورة هود : ٣ .　　(٢) سورة نوح : ١٠ - ١٢ .

(٣) سورة فاطر : ١٥ - ١٧ .

وقوله : « ياعبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنَّكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً » – فيه بيان لما تَضَمَّنَتْهُ الفقرة السابقة ؛ فملكه واسع لا يحدُّه حَدّ ، وكامل لا يعتريه نقص ولا يقبل الزيادة بحال من قِبَلِ مخلوقاته ، فهو يزيد فى ملكه ما يشاء ، وليس لأحد إرادة ولا قدرة فى الزيادة ولا فى النقصان ، ولو كانوا جميعاً قد بلغوا فى الطاعة مبلغ الكمال ، وتمكنت قلوبهم من الهداية التامة ، وتمكنت الهداية التامة من قلوبهم .

وكذلك قوله فى الفقرة التى بعدها : « ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنَّكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكى شيئاً » .

فملكه لا يزول ولا يحول ، ولا يلحقه تفاوت بأى وجه من الوجوه .

﴿الذى خلق سبع سموات طباقاً ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كَرَّتين ينقلبْ إليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾ (١) .

* * *

وقوله – جل وعلا – : « ياعبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندى ، إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر » – فيه بيان لسعة فضله ورحمته ، واستغنائه بذاته عن سائر مخلوقاته بأبلغ أسلوب وأتم بيان ، فخزائنه لا تنفد ولا تنقص بالعطاء ، وفى ذلك حثّ للخلق على سؤاله وإنزال حوائجهم به .

روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن النبى – ﷺ – قال :

« يد الله ملأى لا تغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار ، أفرأيتم ما أنفق ربكم منذ خلق السماوات والأرض ، فإنه لم يغض ما فى يمينه » .

---

(١) الملك : ٣ – ٤ .

وروى مسلم في صحيحه عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن النبى – ﷺ – قال :

«إذا دعا أحدكم فلا يقل : اللهم اغفر لى إن شئت ، ولكن ليعزم وليعظم الرغبة ؛ فإن الله لا يتعاظمه شيء» .

وقال أبو سعيد الخدرى : إذا دعوتم الله ، فارفعوا في المسألة ؛ فإن ما عنده لا ينفده شيء ، وإذا دعوتم فاعزموا ؛ فإن الله لا مستكره له .

وانظر – هداك الله – فى المثل المضروب فى قوله : «إلا كما يأخذ المخيط من البحر» فإنك لو أنعمت النظر لعرفت أن النقص كَلاّ نقص ، فماذا يأخذ المخيط من البحر الخضم ، الذى تمده أبحر أعظم منه وأكبر ، وعاود النظر ؛ لتعرف الفرق بين ما قيل وما يمكن أن يقال ، فقد يقال : ما نقص من ملكى شيئاً وكفى ، فماذا يكون الفهم لو قال ذلك ؟

أغلب الظن أنه يتبادر إلى الأوهام كأن الله لم يعطِ أحداً شيئاً ؛ لأن النقص مُتَصَوَّر فى بادئ الأمر ، ولو على نحو ما ، فترك الله العبد يتخيل أن هناك نقصاً ما قد حدث ، فإذا ما نظر فى المثل تلاشى النقص تماماً فى ذهنه ؛ فتغلب جانب عدم النقص على النقص ؛ فأزاله بالكلية . فما أبلغ هذا الأسلوب وما أعذبه !

* * *

وقوله – جل وعلا – : «ياعبادى ، إنّما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إيَّاها ، فمن وجدَ خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يَلُومَنَّ إلاّ نفسه» – خاتمة كادت تكون قرآناً ؛ لما تضمنته من بلاغ يَسُدُّ كل ثغرة ، يدخل منها الشيطان على ابن آدم لو كان يعقل ، وترد كل شبهة ترد على قلبه لو كان يؤمن بالله إيماناً صادقاً ، وتدفع عن المؤمن كيد نفسه وانحراف هواه .

وكأنى بهذا الخطاب الأخير يعد كسلام المُوَدِّع ، وياله من وداع وضع الأمر فى موضعه ، وأطلع كل إنسان على نتيجة عمله ومنتهى أمله ؛ إذ قال : «ياعبادى ، إنما هى أعمالكم أحصيها لكم» أى : أجمعها جمعاً لا يعزب عنى مثقال ذرة ، وأحسبُها بحساب لا تَندُّ فيه شاردة ولا واردة ، وأحفظها لكم بعنايتى حتى يأتى أمرى ؛ فأطلعكم عليها ، وأجزيكم بها جزاءً عدلاً ، لا تظلمون فيه فتيلاً ، وأنا أعلم بكم ، لا يغيب عن علمى مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء .

وقوله : « ثم أوفيكم إياها » يُشْعِرُ بذلك ، فالوفاء كل الوفاء عنده – عز وجل – .

يقول – عز شأنه – : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تَكُ حسنة يضاعفْها ويؤتِ من لدنه أجراً عظيماً ﴾ (١) .

ويقول – عز من قائل – : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تُظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ (٢) .

ويقول سبحانه : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ (٣) .

والتو[illegible]ا تكون فى الآخرة ؛ لقوله تعالى : ﴿ وإنما تُوفَّون أجوركم يوم القيامة ﴾ (٤) .

لكن لا يمنع أن يأخذ العبد قسطاً من الجزاء على الأعمال فى الدنيا ، كما قال – جل شأنه – : ﴿ فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ﴾ (٥) .

وقال – جل وعلا – : ﴿ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعْكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤتِ كل ذى فضل فضله ﴾ (٦) .

وكما قال : ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينَّه حياة طيبةً ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ (٧) .

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن فى الدنيا جزاء وفى الآخرة جزاء .

فمن وجد نفسه مُوَفَّقاً إلى الطاعات فليحمد الله على نعمة التوفيق ، وهى نعمة لا تعدلها نعمة .

ومن رأى نفسه دون ما خلقه الله لأجله ، فوبال ذلك عليه ، ولا يلومنّ إلا نفسه على ما قَدَّم وأخرّ .

فالمؤمن إذا أصابه فى الدنيا بلاء رجع إلى نفسه باللوم ، ودعاه ذلك إلى الرجوع إلى الله بالتوبة والاستغفار .

وفى المسند وسنن أبى داود عن النبى – ﷺ – قال : «إن المؤمن إذا أصابه

---

(١) النساء : ٤٠ . (٢) الأنبياء : ٤٧ . (٣) الزلزلة : ٧ – ٨ .

(٤) آل عمران : ١٨٥ . (٥) آل عمران : ١٤٨ .

(٦) هود : ٣ . (٧) النحل : ٩٧ .

سقم ثم عافاه الله منه كان كفارة لما مضى من ذنوبه ، وموعظة له فيما يستقبل من عمره ، وإن المنافق إذا مرض وعوفى كان كالبعير عَقَلَه أهله وأطلقوه لا يدرى بما عقلوه ولا بما أطلقوه » .

ويحتمل أن يكون المراد بقوله : « فليحمد الله » ، وبقوله : « فلا يلومن إلا نفسه » – بحسب ما يقع للعباد فى الآخرة ، أى فمن وجد خيراً فى الآخرة فإنه يحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فإنه لا يلوم إلا نفسه، فيكون الكلام لفظه الأمر، ومعناه الخبر .

روى الترمذى عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن النبى – ﷺ – قال : « ما من ميت يموت إلا ندم ، إن كان محسناً ندم على أن لا يكون ازداد ، وإن كان مسيئاً ندم على أن لا يكون استعتب » (١) .

* * *

وبعد : فإن هذا الحديث القدسى قد شَدَّ من أزرى حين قرأته وحين فهمته وحين شرحته ، ولازلت أعاود النظر فيه ، فأجد كلما نظرت عبرة تملأ شغاف قلبى حباً لخالقى ومولاى ، لمَا يَفيضُ به من لطف ورأفة ، وفضل ورحمة .

فانظر كيف عقد الله بينه وبين عباده صلة وثيقة لا ينفصم عراها ، ولا ينقطع مددها ، ولا يزول من القلوب بردها وحنانها .

وانظر كيف وعد عباده بعد أن عرفهم بحقيقة أنفسهم أن يهديهم إذا استهدوه ، وأن يطعمهم إذا استطعموه ، وأن يكسوهم إذا استكسوه ، وأن يغفر لهم إن استغفروه .

وانظر كيف عرفهم بنفسه فعرفوه بأوصاف الجلال والجمال والكمال .

وكم فى هذا الحديث من اللطائف البيانية والأسرار البلاغية مما ضاق المقام عن ذكره هنا ومما لا يتسع لمثلى أن يُلِمَّ به ، فلنقتصر على ما ذكرناه ؛ فإن فيه الكفاية إن شاء الله لمن أراد الهدى .

نسأل الله – تبارك وتعالى – أن يجمعنا وإياكم على طاعته .

* * *

---

(١) استعتب : استرضى الله بالزيادة من أعمال الخير .

(٩٣) ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال :

«ادعُوا اللهَ وأنتم مُوقِنُونَ بالإجابة ، واعلموا أن اللهَ لا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لاَهٍ» (١) .

* * *

اليقين بالله - تبارك وتعالى - هو الإحسان فى أسمى درجاته وأعلى مراتبه، فمن قوى يقينه بالله أسلم وجهه إليه ، وأحسن التوكل عليه ، ولم ينقطع رجاؤه فى رحمته ، ولم يَكُفَّ عن سؤاله ساعة من ليل أو نهار.

ورسول الله - ﷺ - هو أول الناس إسلاماً وأكملهم إيماناً ، وأعظمهم فى الله رجاءً وأكثرهم إلحاحاً فى الدعاء ، يعلِّم أصحابه ما ينبغى أن يكونوا عليه عند الدعاء من حضور القلب مع الله - عز وجل - ، وحسن الثقة بفضله ، وعظيم الرجاء فى الإجابة عند الإلحاح بالدعاء ، فيوصيهم بقوله : «ادعوا الله وأنتم مُوقنون بالإجابة» أى اضرعوا إلى الله بالدعاء والحال أنكم لا تَشُكُّونَ - ولو لحظة - فى قبول الدعاء ، مادمتم تدعونه رغباً ورهباً ، وقد طهرتم قلوبكم من كل ما يعكر صفو إيمانكم بربكم ، وأطبتم مطعمكم ومشربكم وملبسكم ، وأطعتموه بقدر طاقتكم ، وقدمتم بين يدى دعائكم ما يليق بذاته تعالى من الحمد والثناء الحسن الجميل ، وهذا كله من توابع اليقين ودلائله الدالة على صدقه .

واليقين ضد الشك ، وهو امتلاء القلب بالإيمان المبنى على العلم والمعرفة بالله - عز وجل - .

---

(١) رواه الترمذى فى الدعوات ، باب رقم : (٦٦) ، حديث رقم : (٣٤٧٤) ، وفى سنده صالح بن بشير بن وادع المرى ، وهو ضعيف ، ولكن للحديث شاهد بمعناه من رواية أحمد فى المسند عن عبد الله بن عمرو بن العاص: «القلوب أوعية ، وبعضها أوعى من بعض ، فإذا سألتم الله - عز وجل - يا أيها الناس ، فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة ، فإن الله لا يستجيب لعبد دعاء عن ظهر قلب غافل» . وقد حسن إسناده الحافظ المنذرى ، فالحديث بهذا الشاهد حسن .

ولهذا قال الرسول – ﷺ – « واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافل لاه » أى لا يستجيب لأى دعاء صدر من قلب مشغول بغير ذكره – تبارك وتعالى – ، أو كان به شبهة من الشبهات التى تؤثر على نقاء السريرة وصفاء الضمير وسلامة القلب ، أو شهوة من الشهوات التى تجعل الدعاء أقرب إلى الهذيان ، فمتى كان القلب المشغول بنزوات الطيش والهوى يحتفظ باليقين الذى يترتب عليه قبول الدعاء وتحقيق الرجاء !!

فقوله : « واعلموا » يفيد أن الأمر جد لا هزل فيه .

فلن يستجيب الله إلا لعبد خضع لعظمته ، وتواضع لجلاله ، وأظهر تمام الافتقار إليه ، واعترف بذنبه وأيقن بالإجابة على النحو الذى لا يخالجه شك .

وهذا كقوله : « فاعلم أنه لا إله إلا الله » .

فمن يعلم أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافل لاهٍ ، كان موحداً يعلم حقيقة التوحيد .

ومن لم يكن كذلك ، لم يكن موحداً عن علم ومعرفة ، فتأمل ذلك تجده صحيحاً إن شاء الله .

وقد ذكرنا – من قبل – أن اليقين إنما يبنى على العلم بالله ومعرفته بصفات الكمال والتنزيه .

* * *

ونخلص من هذا إلى أن الناس فى الدعاء ثلاثة أصناف :

صنف : يعبد الله ويشرك معه غيره فى العبادة ، ولا يكاد يذكره إلا عند الشدة ، فإذا مَسَّه الشر دعاه واستغاث به ، فإن زالت عنه الشدة عاد إلى ما كان عليه من الشرك والكفران ، وهؤلاء هم الكفرة الفجرة ، عُبَّاد الأوثان وغيرها من الآلهة المزعومة .

وفيهم يقول الله – تبارك وتعالى – : ﴿هو الذى يُسيِّركم فى البر والبحر

حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين . فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق ﴾ (١) .

وصنف : يعبد الله وحده ، ولكن فى قلبه شيء من الزيغ والانحراف ، واللهو والغفلة ، فإذا دعا الله – عز وجل – ساوره الشك فى الإجابة ولعبت الظنون برأسه ، وتواردت عليه الخواطر التى تحمل معها شبح اليأس والقنوط ، وقال فى نفسه : هل يستجيب الله لى ، ومتى يستجيب ؟ . إلى آخر ما فى جعبته من المثبطات الواردة على قلبه بالتتابع والملاحقة ، فهذا لا يستجاب له قطعاً ؛ لعدم تيقنه بالإجابة .

وصنف : أتم الله عليه النعمة ، وأمده بروح منه ، وطهر قلبه من وساوس الشيطان ونزغات الهوى ، فاتجه إلى الله يدعوه سراً وجهراً ، ولا يشك فى الإجابة أبداً وهو يعلم أن الله كريم وهاب ، إما أن يجيبه فيما طلب ، وإما أن يعطيه خيراً مما طلب ، وإما أن يدخر له ذلك فى الجنة ثواباً من عنده (والله عنده حسن الثواب) .

روى الترمذى فى سننه بإسناد حسن صحيح عن عبادة بن الصامت أن رسول الله – ﷺ – قال : «ما على الأرض مسلم يدعو الله تعالى بدعوة إلا آتاه الله إياها ، أو صرف عنه من السوء مثلها ما لم يدع بإثم ، أو قطيعة رحم» .

فقال رجل من القوم : إذاً نكثر ، فقال : «الله أكثر» أى إن كنتم أكثر دعاءً، فإن الله أكثر إحساناً .

وقد مر بنا فى مواضع كثيرة ذكر آداب الدعاء وشروط صحته وقبوله فراجعه فى هذا الكتاب هنا وهناك ، واجمع قاصيه ودانيه ، واعتبر بما فيه .

* * *

---

(١) سورة يونس : ٢٢ – ٢٣ .

(٩٤) تَعَوَّذُوا باللّه من جهد البلاء

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - قال :

«تَعَوَّذُوا باللّه مِنْ جَهْدِ البَلاَءِ ، وَدَرَكِ الشَّقَاءِ ، وَسُوءِ القَضَاءِ ، وَشَمَاتَةِ الْأَعْدَاءِ» (١) .

* * *

كان النبى - ﷺ - يُعَلِّم أصحابه كيفية الدعاء والدعوات اللاتى يَلْهَجُوا بهنَّ ؛ ليجعلوهن من أسباب قضاء الحاجات عند الطلب ؛ إذ من المعلوم أن الدعاء وحده لا يكفى فى بلوغ المَرَامِ وتحقيق المآرب ، بل لابد معه من العمل الذى كُلِّفْنَاهُ عند إرادة ما ينفعنا فى ديننا ودنيانا .

فمن أراد الرزق - مثلاً - سعى إليه ، وتَكَلَّف الصعاب من أجل الحصول عليه معتمداً فى سعيه على الله - تبارك وتعالى - .

فالدعاء بلا سعى يكون من باب التواكل لا من باب التَّوَكُّلِ ، فالتوكل - كما قل العلماء - : هو الاعتماد على الله تعالى والثقة به مع مباشرة الأسباب .

فلا ينبغى أن يعتمد العبد كل الاعتماد على الدعاء وحده ، بل يجعله عبادة من العبادات وقربة من القربات، يُعَبِّر به عن افتقاره التَّام إلى خالقه ومولاه، وعجزه الكامل عن تحقيق رغباته دون عون منه جل شأنه .

وكان أصحاب النبي - ﷺ - يعملون بالتجارة والزراعة والرَّعى وغير ذلك مما يتعيشون منه ، ويَجِدُّونَ فى طلب الرزق بشتى الحيل المشروعة ، ويتجشمون الصعاب فى ذلك ، ولَا يحول ذلك بينهم وبين الدعاء ، كما لا يحول الدعاء بينهم وبين السعى فى طلب المعاش .

وهذا ما يقضى به المنهج الإسلامى ، فهو منهجٌ يُعَبِّرُ عن الواقع بصدق ، ويحمل الناس بتشريعاته العامة والخاصة على العمل الصالح والتعاون البناء على البر والتقوى ، والسعى الجاد فى جنبات الأرض وأماكن الرزق فيها ، ويأمرهم بتحصيل ما فيه نفعهم فى دينهم ودنياهم بمختلف الأسباب، ومن بينها الدعاء .

---

(١) رواه البخارى ، فى كتاب القدر ، باب من تَعَوَّذَ من دَرَكِ الشَّقَاءِ ، وفى الدعوات ، باب التعوذ من جَهْدِ البلاءِ .

فإذا أوصانا الرسول – ﷺ – بهذه الوصية ، أو بما يماثلها ، وجب علينا أن نضع فى اعتبارنا ما قد ذكرناه ، ولا نكون كالذين يتقاعسون عن المعالى ، ويَتَخَلَّفُونَ عن طلب المعاش بأسبابه المعروفة ، ويعتكفون فى المساجد والخلوات ، ويقولون : اللهم ، ارزقنا . وقد علموا أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ، والذين لا يأخذون حذرهم مما ينبغى أن يحذروه ، ولا يطلبون الشفاء من الأمراض بالأدوية التى يصفها الأطباء .

نعم ، لا ينبغى أن نكون مِثْلَهُم فى التواكل ؛ لأن فى التواكل تعطيل للأسباب التى أمرنا الله أن نأخذ بها فى جميع شئوننا الدينية والدنيوية .

وقد مَرَّ بنا بيان ذلك عند حديث : «لا عدوى ولا طيرة ، ولا هامة ، ولا صفر ، وفر من المجذوم كما تَفِرُّ من الأسد» فارجع إليه ؛ فإن فى شرحه كلاماً نفيساً .

* * *

والآن نلقى الضوء على هذا الحديث ، وهو – كما ترى – واضحٌ لا يحتاج منا إلاَّ إلى وقفة قصيرة ندرك من خلالها عظمة هذا الدعاء فى نفوس المؤمنين وحلاوته التى يجدونها فى قلوبهم عندما يلهجون به ، فنقول :

«جهد البلاء» : عسره ومشقته وقسوته ، وعدم القوة على احتماله ، وفقدان الحيلة فى الخروج عنه والتخلص منه ، وضيق الصدر عند مواجهته ، والعجز عن إدراك ما معه من المِنَحِ وما بعده من الثواب على تَحَمُّله ؛ فإن البلاء هو الامتحان ، والامتحان يكون بالخير والشر ، كما قال – جل شأنه – : ﴿كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنةً وإلينا تُرجعون﴾ (1) .

فقد يكون الغنى بلاءً على صاحبه ، يشقى به طول حياته ، ولا يستمتع بشىءٍ منه ، ولا يعمل فيه بما يرضى الله – عز وجل – ، فيشقى به فى الآخرة كما يشقى به فى الدنيا ، ويُسْأَل يوم القيامة عنه – من أين جمعه وفيم أنفقه – ، ومن نوقش الحساب هلك ، فلا يَحْسُدَنَّ أحدٌ غَنيًا على غناه إذن ، بل يرثى

---

(1) الأنبياء : 35 .

لحاله ، ويدعو له بالخلاص من شر ماله ، وقد يكون الفقر شراً وبيلاً على صاحبه ؛ إذ يجلب عليه كثيراً من المصائب التى قد لا يكون قادراً على مواجهتها فضلاً عن تَحَمُّلِهَا .

وقد يكون العكس ، بأن يكون الغنى خيراً لصاحبه «ونعم المال الصالح مع الرجل الصالح» كما جاء فى الأثر.

وقد يكون الفقر خيراً لصاحبه ، وَمَنْ يدرى ! ، فرب محنة أعقبت منحة .

وعلى المسلم أن يَتَلَقَّى البلاء بالرضاء ؛ حتى يَسْهُلَ عليه تَلَقِّيهِ وتخطِّيه والانتفاع منه على نحو من الأنحاء ؛ فإن العاقل من يستلهم الدروس المفيدة من المحن والبلايا ، فيحرص على ما ينفعه ، ويتخذ الأسباب الكفيلة برد الشر عنه وجلب الخير إليه بما اكتسبه من التجارب والمعايشة ، مستعيناً فى ذلك بالدعاء ، فهو تاج يُتَوِّجُ المرء به عمله ، ويُقَدِّمُهُ بين يَدَى عمله - أيضاً - لتقوية ظهره على تَحَمُّل الصعاب فى تحقيق الآمال وبلوغ السُّؤْلِ .

فالرضا أولاً ، والتَّعَقُّل ثانياً ، والعمل ثالثاً ، ثم الدعاء فى أول الأمر وآخره .

إذا لم يكن من الله عونٌ للفتى   فأول ما يجنى عليه اجتهادُهُ

فالرضا ركن من أركان الإيمان ، والتعقل رأس الحكمة ، والعمل عبادة ، والدعاء مُخُّهَا .

واعلم أن البلاء والدعاء يَعْتَلِجَانِ ، فالبلاء نازل ، والدعاء صاعد ، والصاعد إلى الله يمحو - بإذنه - النازل على عبده ؛ فالدعاء وسيلة من الوسائل التى ترفع البلاء أو تُخَفِّفُهُ .

والدعاء لا يرد القدر ، ولكنه يجعل المقدور محتملاً ، يصيب الإنسان حتماً ، ولكن الله بفضل دعائه يخففه عنه ، حتى يكون عليه بَرْداً وسلاماً .

والله لطيف بعباده ، وهو أرحم بهم من أنفسهم على أنفسهم .

* * *

وقوله – ﷺ – : « ودَرَك الشقاء » هو بفتح الراء وسكونها ، ومعناه : لحوق الشقاء بالعبد فى الدنيا أو فى الآخرة أو فيهما معاً .

والشقاء : ضد السعادة ، وهو نوعان : شقاءٌ حِسِّىٌّ ، وشقاء معنوى .

وإن شئت قلت : شقاء ظاهر ، وشقاء باطن .

أما السعادة فنوع واحد ، هى شعور المرء بطمأنينة القلب ورضا النفس ، وهذا لا يتأتى إلا بذكر الله والإيمان بقضائه وقدره .

﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ (١) .

والعبد حين يتعوذ بالله من « درك الشقاء » ينبغى أن يجمع هِمَّتَه على تلافى كل ما يؤدى إليه من المعاصى والمخالفات .

ترجو النجاة ولم تَسْلُك مَسَالِكَها

إن السفينة لا تجرى على اليَبَسِ

فالدعاء – كما قلنا – ليس هو كل الأسباب المحققة للرجاء ، ولكنه واحد منها ، أو هو فى الطريق إليها .

وبين البلاء والشقاء عموم وخصوص ، فكل شقاء بلاء ، وليس كل بلاء شقاء .

فقد يبتلى المرء بمحنة فيصبر ويشكر ، فتنقلب المحنة منحة .

﴿وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾ (٢) .

* * *

وأما « سوء القضاء » فالمراد به المَقْضِىّ ، أى الفعل الواقع على الإنسان ، وليس المراد القضاء بمعنى الحكم ؛ فقضاء الله عَدْلٌ لا ظلم فيه ، وخيرٌ لا شر فيه ؛ فالشر مضاف إلى من وقع عليه القضاء لا إلى القضاء نفسه ، فليعلم العبد ذلك

---

(١) الرعد : ٢٨ . (٢) البقرة : ١٥٥ – ١٥٧ .

فيحسن الأدب مع الله فى الدعاء ؛ فإن الله – عز وجل – يقضى لعبده بقضاء يرى العبد أنه شر عليه وهو عين الخير له ؛ وذلك لأن عقله قاصر ونظره محدود . ولو علم العبد الغيب لرضي بالواقع واختار ما اختاره الله له .

وقد مَرّ بنا فى الأحاديث السابقة كثير من آداب الدعاء فتتبعه فيها هنا وهناك ، وبالله توفيقك .

وأضرب لك هنا مثالاً لبيان الفرق بين القضاء والمقضى فأقول :

حكم طبيب ماهر أن فلاناً من الناس ينبغى أن تجرى له عملية جراحية فوراً؛ للقضاء على مرض عضال ، وأَقَرَّهُ على ذلك جمع من الأطباء ، فهذا التقرير الطبى قضاء عادل ، وحكم صحيح ، وضرورة لابد منها ، وهو خيرٌ للمريض ، ولكن المريض وهو المقضى عليه سيجد فى إجراء العملية آلاماً شديدة ، وهذه الآلام فى ذاتها شر على المقضى عليه ، ولكنها فى الواقع خيرٌ له ، فهل يقال بعد ذلك : إن فى القضاء شرًّا .

ولذلك لا أرضى لمن يقنت فى صلاته أن يقول : « وأعوذ بك من شر ما قضيت » إلا إذا أراد بالقضاء المَقْضِيّ – كما ذكرت .

ولما كان أكثر الناس لا يفقه هذا المعنى ، كان من الأَوْلَى ألا يدعو بذلك إلاّ فى خاصة نفسه ؛ لأنه مسئول عمن وراءه ، فلا ينبغى أن يَدْعُوَ إلا بما يعرفون ، وإلا عَرَّضَهُم لسوء الأدب مع الله جل شأنه وعز جاهه .

* * *

وأما « شماتة الأعداء » ، فإنها شَرٌّ فى الظاهر يلحق بالبلاء ، ولكنه نوع يلحظ العبد انفصاله أحياناً عنه ، ويَعُدُّه شَرًّا مُسْتَقلاً ، فيكون ذكره فى الدعاء حينئذ من باب الاستطراد والإطناب ، وهو أمر محمود فى الدعاء .

وذكر شُرَّاحُ الحديث أن سفيان الثورى – رحمه الله – قد روى هذا الحديث ، وأخرجه عنه البخارى ، وصرح رحمه الله أنه زاد واحدة ، ورجح كثير منهم أنها هى : « شماتة الأعداء » .

وهذه الرواية رواها البخارى فى كتاب الدعوات عن أبى هريرة – أيضاً –

بلفظ : « كان رسول الله – ﷺ – يَتَعَوَّذ من جهد البلاء ، وَدَرَك الشقاء ، وسوء القضاء ، وشماتة الأعداء ، قال سفيان : الحديث ثلاث زِدْتُ أنا واحدة لا أدرى أَيَّتُهُنَّ هى » .

وشماتة الأعداء معناها : فَرحُهم بما يصيبه من شر وما يلقاه من عسر وحرج، وهو أمر يغيظ المصاب ويقلقه ، فيزيده بلاءً على بلائه وشقاءً على شقائه .

نسأل الله السلامة والعافية .

* * *

(٩٥) ذَاك شيطان فتعوذ بالله منه

عن أبى العلاء ، أنَّ عثمان بنَ أبى العاص أتَى النبى - ﷺ - فقال : يارسول الله ، إنَّ الشَّيْطَانَ قد حَالَ بَيْنى وبَيْنَ صَلاَتى وقِراءَتى ، يَلْبِسُهَا عَلَىَّ ، فقال رسول الله - ﷺ - :

«ذَاكَ شَيْطَانٌ يقالُ له : خِنْزَبٌ ، فإذا أحْسَسْتَهُ ، فَتَعَوَّذْ بالله منه ، وَاتْفُلْ عَلَى يَسَارِكَ ثَلاَثاً» .

قال : فَفَعَلْتُ ذلك فَأَذْهَبَهُ الله عنى [١] .

* * *

كان أصحاب النبى -ﷺ - يعرفون كيد الشيطان حق المعرفة ويحذرونه على أنفسهم أشد الحذر ويستعيذون بالله منه فى جميع أوقاتهم كما أوصاهم ربهم - عز وجل - ونبيهم ﷺ ، ولكن مع ذلك كان يجد بعضهم منه لمماً فى صلاته وفى غيرها من العبادات ، فلا يستطيع دفع وساوسه وهواجسه بسهولة، فيأتى إلى طبيب الأطباء محمد - ﷺ - ليصف له الدواء الناجع لهذا الداء حتى لا يستفحل خطره فيعوقه عن اغتنام الأوقات فى الذكر والتسبيح وقراءة القرآن وقيام الليل وما إلى ذلك من العبادات وأنواع الطاعات .

وعثمان بن أبى العاص واحد من أولئك الذين كانوا يعانون من هذه الوساس الشيطانية التى تقطع عليهم صلاتهم وتشغل قلوبهم عن الخشوع فيها .

إنه يجىء إلى النبى - ﷺ - يشكو إليه ما يجد فى صلاته وقراءته من التلبيس والتدليس وإلقاء الشبهات كما هو شأن الشيطان مع من بدأ السير إلى الله بخطوات واسعة وقلب منيب ، فيوصيه الرسول - ﷺ - بهذه الوصية ، وهى وحى من الله تعالى لا يشك فى نفعها مؤمن .

فيقول له : «ذاك شيطان يقال له خِنْزِب» بكسر الخاء والزاى وفتحهما

---

(١) رواه مسلم ، فى كتاب السلام ، باب التعوذ من شيطان الوسوسة فى الصلاة ، حديث رقم : ٢٢٠٣ .

عرفه باسـمه حتى يضعه فى اعتبـاره حـين يأتيه ، فيكون أشـد حرصاً على التوقى من شره .

قال عليه الصلاة والسلام : «فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه» .

أى إذا شعرت بإنه قد وسوس لك بشىء من أمور الدنيا ليشغلك عن صلاتك وقراءتك فاستغث بالله عز وجل واعتصم به ، فإنه يعيذك منه ويجيرك من شره .

قال عليه الصلاة والسلام : «واتفل على يسارك ثلاثاً» قال عثمان بن أبى العاص : ففعلت ذلك فأذهبه الله عنى . أى كررت ذلك الفعل ، فتعوذت بالله كلما خطر لى وتفلت على يسارى ثلاثاً ، هذا هو معناه ؛ إذ لا يكفى التعوذ منه مرة واحدة ؛ فالشيطان لا يزال يوسوس لابن آدم حتى يلبس عليه دينه ، ويقطع عليه الطريق إلى الله عز وجل ، فإما أن يستحوذ عليه فينسيه ذكر الله فيكون من حزبه، وإما أن يستطيع المسلم الفرار منه إلى الله عز وجل فينجو من شره فيكون من حزب الله ، جعلنا الله وإياكم من حزبه تبارك وتعالى .

ولا يستطيع العبد أن يتخلص من الشيطان إلا إذا اعتصم بالله واحتمى بحماه وأكثر من ذكره فى جميع أوقاته وأحواله .

ومن الذكر التعوذ بالله عز وجل .

ولذلك يحاول الشيطان جاهداً أن يصد الناس عن ذكر الله حتى يملك قلوبهم فيصنع بها ما يشاء . قال تعالى : ﴿استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون﴾ (١) .

أى الخاسرون فى الدنيا والآخرة ، لأن ذكر الله فى الدنيا نعيم لا يعدله نعيم وهو نعيم موصول بالآخرة ومرتبط بنعيم الجنة ، بل إن أهل الجنة ينعمون بذكر الله أعظم مما يجدونه فيها من ألوان النعيم الأخرى .

* * *

---

(١) المجادلة : ١٩ .

فإن قال قائل : لماذا يتفل على يساره ثلاثاً، وهل ذلك يجوز فى الصلاة ؟

أقول : فى التفل على اليسار فوائد ثلاثة :

الأولى : إخزاء الشيطان وهو من أهل الشمال ، فإذا تفل المسلم على شماله عند شعوره بوسوسة الشيطان فقد صده عن قلبه ، وطرده شر طردة فى ذلة وهوان.

ويفعل ذلك ثلاثاً مبالغة فى إذلاله ودحره .

الثانية : طرد ما ألقاه الشيطان فى قلبه من الوساوس فإن من كره شيئاً تفله ومجه حتى ولو كان شيئاً معنوياً .

وكان العرب إذا كرهوا شيئاً قالوا : أف تف .

الثالثة : أن التفل دواء ناجع لهذا الداء العضال أجراه الله تعالى على لسان نبيه ، فمن أخذه بثقة شفاه الله وعافاه وعصمه منه حتى يلقاه .

* * *

(٩٦) لا تُصَاحِبْ إلا مُؤْمناً

عن أبى سعيد الخُدْرِىّ – رضى الله عَنه – أن النبىَ – ﷺ – قال :
«لا تُصَاحِبْ إلاَّ مُؤْمِناً ، ولا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إلاَّ تَقِىٌّ» (١) .

* * *

مصاحبة الأخيار لا تأتى إلاّ بخير ، وإن بدا لبعضِ الناس أن فى طريقها بعض ما لا يرضى عنه الصاحب من صاحبه ، فذلك غبارٌ على الطريق ، لا يعبأ المرء به ، وقد لا يشعر بوجوده ، فمن أين يأتى الشر وهم أخيار .

إن كل إناءٍ ينضح بما فيه ، وكلٌّ ينفق مما عنده ؛ لذا أمر النبى – ﷺ – المؤمن أن يصحب مؤمناً مثله ، وحذره من صحبة الأشرار ؛ لئلا يصيبه ما أصابهم .

وقد قال الله – عز وجل – : ﴿واتقوا فتنة لا تُصِيبَنَّ الذين ظلموا منكم خاصةً واعلموا أن الله شديد العقاب﴾ (٢) .

وقد قال – جل شأنه – : ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون﴾ (٣) .

وقوله – ﷺ – : «لا تصاحبْ إلاّ مؤمناً» فيه أمر بشىء ونهى عن شىء آخر، كما يقتضيه أسلوب الحصر، فقد أمره أن يحصر صحبته فى المؤمنين، والأمر بالشىء يقتضى النهى عن ضده، كما يقول علماء الأصول، وهو صحبة الأشرار.

وهذا ما يليق بالمؤمن ؛ لأنه عنصر طيب ، ومعدن طاهر ، يحمل بين جنبيه قلباً سليماً ، خالياً من كل ما يُعَكِّرُ صفو الإيمان ، فكيف يأتلف مع رجل هو على النقيض من ذلك تماماً ، وكيف يقع التوافق بينهما ، وهما متضادان فى المزاج والروح والخُلُق .

---

(١) رواه أبو داود ، فى كتاب الأدب ، باب من يؤمر أن يجالس ، حديث رقم ٤٨٣٢ .

(٢) الأنفال : ٢٥ .   (٣) هود : ١١٣ .

والمؤمن – كما قال الرسول – ﷺ – : « آلف مألوف ولا خير فيمن لا يؤلف ولا يألف » [1] .

فكيف يألف من لا يعرف إلا الخير من لا يعرف إلا الشر .

وقال رسول الله – ﷺ – : «الأَرْوَاحُ جنودٌ مُجَنَّدَةٌ ، فما تعارفَ منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » [2] .

وأرواح المؤمنين مؤتلفة منذ خلقها الله فى عالم الأرواح قبل أن ينفخها فى عالم الأشباح ، فإذا التقت تعارفت وائتلفت .

وأرواح الأشرار مختلفة غير مؤتلفة ، إذا التقت تنافرت وتناكرت وتلاعنت، وإن بدا لغير المتأمل أنها ليست كذلك ؛ لما يرى من التعاون الموقوت، والحب المزيف ، والتلاقى المشبوه .

قال تعالى : ﴿ تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ﴾ [3] .

وقل جل شأنه : ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عَدُوٌّ إلا المتقين ﴾ [4] .

وقال سبحانه : ﴿ ثم يومَ القيامة يَكْفُرُ بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار ومالكم من ناصرين ﴾ [5] .

ويفهم من قوله – ﷺ – : «لا تُصَاحِبْ إلاّ مؤمناً» النهى عن الملازمة والمخالطة ، لا عن التعامل الموقوت ؛ فإنه ضرورة من ضرورات الحياة ، فلا بأس أن يتعامل المسلم مع الكافر معاملة مبنية على البر والعدل ، ما دام هذا الكافر لا يقاتلنا ولا يعين على قتالنا .

فمعاملتنا له مهما تكررت لا تسمى صحبة ؛ لأن الصحبة – كما أشرت – تعنى : الملازمة والمخالطة ، وحسن المعاشرة ، والتآخى المبنى على الإيمان ، فالصحبة المأمور بها فى هذا الحديث هى المحبة الروحية ، والأخوة الإيمانية ، والمناصرة فى الحق على أهل الباطل .

---

(١) رواه القضاعى والعسكرى عن جابر مرفوعاً ، كما قال الطحاوى فى المقاصد الحسنة . ورواه أحمد بنحوه رقم ٩١٧١ ، ٢٢٧٣٨ .

(٢) رواه أبو داود، فى كتاب الأدب، باب من يؤمر أن نجالس رقم ٤٨٣٤ عن أبى هريرة.

(٣) الحشر : من الآية ١٤ . (٤) الزخرف : ٦٧ . (٥) العنكبوت : ٢٥ .

أما هذا النوع من المعاملة فلا ينهى عنه الإسلام ، بل يأمر به ويدعو إليه .

قال تعالى : ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخركوجم من دياركم أن تَبرُّوهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تَوَلَّوْهُمْ ومن يتولَّهم فأولئك هم الظالمون﴾ (١) .

وقد ذكرت فى حديث سابق : أن الأخوة الإيمانية تقوم على العدل والفضل ، والحلم والعفو ، والمعروف والحب والتفاهم ، والإخلاص والتقوى ، ولا يتوفر ذلك كله إلا للمؤمن .

وهذه الأخوة الإيمانية تتفاوت من شخص لآخر بحسب التفاوت فى قوة الإيمان وضعفه .

والمؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير ، كما جاء فى الحديث الصحيح .

فكلما ازداد إيمان العبد ازداد حبه لأخيه ؛ وذلك لأن الإيمان القوى يُزَهِّد صاحبه فى الدنيا ، وبالزهد تزول المنغصات بين الأخ وأخيه ، وتذوب الفوارق ، وتتلاشى أسباب الفرقة والنُّفرة ، وتتباعد أشباح الأثرة ، ويحل مَحَلَّهَا الحب والإيثار .

وقد قَسَّمَ أهل العلم والمعرفة الأخوة الإيمانية إلى ثلاث مراتب :

أدناها – كما ذكر الغزالى فى الإحياء – : أن تعطى أخاك ما هو فى حاجة إليه دون أن يسألك ، فإن حملته على سؤالك فلست من أهل هذه المرتبة ؛ لأنك لم تتحسس أخباره وتتعرف أحواله ، وكان ينبغى عليك ذلك ، ولأنك أحرجته بسؤالك ، وما كان ينبغى عليك أن تنتظر حتى يسألك إذا عرفت حاله .

ولن يخلصك شىء من هذه المنقصة إلا أن تعتذر إليه، وتقضى له حاجته، وتعطيه من رفدك أكثر مما طلب ؛ تكفيراً عن قصورك وتقصيرك نحوه .

وأوسط المراتب: أن تخلط مالك بمال أخيك، فلا تسأل كم أخذ ولِمَ أخذ.

وأعلاها : أن تؤثر أخاك على نفسك بما أنت فى مسيس الحاجة إليه .

---

(١) الممتحنة : ٨ – ٩ .

فأين نحن – بالله عليكم – من المرتبة الأولى ، فضلاً عن الثانية والثالثة .

ثم أين نحن من هؤلاء الذين بلغوا هذه المنزلة من المهاجرين والأنصار ، الذين قال الله فيهم : ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ [1] أى فقر وحاجة .

وهذا الثناء ليس للأنصار وحدهم – كما يتبادر إلى فهم غير المتأمل من الآية – فهو وصف لهم غير مانع من دخول غيرهم فيه ، كما يفهم من كتب الأصول وكتب البلاغة ، وإنما وصفوا بذلك ليكون هذا الوصف عَلَماً عليهم ، ومفتاحاً لشخصيتهم فى مقابل ما وصف به المهاجرون ، والكل يلتقى على تلك الفضائل التى ذكرناها .

فالعدل ميزان صدق بين الناس جميعاً ، وهذا الميزان يقوم على الحقوق المتبادلة ، فإذا أخذ كل ذى حق حقه لم يكن هناك بين الناس تنافر ، والعدل أساس المُلْكِ كما يقولون .

قال العقاد – رحمه الله – فى كتابه «الفلسفة القرآنية» : ميزان العدل فى الإسلام أن يعطى المرء من الحقوق مثل ما عليه من الواجبات .

واستدل على ذلك بقول الله تعالى : ﴿ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف﴾ [2] .

أى لهن من الحقوق مثل ما عليهن من الواجبات ، والفضل ليس فوق العدل، ولكنه نابع منه وراجع إليه .

وهو يتمثل فى الإيثار ، بمعنى : أن المرء يتغاضى عن حقه أو عن بعض حقه فى سبيل إرضاء صاحبه وكسب ثقته وطلب راحته ، وهذا غالباً ما يكون بين الزوج وزوجته ، وبين الصديق وصديقه ، فإنه يُوَثِّقُ العلاقات ويقوى الترابط الأسرى والاجتماعى بين الناس جميعاً على وجه العموم ، وبين المؤمنين على وجه الخصوص ، وبين الأسر على وجه الأخص .

---

(١) الحشر : ٩ .

(٢) البقرة : ٢٢٨ .

قال تعالى : ﴿ ولا تنسَوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصيرٌ ﴾ [١] .

والحلم أحسن ما يتعامل به الناس فيما بينهم ، فهو سيد الأخلاق – كما يقولون – به تذهب الشحناء ، وينفضّ التنازع ، ويزول الشقاق ، ويحُلُّ الوفاق .

وبالعفو تطمئن النفوس ، وتستريح الضمائر ، ويعود الناس إلى فطرتهم ، فيحكمون عقولهم فيما وقع ، فيعملون على تلاشى الأخطاء وتدارك ما قد يترتب على ما وقع من مضار .

وإذا احتكم الناس إلى العرف ، قَل أن يخطئوا ما دام موافقاً للشرع .

قال تعالى : ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ [٢] .

والحب مِنَّة من الله – تبارك وتعالى – يمن بها على الأخيار من عباده ؛ إذ لا قدرة لأحد منهم على تحصيله .

قال تعالى : ﴿ لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم ﴾ [٣] .

وإما الإخلاص فعليه المُعَوَّل فى جميع الأمور ، وهو الدين كله ، فإذا توفر بين الأصدقاء ، توفرت لديهم جميع أصول الصداقة والمحبة .

وأما التقوى فهى البلسم الشافى من جميع الأدواء والعلل ، فإذا بنيت الصحبة على التقوى ، فهى المُبْتَغَى والمنتهى .

قالت عائشة – رضى الله عنها – : لله دَرُّ التقوى ، ما تركت لذى غيظ شفاءً .

* * *

هذا ، وقد شرط الإمام الغزالى فيمن تؤثر صحبته خمس خصال على الجملة وهى : أن يكون عاقلاً ، حسن الخلق ، غير فاسق ، ولا مبتدع ، ولا حريص على الدنيا .

---

(١) البقرة : ٢٣٧ .　　(٢) الأعراف : ١٩٩ .

(٣) الأنفال : ٦٣ .

أما العقل : فهو رأس المال ، وهو الأصل ، فلا خير فى صحبة الأحمق ، فإلى الوحشة والقطيعة ترجع عاقبتها وإن طالت .

قال عَلِىٌّ – رضى الله عنه – :

فلا تَصْحَبْ أَخَا الجَهْلِ   وَإِيَّاكَ وَإِيَّاهُ
فَكَمْ من جاهلٍ أردَى   حَليماً حين آخاهُ
يقاسُ المرء بالمرءِ   إذا ما المرءُ ماشاهُ
وللشيءِ مِنَ الشيء   مقاييسٌ وأشباهُ
وللقلب على القلبِ   دليلٌ حين يلقاهُ

كيف والأحمق قد يضرك وهو يريد نفعك وإعانتك من حيث لا يدرى ، ولذلك قال الشاعر :

إنى لآمنُ مِنْ عَدُوٌّ عاقلٍ   وأخافُ خِلاًّ يعتريه جُنُونُ
فالعقلُ فنٌّ واحدٌ وطريقه   أدْرِى فأرصِدُ والجنونُ فنونُ

وأما حسن الخُلُق فلا بد منه ؛ إذ رب عاقل يدرك الأشياء على ما هى عليه ولكن إذا غلبه غضب أو شهوة أو بخل أو جبن أطاع هواه وخالف ما هو المعلوم عنده؛ لعجزه عن قهر صفاته وتقويم أخلاقه ، فلا خير فى صحبته .

وأما الفاسق المصر على الفسق فلا فائدة فى صحبته ؛ لأن من يخاف الله لا يُصِرُّ على كبيرة ، ومن لا يخاف الله لا تؤمن غائلته ولا يوثق بصداقته ، بل يتغير بتغير الأغراض .

قال تعالى : ﴿ولا تُطِع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتَّبَعَ هواه وكان أمره فُرُطاً﴾ (١) .

وقال – جل شأنه – : ﴿فلا يصدنَّك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردَى﴾ (٢) .

---

(١) الكهف : ٢٨ .   (٢) طه : ١٦ .

وقال جل وعلا : ﴿فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يُرد إلاّ الحياة الدنيا﴾ (١) .

وقال تبارك اسمه : ﴿واتبع سبيل من إناب إلىّ﴾ (٢) .

وأما المبتدع ففى صحبته خطر سراية البدعة وتعدّى شؤمها إليه ، فالمبتدع مستحق للهجر والمقاطعة فكيف تؤثر صحبته ؟

وقد قال عمر – رضى الله عنه – فى الحث على طلب التدين فى الصديق فيما رواه سعيد بن المسيب ، قال : «عليك بإخوان الصدق تَعِشْ فى أكنافهم ؛ فإنهم زينة فى الرخاء ، وعدة فى البلاء ، وضع أمر أخيك على أحسنه حتى يجيئك ما يغلبك منه ، واعتزل عدوّك ، واحذر صديقك ، إلا الأمين من القوم ، ولا أمين إلا من خشى الله . فلا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره ، ولا تطلعه على سرك ، واستشر فى أمرك الذين يخشون الله تعالى» .

وأما حسن الخلق فقد جمعه علقمة العطاردى فى وصيته لابنه حين حضرته الوفاة قال : يابنى ، إذا عرضت لك إلى صحبة الرجال حاجة ، فاصحب من إذا خدمته صانك ، وإن صحبته زانك ، وإن قعدت بك مؤنة مانك .

اصحب من إذا مددت يدك بخير مَدَّهَا ، وإن رأى منك حسنة عَدَّها ، وإن رأى سيئة سَدَّها .

اصحب من إذا سألته أعطاك ، وإن سكت ابتداك ، وإن نزلت بك نازلة واساك .

اصحب من إذا قلت صدَّق قولك ، وإن حاولتما أمراً أمَّرَك ، وإن تنازعتما آثرك .

فكأنه جمع بهذا جميع حقوق الصحبة ، وشرط أن يكون قائماً بجميعها .

قال ابن أكثم : قال المأمون : فأين هذا ؟ فقيل له : أتدرى لِمَ أوصاه بذلك؟ قال: لا . قال : لأنه أراد أن لا يصحب أحداً .

---

(١) النجم : ٢٩ .　　(٢) لقمان : ١٥ .

وقال بعض الأدباء : لا تصحب من الناس إلا من يكتم سِرَّك ، ويستر عيبك فيكون معك في النوائب ، ويؤثرك بالرغائب، وينشر حسنتك ، ويطوى سيئتك، فإن لم تجده ، فلا تصاحب إلا نفسك .

وقد سبق قول على – رضى الله عنه – :

إن أخاك الحق من كان معك   ومَنْ يضرُّ نفسه لينفعكْ
ومَنْ إذا رَيْبُ الزمان صَدَّعَكْ   شتّتَ فيه شمله ليجمعكْ

ومعذرة إن كنا قد أطلنا فى الكلام عن اختيار الأصدقاء ؛ فإن المقام اقتضى هذا التطويل ، وسنخرج فيه بعون الله تعالى كتاباً ، ينتفع الناس به فى هذا البـاب .

* * *

وبقيت لنا فى هذه الوصية بقية ، وهى قوله – ﷺ – : « ولا يأكل طعامك إلاّ تقى » فنقول فى شرحها : إن مراده – ﷺ – بهذا النهى أن يَخُصَّ بطعامه من ينتفع به فى طاعة الله – عز وجل – ، ويتقوى به على العبادة ، ويستغنى به عن سؤال الناس ، فإن التقى يحبه الله ، فإذا خصَّهُ المؤمن بطعامه ، أحبه الله بإكرامه لمن أحبه وأكرمه .

ثم إن التقى إذا أكل طعامه دعا له بخير ، وهو مستجاب الدعوة ؛ بسبب زهده وتقواه ، وربما ينال بدعوته خيرى الدنيا والآخرة .

وقد ذكر الإمام الغزالى فى كتاب الزكاة من إحياء علوم الدين : أن رجلاً كان يخص بطعامه من كانت همتهم فى طاعة الله دون غيرهم من الفقراء ، فسئل فى ذلك فقال : هؤلاء هِمَمُهم لله سبحانه ، فإذا طرقتهم فاقة تشتت هم أحدهم، فلأن أرد هِمَّة واحدٍ إلَى الله – عز وجل – أحبّ إلىّ من أن أعطى ألفاً ممن هِمَّتُهُ الدنيا .

فذكر هذا الكلام للجنيد فاستحسنه ، وقال : هذا ولى من أولياء الله تعالى، وقال : ما سمعت منذ زمان كلاماً أحسن من هذا .

وهذا النهى ليس على عمومه ، وإنما هو من قبيل النصح والإرشاد والتوجيه إلى الأفضل .

والتوجيه إلى الأفضل لا يمنع من العمل الفاضل ، لاسيما إذا قضت الضرورة بذلك ، كأن يكون غير التقى ممن تجب عليه نفقته ، أو ممن ينبغى إيثاره على غيره لقرابته ، أو يكون ممن يطمع فى هدايته ، أو كان كافراً يطمع فى إسلامه ، أو ما أشبه ذلك .

صحيح أن أسلوب الحصر يوهم بوجوب تخصيص التقى بالطعام دون غيره ، ولكنه بعد التأمل لا يفيد هذا التخصيص على وجه الخصوص ، وإنما يدل على اختيار الأفضل .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

(٩٧) الرجل على دين خليله

عن أبى هريرة – رضي الله عنه – أن النبى – ﷺ – قال :

« الرَّجُلُ على دين خَلِيلِه ، فَلْيَنْظُرْ أحدكم من يُخَالِلُ » (١) .

*　　*　　*

هذه الوصية حكمة بالغة ، ونصح رشيد ، وقاعدة من أهم القواعد التى تبنى عليها العلاقات الشخصية والصلات الاجتماعية ، وهى – كما ترى – قليلة الألفاظ ، حافلة بالمعانى الإنسانية ، التى يدركها العقل السليم ويرتضيها ، ولا يشك فى نفعها وبُعْدِ أغوارها فى أعماق الخير وأجواء التعاون البناء فى ظل الخُلُق الفاضل والسلوك النبيل .

وهذه الوصية إنما ينتفع بها من مَلَكَ عقلاً مدركاً لأبعاد الأمور وعواقبها ، وقلباً نَقِيًّا ، يرى بنور الله ما لا يراه الناظرون بأبصارهم .

إنها وصية أصقلتها التجارب ، وأوحت بها العبقرية المحمدية على هذا النحو ، الذى يُعَدّ من جوامع كلمه – ﷺ – .

وإن شئت قلت : إنها وحى من السماء ، أجراه الله على لسانه الذى تَعَطَّرَ بعطره الأنام .

وهذه الوصية – كما ترى أيها القارئ الكريم – مؤلفة من جملتين – إحداهما خبرية ، والأخرى طلبية ، مبنية عليها ، مستمدة منها ، مقرونة بها بالفاء الواقعة فى جواب شرط مقدَّر ، فكأنه قيل : الرجل على دين خليله ، فمن عرف ذلك وأيقن به فليختر بالنظر الدقيق مَنْ يصحبه ويماشيه .

*　　*　　*

وبعد هذه المقدمة نشرع فى بيان ما اشتمله هذا الحديث من اللطائف والحكم ، والعظات والعِبر فنقول :

---

(١) رواه الترمذى فى كتاب الزهد ، باب ٤٥ ، وقال : حديث حسن صحيح ، ورواه أبو داود كتاب الأدب ، باب من يؤمر أن يجالس ، رقم ٤٨٣٣ .

« الرجل » فى الحديث لفظ بمعنى : المرء ، فيشمل بعمومه الذكر والأنثى .

وفى رواية : «المرء على دين خليله» . والمعنى واحد ، ولكن لفظ الرجل أبلغ بالنسبة لهذه الوصية ؛ فإن الرجل من اتصف بالرجولة والفحولة .

والرجولة : قوة جسمية وعقلية ، وشجاعة أدبية ، وشهامة ومروءة إنسانية ، وسلوك معتدل ، وتجاوب وجدانىٌّ مع الناس ، واتجاه حميد فى معالجة الأمور على ضوء ما جاءت به شريعة الإسلام ، يفهم هذا كله وما فى معناه من قوله تعالى فى الثناء على عمّار بيوته :

﴿رجالٌ لا تلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكرِ اللهِ وإقامِ الصلاةِ وإيتاءِ الزكاةِ يخافون يوماً تتقلبُ فيه القلوب والأبصار﴾ (١) .

ومن قوله تعالى فى الثناء على المجاهدين فى سبيله : ﴿من المؤمنين رجال صَدَقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلاً﴾ (٢) .

وقوله – ﷺ – : «على دين خليله» معناه : أنه يتأثر بأحواله وأقواله وأفعاله ، حتى يجد نفسه قد سلك مسلكه باختياره تارة ومن غير شعور تارة أخرى ، وربما صار نسخة منه فى العادات والمعاملات ، كما يوحى به الحرف « عَلَى » ، فهو هنا للتَّمَكُّن والاستعلاء .

فإذا صحب الرجل رجلاً مدَّةً طويلة وكان أقل منه عقلاً وعلماً وخبرة تَمَكَّنَ من خُلُق صاحبه ، وتمكن خلق صاحبه منه ، واستعلى كل منهما على الآخر متى كان أقوى منه مَادِّيًّا ومعنوياً .

ونستطيع أن نقول : إن المُؤَثِّر منهما استعلى على صاحبه ، فأسره بقوة التأثير ، فكان معه إِمَّعة ، يأتمر بأمره وينتهى بنهيه ، ويمشى معه كما يمشى الخادم خلف مخدومه .

والمُتَأَثِّرُ يسير على نهجه ، فيستعلى بهذا التقليد – فى زعمه – على أقرانه

---

(١) سورة النور : ٣٧ .
(٢) سورة الأحزاب : ٢٣ .

فيقول فى نفسه أو يُصَرِّحُ لهم : أنه بصحبته لفلان صار أرفع منهم شأناً وأعلى منهم منزلة وأقدر على تحقيق المآرب منهم ، إلى آخر ما هنالك من الدعاوى .

وقد تكون صحبته لفلان هذا وبالاً عليه فى الدنيا والآخرة .

وقد جرت العادة أن قرين السوء يكون فى الغالب أشد تأثيراً على قرينه الصالح ؛ لأن الشيطان مع قرين السوء دائماً ، بالإضافة إلى ما يملكه قرين السوء من المغريات والمفسدات .

فالشاب الذى يصحب من يشرب الدخان سرعان ما يحاكيه فى ذلك ، بينما لا يستطيع المقلع عن شرب الدخان أن يحمله على تركه .

وهكذا قل فى كل قرين معه شيطانه ومغرياته يقترن بآخر سليم القلب حسن الخُلُق ، لا خبرة له بمواطن الشر ومكامنها .ولذا قال الحكماء : من جالس العلماء وُقِّر ، ومن جالس السفهاء حُقِّر .

وقال أبو العتاهية :

اخترْ صديقَكَ واصْطَفيه تَفَاخُراً ... إن القرينَ إلى المُقَارَن يُنْسَبُ
واحذَرْ مُصَاحَبَةَ اللئيم فإنَّه ... يُعْدِى كما يُعْدى الصحيحَ الأجربُ

وقال آخر :

إذا كنت فى قومٍ فَصَاحِبْ خِيَارَهم ... ولا تَصْحَبِ الرَّدِى فَتَرْدَى مع الرَّدِى
عن المرءِ لا تسألْ وَسَلْ عن قَرِينِهِ ... فكل قرينٍ بالمُقَارَن يَقْتَدِى

ودين المرء معناه فى الحديث : اتجاهه ومنهجه ، ومذهبه وطريقته ، وعادته وسلوكه ، وعقيدته وما إلى ذلك مما يَتَمَيَّزُ بِهِ .

وهذا كقوله تعالى حكاية عن يوسف – عليه السلام – : ﴿ ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك ﴾ . أى فى حكمه وقانونه ، الذى يطبقه فى بلاده .

فالدين لفظ يطلق على العقيدة ، ويطلق على الجزاء، وعلى الخُلُق والعادة .

وعلى ذلك ينبغى أن نفهم أن الرجل إذا قال لأخيه : «يلْعَنْ دينك» فى حالة الغضب لا نحكم عليه بالرِّدَّة ونجرى عليه أحكامها : من فراق زوجته وغير

ذلك ؛ فإنه فى الغالب لا يلعن دين الإسلام ، ولكنه يلعن طريقة صاحبه فى المعاملة .

ولنا أن نسأله بعد ذهاب غضبه : ماذا أردت بكلمة الدين ؟ هل أردت أن تلعن دين الإسلام ؟ ، فإنه فى الأغلب الأعم يقول لك : كلا ، ما أردت أبداً أن أسبَّ الإسلام ، حاشا لله ، إنما أردت أن أسبَّ فلاناً على سوء معاملته لى وعدوانه عَلَىَّ ونحو ذلك ، فكيف نحكم عليه بالرِّدَّة .

إن الحكم عليه بالرِّدَّة فى هذه الحالة هوس فكرى ، وخطأ شنيع بكل المقاييس .

ولهذا موطن آخر ، يكون الكلام فيه أوفى وأتَمّ .

والخليل فى اللغة : هو من كانت بينك وبينه خُلَّةٌ ، أى : محبة وحسن صحبة .

وقد يكون للمرء أكثر من خليل يؤاخيه ويماشيه ، ويصحبه فى حِلِّه وترحاله ويكون له كظله ، وتتعمق الصلة بينهما حتى يكونا كرجل واحد .

والخُلَّةُ خلتان : خلة تقوم على التقوى ، وخلة تقوم على الهوى الجامح والتيار المنحرف .

أما الأولى : فإنها لا تنقطع فى الدنيا ولا فى الآخرة .

وأما الثانية : فإنها إن ظلت موصولة فى الدنيا فلا بقاء لها فى الآخرة ، بل تنقلب وبالاً على أصحابها .

فما كان لله دام واتصل ، وما كان لغير الله انقطع وانفصل .

قال تعالى : ﴿ الأخلاَّءُ يومئذ بعضهم لبعض عدو إلاَّ المتقين ﴾ (١) .

وقد قال الله عن المتقين فى الجنة : ﴿ ونزعنا ما فى صدورهم من غِلٍّ إخواناً على سُرُرٍ متقابلين ﴾ (٢) .

* * *

---

(١) سورة الزخرف : ٦٧ .
(٢) الحجر : ٤٧ .

إذا عرفت هذا ، أدركت بحق قيمة هذه الوصية ، وفهمت أبعادها : وهى قوله : « فلينظر أحدكم من يخالل » .

والنظر معناه : البحث الدقيق المتأنى عن الصديق المطاوع ، الذى يصدقك الود فى حديثه وأخباره وسائر أعماله ، ويؤثرك على نفسه ، أو يحبك كما يحب نفسه ، أو يعينك فى أمور دينك ودنياك بقدر طاقته ، وتألفه ويألفك .

والصداقة إنما تقوم على العدل والفضل ، والحلم والعفو ، والإخلاص والمعروف والتقوى ، والحب والتفاهم والاتفاق فى العقيدة والأخلاق .

فمن قَصَّر فى أصل من هذه الأصول ، فليس بصديق ، ولكن يطلق عليه وصف آخر أقل منه ، كالرفيق والزميل والصاحب ونحو ذلك .

يقول عَلَىٌّ – رضى الله عنه – :

إنّ أخاكَ الحقَّ من كان معك ... ومن يَضُرُّ نفسَــهُ لِيَجْمَعَك

ومن إذا ريبُ الزمانِ صَدَّعَك ... شَتَّتَ فيه شَــمْلَهُ لِيَجْمَعَك

وهذان البيتان يعبران عن أخوة لم تعرف إلاّ فى عصر الإسلام الأول ، وبين قوم من أجلاء الصحابة ، كالأنصار والمهاجرين الأُوَل ، كما سيأتى بيانه فى الحديث الآتى ، وبالله التوفيق .

* * *

(٩٨) لا أُزَكِّي على الله أحداً

عن عبد الرحمن بن أبى بكرة عن أبيه – رضى الله عنهما – قال : أثنى رَجُلٌ على رجل عند النبى – ﷺ – فقال : «وَيْلَكَ ، قَطَعْتَ عُنُقَ صاحبك ، قطعتَ عنقَ صاحبك – مراراً – ثم قا : من كان منكم مادحاً أخَاهَ – لا محالةَ – فَلْيَقُل : أَحْسبُ فلاناً والله حَسيبُه ، ولا أُزَكِّي على الله أحداً ، أَحْسَبُهُ كذا وكذا ، إن كانَ يعلم ذلك منه» [١] .

*　　*　　*

بُعِثَ الرسـول – ﷺ – مُعَلِّمـاً ومتمماً لمكارم الأخـلاق ، بأسـلوب رفيـع لا يجرحِ المشاعرِ ولا تنقبض منه القلوب ، فيأمر بالشيء فلا تجد فى أمره به غضاضة ولا حرجاً ، وينهى عن الشيء فلا تجد فى نهيه عنه تَحَكُّماً ولا شططاً ؛ وذلك لأن أمره ونهيه وحى سماوى ، مبنى على العدل المطلق والوسطية ، التى تخلو تماماً من الإفراط والتفريط ؛ ولأن الدين الذى جاء به قد وُضِعَ رعايةً لمصالح العبـاد فى العاجل والآجل ، فإذا أمر بشيء ، فإنما يأمر به لجلب منفعـة دنيـوية أو أخروية أو هما معاً ، وإذا نهى عن شيء ، فإنما ينهى عنـه لدفع مضرة دنيوية أو أخروية أو هما معاً .

وقد اقتضت مكارم الأخلاق أن يعرف المرء لأخيه حقه وفضله ، فيثنى عليه بما هو أهله ، والثناء نوع من الشكر ، ولا يخفى ما فيه من تطييب للنفوس وتهييج للعواطف وتحريض على المزيد من فعل الخير ، ولكن الناس فى هذا أصناف .

فمنهم من يحمله المدح على التكبر والغرور ، والعجب والرياء وحب الظهور .

---

(١) رواه البخارى بهذا اللفظ فى كتاب الشهادات ، باب : إذا زكى رجلٌ رجلاً كفاه ، ورواه أيضاً فى الأدب بنحوه ، باب : ما يكره من التمادح ، وباب ما جاء فى قول الرجل : ويلك ، ورواه أيضاً بنحوه فى الزهد ، رقم : ٣٠٠٠ ، باب النهى عن المدح ، وأبو داود وفى كتاب الأدب ، باب فى كراهية التمادح رقم : ٤٨٠٥ .

ومنهم من يدفعه المدح إلى التقاعد عن نيل المطالب العلية والركون إلى ما قد مدحه الناس به ، فلا يزيد عليه ، ويقول فى نفسه : كفانى ما أنا فيه ، فقد وصلت إلى مرتبة الثناء ، وهى ما كنت أبغيه من عملى .

ومنهم من إذا مدح ، خجل واستحيا ووجد من ذلك حرجاً شديداً فى نفسه .

ومنهم من إذا مدح ربَا الإيمان فى قلبه ، وحرص على المزيد من فعل الخيرات ، وعمل جهده على أن يكون عند حسن ظن الناس به .

ومنهم من يؤدى به المدح والثناء إلى اعتزال الناس ؛ خوفاً من الرياء والعجب والغرور ، وذلك ليس من صالحه ولا من صالح إخوانه ، فربما أدى به الأمر إلى فقدان أهم مبدأ من مبادئ الإسلام وهو التعاون على البر والتقوى ، والإنسان مدنى بطبعه ، لا يستطيع أن يعيش فى معزل عن أبناء جنسه .

من أجل هذا نهى النبى – ﷺ – عن المدح فى مواطن كثيرة وحذر من مغبته، لكن النهى لم يكن على إطلاقه فى جميع الأحوال، بل فى ذلك تفصيل، هنا مجال بحثه إن شاء الله تعالى .

* * *

اعلم أن الثناء نوع من الشهادة ؛ ولذلك ذكر البخارى هذا الحديث فى كتاب الشهادات ، ولهذا وجب على المرء أن يتثبت مما يقول فى الثناء ، كما يتثبت مما يقول فى الشهادة ، فكل كلمة يقولها فى حق أخيه مدحاً أو ذمًّا محسوبة عليه – إما أن يعاقب عليها أو يثاب .

والثناء – أيضاً – نوع من الشكر – كما قدمنا – واعتراف بالجميل ، وهو شيء يحمد صاحبه عليه، بشرط أن يكون هذا الثناء فى موضعه من غير مبالغة .

وهناك ثناء يعتبر من باب النفاق والكذب والخداع من أجل الحصول على غرض من أغراض الدنيا ، وهذا ممقوت شرعاً وعقلاً وعرفاً .

والممدوح قد يكون أهلاً للمدح والثناء والإطراء ، فلا يكون منهيًّا عنه حينئذ ، بشرط عدم المبالغة فيه ؛ فإن المبالغة أحياناً تكون نوعاً من الكذب

وبشرط ألا يترتب على ذلك إحراج الممدوح أو حمله على الإعجاب بنفسه ؛ فإن في ذلك هلاك دينه وإحباط عمله .

ولعل النبى - ﷺ - أحسّ أن المادح قد بالغ فى مدحه ، وخشى على الممدوح من العجب والرياء والكبر ، فنهاه عن هذا النوع من المدح والإطراء إذ غلب على ظنه أنه يؤدى إلى قطع عنق صاحبه ، فقال له : « ويلك » ، وهى كلمة زجر لا يقصد بها الدعاء عليه بالويل ، فذلك ليس من شأن النبى - ﷺ - مع أصحابه .

والعرب يقولونها على سبيل الزجر والإعجاب - أيضاً - .

وفى رواية قال : « ويحك » ، وهى كلمة زجر أيضاً .

ومعنى قوله - ﷺ - : « قطعت عنق صاحبك - مراراً - » [1] أخجلتَه وأحرجتَه ، أو جلبتَ عليه من الآفات ما يكون سبباً فى هلاك دينه .

والمؤمن أحد رجلين فى هذا الباب - أحدهما : أن يجد نفسه دون ما مُدِحَ به ، فيستحى من الله ؛ لأنه أعلم بحاله ، وربما يستحى من الناس أيضاً إذا أظهروا الرضا بما قاله المادح ، فيأخذ نفسه بما يرفع من شأنها ، ويَجِدُّ فى العمل الصالح، ويبادر إلى التوبة والاستغفار ؛ تَخَلُّصاً من هذا المدح الذى لم ير نفسه أهلاً له ، وكان أبو بكر - رضى الله عنه - إذا مُدِحَ قال - كما رواه البيهقى فى الشعب - : « اللهم اغفر لى ما لا يعلمون ، ولا تؤاخذنى بما يقولون ، واجعلنى خيراً مما يظنون » .

والثانى : أن يجد نفسه قد مُدِحَ بما فيه ، فيزداد إيمانه بالله ؛ فيشكره على نعمة التوفيق، ويشكر الناس على حسن الثقة، ويبادلهم حُبًّا بحب ، وثناءً بثناء، ويعمل جاهداً على أن يكون مطيعاً لله فى سره وعلانيته ، مخلصاً له فى أقواله وأفعاله .

فالأول : مَنْهِيٌّ عن مدحه فى وجهه ، والثانى : ليس منهياً عن مدحه فى

---

(١) فى رواية أبى داود قال : « قطعت عنق صاحبك - ثلاث مرات - » .

وجهه ، بل يكون مدحه من المستحبّات ؛ شحذاً لعزمه على الطاعة، واستنهاضاً لهمته فى طلب المعالى ، والأمور بمقاصدها - كما يقول علماء الأصول .

وقد أثنى النبى - ﷺ - على كثير من أصحابه وبشّرهم بالجنة ؛ لحسن إسلامهم وإخلاصهم لله فى القول والعمل .

فقد أثنى - مثلاً - على أبى بكر - رضى الله عنه وأرضاه - ثناءً ما أحسنه وأجمله .

خذ فى ذلك ما رواه البخارى فى صحيحه ، عن أبى سعيد الخُدْرىّ - رضى الله عنه - قال : خطب رسول الله - ﷺ - الناسَ ، وقال : «إن اللهَ خَيَّرَ عبداً بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ذلك العبد ما عند الله» ، قال: فبكى أبو بكر - رضى الله عنه - فعجبنا لبكائه أن يُخْبِرَ رسول الله - ﷺ - عن عبدٍ خُيِّرَ، فكان رسولُ الله - ﷺ - هو المُخَيَّرَ ، وكان أبو بكر أَعْلَمَنَا ، فقال رسول الله - ﷺ - : «إنَّ من أَمَنِّ الناس عَلَىَّ فى صُحْبَته وماله أبا بكر ، ولو كنت مُتَّخذاً خليلاً غير ربى لاتخذْتُ أبا بكر خليلاً ، ولكن أُخُوَّةُ الإسلام وَمَوَدَّتُهُ ، لا يَبْقَيَنَّ فى المسجدِ بابٌ إلاَّ سُدَّ إلا بابَ أبى بكر» (١) .

وقد حَمِدَ الرسول - ﷺ - لعمر غَيْرَتَهُ فقال -كما روى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة - رضى الله عنه - : «بَيْنَا أنا نَائمٌ رَأَيْتُنى فى الجنة فإذا امرأةٌ تَتَوَضَأُ إلى جانب قصرٍ ، فقلت لمن هذا القصر ؟ فقالوا : لعمرَ ، فذكرتُ غَيْرَتَهُ فَوَلَّيْتُ مُدْبِراً ، فبكى عمر وقال : أعليك أغار يا رسول الله» (٢) .

وبالغ النبى - ﷺ - فى مدحه فقال- فيما رواه البخارى، عن أبى هريرة - رضى الله عنه - : «لقد كان فيما قَبْلَكُمْ من الأُمَمِ مُحَدَّثُونَ (٣) ، فإن يكن فى أُمَّتِى أحدٌ ، فإنه عمر» .

ولا نُطيلَنَّ القول فى ثناء النبى - ﷺ - على أصحابه هنا ؛ فهذا له موطنٌ آخر ، ومن أراد المزيد فعليه بكتب السُّنَنِ والسِّيَرِ .

---

(١) فضائل الصحابة ، باب ٣ . (٢) فضائل الصحابة ، باب ٦ .

(٣) أى مُلْهَمُون ، أو مُكَلَّمون - كما فى الرواية الأخرى للبخارى - يعنى تكلّمهم الملائكة .

والذى يعنينا هنا أن نُبَيِّنَ مدى حرص النبى - ﷺ - على سلامة قلب كل من المادح والممدوح من الزيغ والانحراف عن الصدق ، الذى هو روح الإيمان وعماده ، فقال للمادح بعد أن زجره زجراً لطيفاً مُعَمِّماً النصح له ولمن معه : « من كان منكم مادحاً أخاه - لا محالة - فليقل : أَحْسَبُ فلاناً والله حسيبه ... إلخ » أى من كان - ولابد - مادحاً أخاه فليقل : أظنه على كذا وكذا من الخير ، وأرجو أن يكون محسناً فى كذا وكذا، دون أن يقطع بذلك ؛ فإن فى القطع ادِّعَاءُ العلم بما قد خَفِيَ عليه أمره ، فما يدريه أنه كما يقول ، فسبحان مَنْ أحاط بكل شئ علماً ، والله وحده هو الذى إذا مدح زان وإذا ذَمَّ شان ، فليقف المادح عند حده مع ه بالأدب ، وليقل بعد قوله : أحسبه كذا وكذا : « والله حسيبه » أى كافيه حسابه على ما فيه من خير أو شر .

قال تعالى : ﴿ وكفى بالله حسيباً ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ وكفى بنا حاسبين ﴾ (٢) .

وليقل بعد ذلك مباشرة : « ولا أزكى على الله أحداً ، أَحْسَبُهُ كذا وكذا ، إن كان يعلم ذلك منه » .

ومعنى : « لا أزكى على الله أحداً » : لا أقطع على عاقبة أحد ولا على ما فى ضميره ؛ لكون ذلك مُغَيَّباً عنى .

وجيء بذلك التعبير بلفظ الخبر ، ومعناه النهى : أى لا تزكوا أحداً على الله؛ لأنه أعلم بكم منكم .

وقوله : « إن كان يعلم ذلك منه » تحذير من القول بغير علم ، وذلك قاطع بأن القول على الله بغير علم كبيرة من الكبائر .

والمادح إذا قال فى مدح أخيه بالظن كان آثماً بقدر مبالغته فى المدح والإطراء ، وَعُدَّ من الكاذبين أو المنافقين .

والمدح - كما أشرنا من قبل - شهادة ، فإذا لم يكن متحققاً من شهادته

---

(١) النساء : من الآية : ٦ .   (٢) الأنبياء : من الآية : ٤٧ .

كان مُزَوِّراً ، وأنت خبير بأن قول الزور من أكبر الكبائر ، وقد مَرَّ بك صِدْقُ ذلك في حديث سابق .

والمدح - أيضاً - تزكية على الله ، وهو أمر يتنافى مع الأدب حتى مع العلم ومع الصدق ، فكيف إذا كان مع الظن والكذب ! !

﴿إن الظن لا يغنى من الحق شيئاً﴾[1] .

والمؤمن صادق اللهجة ، قوى الحجة ، واضح المَحَجَّةِ ، سره كعلانيته ، لا يتلون بلونين ، ولا يأتى الناس بوجهين .

نسأل الله السلامة والعافية .

* * *

(١) سورة النجم : من الآية : ٢٨ .

(٩٩) احثوا فى وجوه المدَّاحين التراب

عن هَمَّامِ بنِ الحارث ، أن رجلاً جَعَلَ يَمْدَحُ عثمانَ - رضى الله عنه - فَعَمدَ المقداد - رضى الله عنه - فَجَثَا على رُكْبَتَيْه - وكان رجُلاً ضخماً - فَجَعَلَ يَحْثُو فى وَجْهه الحَصْبَاءَ ، فقال له عثمانَ : ما شأنك ؟ فقال : إن رسول الله - ﷺ - قالَ :

«إذا أ المَدَّاحِينَ ، فَاحْثُوا فى وُجُوهِهِمُ التراب» (١) .

* * *

كان النبى - ﷺ - يبغض المدح ؛ لمَا يؤدى إليه من المبالغة الداعية إلى الكذب والمؤذنة بشيء من النفاق يُعْرَف على صفحات وجه المادح أو فى فلتات لسانه ؛ ولذا قال - عليه الصلاة والسلام - : «لا تُطْرُونى كما أَطْرَتِ النصارى ابن مريم ، فإنما أنا عبدٌ ، فقولوا : عبدُ الله ورسوله» (٢) .

وكان - ﷺ - أحياناً يَقْبَلُ الثناء عليه من المخلصين من أصحابه مجاملة وإفساحاً لهم فى التعبير عن حُبِّهِم إياه ، ولكن إذا صدر من أحدهم مبالغة نهاه عنها بلطف وأدب .

وتبعاً لكراهته المدح كان يكره المدَّاحين ولا يكره المادحين ، وهناك فرق بينهما .

فالمادح : اسم فاعل يصدق على من وقع منه المدح ولو مرة واحدة ، وهو

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه - واللفظ له - فى كتاب الزهد ، باب النهى عن المدح إذا كان فيه إفراط ... رقم (٣٠٠٢) ، وفى رواية للترمذى : «أمرنا رسول الله - ﷺ - أن نحثوا فى أفواه المداحين التراب» حديث (٢٣٩٦) كتاب الزهد . ورواه أبو دواد أيضاً حديث (٤٨٠٤) فى كتاب الأدب .

(٢) رواه البخارى عن ابن عباس فى كتاب الأنبياء باب قوله تعالى : ﴿واذكر فى الكتاب مريم﴾ .

لا يُشْعِرُ بالمبالغة في المدح ، بخلاف اللفظ الآخر ، فإنه من صيغ المبالغة ، وهو أيضاً مَن صيغ النَّسَب السماعى ؛ لكثرة مدحه ، والتأكل به ، واتخاذه حرفة ، يتقرب بها إلى الأمراء وغيرهم .

فمعنى مَدَّاح : منسوب إلى المدح ، كحَدَّاد وبَرَّاد ونَجَّار ... إلى آخره ، مع ملاحظة المبالغة أيضاً .

ومن هنا نفهم المراد من قوله - ﷺ - : «احثوا فى وجوه المداحين التراب» ولم يقل : المادحين .

* * *

ولكن ما معنى هذا الأمر ، هل هو على حقيقته ، أم هو على سبيل المجاز ؟

ذكر ابن حجر العسقلانى فى فتح البارى شرح صحيح البخارى فى هذا المعنى خمسة أقوال :

الأول : قيل المراد بالمدّاح هنا : مَنْ يمدح الناس بالباطل ، فإنه هو الذى ينبغى أن يحثو الناس على وجهه التراب على الحقيقة ، كما فعل المقداد بن الأسود مع من مدح عثمان بن عفان - رضى الله عنه - .

الثانى : قيل المراد بالأمر : الخيبة والحرمان مما قصد إليه بمدحه من الأغراض الدنيوية ، كقولهم لمن رجع خائباً : رجع وكفه مملوءة تراباً .

وعليه يكون المراد بالمدَّاح : من قصد بمدحه عَرَضاً من الدنيا ، وإن لم يكن ما قاله فى مدحه باطلاً .

الثالث : قولوا له : بفيك التراب ، والعرب تستعمل ذلك لمن تكره قوله .

الرابع : أن ذلك يتعلق بالممدوح ، كأن يأخذ تراباً فيبذره بين يديه ليتذكر بذلك مصيره إليه ، فلا يطغى بالمدح الذى سمعه .

الخامس : المراد بحثو التراب فى وجه المادح : إعطاؤه ما طلب ؛ لأن كل الذى فوق التراب تراب .

قال الطيبى : ويحتمل أن يراد دفعه عنه وقطع لسانه عن عرضه بما

يرضيه من الرضخ [1] ، والدافع قد يدفع خصمه بحثى التراب على وجهـه استهانة به . ا. هـ[2] .

* * *

ويؤخذ من هذا الحديث فوق ما ذكروه :

١ - التنفير الشديد من المدّاحين ؛ لأنهم يهيمون على وجوههم فيمدحون هذا ويذمون ذاك فى شعرهم ونثرهم ابتغاء عَرَضٍ من عروض الدنيا ، فيضطرون حتماً إلى التملق والنفاق والخداع واتخاذ الحِيَلِ الممنوعة شرعاً فى تحقيق مآربهم الشخصية ، ويحاولون إرضاء الممدوحين بكلِّ حيلة ممكنة ، والله أحق أن يرضوه، لكن ممارستهم للمدح أنستهم ربهم ، وَوَكَلَتْهم لمن لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، وصرفتهم عن الهمم العالية ، وجعلتهم كالمتسولين ، الذين يسألون الناس من فضول أموالهم ، ولا يبالون تخلوا عن العزة أم تخلت العزة عنهم ، فهم أحقر الناس شأناً وأَحَطُّهُمْ قدراً ، لا ينبغى أن يستقبلهم الناس أو يسمعوا منهم أو يتناقلوا مدائحهم ، فهم يعيشون على هامش الحياة ، ولو عرفوا قيمة الحياة لطلبوها فى مظانها .

إن الحياة سُمُوٌّ وكمال،وليست دنيا يصيبها الإنسان من حلال أو من حرام .

٢ - حَثُّ هؤلاء المداحين على ترك المدح ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، وحضُّهُم على الصدق فى جميع الأقوال والأفعال والأحوال ، والرقى بأنفسهم عن مواطن الذل والهوان .

وليجعل كل واحد منهم نصب عينيه قول الله تبارك وتعالى : ﴿ والشعراء يَتَّبِعُهُمُ الغاوون ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعدما ظُلِمُوا وسيعلمُ الذين ظلموا أى منقلَب ينقلبون ﴾ [3] .

بل على المداح أن يحثو على وجهـه التراب قبـل أن يفعـل النـاس به ذلك ؛ إذ من هانت عليه نفسه كانت على الناس أهون . نسأل الله السلامة والعافية .

* * *

---

(١) الرضخ : العطاء القليل .

(٢) انظر جـ٢ ص ٢٧٠ ، كتاب الشهادات ، باب ما يكره من التمادح .

(٣) سورة الشعراء : ٢٢٤ - ٢٢٧ .

(١٠٠) لا تباشر المرأةُ المرأةَ فتنعتَهَا لزوجها

عن ابن مسعود - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال :
«لا تُبَاشِرُ المرأةُ المَرْأَةَ ، فَتَنْعَتَهَا لِزَوْجِهَا ، كأنه ينظر إليها» [(١)] .

* * *

بعث الله رسوله محمداً - عليه الصلاة والسلام - مُعَلِّماً ومُتَمِّماً لمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم ، كما هو معلوم لدينا .

ومن مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم أن يَغُضَّ المسلم بصره عن النظر إلى ما لا يحل له النظر إليه ، ويُحْجِمُ عن مباشرة ما لا يحقّ له مباشرته ، ويكُفَّ عن ذكر ما لا ينبغي له ذكره ، يستوى في ذلك الرجل والمرأة .

وهذا الحديث ليس خاصّاً بالمرأة كما يبدو لغير المتأمل ، ولكن الرسول - ﷺ - وَجَّه النهى إليها لأن الغالب من أحوال النساء أنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ في المكان فتكشف كل واحدة للأخرى عما تحت ثيابها دون استحياء أو خجل ، وتُحَدِّثُها عن نفسها وعن زوجها فتقص عليها ما يفعله بها وتفعله به ، وتكشف لها عن الكثير من الأسرار الخفية ؛ فتعلم كل امرأة من أختها ما قد يخفى على زوجها مع طول عشرته لها .

لهذا وَجَّه الرسول - ﷺ - هذا النهى ؛ ليكفكف من شر هذه العادة المغروسة في طِبَاعِهِنَّ ، ولعلهُنّ يجدن في هذه الوصية ما يردعهن عن التمادى في هذا السلوك المخزى والمشين .

* * *

فقوله - ﷺ - : «لا تباشر المرأة المرأة» معناه: لا تنام معها في ثوب واحد؛ فذلك يفضى إلى ما لا تُحْمَدُ عواقبه ، فقد تؤدى بهما هذه المباشرة إلى تلك العادة السيئة وهى السِّحَاق ، وقد تتعرف من خلال هذه المباشرة على ما خَفِيَ

---

(١) رواه البخارى بهذا اللفظ فى كتاب النكاح ، باب (١١٨) : لا تباشر المرأة المرأة فتنعتها لزوجها ، وأبو دواد بلفظ : «لتَنْعَتَهَا لزوجها كأنما ينظر إليها» ، فى كتاب النكاح ، باب ما يُؤْمَرُ به من غض البصر رقم (٢١٥٠) ، ورواه الترمذى بلفظ : «حتى تُصِفَها لزوجها كأنما ينظر إليها» ، كتاب الأدب ، باب كراهية مباشرة الرجال الرجال والمرأة المرأة ، رقم (٢٧٩٢) .

من محاسنها ومساوئها الخفية ، فتحسدها فيما تمتاز به عنها ، وتحتقرها فيما تستنكره منها ، ويُمْلِي لها الشيطان من خلال ما وقع لها من الانطباعات التى رسخت فى ذهنها أن تُحَدِّثَ زوجها بكل ما علمت به منها من الأوصاف الجسدية والأحوال النفسية ، والسلوكيات الخُلُقيّة والميول الجنسية ، وغير ذلك مما كان الزوج فى غنى عنه ، وكانت هى أيضاً فى غنى عن معرفته لو كان لها قلب حى وضمير يقظ ، وحياء فطرى وطبع سليم .

وهذا النهى للتحريم - كما هو ظاهر - ودليله قوله تعالى : ﴿وقل للمؤمنات يَغضُضن من أبصارهن﴾ (١) .

وَغَضُّ البصر عن العورات كلها واجب، فلا يباح للمرأة أن تنظر إلى عورات الرجال ولا إلى عورات النساء ، إلا لضرورة مُلحَّة، يستوى فى ذلك عورات المسلمين وغير المسلمين؛ فالعورة هى العورة، يفتتن بها كل من الرجل والمرأة، فلا ينبغى لكل مسلم ومسلمة أن ينظر إلى عورات غير المسلمين والمسلمات، إلا عند الضرورة الملحة - كما أشرنا - ، وذلك درءاً للفتنة ودفعاً للمفسدة .

* * *

وقوله - ﷺ - : «فتنعتَها لزوجها كأنه ينظر إليها» من متعلقات هذا النَّهى ومن توابع مقاصده ، فالنهى عن المباشرة فى ذاتها للتحريم - كما عرفت - يتعلق به ما يفضى إليه تَعَلُّقَ العلة بالمعلول ، كما جاء فى رواية الترمذى : «لا يباشر المرأة المرأة حتى تَصفَهَا لزوجها كأنما ينظر إليها» .

«وحتى» هنا قد تكونَ للتعليل ، أى : من أجل أن تصفها لزوجها .

وقد تكون للغاية ، أى : لا تحاول أن تباشرها ؛ فإن المباشرة قد تؤدى بها إلى غاية غير محمودة ، وهى اطلاع زوجها عن طريقها إلى عورتها بطريق الخبر ، فيتجسم الخبر فى نفسه ، حتى يخيل إليه كأنه ينظر إليها .

والمعنى الأول تؤيده رواية أبى دواد : «لا تباشر المرأة المرأة لتنعتها لزوجها كأنما ينظر إليها»، فاللام للتعليل كما ترى، أى: لا يكن هدفها من المباشرة ذلك .

وكلا المعنيين مراد؛ فإن النهى منصب على الأمرين مَعاً : المباشرة والوصف.

وعلَّة النهى عن المباشرة قد عرفناها آنفاً .

وعلة النهى عن وصفها لزوجها متشعبة، تذهب النفس فى تحليلها مذاهب

---

(١) سورة النور : ٣١ .

كثيرة ، فَتَصَوَّرْ ماذا يحدث لو وصفت زوجة لزوجها ، صديقةً من صديقاتها أو جارةً من جاراتها ، وبالغت فى الوصف بحكم تجاذب أطراف الحديث بينهما، وحديث الزوجين ذو شجون كما هو معلوم .

فالمرأة التى تصفها الزوجة لزوجها قد تكون أجمل منها ؛ فيتعلقُ قلبُ الزوج بها ، فينصرف عنها إليها ، والقلب مع من يُحِبُ ، وما سمى القلب قلباً إلاّ من تَقَلُّبِه ، فتكون هى السبب فى هذا التّحَوّل الخَطير ، الذى قد يؤدى إلى عواقب وخِيمَة لا يُدْرَك مداها ، وللشيطان حيل خبيثة وخطوات منكرة .

وَقَلّ أن يَثْبُتَ الحب للحبيب الأول إذا كان الحبيب الأول هو السبب فى ذلك ، وعلى الباغى تدور الدوائر .

أليست هذه المرأة قد خالت أختها ، وأماتت ضميرها ، وغوت زوجها ، وجنت على نفسها ؟!.

بلى ، فإنها شيطانية ، أوحى إليها الشيطان بما فعلت ، فزلت وأزلت ، وضلت وأَضَلّت ، والجزاء من جنس العمل .

وقد تكون المرأة التى وصفتها لزوجها دميمة لا تخشى على زوجها من أن يتعلق بها قلبه ، ولكنه قد يحتقرها ، وقد يُحَقّرُها فى عين زوجها إذا كانت بينهما صلة ، وتحقير المسلم جرم عظيم .

وربما يؤدى تحقيرها فى عين زوجها إلى طلاقها، ولها منه أولاد ، وقد يؤدى طلاقها فوق خراب البيت إلى احتدام النزاع والخصام بين أسرته وأسرتها ، إلى أخر ما هنالك من ويلات كان السبب الأول والأخير فى وقوعها تلك المرأة المشئومة التى لم تتمثل هذه الوصية النبوية ، لحماقتها وضعف إيمانها وقلة حيائها .

فما أعظم هذه الوصية التى تحفظ للرجال والنساء حرماتهم من أن تنال ، وتصون أعراضهم عن القيل والقال ، وتحمى المجتمع من الخلاف العائلى والتّفَكّكِ الأُسَرِىّ والانهيار الخُلُقِى بوجه عام .

نسأل الله السلامة والعافية فى الدين والدنيا والآخرة .

* * *

(١٠١) لا تَمَنَّوا لقاءَ العدوِّ

عن عبد الله بنِ أبى أوفى - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - فى بعض أيامه التى لقِىَ فيها العدوَّ - انتظر حتى مَالَتِ الشمس ، ثُمَّ قام فى الناس فقال .

«يا أيها الناس ، لا تَمَنَّوْا لقَاءَ العَدُوِّ وَسَلُوا الله العَافِيَةَ ، فإذا لَقِيتُمُوهُمْ فاصْبِرُوا ، وَاعْلَموا أنَّ الجَنَّةَ تحتَ ظِلاَلِ السُّيُوفِ ، ثم قَال : اللهم ، مُنْزِل الكتَاب ومُجْرِىَ السحاب وَهَازِمَ الأَحْزَابِ اهزمهمَ وانصرنا عليهم» [1] .

* * *

الإسلام دين سلم وسلام، ينبذ العدوان بجميع صوره ولا يكره أحداً على اعتناقه ، ولا يدعو إلا لفضيلة ، ولا يأمر إلا بخير ، ولا ينهى إلا عن شر .

يقول الله عز وجل : ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ [2] .

ويقول جل شأنه : ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ [3] .

وتؤكد كل الدلائل على أن الإسلام لم ينتشر بالسيف، ولم يكن رسول الله - ﷺ - يقاتل إلا إذا قوتل، فما كان يوماً مهاجماً قوماً إلا إذا رأى منهم بادرة عدوان .

وكان إذا لقى العدو دعاه إلى الله عز وجل بالحكمة والموعظة الحسنة ، فإن أبى أن يدخل فى الإسلام دعاه إلى الصلح ودفع الجزية من أجل حمايته وبقائه فى أرضه متمتعاً بالسلام فى ظل الإسلام .

فإن أبى إلا القتال قاتله بكل قوة وهو يتمنى من أعماق قلبه ألا يقاتله ولكنه كان يخضع لأمر الله تبارك وتعالى ويرضى بقضائه وقدره فيرد العدوان وينتظر النصر .

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الجهاد ، باب ١١٢ ، ١١٦ ، ومسلم فى كتاب الجهاد والسير، باب كراهية تمنى لقاء العدو ... حديث رقم : ١٧٤٢ .

(٢) البقرة : ١٩٠ .   (٣) البقرة : ١٩٤ .

﴿ كُتبَ عليكم القتال وهو كُرْهٌ لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تَحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ (١) .

ولهذا أوصى النبى - ﷺ - أصحابه بهذه الوصية فقال : «لا تمنوا لقاء العدو» أى لا تتمنوا أن تقاتلوا، وقد حذف إحدى التائين تخفيفياً، وفى رواية «لا تتمنوا» بإثبات التائين .

«وسلوا الله العافية» فهى خير لكم من أن تلقوا عدوكم فيصيبكم منهم مضرة ولكن اخضعوا لأمر الله فيكم ، فقاتلوا حيث لا تجدون مفراً من القتال .

وهذا منتهى العدل ومبلغ البر بأصحابه وبالعدو أيضاً .

* * *

وقوله - ﷺ - : «فإذا لقيتموهم فاصبروا» أى اثبتوا ولا تفرقوا فإن فى الثبات النصر ، وفى الفرار الهزيمة ، واصمدوا فى القتال واحرصوا على الموت توهب لكم الحياة ، وارهبوا عدوا الله بسيوفكم وتحملوا ما تلاقونه من الشدائد فى قتالهم ، واحتسبوا أجورهم على الله تعالى ، كل هذه المعانى تنضوى تحت لواء الصبر ؛ فهو القوة الضاربة فى ميادين القتال .

قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تُفلحون ﴾ (٢) .

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تُولوهم الأدبار ﴾(٣) .

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبُتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تُفلحون ﴾ (٤) .

والآيات فى هذا المعنى كثيرة والأحاديث أكثر .

* * *

---

(١) البقرة : ٢١٦ .
(٢) آل عمران : ٢٠٠ .
(٣) الأنفال : ١٥ .
(٤) الأنفال : ٤٥ .

وقوله : « واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » معناه أن من مات شهيداً سيلقى الجنة فور استشهاده ، وكأنه ليس بينه وبينها إلا كظل سيفه فإن وقع سيفه من يده وقع هو فى الجنة .

وهذا كناية يفصح عنها قوله تعالى : ﴿ولا تحسَبَنَّ الذين قُتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يُرزقون﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يُقاتلون فى سبيل الله فيَقتُلون ويُقتَلون وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾ (٢) .

وقد جاء فى صحيح مسلم : أن أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر تسرح فى الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى قناديل مُعلقة تحت العرش ، فاطلع عليهم ربك اطلاعة ، فقال : ماذا تبغون ؟ ، فقالوا : ياربنا ، وأى شىء نبغى ، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ؟ ، ثم عاد إليهم بمثل هذا ، فلما رأوا أنهم لا يتركون من أن يسألوا ، قالوا : نريد أن تردنا إلى الدنيا ، فنقاتل فى سبيلك ، حتى نقتل فيك مرة أخرى – لما يرون من ثواب الشهادة – فيقول الرب جل جلاله : إنى كتبت أنهم إليها لا يرجعون .

نسأل الله لنا ولكم الجنة .

* * *

---

(١) آل عمران : ١٦٩ .

(٢) التوبة : ١١١ .

(١٠٢) أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر

عن عُثْمَان بن أبى العاص الثَّقَفِى ، أَنَّهُ شَكَا إلى رسول الله - ﷺ - وجعاً ، يَجِدُهُ فى جَسَده مُنْذُ أَسْلَمَ ، فقال له رسول الله - ﷺ - :

«ضَعْ يَدَكَ عَلَى الَّذى تَأَلَّمَ منْ جَسَدكَ ، وقل : باسم الله «ثلاثاً» ، وَقُلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ : أَعُوذُ بِاللهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ ما أَجِدُ وأُحَاذِرُ» (١) .

* * *

عثمان بن أبى العاص الثقفى الطائفى أبو عبد الله صحابى شهير ، استعمله رسول الله - ﷺ - على الطائف فلم يزل عليها إلى أن عزله عمر - رضى الله عنه - بعد مضى سنتين من خلافته ، مات فى خلافة معاوية بالبصرة (٢) .

وهذا الصحابى الجليل كان منذ أسلم يعانى من أوجاع فى جسده ، ووساوس شيطانية تحول بينه وبين صلاته وقراءته ، فشكا إلى النبى - ﷺ - ليجد عنده العلاج الناجع منها ، كما مر فى حديث سابق .

وفى هذا الحديث دليل على جواز الشكوى من غير ضجر ولا جزع للمحبين لعله يجد عندهم ما يسرّى عنه، أو للصالحين لعله يجد عندهم البركة، ولعلهم يدعون له بالشفاء ، ويجد عندهم من النصح والإرشاد ما يعينه على تحمل ما به من أوجاع ، وغير ذلك مما يرجوه بشكواه .

وقد كان أصحاب النبى - ﷺ - يشكون إليه ما بهم فلا يلومهم على ذلك ؛ لأنه يعلم أنهم لا يشكون إليه ضجراً ولا جزعاً ، ولكنهم يريدون منه وهو طبيب الأطباء أن يصف لهم دواء أسقامهم الجسدية والروحية، وقد حملهم على

---

(١) رواه مسلم ، فى كتاب السلام ، باب استحباب وضع يده على موضع الألم مع الدعاء ، حديث رقم : ٢٢٠٢ .

ورواه غيره من أصحاب السنن بألفاظ متقاربة ، وفى رواية الموطأ ، كتاب العين ٩ : ١١ : « أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد » .

(٢) انظر « أوجز المسالك إلى موطأ الإمام مالك » للكاندهلوى جـ ١٤ ص ٢٨٢ ، ٢٨٣ .

هذا ما وجدوا فيه من حب ورحمة وألفة ولين جانب ، فهو أرحم بهم من أنفسهم،على أنفسهم،صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه الكرام البررة .

* * *

فقال له رسول الله – ﷺ – بعد أن سمع شكواه : «ضع يدك على الذى تألّم من جسدك» ، وقد أراد اليد اليمنى ؛ لأن فيها البركة .

وقد صرحت بذلك رواية الموطأ، قال: «امسحه بيمينك سبع مرات، وقل: أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد» .

ووضع اليد على موضع الألم له سر فى إذهاب الألم وشفاء العضو من الداء، فمن شك فيه فقد أثم ، لأنه وحى من الله صح سنده عن رسول الله – ﷺ – .

قال : «وقل : باسم الله ، ثلاثاً» .

ولعل فى الثلاثة سراً لا نعلمه ، فهى تركيبة دوائية ذات أثر فعال عند من يؤمن بالله ورسوله ، ويوقن بإجابة الدعاء .

وهل يقول : بسم الله الرحمن الرحيم أم يختصر على «باسم الله» فقط ؟

أقول: هذا وذاك محتمل ، والأكمل أن يقول: «بسم الله الرحمن الرحيم»؛ رجاء أن يرحمه من الداء وآلامه .

قال : يوقل سبع مرات : أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر» ، أى : أعتصم بالله وألوذ بقدرته، وأستغيث به، وأضرع إليه من شر ما أجده من الحاضر، وما أخافه على نفسى فى المستقبل .

وفى تكرار هذا الدعاء سبع مرات سرٌ لا نعلمه ، والتسليم بذلك واجب .

ويستحب إلا يزاد عليه أو ينقص منه ؛ فهو كتركيبة الدواء .

وكم فى الدعاء من أدوية ، فهو من أعظم الأسباب التى يتحقق بها الرجاء، ولكن ينبغى ألا نهمل التداوى بما عرف من الأدوية النافعة ، ونسأل الله عند التداوى بها أن يجعلها شافية بإذنه وقدرته .

* * *

ولما كان هذا الصحابى الجليل موقناً بالإجابة استجاب الله له وشفاه من مرضه .

قال – رضى الله عنه – كما فى رواية مالك وأبو داود والترمذى والنسائى وغيرهم – : «فأذهب الله ما كان بى ، فلم أزل آمر به أهلى وغيرهم» .

نسأل الله لنا ولكم العفو والعافية .

* * *

(١٠٣) السِّواكُ مَطْهَرَةٌ للفم مَرْضَاةٌ للرب

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ – رضي الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – قال :

«تَسَوَّكُوا ؛ فإن السِّوَاكَ مَطْهَرَةٌ لِلْفَمِ ، مَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ ، ما جاءني جبْرِيلُ إلاَّ أَوْصَاني بالسواك ، حتى لقَد خشيتُ أَنْ يُفْرَضَ عَلَيَّ وَعَلَى أُمَّتي ، وَلَوْلا أَنِّي أَخَافُ أن أَشُقَّ على أُمَّتِي ، لَفَرَضْتُهُ لَهُمْ ، وإني لأَسْتَاكُ حَتَّى لَقَدْ خَشيتُ أَنْ أُحْفِيَ مَقَادِمَ فَمِي» (١) .

* * *

السواك سنة من سنن الفطرة ؛ لأنه ضرورة لابد منها فى تنظيف الفم مما علق به ، وتطهيره من الروائح الكريهة ، وتخليصه أولاً بأول مما يعترى الأسنان والأضراس من الآفات ، كالتسوس والتورم ونحو ذلك .

والسواك – بكسر السين – يطلق على الفعل وعلى العود الذى يتسوك به .

وقد أولاه النبى – ﷺ – عناية خاصة ، وأوصى أصحابه بالإكثار منه ، وبيَّن لهم فوائده وأهميته ، وحذرهم من تركه أو التهاون فيه ، بأسلوب يشعرهم بعظمة شأنه في الوقاية من الأمراض والعلل ، وعظمة شأنه – أيضاً – عند الله ؛ إذ جعله سبيلاً من سبل مرضاته – عز وجل – فقال :

« تَسَوَّكُوا ؛ فإن السواك مطهرة للفم ، مرضاة للرب » .

والأمر يقتضى الوجوب ، لكن الدلائل جعلتـــه من المســتحبات ، التى لا ينبغى تركها جملة .

وقد قال كثير من علماء الأصول : الأمر للوجوب ما لم تصرفه قرينة .

وهنا صرفته قرينة ، بل صرفته قرائن سيأتيك ذكرها .

ومعنى « مطهرة للفم » : مزيلة لآفاته ، فالطهارة معناها الإزالة والوقاية .

---

(١) رواه ابن ماجه ، كتاب الطهارة وسننها ، باب ٧ ، حديث رقم : ٢٨٩ .

وآفات الفم كثيرة وخطيرة منها : تسوس الأسنان، وهو الأمر الذى لا ينبغى السكوت عليه ؛ لأن النهاية لهذا الداء تساقطها واحدة بعد الأخرى ، حتى يصير الفم خالياً منها ، وعندئذ يعرف المرء قيمتها ، ويندم أشد الندم على التفريط فى تنظيفها بالسواك ، والوقاية خير من العلاج ، كما يقول الحكماء ، والصحة تاج على رءوس الأصحاء ، لا يعرف قدها إلا من فقدها .

وكان العرب يدعون لمن يحبونه فيقولون : لا فُضَّ فوك ، أى لا أخلاه الله من الأسنان والأضراس .

وفقدان الأسـنان والأضراس لا يحرم المرء من مضغ الطعـام والتلذذ به فحسب، بل يحرمه أيضاً من النطق السليم ، وهو أمر لابُدَّ منه ولا سيماً لمن كان يتلو القرآن ، أو يدعو الناس إلى عز وجل ، أو يعلمهم أمور دينهم ودنياهم.

ومن المحال تعويض هذا الجهاز الربانى بجهاز من صنع البشر ، ولهذا ينصح الأطباء بالمحافظة على هذا الجهاز العجيب فى صنعه وتنسيقه ، ولا يلجأون إلى خلع سن أو ضرس إلاَّ إذا فقدوا الأمل فيه ؛ إذ يعتبرونه أفضل من غيره مع ما فيه من داء ، ويبذلون ما فى وسعهم من أجل بقائه ، ولكن العبء الأكبر فى العلاج يتحمله المريض نفسه ، فهو الذى إن شاء حافظ عليه ، وإن شاء فرط فيه .

والفم – كما نعلم – هو المدخل الطبيعى للمعدة ، وهى بيت الداء ، والطريق فيه مفتوح لتسرب الجراثيم والفيروسات إلى الرئتين والصدر والجهاز الهضمى ، فكان لزاماً على كل مسلم أن يُعْنَى كل العناية بتطهير فمه دائماً إذا ما أحس بتلوثه أو تغير رائحته ، وفى ذلك ما فيه من الفوائد العظيمة .

وأما كون السواك مرضاةً لله ، فإن الله عز وجل يقول فى كتابه العزيز :

﴿إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾ [1] .

ولا شك أن السواك لمـا كان مطهرة للفم كان ذلك أحب إلى الله تبارك وتعالى عند تلاوة القرآن والذكر ، وقراءة كتب التفسير والحديث وغيرها من العلوم الشرعية .

---

(١) البقرة : آية ٢٢٢ .

فمن ذكر الله بفم نظيف طاهر خير وأحب إلى الله ممن ذكره بفم ليس كذلك .

* * *

وقوله ﷺ – « ما جاءنى جبريل إلا أوصانى بالسواك حتى لقد خشيت أن يفرض عَلَيَّ وعلى أمتى » – يدل على أمرين :

الأول : أهمية السواك وضرورة فعله فى جميع الأوقات التى تدعو الحاجة فيها إليه .

الثانى : أنه ليس بفرض ، ولكنه سنة مؤكدة فى أوقات ، وسُنَّةٌ مستحبة فى أوقات ، كما سيأتى بيانه ، إن شاء الله .

يؤكد هذا وذاك قوله – عليه الصلاة والسلام – وفى الحديث : « ولولا أنِّى أخاف أن أشقَّ على أمتى لَفَرَضْتُهُ لهم » أى لأوجبته لهم – يقال : فَرَضَ له كذا : أى أوجبه وقدَّره وقضى له به .

وهذه العبارة أبلغ من قوله : فرضته عليهم ؛ لأن المفروض على الإنسان مراعى فيه الكلفة ، والمفروض له : مراعى فيه المنفعة .

فانظر إلى دقة التعبير فى هذه العبارة النبوية .

* * *

وقوله – ﷺ – فى ختام الحديث : « وإنى لأستاك حتى لقد خشيت أن أُحْفِيَ (١) مَقَادِمَ فَمِي » توكيد لما سبق توكيده ، فهو – ﷺ – يعطينا من نفسه القدوة .

فإذا كان هو يفعل ذلك وهو طاهر الفم دائماً ، لا تتغير رائحته ، ولا يبلى ما فيه ، ولا يصاب بما يصاب به غيره – فكيف بنا نحن .

وخير الناس أكثرهم تأسياً برسول الله – ﷺ – وأشدهم تمسكاً بسنته فى عباداته وعاداته .

---

(١) استأصل ما حول أسنانى .

قال تعالى : ﴿لقد كان لكم فى رسول الله أُسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾ (١) .

* * *

وإذا كان السواك مستحباً فى جميع الأوقات فإنه فى بعض الأوقات يكون أشد استحباباً منه فى غيرها .

وسأذكر لك هنا بإيجاز هذه الأوقات بوجه عام ، فأقول : يستحب السواك فى الأوقات الآتية :

الأول : عند الوضوء ، لما رواه أبو هريرة عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : «لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل وضوء» (٢) .

الثانى : عند الصلاة ؛ لما رواه أبو هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : «لولا أن أشق على أمتى ، لأمرتهم بالسواك عند كا صلاة» (٣) .

الثالث : عند الاستيقاظ من النوم لقول عائشة - رضى الله عنها - «كان النبى - ﷺ - لا يرقد من ليل ولا نهار فيستيقظ إلا يتسوك قبل أن يتوضأ» (٤) .

الرابع: عند تلاوة القرآن والذكر ؛ قياساً على الصلاة .

قال على بن أبى طالب - رضى الله عنه - : «إِنَّ أَفْوَاهَكُم طُرُقٌ لِلقُرآنِ ، فَطيِّبُوها بالسواك» (٥) .

الخامس : عند التهجد ، وهو الصلاة بالليل بعد القيام من النوم ، فالهجود معناه : النوم ، وسُمّى قيام الليل تهجداً لأنه يقع بعد النوم .

---

(١) الأحزاب : ٢١ .

(٢) إخرجه مالك والبيهقى والحاكم وصححه .

(٣) أخرجه الجماعة .

(٤) أخرجه أحمد وأبو داود .

(٥) أخرجه ابن ماجه .

عن حذيفة – رضى الله عنه – قال : «كان رسول الله – ﷺ – إذا قام من الليل يَتَهجَّدُ يَشُوصُ فَاهُ بالسِّواك »[1] . يعنى يدلكه به .

السادس : عند الانصراف من قيام الليل ؛ لما رواه ابن عباس – رضى الله عنهما – : «أن النبى – ﷺ – كان يُصَلِّى بالليل ركعتين ، ثم ينصرف فَيَسْتَاكُ »[2] .

السابع : عند دخول البيت من أجل لقاء زوجته ، حتى إذا قبلها أو قبلته لم تجد منه رائحة كريهة .

روى مسلم وأبو داود والنسائي وغيرهم عن المقداد بن شريح عن أبيه أنه قال لعائشة – رضى الله عنها – : بأى شىء كان يبدأ النبى – ﷺ – إذا دخل بيته ؟ ، قالت : بالسواك .

وروى ابن ماجه عنه أيضاً أنه قال لعائشة : أَخْبِرِينِى بأى شىء كان النبى – ﷺ – يبدأ إذا دَخَلَ عليك ؟ قال : كان إذا دخل ، يبدأ بالسِّوَاك .

الثامن : عند تَغَيُّر الفم ، بسبب عدم الأكل أو أكل ماله رائحة كريهة ، أو طول السكوت أو طول الكلام ، أو بسبب مرض فى الصدر ونحو ذلك ، فهو مطهرة للفم ، كما جاء فى الحدث .

التاسع : عند حضور مجالس العلم وغيرها ؛ لئلا يؤذى الناس برائحة فمه .

العاشر والحادى عشر : قبل الأكل وبعده .

هذه هى الأوقات التى يستحب فيها السواك بوجه عام ، وأشدها استحباباً خمسة : عند الوضوء ، وعند الصلاة ، وعند قراءة القرآن ، وعند الاستيقاظ من النوم ، وعند تَغَيُّر الفم .

* * *

وبعد ، فإن الأمر بالسواك من الطِّبِّ بمكان ، فإن جميع الأطباء يَحُضُّونَ عليه ، ويعتبرونه من الضرورات الصحية ، التى ينبغى على كل إنسان أن يراعيها

---

(١) أخرجه ابن ماجه وغيره . (٢) أخرجه ابن ماجه أيضاً .

وقاية لفمه وسائر بدنه ، باعتبار أن الفم هو من المداخل الطبيعية للجراثيم والفيروسات كما أشرنا من قبل .

وهذا يدل بوضوح على أنَّ محمداً - ﷺ - حكيم مُلْهَمٌ ، وطبيب مُعَلَّمٌ، جاء بشريعة غرَّاء هى منهج كامل للحياة فى أسمى صورها وأرقى معانيها ، يجد الناس فيها تزكية لأنفسهم وتقويماً لأخلاقهم ، وتطهيراً لقلوبهم وأبدانهم ، وعلاجاً ناجعاً لأدوائهم ، ووقاية مما يخشون ضرره أو يتوقعون خطره .

إنها شريعة لا تغادر صغيرةً ولا كبيرة مما يحتاج الناس إليه إلا شملتها ببيانها المشرق ، فقد دخلت معهم في أَخَصِّ خصائصهم ، وتحدثت إليهم فيما يتحرجون أن يسألوا عنه حياءً أو تكبراً ، وأَفْتَتْهُم فى كل شىء يحتاجون فيه إلى إزالة اللبس ودرء الشبهة ودفع الشك أو التهمة .

ومن نظر فى تعاليم الإسلام بإمعان وجدها تدعو فى جملتها إلى طهارة النفس والقلب والبدن .

ولقد قال كثير من الفقهاء : إن الطهارة تدخل فى سبعين باباً من أبواب الفقه ، وأكبر الظن أنها تدخل فى جميع العبادات والمعاملات إذا أخذنا بمدلولها العام ، فهى كلمة واسعة الدلالة فى معانيها ومراميها .

وقد حصرها الإمام الغزالى فى أربعة أمور رئيسية ، فذكر فى الجزء الأول من كتاب الإحياء أنها على أربعة مراتب :

الأولى : طهارة الباطن مما سوى الله تعالى ، وهو مقام الأنبياء .

الثانية : طهارة القلب من الحقد والحسد ، والكبر والعجب والغرور ، والرياء وحب الظهور ، وغير ذلك من الآفات التى تُعكر صفو الإيمان .

الثالثة : طهارة الجوارح، أى كَفُّهَا عما حرم الله - عز وجل - .

الرابعة : طهارة الظاهر من الأحداث والأخباث والفضلات .

فالطهارة إذاً تدخل فى كل باب من أبواب المعتقدات والعبادات والمعاملات وما إلى ذلك من مكارم الأخلاق ومحاسن السلوك .

ومعناها : إزالة ما ينبغى أن يزال من الشبهات والشهوات ، والآفات الضارة بالقلوب والأبدان ؛ ولهذا قدمها الفقهاء فى كتبهم ، وبدأوا ببيان أحكامها قبل أن يتكلموا عن أحكام الصلاة والصوم ، والزكاة والحج، وغيرها من أبواب الفقه.

اللهم فقهنا فى الدين وعلمنا التأويل .

*　*　*

(١٠٤) إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون

عن أبى هريرة -رضي الله عنه- قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول :

«إذا أقيمت الصَّلاةُ ، فلا تأتُوهَا تَسعَوْنَ ، وأتُوهَا تَمشُونَ عليكُمُ السكينَةُ فما أدركتم فَصَلُّوا ، وما فاتكم فأتموا» (١) .

* * *

الصلاة صلة وثيقة بين العبد وربه ، وروحها الخشوع ، فإذا أقبل العبد عليها فإنما يُقْبِلُ بقلبه مخلصاً لربه ، مُتَمَسْكِناً متواضعاً .

ولكى يضمن العبد إقباله على الصلاة بهذه الكيفية نهاه الرسول - ﷺ - عن الإسراع إليها فى المشى إذا أقيمت ؛ فإن الإسراع يعوقه عن استحضار القلب إلى الصلاة ، وعن كمال الخشوع فيها ، وعن السكينة التى ينبغى أن تلازمها .

فقد يؤدى الإسراع إليها إلى انقطاع الأنفاس أو احتباسها ، وهو الأمر الذى يُفْقِدُهُ الطمأنينة والاعتدال .

وقد يفضى الإسراع إلى سقوطه على الأرض ، أو تعثره بسبب اصطدامه بشيء أمامه ، ونحو ذلك من المعوقات .

ولماذا يسرع فى السير إلى الصلاة وقد ضمن الله له الأجر بنيته !! والأعمال بالنيات كما هو معروف .

فمن توضأ في بيته وخرج إلى الصلاة ووجد الإمام قد سبقه بركعة أو ركعتين أو ثلاث ، فلا بأس مادام قد خرج فى الوقت المناسب ولم يبطئ أو يشغل نفسه بأمر من أمور الدنيا .

* * *

وقوله - ﷺ - : «إذا أقيمت الصلاةُ» يعنى المكتوبة ، ومعنى أقيمت : وقف الناس لها أو دخلوا فيها .

---

(١) أخرجه البخارى فى الجمعة ١٨ ، ومسلم فى المساجد ١٥١ وغيرهما .

فهناك فرق بين أُقيمت الصلاة وأقيم للصلاة فقوله : «أقيمت الصلاة» معناه ما قد علمت .

وقولنا : أقيم للصلاة ، أى أقامها المؤذن بالألفاظ المعروفة .

ولكن هل له أن يسرع فى المشى إذا سمع الإقامة أم لا ؟

قولان ليس أحدهما أرجح من الآخر ، والمرء فى هذا فقيه نفسه ، فإن كان بعيداً عن المسجد ، فإنه لا يسرع ؛ حتى لا تنقطع أنفاسه أو تحتبس ، أو يعوقه عائق أو لا يتمكن من الخشوع .

وإن كان قريباً من المسجد يستحب أن يوسع الخطا فوق المعتاد بقليل ؛ حتى يدخل فى الصف دون أن يُتْعِبَهُ المشى .

وهناك فرق بين المشى والسعى ، فالمشى هو نقل الخطا بتؤدة واتزان .

والسعى هو الجِدّ في السير على وجه الإسراع والاهتمام .

ويزيد عليه في السرعة : الرمل والهرولة وما فوق ذلك، فأنواع السير عشرة، لا حاجة لذكرها جميعاً هنا .

وقوله - ﷺ - : «عليكم السكينة» جملة حالية ، أى وأتوها ماشين مطمئنين ساكنة قلوبكم حتى تدخلوها وأنتم كذلك .

* * *

وقوله - ﷺ -: «فما أدركتم فَصَلُّوا، وما فاتكم فأتموا» معناه: لا عليكم، فما أدركتموه مع الإمام فصلوه، وما فاتكم من الركعات فأتموه منفردين، وأجركم مكفولٌ لكم عند ربكم بحسب نِيَّاتكم .

فما أكرمه من نبى وما أحلمه، فهو حريص على المؤمنين رءوف رحيم بهم، قد أجرى الله التيسير على لسانه ، ورفع الحرج عن أمته تَفَضُّلاً منه ورحمة .

وكان من المتبادر إلى الأذهان أن يأمر النبى - ﷺ - أمته بالإسراع إلى الصلاة عند إقامتها ، ولكن الإسلام دِينٌ دَيْدَنُهُ السماحة واليسر ، فالحمد لله على نعمة الإسلام .

* * *

وهنا مسألة تفرض نفسها على البحث والدرس ، حاصلها يتمثل في هذا السؤال :

كيف توفق بين هذا الحديث الصحيح وقوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعَوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ [1] ؟.

أقول : قوله تعالى: ﴿فاسعَوا﴾ معناه: امضوا بعناية واهتمام من غير إسراع.

وقيل : إن السعى خاص بصلاة الجمعة ، والحديث عام فى غيرها من الصلاة ، وهذا وذاك حسن .

والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

---

(١) سورة الجمعة : ٩ .

(١٠٥) سافروا تربحوا

عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن النبى – ﷺ – قال :
«سَافِروا تَرْبَحُوا ، وصومُوا تصِحُّوا ، واغزُوا تَغنَمُوا» (١) .

* * *

محمد – ﷺ – رسول معلم ، وطبيب ملهم ، وحكيم تفجرت من قلبه ينابيع الحكمة ، وصاياه أصول للأخلاق والمثل العليا ، وقواعد عامة للسلوك الرشيد ، ومنهج للحياة الفاضلة فى جميع مظاهرها .

وهذه الوصية واحدة من تلك الوصايا الجامعة النافعة التى من شأنها أن توضع موضع الاعتبار والتنفيذ .

ونحن ننظر فيها نظرات لنفقه من مراميها – بقدر طاقتنا البشرية – ما يبلغنا آمالنا فى الدنيا والآخرة .

* * *

قوله – ﷺ – : «سافروا تربحوا» ترجمة موجزة لقوله تعالى : ﴿ومن يهاجرِ فى سبيل الله يجدْ فى الأرض مُرَاغماً كثيراً وسَعة ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركْه الموتُ فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً﴾ (٢) .

أى : من يغادر محل إقامته إلى أرض الله الواسعة غازياً أو طالباً للعلم ، أو ساعياً للرزق ونحو ذلك من المطالب المشروعة – فإنه سيجد فى الأرض التى هاجر إليها خيراً يرغم به حساده ، ومالاً وفيراً يقيم أَوَدَه ، وعلماً نافعاً يقوِّم به خلقه ، ويصلح به أمور دينه ودنياه .

---

(١) قال العجلونى فى كشف الخفا : رواه أحمد بن أبى هريرة – رضي الله عنه – مرفوعاً، ورواه الطبرانى بلفظ : «اغزوا تغنموا ، وصوموا تصحوا ، وسافروا تستغنوا» .. إلى آخر ما قال .

وقد ذكره السيوطى فى الجامع بلفظ : «سافروا تصحوا ، واغزوا تستغنوا» وحسنه .

(٢) النساء : ١٠٠ .

ومن يخرج من بيته بنية الهجرة إلى الله تعالى ثم يدركه الموت فقد ثبت أجره عند الله – عز وجل – لأن الأعمال بالنيات .

والهجرة والسفر هنا بمعنى واحد ، ويختلف الحكم فى السفر باختلاف النية – وهى القصد المقترن بالفعل – وباختلاف الغاية – وهى التى من أجلها كان القصد – فالقصد يكون فى أول العمل ، والغاية تكون فى آخره .

فأحياناً يكون السفر واجباً ، وذلك لتأدية حَجة الفريضة ، وطلب العلم إذا لم يكن فى البلد معلم ، وطلب الرزق إذا ضاقت عليه سبل العيش فى بلده .

ويكون السفر واجباً كذلك إذا خشى على نفسه الفتنة .

ويكون مستحباً إذا كان القصد منه طلب النظر فى آيات الله الكونية ، أو طلب العافية، فإن فى السفر ترويحاً للنفس وتقوية للبدن . كما سيأتى بيانه.

ويكون مباحاً – فيما سوى ذلك .

ويكون حراماً إذا كان فى معصية .

والأمر بالسفر في هذا الحديث ليس للوجوب مطلقاً ، ولكنه للنصح والإرشاد والتوجيه والترغيب ، وإنما يعتريه الوجوب باعتبار غايته كما أشرنا .

والسفر لفظ يطلق ويراد به الانتقال والتحول من بلد إلى بلد فى مسافة تقصر فيها الصلاة ، وهى مقدرة عند جمهور الفقهاء بنحو ثمانين كيلو متراً .

والهجرة كالسفر – كما قلنا – إلا أننا نلمح فيها معنى البعد الشاسع بين البلد التى يخرج منها والبلد التى يريد أن يرحل إليها ، لما فيها من معنى الهجران ، وهو البعد الذى لا يمكن الإنسان من العودة بيسر وسهولة .

وقد سمى السفر سفراً لأن الإنسان إذا خرج من بلده يكون سافراً ، أى ظاهراً تراه الأعين ، من قولهم : أسفر الصبح . أى ظهر ووضح .

ثم إن الهجرة كما تطلق على الترك والتحول تطلق على الخصام وقطع الوصال ، ومنه قوله – ﷺ – : «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث» أى لا يحل له خصامه وقطع حبال وده .

وقد علق النبى – ﷺ – الربح على السفر ، مع أنه يحصل بالسفر وغيره ؛ لأن السفر مَظِنَّة الربح الكثير والخير الوفير ، كما جاء فى رواية أخرى للحديث: « سافروا تستغنوا » ، أى سافروا لطلب الغنى ، فالسين والتاء للطلب ، أو : سافروا تجدوا الغنى ، على أن السين والتاء للتوكيد .

والربح ضد الخسران ، وهو دنيوى وأخروى ، والنوعان متلازمان حيناً ، ومنفصمان حيناً ، فمن أراد الدنيا خسر الدنيا والآخرة ، ومن أراد الآخرة ربحهما معاً ، كما قال الشافعي – رضى الله عنه – .

ومن هذا يتبين لنا أن قوله – ﷺ – : « سافروا تربحوا » معناه : تربحوا في الدنيا والآخرة إن كان القصد من سفركم الطاعة .

أما إن كان القصد منه المعصية فلا ربح فيه مهما حصّل المسافر من سفره من مال وغيره من متاع الدنيا ؛ لأنه لما أراد الدنيا وضرب صفحاً عن الآخرة خسر الدنيا والآخرة معاً، ما لم يتب من ذنبه ، ويصلح من شأنه ، ويجدد العهد مع ربه على السمع والطاعة فى الحل والترحال ، وفى السراء والضراء ، والشدة والرخاء .

هذا ، والربح الدنيوى أنواع كثيرة لا تحصى ، لأنها تختلف باختلاف الزمان والمكان ، واختلاف الطالب والمطلوب ، وتتجدد بحسب الحاجات التى تفرضها الظروف الحاضرة .

فإذا أردت أن تعرف الكثير من هذه الأنواع فاسأل كل من يريد سفراً : لماذا تسافر ؟ ، فإنك تجد الجواب يختلف باختلاف حال كل مسافر .

وقد تسمع من الأجوبة ما لم تكن سمعته من قبل .

ومهما حاول العلماء أن يضعوا أصولاً لأغراض الهجرة والسفر فإنهم لا يستطيعون أن يثبتوا من القواعد الكلية ما يندرج تحتها من الأغراض الجزئية .

ولكن يكفيهم أن يقولوا كما قال القرطبى وابن العربى : الهجرة هجرتان : هجرة هرب وهجرة طلب .

فالأولى كالانتقال من دار الكفر إلى دار الإسلام خوفاً من الفتنة ، والخروج من أرض البدعة خوفاً من الوقوع فيها ، والخروج من أرض غلب فيها الحرام من أجل طلب الحلال فى أرض أخرى ، والخروج من أرض إلى أرض أصح منها .

هذه أمثلة لهجرة الهرب .

وأما هجرة الطلب : فهى إما طلب دين أو طلب دنيا ، أو طلبهما معاً .

فأما طلب الدين فيتمثل فى أخذ العبرة والعظة ، وتأدية الحج والعمرة ، والجهاد فى سبيل الله ، وطلب المعاش وطلب العلم ، وزيارة الإخوان ، ونحو ذلك [1] .

وأما طلب الدنيا فيتمثل فى طلب اللهو واللعب ، والتنزه غير البرىء ، وطلب المال من غير حاجة إليه ونحو ذلك من الأمور التى لا يقصد فيها وجه الله .

والأولى بالمسلم أن يبتغى بهجرته وجه الله تعالى حتى فى المطالب الدنيوية، فإن الحياة تبنى على طلب الدين والدنيا معاً .

وقد بين الله لنا المنهج الذى نسلكه فى طلب الدين والدنيا ، وذلك من خلال قصة قارون ، إذ نصحه قومه بنصيحة غالية لم يلق لها بالاً ، ولم يُعِرْ لها أى اهتمام .

قال تعالى : ﴿إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إنَّ مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفَرحين وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسنْ كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين﴾ [2] .

فهذا المنهج كما ترى يقوم على :

١ – ترك الغرور والعُجب وحب الظهور والفخر .

فقد قالوا له : ﴿لا تفرح﴾ أى لا تغتر، فليس المراد النهى عن مجرد الفرح، بدليل قوله تعالى : ﴿إن الله لا يحب الفَرحين﴾ .

والفَرحين جمع فَرِح – بفتح الفاء وكسر الراء – وهو المغرور بنفسه ، والمختال بماله ومظهره .

---

(١) هذا ما أفاده القرطبى فى جـ٥ ص ٣٤٩ – ٣٥١ نقلته بالمعنى مع الاختصار .

(٢) سورة القصص : ٧٦ – ٧٧ .

٢ – طلب الآخرة بالتنازل عن شيء مما أنعم الله به عليه .

٣ – طلب الرزق بالطرق المشروعة من غير إفراط ولا تفريط ، فإن لكل امرئ من الدنيا نصيب ينبغي أن يسعى لتحصيله ، وإلا كان عاصياً لتقصيره فى حق نفسه وحق من يعول ، وتقصيره أيضاً فى عمارة الأرض ، وهو الهدف الذى خُلق الإنسان من أجله .

٤ – الإحسان فى مقابل الإحسان ، وهذا هو الشكر في أسمى معانيه .

٥ – الكف عن الظلم والإفساد فى الأرض .

وهذا المنهج بأصوله الخمسة نحتاج فيه إلى عدة محاضرات ، بل يحتاج إلى عدة مجلدات ، ويكفينا ما ذكرناه هنا حتى لا يخرج بنا الشرح والتحليل عن هذه الوصية العظيمة .

* * *

والناس قد اختلفوا فى أمر السفر ، فمنهم من يرى أن له فوائد كثيرة لا ينبغي أن يفوتها المرء على نفسه .

ومنهم من يرى أنه كثير العوائق والبوائق والموحشات وليس له من الفوائد ما يستحق الذكر ، فأى الفريقين أقوم قيلاً وأهدى سبيلاً ؟

قبل أن نجيب على هذا السؤال نذكر ما قاله كل من الفريق الأول والثانى ، فنقول :

ذكر بعض الرواة أن الشافعي – رضى الله عنه – قد حث على السفر ورغَّب فيه ، وذكر فيه فوائد كثيرة مستدلاً على ذلك بما يراه الناس من مظاهر الطبع والطبيعة فقال مرشداً :

ما فى المُقَام لذى عقل وذى أدب
من راحةٍ فدع الأوطان واغتربِ
سافر تجد عوضاً عمن تفارقه
وانصب فإن لذيذَ العيش فى النَصَبِ

إنى رأيت وقوفَ الماء يفسدُه

إن سال طاب وإن لم يجر لم يطبِ

والأُسْدُ لولا فراق الغاب ما افترست

والسهم لولا فراق القوس لم يُصِبِ

والشمس لو وقفت فى الفلك دائمة

لملَّها الناس من عُجْمٍ ومن عَرَبِ

والتبر كالتُرب ملقًى فى أماكنه

والعنود فى أرضه نَوع من الحطبِ

فإن تغرَّب هذا عزّ مطلبه

وإن تغرّب ذاك عزّ كالذهبِ

وقال صاحب النظرة المتشائمة منشداً ، لا أدرى هل هو الذى رد على الشافعى ، أم الشافعى هو الذى رد عليه :

تقاعد عن الأوطان إن كنت طالباً

نجاةً ففى الأسفار سبعُ عوائقِ

تشُّوقُ إخوان وفقدُ أحبة

وأعظمها ياصاحِ سكنى الفنادقِ

وكثرةُ إيحاش وقلّةُ مؤنس

وتبديدُ أموال وخيفةُ سارقِ

فإن قيل فى الأسفار كسبُ معيشة

وعلمٌ وآدابٌ وصحبة رافقِ

فقل كان ذا دهراً تقادم عصرُه

وأعقبه دهرٌ شديد المضائقِ

فهذا مقالى والسلام كما بدا

وجرّب ففى التجريب علمُ الحقائقِ

والشافعى – رضى الله عنه – فقيه نابه ، قد جرّب الحياة وعركها ، وأحب الأسفار ، فكان حالّاً مرتحلاً فى طلب العلم ونشره ، لهذا كان قوله هو الصواب الذى لا معدل عنه ؛ لموافقته الكتاب والسنة ، كما تقدم بيانه .

فإلى أين يذهب ذاك المتشائم الذى ينظر إلى العيوب التى من الممكن تلاشيها والتغلب عليها ، وينسى الفوائد التى نص الشافعى على بعضها وترك البعض الآخر لمن جرب الأسفار وأفاد منها !!

ففى الأسفار الربح والصحة ، وهما نعمتان عظيمتان ، جامعتان لسائر النعم بعد الإيمان .

والربح كلمة جامعة لما يحصل عليه المرء من الرزق الواسع والعلم الغزير .

والصحة تاج على رءوس الأصحاء، لا يعرفها إلا من فقدها، وهى – أيضاً – كلمة جامعة لعافية الأبدان والعقول والأرواح .

فالمسافر يجد من خلال سفره ما يروح به عن نفسه ، ويجدد به نشاطه ، ويغذى به فكره ، ويزداد به إيماناً مع إيمانه ؛ لكثرة ما يرى من الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى وعظيم قدرته عز وجل ، مع ما يحصل عليه من رزق واسع وخير وفير ، يحفظ به دينه وعرضه ، ويمتع به نفسه بالطيبات التى يستطيع أن يحصل عليها بما لديه من مال .

ولا شك أن من سافر إلى حيث شاء الله أن يسافر يكون أفضل حالاً من المقيم بدرجات فى الخبرة والمعرفة ، والثقافة ، والعلم بأحوال البيئات والمجتمعات المتحضرة وغير المتحضرة .

ولهذا حث الله – عز وجل – على السير فى الأرض والنظر فيما تحتويه من آثار جلية ، وأسرار خفية ، فقال – عز وجل – : ﴿ قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ (١) .

وقال عز من قائل : ﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذَلولاً فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾ (٢) .

---

(١) الأنعام : ١١ .   (٢) الملك : ١٥ .

وبعد هذا التطواف نكون قد عرفنا معنى قوله – ﷺ – : « سافروا تربحوا » أو « ترزقوا » كما فى رواية ، أو « تصحوا » كما فى رواية أخرى .

ووقفنا على مراميها ، وأدركنا بوضوح مدى ما تنطوى عليه هذه الوصية من توجيهات حكيمة ، ينبغى أن يضعها كل مسلم موضع التنفيذ ؛ فالحياة حركة ، والحركة فى موضع واحد كسل وخمول .

وقد استعاذ النبى – ﷺ – من الخمول والكسل ، وأمر أصحابه أن يتعوّذوا منهما ، ومما يتصل بهما ، كما مرّ بنا فى حديث : « اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال » .

* * *

وأما قوله – ﷺ – : « وصوموا تصحوا » :

فإنه قول قد برهن به على أنه طبيب الأطباء بلا منازع ، يعرف كيف يشخص الداء ويصف الدواء .

وقد ثبت علمياً أن الصوم خير علاج لأمراض القلب والسكر وضغط الدم والقرحة والكُلى وغيرها .

ولا تزال البحوث ماضية فى طريقها إلى معرفة الكثير والكثير من فوائد الصوم الجسدية والروحية .

فالمعدة بيت الداء كما نعلم ، « وما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطنه » كما جاء فى الحديث الصحيح . ولا شك أن الصوم يعطى المعدة الفرصة لالتقاط الأنفاس – إن صح التعبير – ويريحها من عناء ازدحامها بالطعام يوماً كاملاً من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس ، ويتيح لسائر الأعضاء الأخرى التى تتأثر بالتخمة أن تستعيد نشاطها وتجدد قدرتها على ممارسة وظائفها باتزان .

على أن كثرة الصوم تكسر حدة الشهوة لمن لا يجد القدرة على الزواج كما عرفنا من قوله – ﷺ – فى وصية سابقة : « يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ؛ فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » .

والوجاء كناية عن الإضعاف من حدة الشهوة ، وأصله الإخصاء .

والأمر بالصوم يدل على الوجوب تارة وعلى الاستحباب تارة أخرى .

فهو واجب على كل مكلف فى شهر رمضان ، ويجب عليه إن نذره .

ويستحب أن يصوم المسلم فى كل شهر ثلاثة أيام ، وأن يصوم يوم عاشوراء ، ويوم عرفة ، وأن يكثر الصوم فى شهر شعبان وغير ذلك مما هو مبسوط فى كتب الفقه .

ولا يخفى على اللبيب ما فى هذا الأمر من الترغيب فى كثرة الصوم ؛ فإن الشفاء والعافية إنما تكون بتكراره فى الأسبوع مرة أو مرتين ، أو فى الشهر مرة أو مرتين ، كلٌّ بحسب حاله وطاقته .

والمراد بالصحة في الحديث الصحة الجسدية والروحية والعقلية كما تقدم بيانه في شرح قوله – ﷺ – : « سافروا تصحوا » .

* * *

وقوله – ﷺ – : « واغزوا تغنموا » حث وترغيب على الجهاد فى سبيل الله، ومعنى : « تغنموا » تصيبوا من الغنائم فى الدنيا ، وتفوزوا بحسن الثواب فى الآخرة ، فغنيمة الدنيا أجر عاجل ، وغنيمة الآخرة ثواب آجل .

قال تعالى فى جزاء المقاتلين فى سبيل الله : ﴿فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين﴾ [1] .

والغازى فى سبيل الله إنما يغزو مخلصاً لله لا يرجو من وراء ذلك نفعاً دنيوياً ولكن يأتى هذا النفع تبعاً من غير قصد .

وهذا مبلغ الظن بالأخيار من الصحابة والتابعين، وإذا كان القصد الأول هو إعلاء كلمة الله – عز وجل – والغنيمة مقصداً تابعاً للمقصد الأول فلا بأس فالعبرة بالمقصد الأصلى، كما قال تعالى لمن حج واعتمر : ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم﴾ [2] أى ليس عليكم ذنب أن تشتغلوا أثناء الحج

---

(١) آل عمرن : ١٤٨ . (٢) البقرة : من الآية ١٩٨ .

والعمرة بالتجارة ونحوها إذا احتجتم إلى ذلك ، بشرط أن تؤدوا المناسك على وجهها ، فهذه رخصة من الله -تبارك وتعالى - لمن حج واعتمر ولكل من غزا فى سبيل الله وقصده الأول : إعلاء كلمة الله .

وفى رواية : «وسافروا تستغنوا» ، فما معنى تستغنوا ؟

أقول : معناه تحصلون من الغزو على ما يغنيكم الله به من فضله عن الناس، ويحتمل أن يكون المعنى تجدون الغنى فى قلوبكم وإن لم تغنموا شيئاً من الأموال .

ويحتمل أن يكون الاستغناء بمعنى العزة ، أى اغزوا لطلب العزة فمن جاهد فى سبيل الله أعزه الله ونصره ، وكل هذه المعانى مرادة لا تنافى بينها .

وقد سبق الكلام على الجهاد وفضله فى مواضع من هذا الكتاب ، والحمد لله رب العالمين .

نسأل الله لنا ولكم الهداية والتوفيق .

* * *

(١٠٦) السَّفَرُ قطعةٌ من العذاب

عن أبى هريرة – رضي الله عنه – عن النبي – ﷺ – قال : «السَّفَرُ قطعةٌ من العذاب ، يمنعُ أحدَكم طعامَه وشرابَه ونومَه ، فإذا قضى نَهْمَتَه فليعجِّلْ إلى أهلِه» (١) .

* * *

يخبر النبى – ﷺ – فى هذه الوصية عن أمر واقع لا شك فيه وهو أن السفر قطعة من العذاب ، يمنع أحدكم طعامه وشرابه ونومه ، بمعنى أنه يمنع الإنسان عن تناول طعامه فى الوقت الذى يريد، وبالقدر الذى يحب، وبالكيفية التى يرضاها فى إعداده وتقديمه والمكان الذى يقدم فيه، والشخص الذى يقدمه إليه، والجو الذى يتناوله فيه ، إلى غير ذلك مما يحبذه ويرتضيه .

وما يقال فى الطعام يقال فى الشراب .

وأما النوم فإنه راحة للأبدان وهو لا يتحقق على الوجه الأكمل إلا فى بيت الإنسان، وعلى فراشه الخاص وفي الجو المناسب والوقت المناسب وبالقدر المناسب، فكيف يتحقق هذا فى السفر .

إذاً فهو حقاً جزء من العذاب الذى يلقاه الإنسان فى دنياه . هذا فضلاً عن الشعور بالغربة والبعد عن الأهل والأصحاب والأماكن التى يرتادها فى بلدته والجو الذى تعود عليه ، إلى غير ذلك من الأشياء التى لها فى نفسه ذكريات .

هذا مع شعوره بالخوف من العواقب التى لا تحمد والمخاطر التى لا تؤمن والمتاعب التى يجدها فى الانتقال من مكان إلى مكان مهما كانت الوسائل ميسرة ومريحة وسريعة ، فإن السفر هو السفر .

ولكن هو أمر لابد منه في يوم من الأيام ، وله فوائد كثيرة قد ذكرت بعضها في الحديث السابق .

وأحياناً يكون السفر واجباً، أو ضرورة لابد منها، ولكن ينبغى على الإنسان إذا قضى حاجته أن يعود إلى بلده وأهله كما أوصى الرسول – ﷺ – .

---

(١) أخرجه البخارى فى العمرة ١٩ ، والجهاد ١٣٦ ،وفى الأطعمة ٣٠ ، ومسلم فى الإمارة ١٧٩ .

قال : « فإذا قضى نَهْمته » أى حاجته « فليعجِّل إلى أهله » ، أى أن الضرورة تقدر بقدرها ، فإذا كان فراق الأهل قد رخص فيه للضرورة فليعد إليهم عقب زوالها .

* * *

وفى هذه الوصية بر بالمسافر وبر بأهله ، والبر جماع الخير كله .

أما المسافر فإنه لو عاد من سفره عقب قضاء حاجته فإنه يريح نفسه من العناء الذى وجده فى سفره ، وهو عناء مادى ومعنوى .

وربما يكون العناء المعنوى أشد من العناء المادى والمرء فى هذا فقيه نفسه .

ومهما كان المسافر يحب الأسفار وقد تعود عليها فخففت عليه متاعبها فإنه لابد أن يجد عناءً ونصباً ، فهو يكون حتماً فى حاجة إلى بلده وداره وأهله وفراشه ، فمن البر بنفسه أن يأخذ بهذه الوصية الرحيمة فيعود إلى أهله دون أن يظلم نفسه بتحمل المزيد من المتاعب وتضييع الوقت فيما لا ينفع .

وأما الأهل فإن لهم حقاً عليه يجب أن يؤديه لهم كاملاً غير منقوص ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

ومن حقهم عليه أن يستأذنهم فى السفر فإن أذنوا له سافر ، وإن لم يأذنوا له فلا يسافر إلا إذا كانت هناك ضرورة شرعية للسفر ، كأن يسافر لتأدية الحج والعمرة ، أو يسافر من أجل طلب الرزق إذا كان رزقه فى بلده ضيقاً ، أو يسافر من أجل طلب العلم وما أشبه ذلك من الضرورات التى تقدر فى حينها ، وتعرف بواسطة أهل الرأى والمشورة .

وإذا قدر الله له أن يسافر أكثر من ستة أشهر فلابد أن يسترضى زوجته أو أمه أو أباه أو هم جميعاً ، فإن أبت الزوجة أن يستمر فى هجرته خيرها بين أن ترضى بذلك أو أن تطلق .

ولا يلجأ إلى ذلك إلا عند بذل الوسع فى إقناعها واسترضائها .

وكذلك الأم أو الأب إن طلبا منه الرجوع فليرجع أو يحاول أن يسترضيهما بشتى الحيل وإلا كان ظالماً لأهله وأبويه عاقاً لهما .

والظلم ظلمات يوم القيامة ، وعقوق الوالدين من أكبر الكبائر، فليأخذ كل واحد منا حذره من ذلك وليؤثر الآخرة على الدنيا (والآخرة خير وأبقى) .

والناس فى هذه الأيام أحوج ما يكون إلى هذه الوصية وما يترتب عليها من الأحكام ؛ فإن الهجرة قد اتسع مداها وتباعدت أقطارها وكثرت الدواعى إليها ، فكثير منهم يهاجرون إلى مواطن العمل المربح ويتركون أزواجهم وأولادهم يعانون من الفراغ القتّال ، وخلو الساحة المنزلية من المربى والرقيب والقوام الذى يتحمل التبعة فى إصلاح الأسرة وتوجيهها إلى الخلق الفاضل والسلوك النبيل وحمايتها من الانحراف والتسيب والإهمال .

فعلى من يترك أسرته بلا عائل يرعاها ويهاجر من أجل جمع المال – وهو ظل زائل وعارية مستردة – أن يسأل نفسه هل ما يجمعه لأسرته يساوى ما يلقاه هو فى الغربة وتلقاه أسرته من الفراغ الدينى والعقد النفسية والمتاعب الجسدية والروحية ، التى غالباً ما تؤدى إلى الفشل فى كل شىء حتى فى المال الذى يجمعه فإنه لا يكون قادراً على تنميته فى غربته ولا فى بلده .

ولو استطاع أن ينميه ويزيد فيه ما شاء الله أن يزيد فإنه غالباً لا ينفعه ولا يجد متعة فى استغلاله ولا فى ادخاره ، وربما يكون هذا المال وبالاً عليه وعلى أسرته ، وسبباً فى فشل أولاده فى الدراسة وفى سائر نواحى الحياة .

والعاقل من يزن الأمور بميزان صحيح ويستشير أهل الرأى والمشورة فى أمر هجرته وتغربه عن بلده . هل هو ضرورة ملحة أم هو مجرد رغبة .

وإذا كانت ضرورة لابد منها فلينظر إلى ما يجده هو فى الغربة وما تجده أسرته فى غيبته من المآسى والمحن ، التى قد لا يراها ظاهرة على الساحة إلا بعد حين ، لا يتمكن بعده من مراجعة نفسه ولا من اتخاذ القرار المناسب فى الوقت المناسب ، فيسلم بالأمر الواقع أو يندم فلا ينفعه الندم .

وليعلم كل من تحدثه نفسه بالهجرة أن الحياة ليست بالمال وحده بل هى كمٌّ هائل من الضروريات والحاجيات المادية والمعنوية .

فالمعيشة كل لا يتجزأ ، قد قسمها الله بين عباده بالعدل المطلق ، فجعل

القسمة مئوية ، بمعنى أن النسبة تتفاوت من نعمة إلى نعمة ، وتنتهى فى مجموعها إلى التساوى .

فمن الناس من أعطاه الله مالاً أكثر وصحة أقل ، والعكس .

ومنهم من أعطاه علماً أكثر ومالاً أقل ، والعكس ، فإذا نظر كل إنسان إلى ما لديه من النعم مجتمعة لم ير أحداً قد بخسه الله شيئاً من أمور معاشه ، ولم ير أحداً أفضل منه فى أمور المعاش من كل وجه ، بل يرى أنه ما من مرفوع فى جهة إلا وهو مخفوض في جهة أخرى .

قال تعالى : ﴿ نحن قسَمنا بينهم معيشتَهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجاتٍ ليتخذَ بعضُهم بعضاً سُخريًّا ورحمةُ ربك خيرٌ مما يجمعون ﴾ (١) .

أى نحن بقدرتنا قسمنا بين الناس بالعدل أمور معايشهم ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات في العلم أو في المال أو فى الصحة إلى آخره — من أجل أن يتخذ بعضهم بعضاً سُخرياً ، أى خدماً ، لتعمر الأرض وتستقر الحياة .

وأنت أيها الأخ المسلم إذا آمنت بما جاء فى هذه الآية إيماناً لا يخالجه شك استطعت أن تتخذ القرار السليم فى الهجرة أو فى عدمها ، وخذ من غيرك عبرة وحاول أن تتلاشى ما يمكنك تلاشيه إن قررت أن تهاجر وتترك أسرتك فى حماية الله عز وجل ومعك عقلك ودينك وضميرك .

وأغزر الناس عقلاً من إذا نظرت
عيناه أمراً غدا بالغير معتبرا
وأحزم الناس من لو مات من ظمأ
لا يقرب الوِردَ (٢) حتى يعرف الصَدَرَا
من دبر العيش بالآراء دام له
صفواً وجاء إليه الخطب (٣) معتذرا

---

(١) الزخرف : من الآية ٣٢ .

(٢) الورد — بكسر الواو — : الماء ، والمعنى أنه لا يقدم على شيء إلا إذا عرف وجه الخير فيه .

(٣) الخطب هو الأمر الذى يخشاه المرء على نفسه .

يهـــون بالرأى ما يجـرى القضـــــاء به

ومن أخطأ الرأى لا يستذنب [1] القدرا

وأنا لا أثبط من عزمك على الهجرة إن كان فيها خير لك ، بل أرغبك فيها .

وقد ذكرت فى الحديث السابق حكم الهجرة فراجعه إن شئت ، وبالله توفيقك والسلام .

* * *

(١) أى لا يعتذر بالقدر .

(١٠٧) لاَ تَعَلَّمُوا العلم لتُبَاهوا به العلماءَ

عن جابر بن عبد الله ، أن النبى - ﷺ - قال :

«لا تَعَلَّمُوا العِلْمَ لتُبَاهوا به العُلَمَاءَ ، ولا لتُمَارُوا به السُّفَهَاءَ ، ولا تَخَيَّرُوا بِهِ المَجَالسَ ، فمَنَ فعل ذَلكَ فَالنَّارُ النَّارُ» (١) .

* * *

هذه وصية لمن يطلب العلم ويَجِدُّ فى طلبه ويقضى العمر فى تحصيله ، أن يتحلى بالإخلاص لله فى طلبه ، ويتزود بالتقوى ؛ فإنها الطريق إلى فتح أبواب المعرفة .

فالإخلاص عليه مدار صحة الأعمال وقبولها ، والتقوى هى جماع الفضائل كلها ، فلن يصل إلى العلم النافع فى الدنيا والآخرة إلا من طلبه لوجهه الكريم ، واستعان على طلبه بالطاعة والخضوع ، والتمسكن والتواضع لمن بيده مفاتيح العلم جميعها .

والعلم أسمى مطلب يسعى إليه المؤمن ؛ لأنه مفتاح القلوب إلى الإيمان واليقين الصادق ، فلا إيمان بلا علم ، ولا يقين إلا بعد إيمان .

فمن اتَّسعت دائرة علمه انشرح صدره بالذِّكر ، وانفتح عقله بالفكر ، واتَّسع قلبه لمدارك الهدى والنور .

ولذا قال الله – تبارك وتعالى: ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾ (٢) .

والمعنى : وَحِّد ربك توحيداً خالصاً مبنياً على العلم بالأدلة القاطعة على أنه لا معبود بحَقٍّ إلا هو جل شأنه وعز جاهه .

فأهل العلم هم الشهداء على ذلك .

---

(١) رواه ابن ماجه فى المقدمة ، باب ٢٣ ، حديث رقم : ٢٥٤ ، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد : رجال إسناده ثقات ، ورواه ابن حبان فى صحيحه ، والحاكم .

(٢) سورة محمد : ١٩ .

قال تعالى : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ [1] .

فمن أراد أن يفتح الله عليه أبواب العلم فَلْيَطْلُبْهُ من الله وبالله ولله .

وذلك يتطلب من المتعلم أن يُجَرِّدَ نفسه من نزغات الهوى ونزوات الطمع والفخر والعصبية وحَمِيَّةِ الجاهلية ، والرغبة فى طلب الرياسة والسيادة وعلو المنزلة فى الدنيا .

لهذا أوصى النبى – ﷺ – من شَمَّرَ عن ساعد الجد فى طلب العلم أن يصرف هِمَّتَهُ عن الرغبة فى مباهاة العلماء إذا ما فُتِحت له أبواب العلم والمعرفة ؛ فإن المباهاة – وهى المفاخرة – تقطع صلة العبد بربه ؛ لأنها من الكِبر بمكان ، والمتكبر لا حظّ له فى رضا الله ولا نصيب له فى الجنة .

والأدلة على ذلك كثيرة ، قد مَرَّ بعضها وسيأتى بعضها فى حديث آخر إن شاء الله .

ومباهاة العلماء – أيضاً – نوع من الجدل العقيم ، والجدل مذموم كله إلا بالتى هى أحسن ، والمباهاة من أسوأ السوء في بابه ؛ لما يترتب عليها من إثارة الشحناء والبغضاء ، وقطع الأواصر التى أمر الله أن توصل ، ولما فيها من توسيع هوة الخلاف ، الذى ليس من ورائه إلا الشر وإثارة الفتن ، وإحياء العصبيات القَبَلِيَّة والمذاهب الباطلة ، وإشاعة الشبهات والأباطيل بين الخواص والعوام .

والجدال يشتد خطره ويستفحل شره إذا كان مع السفهاء ، وهم الذين خفَّت عقولهم ، وضعفت عزائمهم ، وفسدت نِيَّاتهم بسبب الجهل المركب ؛ إذ لو كان بسيطاً لطلبوا العلم .

والجاهل جهلاً مركباً هو الأحمق الذى يَدَّعِى ظلماً وزوراً أنه قد أوتى من العلم ما لم يؤته فلان وفلان ، أو هو أبو العُرِّيف كما يقول العوام ، فهو بحمقه صار أحطَّ من الحيوان شأناً ، فالحيوان لديه إلهام بأنه جاهل ، فجهله إذاً بسيط ، بخلاف هذا الوغد المستكبر المغرور ، فإنه لو كان يعلم أنه جاهل ما جادل العلماء فى أمر لا يعلمه .

---

(١) سورة آل عمران : ١٨ .

فإن جادلهم ، فقد يكون له عذره ، لكن أى عذر للعالم فى مجادلته !!

لو كان عالماً حقًّا لوسعه حلمه والتمس له الأعذار ، وفضٌ الجدال معه بأيسر أسلوب وفى أقصر وقت ، بحيث لا يترك له مجالاً لتضييع وقته معه، فلا خير فى علم إلا بحلم .

على أن من أكبر المصائب أن يمارى العالم سفيهاً بقصد أن يغلبه ويلزمه الحجة ، فإن ذلك أبعد إليه من نجوم السماء .

وما أحسن قول الشافعى – رضى الله عنه – :

يخاطبنى السفيهُ بكل حمقٍ فآبى أن أكونَ له مجيبا

يزيد سفاهةً وأزيد حلماً كعودٍ زادَه الإحراقُ طِيبَا

وكذلك العالم الذى يبتغى بعلمه مجالس السلاطين والأمراء، فإنه لا يلبث حتى يحتقره أدنى السفهاء ، فيصير ذليلاً بما كان ينبغى فيه العزة ؛ فإن العلم بلا إخلاص وتقوى يكون أخطر على صاحبه من الجهل نفسه .

وما أحسن قول الشاعر :

حَسْبِى بعلمى ما نَفَعْ ما الذُّلُّ إلا فى الطمعْ

مَنْ رَاقَبَ اللهَ نَزَعْ عَنْ قُبْحِ ما كَان صَنَعْ

مَا طَارَ طَيْرٌ وَارْتَفَعْ إلاَّ كَمَا طَارَ وَقَعْ

وقال آخر :

نُرَقِّع دُنْيَانَا بتمزيق دِينِنَا فلا الدينُ يَبْقَى ولا ما نُرَقِّعُ

وفى آخر هذه الوصية وعيد شديد لمن فعلَ ذلك ، لأن هذا الفعل بعيد عن الإخلاص والتقوى كل البعد ، لما فى ذلك الفعل من الكبر والعجب والغرور والرياء وحب الظهور وغير ذلك من الآفات المهلكة .

قال رسول الله – ﷺ – : «أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه علمه» (١) .

---

(١) رواه الطبرانى وابن عدى وابن ماجه ، انظر كشف الخفاء حديث رقم : ٣٧٦ .

وقال رسول الله – ﷺ – :

« من تَعَلَّم علماً مما يبتغى به وجه الله – عز وجل – ، لا يتعلمه إلا ليصيب به عَرَضاً من الدنيا ، لم يجد عَرْف الجنة يوم القيامة » [1] . يعنى ريحها .

* * *

ويستفاد من هذه الوصية فوائد كثيرة منها :

١ – الإخلاص فى طلب العلم ، بمعنى أن الطالب ينبغى أن يبتغى بعلمه وجه الله تعالى لا لدنيا يصيبها ولا لوظيفة تسند إليه ولا لجاه يحصل عليه .

فمن طلب العلم لغير الله استعصى عليه ، ولم ينتفع بما حَصَّل منه .

قال الشافعى – رضى الله عنه – : طلبنا العلم زماناً لغير الله فأبى إلا أن يكون لله .

والمعنى : طلبنا العلم لذات العلم ، ولما فيه من رفعة شأن وعظمة جاه – فلم نجد له حلاوة ولم يفتح الله علينا فيه فتحاً ، فلما أخلصنا النية وأصلحنا الطوية جاءنا من العلم ما لم يأتنا من قبل .

وما أحسن قول القائل :

تَعَلَّمْ ما استطعت لقصد وجهه ... فإن العلمَ من سُفُنِ النَّجَاةِ

ومن طلبَ العلوم لغير وجهه ... بعيداً أن تراهُ من الهداةِ

وقد أشرنا إلى هذه الفائدة من قبل فلا نطيل الكلام فيها .

٢ – الانقطاع لطلب العلم وترك ما يشغل عنه من مماراة العلماء ومجادلة السفهاء وقضاء الوقت فى مجالس السوء ومحاباة الحكام وأهل الثراء .

قال حذيفة – رضى الله عنه –: إياكم ومواقف الفتن، قيل: وما هى؟، قال: أبواب الأمراء، يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب، ويقول ما ليس فيه.

وقال سعيد بن المسيب – رحمه الله – : إذا رأيتم العالم يغشى الأمراء ، فاحذروا منه فإنه لص .

---

(١) رواه أبو داود وابن ماجه بإسناد جيد .

وقال بعض السلف : إنك لا تصيب من دنياهم شيئاً إلا أصابوا من دينك أفضل منه .

٣ ـ استثمار العلم فيما ينفع فى الدنيا والآخرة ، فإن العلم قدرة وقيمة .

وقدرته تتجلى فى تقويم صاحبه وتوجيهه إلى الطرق المثلى فى استغلال أوقاته وممارسة حياته والمحافظة على دينه وعرضه .

وقيمته تَتَمَثَّلُ فى أعظم أنواعه وأنفعها كالعلوم الدينية واللغوية وغيرها مما ينبغى طلبه .

وأعظم قيمة للعلم أن يُعرفك بالله ويبعدك عن الدنيا ويقربك من الآخرة .

على أن البعد عن الدنيا بالكلية أمر غير مشروع ، ولكن البعد المقصود هو ألا يجعلها مبلغ هَمّه ومنتهى أمله .

قال شقيق البلخى ـ رحمه الله ـ لحاتم : قد صحبتنى مدة، فماذا تعلمت؟ قال : ثمانية مسائل :

أما الأولى : فإنى نظرت إلى الخلق ، فإذا كل شخص له محبوب ، فإذا وصل إلى القبر فارقه محبوبه ، فجعلت محبوبى حسناتى لتكون فى القبر معى .

وأما الثانية : فإنى نظرت إلى قول الله تعالى : ﴿ونهى النفس عن الهوى﴾ (١) فأجهدتها فى دفع الهوى حتى استقرت على طاعة الله تعالى .

وأما الثالثة : فإنى رأيت كل من معه شىء له قيمة عنده يحفظه ، ثم نظرت فى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ما عندكم ينفد وما عند الله باق﴾ (٢) فكلما وقع معى شىء له قيمة ، وجهته إليه ليبقى لى عنده .

وأما الرابعة : فإنى رأيت الناس يرجعون إلى المال والحسب والشرف، وليست بشىء، فنظرت فى قول الله تعالى : ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ (٣) فعملت فى التقوى لأكون عنده كريماً .

---

(١) النازعات : ٤٠ .
(٢) النحل : ٩٦ .
(٣) الحجرات : ١٣ .

وأما الخامسة : فإني رأيت الناس يتحاسدون ، فنظرت في قوله تعالى : ﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم ﴾ [1] فتركت الحسد .

السادسة : رأيتهم يتعادون، فنظرت في قول الله تعالى : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً ﴾ [2] فتركت عداوتهم واتخذت الشيطان وحده عدواً .

والسابعة : رأيتهم يذلون أنفسهم في طلب الرزق ، فنظرت في قوله تعالى : ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾ [3] فاشتغلت بما له على وتركت ما لي عنده .

والثامنة : رأيتهم متوكلين على تجارتهم وصنائعهم وصحة أبدانهم ، فتوكلت على الله تعالى .

هذا – والله – هو العلم النافع المثمر الموصل إلى الله تعالى ، رزقنا الله وإياكم من لدنه علماً ينفعنا في ديننا ودنيانا .

* * *

---

(١) الزخرف : ٣٢ . (٢) فاطر : ٦ .

(٣) هود : ٦ .

(١٠٨) إذا لم تستح فاصنع ما شئت

عن أبى مسعود الأنصارى - رضى الله عنه - قال : قال النبى - ﷺ - : «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى : إذا لم تستح فافعل ما شئت» .

وفى رواية ابن مسعود : «فاصنع ما شئت» (١) .

* * *

الأصول الأخلاقية فى الدين مجمع عليها بين الأنبياء والمرسلين لم يختلف واحد منهم فى أصل من أصولها .

والحياء أصل من أصول الأخلاق ، بل هو من أهمها ؛ لأن جميع الخصال الأخلاقية ترد إليه وتبنى عليه ، ولهذا خص بالذكر من بين شعب الإيمان فى قوله - ﷺ - : «الإيمان ، بضع وسبعون شعبة أعلاها لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان» (٢) .

وقد كان الحياء ولا يزال ميزاناً توزن به الأعمال وتعرف به قيم الرجال وتفاوتهم فى الإيمان ، فمن اشتد حياؤه فقد عظم شأنه بين المؤمنين وارتفعت درجاته فى أعلى عليين .

فأهل الحياء هم أهل الجنة ؛ لأن حياءهم حال بينهم وبين الكفر بالله ، لأنه ليس من الحياء فى شيء أن يعرف الإنسان أن الله خلقه من العدم ورباه على موائد الفضل والكرم ، ثم هو يكفر به ويجحد نعمه .

وحال بينهم وبين الرياء الجلى والخفى ، وهو ما يسمى بالشرك الأصغر ؛ لأنه من عرف أن الله هو الذى يجزى على الأعمال الصالحة لم يشرك معه فيها غيره ، عملاً بقوله تعالى : ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشركْ بعبادة ربه أحداً﴾ (٣) ، بل حال بينهم وبين المعاصى كلها .

---

(١) أخرجه البخارى ١٠/٤٣٤ فى الأدب ، باب إذا لم تستح فاصنع ما شئت ، وفى الأنبياء ، باب ما ذكر عن بنى إسرائيل ، وأبو داود رقم : ٤٧٩٧ فى الأدب ، باب ما جاء فى الحياء وأخرجه أيضاً ابن ماجه رقم : ٤١٨٣ فى الزهد ، باب الحياء .

(٢) رواه مسلم عن أبى هريرة فى كتاب الإيمان . (٣) الكهف : ١١٠ .

ولا شك أن العبد الحيى يمنعه حياؤه أن يلقى ربه وهو مشرك به فتراه يستحى من ربه أن يراه حيث نهاه أو يفتقده حيث أمره .

* * *

وقد كان النبى - ﷺ - يعلم أصحابه أصول الأخلاق وقواعدها العامة من خلال قصص الأنبياء أسوة بالقرآن الكريم ، وذلك فى خطبه ودروسه التى يلقيها إليهم فى الأوقات التى يكونون مهيئين فيها لتقبل المواعظ أكثر من غيرها .

ومما وعظهم به ما جاء فى هذه الوصية من عبر ، وهى وصية قصيرة جاءت فى صورة خبرية والقصد منها الأمر ، فإنها وصية الأنبياء جميعاً .

فقد كان كل نبى يقول لأمته هذا القول ، فصار هذا القول مثلاً يضرب لمن دفعه عدم الحياء إلى ارتكاب ما يستحى من فعله أو قصر فى أمر يستحى من التقصير فيه ، أو منعه الحياء من فعل ما يجب فعله أو يستحب فعله .

فقوله ﷺ : «إذا لم تستح فافعل ما شئت - أو اصنع ما شئت -» يحتمل ما ذكرناه ، فيكون للحديث معنيان :

الأول : تهديد لمن دفعه عدم الحياء لارتكاب المحظور، على حد قوله تعالى: ﴿ اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير﴾ (١) .

والثانى : توجيه لمن منعه الحياء من فعل ما ينبغى فعله أن يقدم عليه دون استحياء ، ولا يكون الحياء مانعاً منه .

والمعنى إذا لم يكن فى الفعل ما يستحى منه فافعله .

والمعنى الأول هو المتبادر إلى الذهن ، فهو تهديد وتوبيخ لمن لم يتخلق بخلق الحياء .

ومعنى قوله - ﷺ - : «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى» أنه كلام محكم لم تنسخه شريعة من الشرائع ، فهو تهديد باق على مر الأيام لمن لا حياء له؛ إذ من لا حياء له لا إيمان له .

---

(١) فصلت : ٤٠ .

فعن عبد الله بن عمر – رضى الله عنهما – أن رسول الله – ﷺ – مر على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه فى الحياء ، فقال رسول الله – ﷺ – : « دعه فإن الحياء من الإيمان » [1] .

أى دعه ولا تجهد نفسك فى وعظه فإن الحياء ينبع من الإيمان ، فلو كان مؤمناً حقاً لكان الحياء طبعاً فيه .

* * *

وخلاصة القول أن الحياء خير كله ، كما قال عليه الصلاة والسلام فى حديث آخر ، وأنه لا يأتى إلا بخير ، وأنه من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، وأن الحياء هو الكف عن كل قبيح تأباه الشريعة الغراء وينفر منه الطبع السليم .

وقد عرفه النبى – ﷺ – بأنه : « حفظ الرأس وما وعى ، والبطن وما حوى وذكر الموت والبلى » . كما جاء فى الوصية الثامنة عشرة .

وقد بسطنا القول هناك فى بيان حقيقة الحياء ومفهومه ، ومنزلته وآثاره ومتى يحمد ومتى يذم ، فراجعه إن شئت وبالله توفيقك .

* * *

(١) أخرجه البخارى ١ / ٦٩ فى الإيمان ، ومسلم ٣٦ فى الإيمان .

(١٠٩) اتَّقوا الله واعدلوا بين أولادِكم

عن حُصَيْنٍ عن عامر قال : سمعت النعمان بن بشير – رضى الله عنهما – وهو على المِنْبَرِ يقول : أعطانى أبى عطيةً ، فقالت عَمْرَةُ بنتُ رَوَاحَةَ : لا أَرْضَى حتى تُشْهِدَ رسول الله – ﷺ – ، فأتى رسولَ الله – ﷺ – فقال : إنّى أعطيتُ ابنى منْ عَمْرَةَ بنْت رَوَاحَةَ عَطِيَّةً فأَمَرَتْنى أَنْ أُشْهِدَكَ يا رسول الله ، قال : «أَعْطَيْتَ سائر وَلَدِكَ مِثْلَ هذا» ؟ ، قال : لا.

قال : «فَاتَّقُوا الله واعْدِلُوا بَيْنَ أولادكم» ، قال : فَرَجَعَ فَرَدَّ عَطِيَّتَهُ [١] .

* * *

هذا الحديث رواه جمع كثيرٌ من التابعين عن النعمان بن بشير ، وأخرجه أكثر أصحاب السنن والمسانيد ، واهتم المحدثون والفقهاء بدراسته واستنباط الأحكام الكامنة فيه والتنبيه على ما فيه من الفوائد .

وقد توسَّعتُ فى دراسته فى كتابى « الفقه الواضح » ، ونقلت هذا الحديث برواياته المختلفة ، وبَيَّنْتُ ما يترتب عليه من الأحكام ، وبينتُ كذلك وجوه الاختلاف بين الفقهاء فى جواز الهبة وعدم جوازها .

ولكن قبل أن ألخص لك ما جاء فيه أذكر لك نبذة عن بشير وابنه النعمان فأقول :

هو بشير بن سعد بن ثعلبة بن الجُلاَس الخزرجى ، صحابى شهير شهد بدراً وغيرها ، ومات فى خلافة أبى بكر سنة ثلاث عشرة .

وقيل : عاش إلى خلافة عمر ، وقيل : هو أول من بايع أبا بكر من الأنصار – رضى الله عنهما – [٢] .

---

(١) أخرجه البخارى بهذا اللفظ، فى كتاب الهبة ، باب ١٣ ، ورواه أيضاً فى الشهادات، باب ٩ بألفاظ مختلفة ، ورواه مسلم ، فى كتاب الهبات ، باب ٣ ، حديث رقم : ١٦٢٣ .

(٢) انظر فتح البارى جـ ١١ ص ٢٠ .

وأما النعمان فهو صحابى صغير كان له عند موته - ﷺ - ثمان سنين وسبعة أشهر ، وهو أول مولود في الأنصار بعد الهجرة ، كما أفاده الكاندهلوى فى «أوجز المسالك إلى موطأ الإمام مالك» .

وأمه عمرة بنت رواحة ، أخت عبد الله بن رواحة الشاعر المعروف .

* * *

يقول النعمان : «أعطانى أبى عطية» ؛ أى مَنَحَنِى هبة من ماله ، قيل : غلاماً ، وقيل : حديقة ، ونحن لا يعنينا معرفة الشيء الذى وهبه له ، ولكن يعنينا أنه أعطاه شيئاً لم يعط سائر أولاده مثله .

«فقالت عمرة بنتُ رواحة : لا أرضى حتى تشهد رسول الله - ﷺ -» وكأنها تخفى فى نفسها أمراً ، شأنها فى ذلك شأن النساء الماكرات ، كأنى بها تريد أن تُوَثِّقَ هذه الهبة توثيقاً لا ينازع فيه أحدٌ من العالمين ، وحتى لا يعود فى هبته بعد ذلك ، ولا يتثنى لواحد من أولاده منها أو من غيرها أن يعترض على هذه الهبة ، أو ينطق ببنت شفه .

وهذا مكر محمود ، لا تذم به ولا تعاب عليه ، ولاسيما أنها أمٌّ ، تحب النعمان أكثر من غيره ؛ لأنه صغير .

وقد قيل لامرأة عربية : أىُّ أولادك أحب إليك ؟

فقالت : الصغير حتى يكبر ، والمسافر حتى يحضر ، والمريض حتى يبرأ .

* * *

والآن نلخص لك ما جاء فى «الفقه الواضح» من الأحكام التى تتعلق بهذا الحديث ثم نتبعه بتعقيبات أراها غاية فى الأهمية .

نقرر بادئ ذى بدء أنه لا خلاف بين العلماء فى جواز الهبة للولد إذا لم يكن للواهب غيره من الأولاد ، أو كان له ولد أو أكثر فاسترضاهم فأجازوه فى هبته ، أو أعطى كل واحد منهم مثل ما أعطاه .

وإنما الخلاف فيما لو وهب رجل لأحد أولاده شيئاً دونهم ولم يسترض أحداً منهم بشيء .

فمنهم من أجاز ذلك ، لأن المال ماله وهو حر التصرف فيه ، ومنهم من أجاز ذلك للضرورة كأن يكون الولد فقيراً أو عاجزاً ، ونحو ذلك .

ومنهم من قال بكراهتها لاختلاف العلماء فى فهم حديث النعمان بن بشير ، وهو الأصل الذى يدور عليه الخلاف بينهم فى هذه المسألة .

فالذين قالوا بالحرمة إلا عند الضرورة استدلوا بقوله – ﷺ – فى رواية : « لا أشهد على جَور» ، والجور هو الظلم ، وقد حرم الله الظلم على نفسه وجعله بين الناس محرماً .

والذين قالوا بالكراهة استدلوا بقوله – ﷺ – فى رواية : «أشهد على هذا غيرى» ، فقد دل على أن الهبة ليست باطلة وليس فيها ما يفيد التحريم حيث سمح بأن يشهد عليها غيره ، وتنزهه عن الشهادة يدل على الكراهة لا على التحريم ، وهذا غير مسلم لأن الأمر للتوبيخ لا لإباحة الإشهاد .

والخلاصة أن التسوية بين الأولاد واجبة إن خيف من عدمها الضرر وقطيعة الرحم ، وهو أمر متوقع الحصول فى غالب الأحوال .

وإذا كانت التسوية واجبة حرم على الوالد أن يميز أحدهم بشيء إلا بإذنهم ورضاهم .

غير أن أحمد بن حنبل – رضى الله عنه – أجاز ذلك للضرورة ، كأن يكون الولد كبيراً عاجزاً لا يقدر على الكسب ، أو إذا كان عليه دين عجز عن سداده ونحو ذلك ، نقل ذلك عنه الشوكانى فى نيل الأوطار وابن قدامة فى المغنى .

وهذا الحديث برواياته المختلفة يوجب التسوية بين الأولاد فى العطية ما لم تكن هناك ضرورة شرعية تدعو إلى تمييز أحدهم عن الآخر ، إذ الضرورات تبيح المحظورات كما هو معلوم من الكتاب والسنة .

ويقاس على العطية التسوية فى المعاملة ما أمكن حتى لا يحدث بينهم ما يدعو إلى العداوة والبغضاء .

ونحن نعلم أن قطيعة الأرحام حرام ، فما أدى إليها حرام ، لأن للوسائل فى الشرع حكم المقاصد كما يقول علماء الأصول .

وأى تفضيل لأحد الأولاد عن الآخر يؤدى إلى كراهة بعضهم لبعض فينشأون على التحاسد والتباغض ، والخصام والنزاع والتفرق وهو أمر لا يرضاه الآباء والأمهات قطعاً مع أنهم سبب فيه .

وربما ورثوا ذلك أبناءهم وأبناء أبنائهم .

والمطلوب من الآباء والأمهات أن يغرسوا الحب والتفاهم بين أولادهم بالطرق التربوية المثلى ، والتى من أهمها التسوية فى المعاملة ما أمكن .

* * *

وأنا أعرف بعض الناس في المدن وفى الريف يخصون بعض أولادهم فى الوصايا والهبات لأسباب تافهة يظنونها وجيهة بجهلهم ، ولو سألوا عنها أهل العلم والحل والعقد لوجدوها لا تصلح بحال أن تكون أسباباً لارتكاب هذا العمل الخطير الذى يهدد كيان الأسرة كلها ويزلزل بنيانها ، ويغرس بين أفرادها شجرة العداوة والبغضاء ، وقد تظل هذه الشجرة باقية فى عقبه إلى أمد طويل .

وذلك أمر معروف ومجرب وواقع بين كثير من الأسر فى القرى والمدن .

وما كان أغناه عن ذلك لو ترك الأمر لله ، وعامل أولاده على قدم المساواة وغرس بينهم شجرة الود والمحبة والوفاق ، فإذا فعل ذلك اطمأن على صغيرهم وكبيرهم ، وعلى حاضرهم ومستقبلهم ، فبالحب يتعايش الناس فيما بينهم دون أرحام ولا أنساب تجمعهم ، فكيف لو كانوا إخوة تجمعهم أرحام وأنساب ، ولهم من أبيهم قدوة تجعلهم ينهجون نهجه فى أولادهم ، وتجعل أولادهم ينهجون فى أولادهم هذا النهج الكريم ، وهكذا تعمهم بركة الجد مهما علا ، فصلاح الأب يترتب عليه ولا شك صلاح الأبناء ، مهما نزلوا .

« ومن سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » .

يقول أحد الآباء : ابنى فلان يطيعنى وابنى فلان يعصينى ، وأريد أن أكتب كذا وكذا للطائع لأنه أحق بذلك من العاصى ، وهو أنفع لى منه ، وينسى هذا الرجل أن الطائع قد ينقلب عاصياً ، والعاصى قد ينقلب طائعاً ، فيكون أنفع له منه .

وقد يكون العاصى أحوج إلى بر أبيه من الطائع ، وربما لو كتب للطائع شيئاً أو أعطاه عطية يزداد العاصى له عقوقاً ، وربما يحقد على أخيه ، فيفكر فى قتله ، وربما .. وربما .

إنى أذكّر هذا وأمثاله بقول الله تعالى فى سورة النساء : ﴿آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً﴾ (١) .

وقد يقول أحد الآباء : إن ولدى فلاناً قد علمته وأحسنت تربيته والآخر لم ينل حظه من التعليم وهو يعمل زارعاً للأرض ، وأريد أن أعطيه شيئاً فى نظير ما أنفقته على المتعلم .

أقول له : لا تفعل فإن المتعلم إذا كان بينه وبين أخيه محبة وألفة قد ينفعه بعلمه ، وقد ينصره فى كثير من المواطن ، ويعينه على بعض الأمور التى يعجز عن القيام بها ، ثم إن ولده الزارع يفخر بأخيه ويعتز به ، ويتشرف بانتسابه إليه ، أليس هذا كله يساوى ما حصل عليه المتعلم من نفقات .

وقد يكون الزارع أحسن حالاً من المتعلم الذى سهر الليالى وأتعب نفسه فى تحصيل العلم وشقى بذلك دهراً طويلاً ، ثم إذا به يجد نفسه موظفاً صغيراً لا يكفيه راتبه العيش الكفاف بضعة أيام .

بينما يكون أخوه متمتعاً بكثرة الطعام وراحة البال واستقرار الحال ، فسبحان من قسَّم أمر المعاش كله بالتساوى بين الناس فمنهم من أعطاه مالاً أكثر، ومنهم من أعطاه علماً أكثر ، ومنهم من أعطاه أولاداً أكثر ، ومنهم ومنهم ، والحظ فى النهاية متساوى وإن ظهر التفاضل فى بعض النواحى .

قال تعالى : ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضُهم بعضاً سُخريّاً ورحمة ربك خير مما يجمعون﴾(٢) .

---

(١) آية : ١١ .
(٢) سورة الزخرف آية : ٣٢ .

والقسمة تقتضى العدل والمساواة ، فما من مرفوع فى جهة إلا مخفوض فى جهة أخرى ، فتأمل ذلك ودع الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ﴿ والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ .

واحرص كل الحرص على أن توفق بين أولادك وتوفق بين قلوبهم ما استطعت إلى ذلك سبيلاً ، وتزيل من طريقهم كل ما يسبب العداوة بينهم .

وبذلك تقوى الروابط الأخوية وتتوثق العرى بين أفراد الأسر والمجتمعات وما الأسرة إلا لبنة فى بناء المجتمع ، إن صلحت صلح المجتمع كله وإن فسدت فسد المجتمع كله .

والله الهادى إلى سواء السبيل .

* * *

(١١٠) ائت المعروفَ واجتنب المنكر

عن حرملة بن عبد الله بن أوس – رضى الله عنه – قال : قلت : يا رسول الله ، ما تأمرنى أعمل ؟

قال : «يا حرملة ، ائتِ المَعْروفَ ، واجْتَنِب المُنْكَرَ ، وانظر ما يُعْجِبُ أُذُنَكَ أَنْ يقولَ لَكَ القومُ إذا قُمْتَ من عندهم ، فَأْتِه ، وانْظُرِ الذى تَكْرَهُ أن يقولَ لك القومُ إذا قُمْتَ من عنْدِهِمْ ، فاجْتَنِبْه» (١) .

* * *

حرملة بن عبد الله بن أوس راوى هذا الحديث من بنى تميم ، أسلم وحسن إسلامه ، وكان من أهل الصُّفَّة ، وكان زاهداً عابداً ، وكانت الصلاة روحه وريحانه .

يدل حديثه هذا على أنه كان مُحِبًّا للعلم ، مَيَّالاً إلى الإكثار من فعل الخير والبعد عن فعل الشر .

سأل النبى – ﷺ – أن يوصيه وصية جامعة لخصال الخير كلها ، فقال : يا رسول الله ، ما تأمرنى أعمل ؟

أى ما الذى تأمرنى أن أعمله لتصحيح دينى وإصلاح دنياى ، وما الذى توصينى بعمله فى حلِّى وترحالى ؟

واختار هذه الصيغة على غيرها لأنها تجمع معنى النصح والإيصاء ، والإرشاد والتوجيه ، والأمر الواجب فعله والنهى الواجب تركه ، وغير ذلك مما فى معناه ، فكأنه قال : بماذا توصينى وتنصحنى وترشدنى وتشيرَ عَلَىَّ . . . الخ .

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الأدب المفرد ص ٧١ ، باب أهل المعروف فى الدنيا أهل المعروف فى الآخرة ، وكتاب الأدب المفرد هذا غير كتاب الصحيح الذى شرحه ابن حجر والعينى وغيرهما ، فيه الصحيح والحسن والضعيف . ورواه ابن سعد فى الطبقات ، والبيهقى فى شعب الإيمان ، وحسنه ابن حجر العسقلانى وغيره .

وهى صيغة تدل على أدب الرجل وحسن منطقه ، وشدة حرصه على امتثال الأمر فى سرور وحبور .

وهكذا كان أصحاب النبى – ﷺ – يفعلون فى مخاطبته ، فهم الذين ارتقت مداركهم ، وتهذبت طباعهم ، وتَقَوَّمَت ألسنتهم بأسلوب القرآن العظيم ومنطق النبى الكريم ، فأُشربوا حب الحكمة ونطقوا بها وجسدوها بأفعالهم ، كما جسدها النبى – ﷺ – بأفعاله ، فكانوا للناس هداة مرشدين بالأقوال والأفعال معاً ، وصاروا خير سلف لخير خلف ، فجزاهم الله عن أمة الإسلام خير الجزاء .

* * *

وقد أوصاه النبى – ﷺ – وصية ما تركت من الخير حبة خردل . وقد أوتى النبى – ﷺ – جوامع الكلم ، كما هو معروف من خلال أسلوبه المشرق ، المتميز بجمال التعبير ودقة التصوير وروعة البيان .

قال – عليه الصلاة والسلام – لحرملة : «ائْتِ المعروف ، واجتنب المنكر» .

والخطاب له ولجميع المكلفين من الأمة فلا يختص به أحد دون أحد إلا بدليل .

ومعنى قوله : «ائتِ المعروف» اعرفه وافعله ، وداوم عليه وعظمه فى نفسك ، وَأمُرْ به غيرك . كل هذه المعانى يحملها الأمر بالإتيان .

ولو قال : افعل المعروف ، أو اصنعه لَفَاتت بعض المعانى التى ذكرتها .

ومن نظر فى كتب اللغة وجد أن الإتيان يطلق على المجىء بسهولة وبسرعة، كقوله تعالى : ﴿فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا﴾[١] ، ولو قال سبحانه : «فجاءهم» لفات معنى السهوله والسرعة .

---

(١) الحشر : آية ٢ .

فقوله – ﷺ – : «ائت المعروف» يتضمن الفعل على وجه السرعة وبالطريق الأيسر أيضاً .

والمعروف : ما استحسنه الشرع واستحسنه العقل تبعاً له ، وأقرته الطباع السليمة ، وسكنت إليه النفوس المستقيمة ، واطمأنت به القلوب المؤمنة .

وأما قوله – ﷺ – : «واجْتَنِب المنكر» فمعناه : خذ لنفسك جانباً بعيداً عنه ، وكن منه على حذر .

والمجانبة هى المباعدة، والاجتناب لزوم المجانبة والمداومة عليها، كقوله تعالى: ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور ﴾ (١) .

وقوله جل وعلا : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ﴾ (٢) .

والأمر بهذا اللفظ أبلغ من قوله : لا تأت المنكر ، أو لا تفعله ، أو لا تقارفه أو لا ترتكبه ؛ لدلالته على لزوم المباعدة والمداومة عليها – كما ذكرنا – وهذا المعنى يلزم منه بُغْضُ المنكر وشدة إنكاره بالقلوب ، ونفرة الطبع من ذكره فضلاً عن مقاربته .

فمن رضى بالمنكر بقلبه ، فهو كمن فعله .

والمنكر ضد المعروف ، وهو ما أنكره الشرع وأنكره العقل تبعاً له .

وسبق الكلام عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى وصيتين سابقتين .

* * *

وقوله – ﷺ – «وانظر ما يُعْجِبُ أُذُنَكَ أن يقولَ لكَ القومُ إذا قمتَ من عندهم ، فَأْتِه»

معناه : تَدَبَّر فيما سمعته أُذنك من الكلام المعسول ، الذى تستسيغه وتستحسنه ممن قاله فى شأنك ولم يكن فيك شىء مما قالوه فأته وَتَحَلَّ به حتى تصدقهم فيه وتصدق أنت مع الله به ؛ فإن العاقل من عرف عيوب نفسه بنفسه أو بواسطة غيره فقام بإصلاحها على الوجه المرضىِّ .

---

(١) الحج : ٣٠ .　　(٢) المائدة : ٩٠ .

قالت امرأة عربية توصى ولداً لها أراد سفراً فى وصية طويلة : وَمَثِّل لنفسك مثال ما استحسنت به من غيرك فاعمل به ، وما استقبحته من غيرك فاجتنبه ؛ فإن المرء لا يعرف عيب نفسه ، فالمرء مرآة أخيه .

وقيل للأحنف بن قيس – رحمه الله – :ممن تعلمت الحلم ؟

قال : من نفسى ، كنت إذا كرهت شيئاً من غيرى لا أفعل مثله بأحد .

وأخرج البيهقى عن ابن مسعود – رضى الله عنه – أنه قال : من أحب أن ينصف الناس من نفسه فليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه .

وإسناد الإعجاب إلى الأذن فى الحديث أسلوب بلاغى حكيم ، فإن الأذن أحياناً تميل إلى سماع ما تستسيغه وتستيسره وتستمتع به ، وإن كان العقل فى كثير من الأحيان لا يصدقه ، كالشعر مثلاً فى المدح ، فإنهم قد قالوا : أعذب الشعر أكذبه .

وهذا الأسناد المجازى يجعل السامع يُحَكِّمُ عقله فيما يسمع ولا يترك الحكم لأذنه .

والعرب يُسندون الفعل لغير فاعله لغرض بلاغى لا مجال هنا لذكره .

وقد جاء في القرآن من ذلك الكثير ، كقوله تعالى حكاية عن موسى والخضر – عليهما السلام – : ﴿ فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقضَّ ﴾ [1] ، فانظر كيف أسند الله للجدار إرادة وهى ليست من خصائصه .

وإنى أوصيك – أيها الأخ المسلم – أن تتتبع مثل هذه الأساليب فى القرآن والسنة ، وتنظر ماذا قال فيها علماء التفسير والبلاغة والأدب ، فإنك لو فعلت لاستزدت فقهاً فى دينك ودنياك .

* * *

وقوله – ﷺ – : «وَانْظُرِ الذى تَكْرَهُ أن يقولَ لك القومُ إذا قمتَ من عندهم ، فاجتنبه» – توكيد لقوله : «وانظر ما يعجب أُذنك .. إلخ» ، وهو

---

(١) الكهف : الآية ٧٧ .

توكيد بذكر المقابل ، وهو ما يسمى بالطباق ، كمقابلة المعروف للمنكر ، ومقابلة الحسن للقبيح ، ومقابلة الحب للكره .

قال الأحنف بن قيس – رضى الله عنه – : من أسرع إلىٰ الناس بما يكرهون قالوا فيه ما لا يعلمون .

وقال الحكماء : من قَلَّ توقيّه ، كثرت مساويه .

وقال صفى الدين الحِلِّى :

وأَغْزَرُ الناسِ عَقْلاً مَنْ إذا نَظَرتْ عيناهُ أمراً غَدَا بالغَيْر مُعْتَبِرَا

وقال آخر :

إذا أعجبتك خلال امرئ فكنه تكن مثل من يعجبك
وليس على المجد والمكرما ت إذا جئتها حاجب يحجبك

وقال آخر :

لا تَلُمِ المرءَ على فعله وَأَنْتَ منسوب إلى مِثْلِهِ
مَنْ ذَمَّ شيئاً وأتى مثله فإنما دل على جَهْلِهِ

وقيل لعيسى بن مريم – عليه السلام – : من أدَّبَك ؟

قال : « ما أدبنى أحد ، رأيت جهل الجاهل فتجنبته » .

وقيل : كفاك تهذيباً وتأديباً لنفسك ترك ما كرهه الناس منك ومن غيرك .

وقال ابن المقفع : من نظر فى عيبه استعظم زلة نفسه ، ومن سلَّ سيف البغى قتل به .

وقال آخر : من نظر فى عيوب فأنكرها ثم رضيها لنفسه ، فذاك الأحمق حَقّاً .

والخلاصة : أن الحكيم من الناس من وعظ نفسه بنفسه ، واعتبر بغيره ، واستعمل فكره فيما يرى ويسمع ، فإن كان ما يسمعه أو يراه خيراً ، فليقدم عليه إن شاء ، وإن كان غير ذلك ، فليحجم عنه ؛ فإن الخير كل الخير فى معرفة

مواطن الخير والشر ، ومناهج الإقدام والإحجام ، فلا يأتى أمراً إلا إذا عرف ما يحمله على إتيانه .

قال صفى الدين الحلّى :

وأحزمُ الناسِ مَنْ لوْ مَاتَ من ظَمَأٍ   لا يقْرَبُ الوِرْدَ حتى يعرف الصَّدَرَا

أى لا يقرب الماء حتى يعرف مصدره ، فالورد فى اللغة الماء الذى يرده الناس ليشربوا منه ، وأحزم الناس أعقلهم وأشدهم كبحاً لجماح نفسه .

والحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها أخذها .

والحكمة ليست مقصورة فى الأقوال وحدها ، بل فى الأقوال والأفعال معاً .

فمن الناس من يُعَبِّر عن حكمته بأقواله دون أفعاله ، وهذا فى الحقيقة غير حكيم ، بل هو أفاق أثيم يقول ما لا يفعل .

قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون كَبُرَ مَقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ (١) .

ومن الناس من يفعل أكثر مما يتكلم ، فتسبق فى الخير أفعاله وأقواله ، ومنهم ومنهم .

الناس أصنافٌ إذا ما أنت ذُقْتَهُموا   لا يستون كما لا يستوى الثَّمَر

وأعظم ما يؤتاه المرء بعد الإيمان حكمة يضع بها الأمور فى موضعها ويلزم بها السداد فى أقواله وأفعاله .

قال تعالى : ﴿ يُؤتِى الحكمة من يشاء ومن يُؤتَ الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وما يذَّكَّرُ إلا أولوا الألباب ﴾ (٢) .

نسأل الله لنا ولكم الهداية والتوفيق .

* * *

---

(١) الصف : ٢ – ٣ .   (٢) سورة البقرة : ٢٦٩ .

(١١١) اعملوا ولا تَتَّكلُوا

عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال كُنَّا جُلُوساً عند النبي ـ ﷺ ـ وبيده عُودٌ ، فَنَكَتَ في الأرض ، ثم رفع رَأْسَهُ فقال :

« ما منكم مِن أَحَدٍ إلاّ وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ من الجَنَّةِ ومَقْعَدُهُ من النار » .

قيل : يا رسول الله ، أَفَلاَ نَتَّكِلُ ؟

قال : « لا ، اعملوا ولا تَتَّكلُوا فكلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ له ، ثُمَّ قرأ : ﴿ فأما مَنْ أعطى واتَّقى وَصَدَّقَ بالحسنى فَسَنُيَسِّرُهُ لليسرى وأما من بَخِلَ واسْتَغْنَى وكذب بالحُسنى فَسَنُيَسِّرُهُ للعُسْرَى ﴾ [١] .

* * *

الإيمان بالقضاء والقدر ركن من أركان الإيمان بالله عز وجل ، فمن لم يؤمن بقضاء الله وقدره لا يكون مؤمناً بوحدانيته عز وجل، ولا مقراً بأوصافه الكمالية .

وذلك لأن القضاء والقدر من الأمور الغيبية التى اختص الله بعلمها ولم يجعل لأحد معه فيها مجال .

وقضاء الله : حكمه العدل فى كل ما خلق وبرأ وذرأ .

وقدره : هو علمه بما كان وما يكون وما هو كائن ، فهو جل شأنه قدر ما قدر بعلمه المحيط ، فلا راد لقضائه ولا معقب لحكمه ، ولا يعلم أحد ما قدره الله عليه ، ولا ينبغى له أن يخوض فى أمر القضاء والقدر؛ فإن الخوض فيه مهلكة فضلاً عن أن العقول لا تدرك من كنههما شيئاً .

وفى هذا الحديث يضع النبى – ﷺ – الأسس التى عليها يدور الحوار حول القضاء والقدر إن كان ولابد من الحوار .

فيقول عليه الصلاة والسلام : « ما منكم من أحدٍ إلا وقد كُتب مقعده من الجنة ومقعده من النار » .

---

(١) رواه البخارى ، فى كتاب القدر ، باب ٤ ، وفى كتاب التوحيد ، باب ٥٤ ، ومسلم فى كتاب القدر ، باب كيفية الخلق الآدمى ... حديث رقم : ٢٦٤٧ ، وابن ماجه – واللفظ له – فى المقدمة ، باب فى القدر ، حديث رقم : ٧٨ .

أى إن الله – عز وجل – قد فرغ من أمر الخلق قبل أن يخلقهم ، فما قدره عليهم فهو نافذ لا محالة فيهم – رفعت الأقلام وجفت الصحف .

فالسعادة والشقاوة قد سبق الكتاب بهما ، وأن ذلك مقدر بحسب الأعمال ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

جاء فى الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود – رضى الله عنه – أن النبى – ﷺ – قال : «فوالله الذى لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها» .

وفى الصحيحين عن سهل بن سعد – رضي الله عنه – أن النبى – ﷺ – التقى هو والمشركون وفى أصحابه رجل لا يدع شاذة ولا فاذة [1] إلا اتبعها يضربها بسيفه ، فقالوا : ما أجزأ منا اليوم أحد كما أجزأ فلان ، فقال رسول الله – ﷺ – : «هو من أهل النار» ، فقال رجل من القوم : أنا أصاحبه فاتبعه ، فجرح الرجل جرحاً شديداً ، فاستعجل الموت ، فوضع نصل سيفه على الأرض وذبابه بين ثدييه ، ثم تحامل على سيفه فقتل نفسه ، فخرج الرجل إلى رسول الله – ﷺ – فقال : أشهد أنك رسول الله ، وقص عليه القصة ، فقال رسول الله – ﷺ – : «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس ، وهو من أهل الجنة» .

زاد البخارى فى رواية : «إنما الأعمال بالخواتيم» .

فالخواتيم كما قال العارفون : ميراث سابق ، وكل ذلك سبق فى الكتاب السابق .

وقلوب الأبرار معلقة بالخواتيم يقولون : بماذا يختم لنا ؟

وقلوب المقربين معلقة بالسوابق يقولون : ماذا سبق لنا ؟

* * *

---

(١) المراد بالشاذة والفاذة : النفس التى انفردت عن المعسكر ، فإنه كان لا يجد نفساً من أنفس العدو برزت عن الجيش إلا حاول أن يضربها بسيفه .

ولما سمع على وأصحابه – رضوان الله عليهم – قول النبى – ﷺ – : «ما منكم من أحد إلا وقد كُتب مقعده من الجنة ومقعده من النار قالوا: يارسول الله، أفلا نتكل ؟» أى أفلا نعتمد على القدر ونترك العمل . وكأنهم قد أصيبوا بشىء من الذهول أو الإحباط ، فأرادوا أن يتثبتوا من الأمر ويقفوا على جليته على النحو الذى يجمعون فيه بين العمل وما يجرى به القدر، وهم أصحاب القلوب العامرة.

ولو غيرهم قال هذا لاتُّهم فى إيمانه بالله وبقضائه وقدره .

إنهم يستفسرون ولا يعترضون ، شأنهم فى ذلك شأن الملائكة الذين قالوا كما حكى الله عنهم :

﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾ (١).

إنهم إذاً يعبرون بهذا السؤال عما يجيش فى نفوسهم من الحيرة في التوفيق بين القدر والتكاليف الشرعية لكى يجدوا عند خير البرية – صلوات الله وسلامه عليه – جواباً ناجعاً يشفى صدورهم من هذا القلق العارض الذى لم يصحبه شك ولا شبهة .

فيجيبهم نبيهم – صلوات الله وسلامه عليه – بقوله : «لا ، اعملوا ولا تتكلُوا ، فكلٌ ميسر لما خلق له ، ثم قرأ : ﴿فأما مَنْ أعطى واتقىَ وصدق بالحسنىَ فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى﴾ (٢) .

نعم ، اعملوا فكلٌ ميسر لما خلق له ، أى مهيأ وموجه ومسخر بالإرادة العليا إلى ما خلقَ له من جنة أو نار .

وما على العبد إلا أن يأخذ بالأسباب التى توصله إلى الجنة ، ويدع أمر القضاء والقدر إلى من قضى وقدر ، ولا يلق بالاً للشبهات التى يوردها الشيطان على قلبه ، فإذا خطرت له شبهة ، دفعها بقوله – ﷺ – : «كلٌ ميسر لما خلق له» وما علىّ إلا أن أبدأ الطريق وأسعى نحو فعل الخير ثم أدع الباقى لله ، فما شاء فعل .

---

(١) البقرة : من الآية ٣٠ . (٢) الليل : ٥ – ١٠ .

وعلى العبد أن يسعى وليس عليه تحصيل المطالب ، واعلم أيها الأخ المسلم أن الأسباب بيد الله عز وجل ، فمن شاء سأل الله أن يوفقه للأخذ بها بعد أن يعرفها له ، فإن من دعاه أجابه ومن سأله أعطاه .

يقول الله عز وجل : ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدًى وآتاهم تقواهم ﴾ (١) .

ويقول جل شأنه : ﴿ ويزيد الله الذين اهتدوا هدًى ﴾ (٢) .

ومعنى اهتدوا : طلبوا الهدى .

وللإنسان مشيئة حرة فى اختيار الهدى أو الضلال وإلا ما صح التكليف .

قال تعالى : ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ (٣) .

وهذا لا يتنافى مع قوله تعالى : ﴿ يُضِلُّ الله من يشـاء ويهدى من يشـاء ﴾ (٤) .

فهذا النص معناه : أن إضلال الله لشخص ما لأنه هو الذى آثر الضلال على الهدى ، فأقره الله على مراده وتمم له ما يبغى لنفسه .

وأن معنى قوله جل شأنه : ﴿ يضل من يشاء ﴾ لا يعدو قوله : ﴿ وما يُضِلُّ به إلا الفاسقين ﴾ (٥) أى الذين استحبوا العمى على الهدى ، وآثروا الحياة الدنيا على الآخرة .

وكذلك الحال فى قوله تعالى : ﴿ ويهدى من يشاء ﴾ أى من شاء أن يهديه الله هداه الله ، فالإضلال والهدى بيده ، فمن أراد واحداً منهما سعى إليه .

ولهذا تلا النبى – ﷺ – هذه الآيات التى فى سورة الليل .

فقوله جلا وعلا : ﴿ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ﴾ يدل بوضوح تام على أن للإنسان مشيئة حرة متصلة بمشيئة الله عز وجل بمعنى أنه لا يقع فى ملكه ما لا يريد ، فعلى العبد أن يعطى من نفسه إشارة البدء فى السير إلى الله العلى القدير متسلحاً بالتقوى والطمع فى الحسنى وهى الجنة ، فإنه لا يرجو الجنة من لا يعمل لها :

---

(١) سورة محمد : ١٧ . (٢) سورة مريم : من الآية (٧٦) .

(٣) سورة الكهف : من الآية (٢٩) . (٤) سورة المدثر : من الآية (٣١) .

(٥) البقرة : من الآية (٢٦) .

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها   إن السـفينة لا تجرى على اليبسِ

وكذا قوله جل وعلا : ﴿ وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ﴾ توكيد لمشيئة العبد فى اختيار الطريق إلى جهنم بأفعاله المذمومة .

إن القدر مرآة تعكس أفعال الإنسان كلها بما فيها من حركات وسكنات وأحوال ومتغيرات مفاجئة وغير مفاجئة ، وتريه بوضوح ما هو عليه من سعادة أو شقاوة .

فإذا نظر الرجل إلى المرآة وهو عابس الوجه مقطب الجبين رأى نفسه كذلك، فهل يلوم المرآة فى ذلك ؟

وإذا نظر إليها وهو مبتسم مبسوط الأسارير رأى نفسه كذلك ، فلماذا يلوم القدر ؟

يَهُونُ بالرأى ما يَجْرِى القَضَـاءُ به

ومن أخطأ الرأى لا يَسْتَذْنبُ القَدَرَا

فللإنسان عقله ورأيه ، ولله الإرادة العليا ، ومنه الهدى ، فمن أراد الهدى فليطلبه منه ، ومن استحب العمى على الهدى فلا يلومَنَّ إلا نفسه .

وإرادة العبد مع إرادة الله محدودة فى إطار قدرته المحدودة ، فهو لا يستطيع بإرادته أن يخرج عن إرادة خالقه ومولاه ، ونسبة الإرادة إليه فى الحقيقة نسبة مجازية ، بمعنى أن إرادته تتمثل فى الطلب ، فهو إن شاء طلب الهدى من الله ، وإن شاء لم يطلب .

وقد وعد الله من طلب الهدى أن يهديه ، وتوعد من طلب الضلال أن يضله .

ومثل إرادة العبد مع إرادة الله تبارك وتعالى كمثل الفلاح يحرث الأرض ويبذر البذور ويسقيها ، وهنا يكون قد فعل ما عليه ، ثم ينتظر الإنبات ، فمن الذى ينبت الحبة والزرعة ؟ . إنه الله عز وجل .

ولكن مع ذلك يقال للفلاح زارع ، ويكون هذا القول صادقاً باعتبار إرادته وفعله ، بينما الزارع فى الحقيقة هو الله .

﴿أفرأيتم ما تحرثون ءأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون لو نشاء لجعلناه حطاماً فظَلْتُم تفكَّهون﴾ [(١)] .

فللإنسان فى سعيه مثل ما للفلاح فى زرعه ، إنه مجرد سبب ، وإن إرادته من إرادة الله .

فازرع عمرك إن شئت خيراً ؛ فإن يد القدر ستنميه لك حتى تكون الذرة من العمل الصالح كجبل أُحُد ، بل أرفع من ذلك بكثير .

﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفْها ويؤتِ من لدنه أجراً عظيماً﴾ [(٢)] .

أو ازرع عمرك إن شئت شراً ، فإن يد القدر ستجازيك بالعدل ، السيئة بمثلها ، فالجزاء على الخير من باب الفضل ، والمجازاة على الشر من باب العدل .

قال تعالى : ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملَكم ورسولُه والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ [(٣)] .

ومن هذا يتبين لنا خطأ من يعتذر بالقدر عندما يعاقب على فعل المعاصى فيقول بكل تبجح : قَدَّرَ الله علىّ ذلك ، فما حيلتى فى ذلك ، ولو شاء الله لهدانى .

هذا البائس اليائس المخبول هل علم ما قدره الله عليه حتى يتعذر به .

إن تجاهل الإنسان بما زوده الله به من قوة وتفكير وما ذرأ فى طبيعته من استعداد للرفعة والضعة ، وما وهبه من حرية يتوجه بها إلى الخير أو الشر دون أى ضغط أو ظلم ، إن ذلك التجاهل لا ينقص فتيلاً من مسئوليته الملقاة على عاتقه مهما صاحب ذلك من مكابرة وجدال .

إن رسول الله – ﷺ – قد رفض الاعتذار بالقدر والتعلل به فى فعل المعاصى أو ترك الطاعات ؛ لأن شريعته الغراء ذات منهج واقعى لا يتجاهل الأسباب ولا يعتمد عليها اعتماداً كلياً فى وقوع المسببات .

---

(١) الواقعة : ٦٣ – ٦٥ .   (٢) النساء : ٤٠ .
(٣) التوبة : ١٠٥ .

عن على بن أبى طالب – رضى الله عنه – أن النبى – ﷺ – طرقه وفاطمة ليلاً فقال : « ألا تصليان ؟ » .

فقلت يا رسول الله : أنفسنا بيد الله ، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا .

فانصرف رسول الله – ﷺ – حين قلتُ ذلك ولم يرجع إلى شيئاً لشدة استغرابه ، ثم سمعته يقول وهو مولٍّ يضرب فخذه بيده : ﴿ وكان الإنسان أكثر شيئاً جدلاً ﴾ [1] .

أى أن الجدل جِبِلَّةٌ فيه ، وهو من خصاله المذمومة التى تظهر فى كثير من أقواله .

فهو من طبعه الشك فى كل شىء ، والشك يؤدى به إلى الجدل ، والجدل يؤدى به إلى مزيد من الشبهات ، وكثرة الشبهات تميت القلب، وإذا مات القلب مات صاحبه وهو حى ، فانظر كيف يؤدى الجدل بصاحبه إلى التهلكة إذا ما طاوعه واتخذه ديدنه فى كل ما يخطر له أو يعرض عليه .

إن الجدل خصومة مع النفس ، وخصومة مع الناس ، كما يفهم من لفظه ، فهو مأخوذ من قولهم : جدلت الحبل ، أى فتلته وأحكمت عقده .

فالمجادل يعقد الأمور بجدله العقيم ، ويثير الشبهات ويبعث الفتن من كوامنها .

وربما يؤدى إلى نزاع متواصل وشقاق عنيف ، لا تهدأ ثورته زمناً طويلاً .

ونحن قد عانينا كثيراً من ويلاته ، كما عانى من سبقنا من أولئك الذين تكلموا فى القدر والجبر ، وخاضوا فى ذلت الله وصفاته وأفعاله بقصد الوصول إلى الحقيقة ، فما ازدادوا منها بالجدل إلا بُعْداً ، مع أنها واضحة المعالم لا يحتاج الناس فى إدراكها إلى عشر معشار ما بذلوه فى طلبها .

إنهم عَقَّدُوا العقيدة التى انعقد القلب عليها بالفطرة ، ولوثوها بشبهاتهم المريبة ووساوسهم الشيطانية ، ومرائهم فيما لا مراء فيه .

---

(١) الكهف : ٥٤ .

وما كان أغناهم عن ذلك وأغنانا لو سلكوا مسلك القرآن الكريم والسنة المطهرة فى عرض الحقائق العَقَدِيَّة من غير تكلف ولا اعتساف .

إن الشيطان قد لعب برءوس فريق من الناس وأتاهم من حيث لا يشعرون ، واغتنم مواطن الضعف فيهم فَلَبَّسَ عليهم دينهم ، وصدهم عن السبيل فضلوا وأضلوا .

ولنا – إن شاء الله تعالى – وقفة أخرى فى وصية أخرى أمام الجدل وخطره وفى الفرق بينه وبين الحوار البناء ، فإنه موضوع جدير بالبحث والدراسة من أجل أن نتقى خطره ، وأن نأخذ منه بالقدر الذى وصف لنا فى الكتاب والسنة .

* * *

وخلاصة ما أفدناه من هذا الحديث سبعة أمور رئيسة :

الأمر الأول : فهم معنى القدر فهماً صحيحاً ، ووجوب الإيمان به والرضا بما فيه من خير وشر ، وحلو ومر .

الأمر الثانى : اجتناب الحكم على إنسان بأنه من أهل الجنة أو من أهل النار لمجرد أن يرى أنه يعمل بعمل أهل الجنة أو بعمل أهل النار ، فإن عِلْمَ ذلك إلى الله وحده عز وجل .

والحكم بهذا أو بذاك تَقَوُّلٌ على الله بغير علم ، وهو إثم كبير .

قال تعالى فى سورة الأعراف : ﴿ قل إنما حرّم ربىَ الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ [(١)] .

وقال جل شأنه : ﴿ هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنَّةٌ فى بطون أمهاتكم فلا تزكُّوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾ [(٢)] .

وقد وردت آيات وأحاديث كثيرة فى النهى عن القول بأن فلاناً من أهل الجنة وفلاناً من أهل النار ، سيأتى ذكرها فى وصية أخرى إن شاء الله تعالى .

---

(١) آية : ٣٣ .

(٢) النجم : من الآية (٣٢) .

الأمر الثالث : النهى عن الاعتذار بالقدر عند ارتكاب الذنب أو بعده .

وقيل : إن الاعتذار بالقدر عند التوبة جائز ، وأرى أنه مكروه ؛ لما فيه من إساءة الأدب مع الله جل شأنه .

الأمر الرابع : ألا يغتر العامل بعمله ولا ييأس المسيء من رحمة الله عز وجل، فهذه الوصية تقضى على دائين هما من أكبر الأدواء بعد الكفر : الغرور واليأس .

وما أدراك ما الغرور ! إنه محبط للعمل ، مذهب لثمرات الإيمان ، مُضَيِّعٌ لأسباب النصر والتوفيق .

فالمغرور يعانى من العجب المتكَلَّف والكبر المزيف والرياء القَتَّال ، ويصاب بحمى حب الظهور ، فيموت فى مكانه وهو حَىٌّ يرزق ، لا يبالى به الناس ، ولا يهتمون بشأنه ، ولا يجد منهم إلا المذمة والبغض والإعراض والسلبية .

ومن تكبَّر على الناس ذَلّ ، ومن أعجب برأيه ضَلّ .

وانظر إلى المسلمين فى غزوة حنين كيف هزموا وهم اثنا عشر ألف مقاتل لما قال قائلهم : لن نغلب اليوم من قلة ، فكانت هزيمتهم درساً لهم ولنا ، والقرآن كله دروس منهجية واقعية مليئة بالعبر .

﴿ ويوم حُنَيْنٍ إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رَحُبَتْ ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تَرَوْها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ﴾ (1) .

وما أدراك ما اليأس ، إنه أشد فتكاً بالإنسان من الغرور ، إنه أخو الكفر أو هو نفسه .

﴿ إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ (2) .

الأمر الخامس : الاهتمام بإصلاح النفس وتقويمها دون نظر إلى ما يجرى به القدر ، فإن القدر هو علم الله ، وعلم الله لا يحملنا على المعصية ولا ينهانا عن الطاعة .

---

(1) سورة التوبة : 25 – 26 .　　(2) يوسف : من الآية : 87 .

واعتبر نفسك أمام مرآة مُتَبَسِّماً مبسوط الأسارير ، راجياً عفو الله تبارك وتعالى ، طامعاً في رحمته ، آخذاً بالأسباب بقدر طاقتك . وبالله توفيقك .

الأمر السادس : أن البشر جنس محكوم ومختار فى آن واحد .

فهو محكوم بالإمكانات التى فى كيانه والملابسات التى من حوله ! . ومختار في موقفه من هذه وتلك ، وأننا لا نُسأل أبداً عما لا إرادة لنا فيه ، ولكننا نسأل يقيناً عما نملك فيه حرية الاختيار .

فنحن بجهدنا وكدحنا ننجو أو نهلك مادمنا نفوض الأمر إلى الله ، ونعتقد اعتقاداً جازماً أن الحق لله فى تعذيبنا وإثابتنا .

فإن يعذبنا فذاك بمحض عدله ، وإن يثبنا فذاك بمحض فضله .

الأمر السابع : أن القول بالجبر هدم للعقيدة والشريعة معاً وتعطيل لأسباب الحياة كلها .

فالجبرية قوم ينسبون إلى الله الظلم من حيث يريدون نفيه ، فهم الذين يقولون : العبد مسلوب الإرادة فى شأنه كله ، لا يهتدى إلا إذا هداه الله ، وهو لا يخرج عن قدر الله فى شىء ، وأنه مهما أتى من أعمال صالحة فلن يدخل الجنة بسببها ، وأنه مسير فى كل شىء ، وليس مخيراً فى شىء .

(والواقع – كما قال الشيخ محمد الغزالى[1] – أن عقيدة الجبر تطويح بالوحى كله ، وتزييف للنشاط الإنسانى من بدء الخلق إلى قيام الساعة ، بل هى تكذيب لله والمرسلين قاطبة .

ثم قال – رحمه الله – : إن إرادة الله مبثوثة فى كل شىء ، ولو قهرتنا على عمل ما حوسبنا ، إننا نحاسب على ما قدمت أيدينا ، ولن نستطيع شرح العلاقة بين إرادة الله المحيطة ، وبين الحرية المتاحة لنا فى الاتجاه إلى اليمين أو الشمال ...

وتصيد الشبهات للفرار من المسئولية لا يجدى ... لكننا مهما نوّهنا

---

(١) فى كتابه «السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث» ص ١٧٣ وما بعدها ، ط دار الشروق .

بالإرادة الإنسانية فلا ننسى أننا داخل سفينة يتقاذفها بحر الحياة بين مَدٍّ وجزر ، وصعود وهبوط ، والسفينة تحكمها الأمواج ولا تحكم الأمواج .

ويعنى هذا أن نلزم موقفاً محدداً بإزاء الأوضاع المتغيرة التى تمر بنا ، هذا الموقف من صنعنا وبه نحاسب .

• أما الأوضاع التى تكتنفنا فليست من صنعنا ، ومنها يكون الاختيار الذى يبتّ فى مصيرنا) . ا.هـ .

والإنسان مسير ومخير – كما أشرنا من قبل .

فهو مسير فيما لا يملك دفعه ، ومُخَيَّرٌ فيما يملك فعله وتركه ، فهو من أجل ذلك يحاسب فيثاب أو يعاقب .

وعلى المسلم أن يُسلِّمَ أمره لله ، ويرضى بقضائه وقدره ، ويعمل من الصالحات ما وسعه العمل ، ثم يرجو الثواب من الله وحده بفضله ورحمته .

والله من وراء القصد وهو الهادى إلى سواء السبيل .

* * *

(١١٢) لا تحلفوا بالله إلا وأنتم صادقون

عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – قال :

«لا تَحْلِفُوا بآبائكُم ، ولا بأمهاتكُم ، ولا بالأَنْدَادِ ، ولا تَحْلِفُوا إلا بالله ، ولا تَحْلِفُوا باللهِ إلا وأَنتمْ صادقون» (١) .

* * *

كان العرب فى الجاهلية يكثرون الحلف بآبائهم وأمهاتهم وأصنامهم ، فنهى النبى – ﷺ – عن ذلك ؛ لما فيه من تعظيم غير الله تعالى ، وهو لا يليق بمن آمن بالله ، وأخلص له دينه ، واستحضر عظمته وجلاله فى قلبه .

فإن من عرف الله عز وجل بأسمائه الحسنى وأوصافه العُلى أحبه أشد من حبه لأبيه وأمه ، بل أشد من حبه لنفسه ، ولم ير فى الوجود سواه ، فإذا اضطر إلى الحلف لا يحلف إلا به عز وجل .

فقوله – ﷺ –: «لا تحلفوا بآبائكم ولا بأمهاتكم» أى لا تحلفوا بأصولكم، فالأب لفظ يطلق على الجد ، وأبى الجد إلى آدم عليه السلام .

والأم لفظ يطلق ويراد به من باشرت الولادة وأمها وأم أمها إلى حواء – رضى الله عنها – .

ويقاس عليه الحلف بالأبناء وأبناء الأبناء ؛ لاشتراك الجميع فى العلة ، وهى تعظيم غير الله عز شأنه .

وقوله : «ولا بالأنداد» أى المعبودات التى كانوا يعبدونها من دون الله .

والنهى عن الحلف بالأنداد جاء تبعاً واستطراداً للنهى عن الحلف بالآباء والأمهات ، لأن الصحابة لم يكونوا بعد الإسلام يحلفون بها ، فالنهى لهم والمراد غيرهم ، على حد قولهم فى الأمثال : «إياكِ أعنى واسمعى ياجارة» .

فهو تعريض بالأصنام وعابديها ، وفى التعريض دعوة لعابديها إلى تركها والتخلى عن عبادتها ، إحقاقاً للحق وإبطالاً للباطل .

---

(١) رواه أبو داود فى سننه ، فى كتاب الأيمان والنذور ، باب كراهية الحلف بالآباء ، حديث رقم : ٣٢٤٨ .

هذا ما فهمته من النهى عن الحلف بالأنداد لمن أسلم .

وقد يراد بالأنداد : السادة والأشراف ، فقد كان بعضهم يحلف بسيد قبيلته تقرباً إليه ومجاملة له ، كما يفعل كثير من المنافقين والأفاكين فى جميع العصور .

* * *

وهل النهى للكراهة التنزيهية – وهى ما كانت خلاف الأولى – أم للكراهة التحريمية – وهى القريبة من الحرمة – أم النهى للتحريم ، كل ذلك قد قيل ، وهو مبسوط فى كتب الفقه .

فالمشهور عند المالكية الكراهة ، وبعضهم يقول بالتحريم .

والمشهور عند الحنابلة الحرمة ، وبه جزم الظاهرية ، وعلى رأسهم داود وابن حزم .

ومن الشافعية من يقول بالحرمة ومنهم من يقول بالكراهة ، والقول عندهم بالكراهة أشهر .

والأصح أن فى المسألة تفصيلاً .

فمن اعتقد فى المحلوف به من التعظيم ما يعتقده فى الله حرم الحلف به قطعاً ، وكان بذلك الاعتقاد كافراً .

ومن حلف بغير الله غير معتقد هذا ، كان حلفه مكروهاً ، لكن إذا جرى هذا على اللسان من غير أن يعقد القلب عليه ، فهو لغو لا حكم له .

وقد جرى على ألسنة العرب : لا وأبيك ، لا وحياتك ، من غير أن يقصدوا الحلف ، فلا يؤاخذون به ، ولا ينهون عنه .

* * *

وقوله – ﷺ – : «ولا تحلفوا إلا بالله» يعنى إذا كان ولابد أن تحلفوا لاتقاء شرٌ أو رفع ضُرٌ أو رفع تهمة فليكن حلفكم بالله وحده ، فهى اليمين التى تنعقد وتعتبر ، ويترتب عليها آثارها فى الوفاء والحنث .

ولما كان المؤمن لا يعظم إلا الله لم يكن له أن يحلف – عند الضرورة – إلا به ؛ تأدباً معه ، ومراعاة لحقه عليه ، فهو الذى بيده نجاته وكشف ضره ، وتبرئته مما لحق به من تهمة أو مَظِنَّة ، إذ كيف يحلف بغيره وبيده أمره كله .

وقوله : « ولا تحلفوا بالله إلا وأنتم صادقون » تحجيم لدواعى الحلف ، ونهى عن الإكثار منه ، وقصره على حالة الصدق وحدها .

وبيان هذا أن المرء قد يكثر من الحلف على الأمور العظيمة والهينة ولا يبالى بالنهى عن ذلك فى قوله جل وعلا : ﴿ ولا تجعلوا الله عُرضةً لأيمانكم أن تَبَرُّوا وتتقوا وتصلحوا بين الناس والله سميع عليم ﴾ (١) .

وكثرة الحلف فى هذه المواطن وغيرها تفقد المرء مصداقيته فى بعض الأحيان ، وتجره إلى التهاون فى كثير من الأمور التى لا ينبغى التهاون فيها ، كتأدية الشهادة ، والوفاء بالوعد ، وغير ذلك .

ومعنى الآية : لا تجعلوا الله معرضاً للحلف فى الإبرار بعهودكم ووعودكم ، وصلة أرحامكم ، واتقاء ما تخافون بأسه وتخشون شره ، وفى الإصلاح بين المتخاصمين ، فإن ذلك يعتبر تهاوناً بما يترتب على هذا الحلف من العواقب التى لا تحمد ، فتندمون على أنكم حلفتم حيث لا ينفع الندم .

وهناك معنى آخر للآية يضاف إلى المعنى الأول حاصله : لا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم الا تبروا ، وألا تتقوا ، وألا تصلحوا بين الناس ، على حد قوله تعالى : ﴿ وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ﴾ (٢) أى : لئلا تميد بكم .

ومن هذا البيان يتضح لنا أن النهى فى قوله ﷺ : « ولا تحلفوا بالله إلا وأنتم صادقون » للتحريم قطعاً ؛ لأن الحلف بالله كذباً من أكبر الكبائر وأعظمها ، وهذا اليمين يسمى يمين الغموس ؛ لأن صاحبها يغمس بها فى جهنم ، مع من قال الله فيهم : ﴿ وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال فى سَموم وحميم وظلٍّ من يحموم لا باردٍ ولا كريم إنهم كانوا قبل ذلك مترفين وكانوا يُصِرُّون على الحنث العظيم ﴾ (٣) . والحنث اليمين الكاذبة الفاجرة ، نسأل الله السلامة من شرها .

---

(١) البقرة : ٢٢٤ . (٢) النحل : ١٥ . (٣) الواقعة : ٤١ – ٤٦ .

ومن أجل ذلك كان هذا النهى محجماً للحلف فى ذاته ، بمعنى أن المسلم يجتنب الحلف ما أمكن فلا يقدم عليه إلا عندما يدعى إليه ، أو يكون مضطراً ، وإن حلف حلف على حـق أقرَّ به أو أقرَّ به غيره ، أو على شيء لا ينوى الخلف ولا الخيانة فيه .

فالمؤمن من شأنه أن يكون صادقاً فى أقواله وأفعاله وجميع أحواله – صادقاً مع الله ، وصادقاً مع الناس ، وصادقاً مع نفسه .

فالصدق صفة جامعة لخصال الخير كلها .

فما من صفة محمودة إلا كان الصدق منبعها ومصبَّها .

يقول الله عز وجل: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾[1] .

نسأل الله أن يجعلنا منهم بعظيم فضله وواسع رحمته .

* * *

---

(١) التوبة : ١١٩ .

(١١٣) إذا جاءكم من ترضَون دينه وخُلُقَه فأنكحوه

عَنْ أبى حَاتِمٍ المُزَنىِّ – رضى الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – قال :
«إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ ، فَأَنْكِحُوهُ ، إِلاَّ تفعلوا تكن فِتْنَةٌ فِى الأرضِ وَفَسَادٌ» .
قالوا : يا رسول الله ، وإن كان فيه ؟
قال : «إذا جاءكم من ترضَون دينه وخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ» ثلاث مرات [١] .

* * *

الناس فى نظر الإسلام سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لعربى على أعجمى إلاَّ بالتقوى .

﴿ يا أيها الناس إِنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائلَ لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾ [٢] .

وعلى هذه القاعدة جرت أحكام الشريعة كلها ، فميزان العدل فيها أن يعطى المرء من الحقوق مثل ما عليه من الواجبات ، بغض النظر عن نسبه وحسبه وماله ، وما إلى ذلك مما يتفاخر الناس به .

وإن كان هناك فضل لأحدٍ على أحد فإنما هو بالتقوى والعمل الصالح والخلق الفاضل والسلوك النبيل .

وهذه الوصية تبصر الناس بهذه الحقيقة الهامة وترشدهم إلى تطبيقها فى أهم أمر من أمورهم وهو النكاح ؛ فالنكاح هو الذى تحفظ به الأنساب وتتوثق به الروابط بين الأفراد والأسر والمجتمعات حتى ينصهر بعضهم فى بعض .

---

(١) أخرجه الترمذى ، فى كتاب النكاح ، باب إذا جاءكم من ترضون دينه، حديث رقم : ١٠٨٥ ، وقال : هذا حديث حسن غريب ، وأبو حاتم المزنى له صحبة ، ولا نعرف له عن النبى – ﷺ – غير هذا الحديث ، وفى رواية له عن أبى هريرة : « إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد عريض» وقال: رواه الليث بن سعد عن ابن عَجْلاَن مرسلاً ، والمرسل ما سقط منه الصحابى .

(٢) الحجرات : ١٣ .

يقول الله عز وجل : ﴿وهو الذى خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً﴾[1] .

ويقول جل شأنه : ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾[2] .

ويقول عز من قائل : ﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنينَ وحَفَدةً ورزقكم من الطيبات﴾[3] .

ولكن هذه الوشائج التى يحدثها الزواج لا تؤتى ثمارها إلاَّ إذا كان كل من الزوجين وأسرتيهما على خلق ودين ؛ فالدين هو عصمة أمرنا – فيه سعادتنا فى الدنيا والآخرة ، ولا تصلح الحياة إلاَّ به .

ومن رام الحياة بغير دينٍ فقد جعل الفناء لها قريناً

لهذا وجب على الرجل أن يختار من النساء امرأة ذات خلق ودين ، ولا بأس أن يختارها ذات مال وجمال ونسب ، ولكن ينبغى أن يجعل الدين منتهى بغيته ومحط أمله ، فهو أولاً وما بعده تبع له .

وعلى المرأة أن تختار من الرجال من له خلق ودين ، إن أحبها أكرمها ، وإن أبغضها لم يظلمها .

وعلى ولى أمرها أن يزوجها من رجل تتوفر فيه معانى الرجولة وتتحقق فيه الكفاءة على النحو الذى يأتى بيانه فى شرح هذه الوصية .

* * *

قوله – ﷺ – : «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه ، فأنكحوه» نصح وإرشاد لأولياء المرأة ، بمعنى أنه ينبغى عليهم الا يردوا رجلاً جاء يخطب امرأة منهم يتميز بالتقوى والعمل الصالح ، والخلق الفاضل ؛ لأن ذلك يعتبر استخفافاً بالدين واستهانة بذوى الأخلاق والمثل العليا ، واعتزازاً بما لا ينبغى الاعتزاز به فى مثل هذه الأمور كشرف النسب وكثرة المال ونحو ذلك .

---

(١) الفرقان : ٥٤ . (٢) الروم : ٢١ . (٣) سورة النحل : ٧٢ .

وعلل النبى – ﷺ – هذا الأمر بقوله : «إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد» .

وفى رواية : «وفساد عريض أو كبير» .

أى إن لم تحرصوا على اختيار من له دين وخلق فقد تسببتم فى وقوع الفتنة بين الزوجين أولاً ، وبين أسرتيهما ثانياً ، وبين المجتمع كله فى نهاية الأمر .

ونحن نعلم أن الرجل قوّام على المرأة فكيف يقوم على شئونها ويرعى حقوقها ويحافظ على عرضها ودينها وهو ليس له دين ولا خُلُق ، إنَّ الرجل الفاسق وبال على امرأته الصالحة مهما كانت له مميزات يفضل بها كثيراً من الرجال ، فإذا كان يفضل فلاناً وفلاناً بالمال فالمال ظلٌّ زائل، وعارية مستردة ، وربما يطغيه هذا المال ويغريه بارتكاب الفواحش والمنكرات على مرأى ومسمع من زوجته وأسرتها ومن حولهم من الجيران والأصدقاء وغيرهم فيكون مثار سخرية ومعرة ، ومصدر بلاء ونقمة على من يعرفه ، ومن لا يعرفه ، وقد يكون ذا حسب ونسب ولا أدب له ، فلا ينفعه نسبه بشىء ولا يعود على زوجته بفائدة .

إن الفتى من يقـــول هأنــذا

وليس الفتى من يقـــول كان أبى

كن ابن من شئت واكتسب أدبا

يغنيك محمـــــودُه عن النسبِ

* * *

قالوا : يا رسول الله ، وإن كان فيه ؟

أى وإن كان فيه كذا وكذا من العيوب . إلاَّ أنهم لم يصرحوا بما يكون فى الرجل من العيوب تأدباً مع الرسول – ﷺ – ، وبعداً عما لا ينبغى أن يقال صراحة ،حيث يمكن أن يكنى عنه ، فالتلميح أحياناً يكون أبلغ من التصريح .

وقد أرادوا أن يستوثقوا من هذا الأمر هل هو للوجوب أم لمجرد النصح والإرشاد .

فقال – ﷺ – : «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه . ثلاث مرات » لتوكيد الأمر وتقويته فى نفوس السامعين ومن يأتى بعدهم .

وهو أمر عام لكنه مخصوص بمن توفرت فيه الشروط التى نص عليها الشرع الحكيم فى الكتاب والسنة ، من وجود المال الكافى لمؤنة الزواج ، والقدرة على تأدية الحقوق الجنسية وغيرها .

أما الذى ليس له هذا وذاك فلا ينبغى عليه أن يتقدم إلى خطبة امرأة ؛ فإن ذلك تطفل وسوء أدب يجب أن يقابل بالرفض التام مع توجيه نظره إلى ما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيَهم الله من فضله ﴾ (١) .

وقوله – ﷺ – : « يا معشر الشباب من آستطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغضُّ للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ؛ فإنه له وجاء »(٢) أى قطع للشهوة ، أو تقليل من حدتها .

فلا يأتين رجل لخطبة امرأة وليس معه إلا دينه وخلقه ، فيحتج على أولياء المرأة بهذا الحديث إذا هم رفضوه لعدم توفر مؤن الزواج لديه ، أو لعدم قدرته على تدبير شئون بيته والقيام بحق زوجته عليه ؛ فإن هذا الحديث عام مخصوص بما قد ذكرناه .

والعام يخصص بأدنى قرينة ، والقرينة هنا واضحة فى أن للزوج شروطاً لابد من توفرها فيه وإلاَّ لم يُجب إلى طلبه ؛ فالإسلام له منهج يتسم بالواقع ويعتمد على الحقائق لا على الخيال ، ويبنى أحكامه على ما هو حاضر ظاهر ، فلا يقول قائل : زوجوا فلاناً من فلانة . وهو فقير لا يملك قوت نفسه ، بحجة أن الله سيغنيه من فضله ، بل الصواب أن يقال : إن اغناه الله من فضله فزوجوه ، فالخلق والدين شرط أساسى فى الزواج لكن له توابع لابد من مراعاتها كما أشرنا ، فلا يغب عن ذهنك ذلك أيها القارئ الكريم .

* * *

وقد اعتبر الفقهاء فى الزواج الكفاءة ، بمعنى أن يكون الرجل كفئاً للمرأة فى الدين والخلق ، لا خلاف بينهم فى ذلك واختلفوا فيما سواه .

فذهب المالكية إلى أن الكفاءة معتبرة شرعاً فى الخلق والدين والاستقامة على أمر الله عز وجل بغض النظر عن الحسب والمال وغير ذلك من الأمور .

---

(١) النور : ٣٣ .　　(٢) رواه البخارى فى الصوم ١٠ ، والنكاح ٢ ، ٣ .

فيجوز للمرأة أن تتزوج من رجل أقل منها حسباً ونسباً ومالاً مادام على خلق فاضل ، واستقامة ظاهرة ، وصلاح ملموس .

وليس لأحد الأولياء الحق في الاعتراض على هذا الزواج ، بل يستحب له أن يقره ويباركه ، هذا بشرط أن تكون المرأة قد تزوجت بإذن ولى من أوليائها .

فإذا لم يكن الرجل على خلق ودين كان لأحد الأولياء الاعتراض على تزويجه وطلب فسخ العقد إن تم بغير رضاه . وقد استدل المالكية على ما ذهبوا إليه بأدلة من القرآن والسنة .

أما القرآن فمثل قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ (١) .

وأما السنة فمثل قوله - ﷺ - في الحديث الذى رواه أبو داود في سننه : « يا بنى بياضة انكحوا أبا هند ، وانكحوا إليه » وكان حجّاما .

وقد زوج النبى - ﷺ - زينب بنت جحش - وهى ابنة عمته أميمة بنت عبد المطلب - لزيد بن حارثة ، وقد كان عبداً لخديجة رضى الله عنها فوهبته للنبى - ﷺ - فأعتقه .

وزوج أبا حذيفة سالماً من هند بنت الوليد أخت خالد ، وكان مولى لامرأة من الأنصار .

وقد تزوج بلال بن رباح بأخت عبد الرحمن بن عوف .

وزوج النبى - ﷺ - فاطمة بنت قيس من أسامة بن زيد وهو ليس كفئاً لها في النسب .

وذهب قوم إلى أن الكفاءة تكون في الدين والنسب والمال والصناعة والحرية والسلامة من العيوب ، وذهب آخرون إلى أن الكفاءة تكون أيضاً في العلم والسن .

والقول المختار في هذا العصر : الكفاءة في كل ما ذكر نظراً لأهمية ذلك في حياة تعقدت شئونها ، وكثرت مطالبها .

---

(١) الحجرات : ١٣ .

وقد تكلمت عن الكفاية بين الزوجين فى المجلد الثانى من كتابى «الفقه الواضح» وفى الجزء الثالث من كتابى «بين السائل والفقيه» فراجعه فيهما إن شئت .

* * *

وبعد ، فإن هذه الوصية نأخذ منها فوق ما ذكر أن النسب ليس شرطاً فى صحة النكاح وليس عليه المعول إذا لم يكن نسب الرجل متدنياً جداً بحيث يحدث فى الأسرة ما يعيبها بين الأسر المكافئة لها ، أو يكون سبباً فى جلب العار على الزوجة إن هى اختارته لنفسها بين قريناتها وجاراتها .

وإن الدين يغطى على ما يعاب به الرجل من فقر أو كبر سن أو دمامة أو وظيفة وضيعة ونحو ذلك .

ونخلص من هذه الوصية إلى وجوب التواضع لله فى جميع الأمور ، والتواضع للناس فى غير منقصة .

نسأل الله لنا ولكم الهداية والتوفيق .

* * *

(١١٤) ائت حرثك أَنَّى شئتَ

عن بَهْز بن حكيم عن أبيه عن جده قال : قلت : يا رسول الله ، نساؤنا ما نأتى منهن وما نذر ؟

قال : « ائْت حَرْثَكَ أَنَّى شئْتَ ، وَأَطْعمهَا إذا طَعِمْتَ ، وَاكْسُهَا إذَا اكْتُسِيتَ ، وَلاَ تُقَبِّحِ الوَجْهَ ، ولا تَضْرِبْ» (١) .

* * *

لما هاجر المسلمون إلى المدينة والتقوا باليهود وجدوهم يعتزلون نساءهم فى المحيض فلا يقربونهن ، ولا ينامون على فُرشهن ،ولا يأكلون معهن حتى ينقطع حيضهن ، وكانوا أيضاً لا يجامعون نساءهم فى فروجهن من جهة أدبارهن ، ويقولون : من جامع امرأته فى فرجها من دبرها جاء الولد أحول .

وكان بعض الناس منهم ومن غيرهم يأتون نساءهم فى أدبارهن كما يفعل الخبثاء منهم بالذكور والعياذ بالله تعالى ، فاحتاج المسلمون إلى معرفة حكم الله تعالى فى إتيان النساء ومعاشرتهن وما لهن على أزواجهن من الحقوق .

فجاء واحد منهم ، وهو معاوية بن حيدة الصحابى الجليل إلى النبى – ﷺ – يسأله هذا السؤال .

قال : قلت : يا رسول الله ، نساؤنا ما نأتى منهن وما نذر ؟ ، أى ما الذى نستمتع به منهن ، وما الذى نترك الاستمتاع به .

وهو سؤال مجمل يفهم المراد منه من كان له حظ وافر من الذكاء ، ومن أذكى من رسول الله – ﷺ – !

وفيه كناية لطيفة يعرفها الحذاق فى بلاغة الأساليب العربية ، فقوله : نساؤنا يعنى زوجاتنا ، وهو تعبير فيه تعميم ، فلفظ النساء يشمل الأزواج

---

(١) رواه أبو داود ، فى كتاب النكاح ، باب فى حق المرأة على زوجها ، حديث رقم : ٢١٤٣ ، وإسناده حسن .

وغيرهن، ولكن المراد به الأزواج حتماً ، وإنما عبر به ليعلم الآباء ، وسائر الأولياء حدود الأزواج فى حق الاستمتاع بزوجاتهم حتى يطمئنوا إلى عصمتهن مما حرم الله عليهن ، فلا يكونون مقصرين فى حمايتهن إذا ما مارس الأزواج معهن من وجوه المتعة ما نهى الله عنه ، فلا يغب عن ذهنك ما فى هذه الكناية من لطف وملاطفة .

وسألنى الكاتب بعد أن أمليت عليه هذه الفقرة مزيداً من التوضيح فقلت له : لفظ نساء يشمل الزوجات والأمهات والبنات والأخوات والعمات والخالات وغيرهن فكان من المتبادر أن يسأل السائل عن الزوجات ، ولكنه أراد أن ينوب فى السؤال عن كل من يعنيهم الأمر ، فالأب مثلاً يريد أن يعرف بماذا يستمتع زوج ابنته منها وما الذى يجب أن يمتنع عن الاستمتاع به ، فإنه يغار عليها ولا يرضى أبداً أن يعصى الله فيها ولا أن تعصى الله فيه .

وما يقال عن الأب يقال عن الأخ والعم وكل من له ولاية على المرأة .

ولو قال السائل: أزواجنا ما نأتى منهن وما نذر ؟ لفات هذا التعميم المفيد الذى يدور فى خاطر الرجال بوجه عام ، المتزوج منهم وغير المتزوج .

والعلم بالشىء أولى من الجهل به ، فمن الواجب على كل صغير وكبير من الرجال والنساء أن يعرفوا حدود الله فى كل شىء لحقَ بهم ، أو سيلحق بهم ، أو ربما يلحق بهم أو بغيرهم ، فيكونون عندئذ قادرين على اتخاذ القرار المناسب فى الوقت المناسب ، وقادرين على الفتوى إذا استفتوا ، وطلب العلم فريضة على كل مسلم ذكراً كان أم أنثى .

وقول السائل : ما نأتى منهن وما نذر ؟ سؤال عريض يحتاج إلى جواب مفصل . فجاء الجواب على قدر السؤال وزيادة .

فقال رسول الله – ﷺ – : « ائت حرثك أنى شئت » إلى آخر الحديث .

أى : استمتع بها كيف شئت ومتى شئت وفى أى مكان شئت إلا الدبر وزمن الحيض ، على ما سيأتى بيانه بعد قليل .

وقد سمى النبى – ﷺ – الزوجة حرثاً تشبيهاً لها بالأرض التى يزرعها صاحبها فيلقى فيها البذور بعد إصلاحها وتهيئتها للإنبات .

وتشبيهها بالحرث تعليل لجواز الاستمتاع بها فى كل وقت وعلى أى كيفية مادام الجماع فى الفرج ، والتشبيه أيضاً يشعر بأن الجماع لا ينبغى أن يكون فى الدبر لأنه ليس موضعاً للبذر، فالفرج هو المكان الطبيعى الوحيد الصالح لإلقاء البذور فيه ، فلا ينبغى العدول عنه إلى الفرج الخلفى وهو فتحة الشرج .

والرسول – ﷺ – يشير بهذا التشبيه البليغ أو بهذه الكناية المهذبة إلى قوله تعالى : ﴿ نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ﴾ (١) .

فقد سألوا النبى – ﷺ – عن شأنهم مع النساء فى المحيض فأمرهم الله باعتزالهن فى زمن الحيض حتى يتطهرن بالغسل بعد انقطاع الحيض ، ورغبهم فى إتيانهن عقب الطهر ، فقال جل شأنه فى الآية التى قبلها : ﴿ ويسألونك عن المحيض قل هو أذىً فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يَطْهُرْن فإذا تطهَّرن فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾ .

ثم أنزل قوله تعالى : ﴿ نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ﴾ توسعة لهم فى الاستمتاع بهن على أى نحو شاءوا مقبلات أو مدبرات مادام النكاح فى الفرج .

وقد استدل الفقهاء بهذه الآية على حرمة إتيان المرأة فى دبرها ، واستمات الإمام الطبرى فى تصحيح هذا القول والرد على مخالفيه من الشيعة ومن نحا نحوهم .

وكذلك فعل ابن القيم في كتابه زاد المعاد ، وقد توسعت فى بحث هذه المسألة وذكرت الأضرار المترتبة على إتيان المرأة فى دبرها نقلاً عن الأئمة الأعلام والأطباء المعاصرين ، فراجعه إن شئت فى المجلد الثانى من كتاب « الفقه الواضح » وسأذكر لك هنا شيئاً يسيراً مما ذكرته هناك فأقول : إن إتيان المرأة فى دبرها شذوذ جنسى خطير يشبه اللواط إلى حد كبير ، ويترتب على ذلك الكثير من الأضرار بالنسبة للرجل والمرأة ، لذلك حرمه الله تعالى فى كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ .

---

(١) البقرة : ٢٢٣ .

أما الكتاب فقوله تعالى فى سورة البقرة : ﴿ فأتوهن من حيث أمركم الله ﴾ .
أى من الموضع الذى يخرج منه الولد ، كما قال أكثر المفسرين .

وأما السنة فأحاديث كثيرة منها ما رواه أحمد ، وابن ماجه ، والترمذى أن رسول الله — ﷺ — قال : « لا تأتوا النساء فى أعجازهن » أو قال : « فى أدبارهن » ورواته ثقات .

وروى أحمد وأصحاب السنن عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله — ﷺ — قال : « ملعون من أتى امرأته فى دبرها » .

والحرمة إنما تتحقق بإدخال حشفة الذكر فى حلقة الدبر . أما مجرد ملامسة الذكر لحلقة الدبر ، دون إدخال ، فليس فيها حرمة ، ولكن من حام حول الحمى يوشك إن يقع فيه . وحرمة النكاح فى الدبر كحرمة النكاح فى الحيض ، وأضراره كأضراره بل أشد .

روى أحمد فى مسنده أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : هلكت يا رسول الله ، قال : « وما أهلكك ؟! » .. قال : حولت رَحْلى البارحة (يريد أنه جامع امرأته من ناحية دبرها فى فرجها) .

فقال رسول الله — ﷺ — : « أقبل وأدبر واتق الحيضة والدبر » (أى لا عليك أن تجامع امرأتك بالطريقة التى تختارها ما دام الجماع فى الفرج وفى الوقت الذى لا تكون فيه غير حائض ولا نفساء) .

* * *

وقوله ﷺ فى هذه الوصية : « وأطعمها إذا طعمت واكسها إذا اكتُسيت » يشير إلى ما يجب عليه من النفقة فى نظير الاستمتاع بها وفى نظير خدمتها له، وكونها أماً لأولاده وربة لبيته ، وأنيسة له فى ليله ونهاره .

وهذه النفقة تكون مما ينفق على نفسه منه ، فإذا أكل طعاماً أشركها معه فيه ، من غير أن يميز نفسه عنها بشىء يستحق الذكر إلاَّ برضاها وطيب نفس منها ، وإذا كساه الله ثياباً فليكسها منها بما يليق بها .

فهذا هو العدل الذى تقتضيه الزوجية القائمة على المودة والرحمة .

وميزان العدل فى الإسلام أن يُعطى المرء من الحقوق مثل ما عليه من الواجبات .

قال تعالى : ﴿ ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم ﴾ (١) .

والدرجة التى جعلها الله للرجال على النساء هى القوامة والتبعة والمسئولية كما قال أكثر الفقهاء والمفسرين .

* * *

وقوله - ﷺ - : « ولا تقبح الوجه ، ولا تضرب » أى لا تقل لها : قبح الله وجهك ، ولا تنظر إلى وجهها باحتقار ، فإنَّ الله خلق آدم على صورته ، أى على صورة هذا الوجه مع الفارق اليسير بين وجه الرجل ووجه المرأة .

إذا كان هذا لا يجوز شرعاً فكيف بمن يبصق على الوجه ويلطمه ! .

وقوله : « لا تضرب » أى لا تضرب الوجه بالذات أبداً ، ولا تضرب سائر البدن إلاَّ عند الضرورة .

وذلك إذا وعظتها فلم تتعظ ، وهجرتها فى المضجع فلم ترتدع .

قال تعالى : ﴿ واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً إنَّ الله كان علياً كبيراً ﴾ (٢) .

لكن ينبغى أن يكون الضرب غير مبرح لا يكسر عظماً ولا يجرح جلداً .

على أن من يضرب امرأته فليس بخير الناس؛ فخير الناس خيرهم لأهله كما جاء فى الحديث وسيأتى فى الوصايا بالنساء بسط لهذا المعروف الذى أمر الرجال والنساء على السواء أن يتعاشروا به .

واعلم أيها الأخ المسلم أن الحياة الزوجية تقوم على عشرة أصول هى: العدل ، والفضل ، والعفو ، والمعروف ، والتقوى، والتعاون ، والصدق ، والأمانة، والإخلاص، والتفاهم.

---

(١) سورة البقرة : ٢٢٨ .   (٢) النساء : ٣٤ .

وهذه الأصول قد تكلمت عنها بإطناب فى كتاب « مع المرأة المسلمة فى أحكام دينها وأمور دنياها ».

وخلاصة ما ذكرته أن العدل هو الأساس الأول الذى يقوم عليه أمر الملك كله، لكن الفضل مطلوب بين الناس بوجه عام وبين الزوجين بوجه خاص.

قال تعالى: ﴿ ولا تنسوا الفضل بينكم ﴾.

والعفو والمعروف وسائر ما ذكرته مبسوط فى كتاب الله تعالى فلا نطيل القول فيه هنا وسنفرغ إليه فى مواضع أخرى، وبالله التوفيق.

* * *

(١١٥) استوصوا بالنساء خيراً

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ قال:

«من كان يؤمنُ بالله واليومِ الآخرِ، فلا يُؤذى جَارهُ، واستوصُوا بالنساء خيراً ؛ فإنَّهُنَّ خُلقْنَ من ضِلَعٍ وإنَّ أعْوَجَ شيء فى الضِّلع أعْلاَهُ ، فإن ذهبْت تُقيمُهُ كَسَرْتَهُ، وإنْ تركْتَهُ لم يَزلْ أعْوجَ، فاستَوْصُوا بالنساءِ خَيْراً »(١).

* * *

إيذاء الجار من أكبر الذنوب جُرْماً وأثقلها حملاً يوم القيامة ، ومن أشدها خطراً على الأفراد والمجتمعات فى الدنيا ، فهو نوع من التَّجنِّى على أقرب الناس وأنفعهم للمُتَجَنِّى من ذوى قرابته وذوى رحمه ، فالجار وإن جار ـ كما يقولون فى الأمثال.

ورب أخ لك لم تلده أمك ـ كما جاء فى الحكم.

والأخ الذى لم تلده أمك: هو الجار المؤمن الذى اجتمعت فيه شعب الإيمان أو الصديق المخلص الذى اجتمعت فيه أوصاف الصداقة وخصال الصحبة.

وقد تكلمت عن إكرام الجار والإحسان إليه، والعطف عليه وترك أذاه فى وصية سابقة، فلا نعيد الكلام فيه هنا، وإنما نُعْنَى فى هذه الوصية بما جاء فيها من التلطف بالنساء والتَّعَطُّف عليهن، والإحسان إليهن، ومعاشرتهن بالمعروف، ومعاملتهن على النحو الذى يُقِرُّهُ الشرع الحكيم، والمحافظة على أنفسهن ونسلهن وأعراضهن وأموالهن، والعناية بتنشئتهن على الخلق الفاضل والسلوك النبيل، وغير ذلك مما تشتمله هذه الوصية وتشير إليه ولو من بعيد.

فهى وصية من أعظم الوصايا التى تضمن للرجال والنساء العيش فى سلام ووئام، وحب وحَدْب وتفاهم، وتُعَرِّفُ كلاً من النوعين بحقوقه وواجباته.

---

(١) أخرجه البخارى بهذا اللفظ فى كتاب النكاح، باب الوَصاة بالنساء، ورواه ـ أيضاً ـ فى كتاب الأنبياء، باب خلق آدم وذريته، ورواه مسلم بألفاظ متقاربة فى كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء، حديث رقم: ١٤٦٨.

كما تشتمل هذه الوصية على تحليل لشخصية المرأة فى أسلوب موجز بليغ، مهما دندن العلماء حوله ما عرفوا أبعاده ولا سبروا غَوْرَهُ ، ولا وقفوا على جميع محتواه العلميّ والفَنّيّ.

إنه تحليل نفسى عجيب فى تشبيه يعبر أصدق تعبير عن طبيعة المرأة وطباعها.

وسنرى من خلال دراستنا المتواضعة لهذه الوصية تلك الحكمة السامية التى تَرُدُّ كل امرئ إلى عقله حين يسور ويدور حول نفسه فى فهم ما جُبِلَتْ عليه المرأة من المتناقضات والألغاز المُحَيِّرَة ، التى لابد له من معرفتها حتى يتمكن من مواجهتها بالتى هى أحسن ، والتفاعل معها من غير أن يفتقد شيئًا من رجولته ولا ينتقص شيئًا من مروءته وحلمه.

* * *

وقد أوصى النبى - ﷺ - بالنساء خيراً بعد النهى عن إيذاء الجار؛ لأن المرأة هى الجار الملاصق، الذى يرتبط بجاره ارتباطًا وثيقًا بميثاق غليظ، أقرّه الله من فوق سبع سماوات وجمع به بينهما فى خير، حتى أفضى بعضهم إلى بعض، وكان كل منهما لباسًا للآخر وسترًا عليه.

فالإيصاء بالنساء مناسب كل المناسبة مع الإيصاء بالجار، فإذا كان إيذاء الجار من أكبر الكبائر كان إيذاء الزوج لزوجته أكبر من إيذاء الجار لجاره قطعًا، كما تدل عليه شواهد كثيرة.

وهذه الوصية موافقة لما جاء فى قوله تعالى: ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا وبالوالدين إحسانًا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجُنُبِ والصاحب بالجَنب ﴾ (١).

وقد عرفنا فى وصية سابقة أن الجار القريب المسلم له ثلاثة حقوق: حق الإسلام، وحق الجوار، وحق القرابة. وأن الجار المسلم غير القريب له حق الإسلام وحق الجوار. وأن الجار غير المسلم له حق واحد وهو حق الجوار.

---

(١) سورة النساء: ٣٦.

وعرفنا أن الصاحب بالجنب هو الزوج والزوجة، فإذا كانت الزوجة مسلمة قريبة تعيش فى بيت زوجها ملاصقة له، يجد كل منهما مع الآخر سكونًا نفسيًا وجنسيًا فكم يكون لها من الحقوق عليه ! وكم يكون له من الحقوق عليها !

لهذا أوصى النبى - ﷺ - الرجال بهن ؛ رعاية لهذه الحقوق المتعددة والمتشابكة، التى لو نظرنا إليها ما أحصيناها عَدًّا، ولكن ذكر الأصول هنا يغنى عن ذكر الفروع.

وجماع الحقوق كلها فى كلمة « خيراً » ، فإنها كلمة جامعة لخصال البر كلها.

استوصوا بالسناء خيراً ، أى فليوصِ بعضكم بعضًا بما يجب لهن من النفقة والكسوة والإعفاف وحسن العشرة.

وهذا التواصى يقوم على أمرين أساسيين بوجه عام، ورد ذكرهما فى سورة العصر، وهما التواصى بالحق والتواصى بالصبر.

ففى التواصى بالحق دفعٌ للظلم وإبطالٌ للباطل، وفى التواصى بالصبر دفعٌ للأذى ومواجهة للعنف بالحلم والأناة، ومعالجة للأمور بالحكمة والموعظة الحسنة.

وهذه الوصية النبوية ترجمة لقوله تعالى: ﴿ وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئًا ويجعلَ الله فيه خيراً كثيراً ﴾ (1).

والمعروف ما تعارف عليه العقلاء ووافق الشرع، كما سيأتى بسطه فى الوصية التالية.

وهذه الوصية تدعو الرجال إلى مرعاة العدل وتَحَرِّيه بدقة فى جميع الأمور.

وميزان العدل فى الإسلام أن يُعْطى المرء من الحقوق مثل ما عليه من الواجبات.

قال تعالى: ﴿ ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم ﴾ (2).

---

(1) سورة النساء: 19 . (2) سورة البقرة: 228 .

والعدل يتبعه الفضل والعفو والتسامح والتقوى، فالحياة الزوجية لا تقوم على العدل وحده، وإن كان العدل فى جميع الأمور كافيًا، فإن كلاً من الزوجين يسكن إلى الآخر ويميل إليه ويطمئن بوجوده معه إذا كان هناك مزيد من الفضل، وهو التراحم والتعاطف والتعاون، والعفو عن العقاب، والصفح عن العتاب والتغاضى عن العيوب والأخطاء.

وبهذا كله يسعد الزوجان وتسعد بهما أسرتاهما، بل يسعد بهما المجتمَع كله، فالأسرة ـ كما نعلم ـ لبنة فى بناء المجتمع، إذا صلحت صلح المجتمع كله.

يقول الله ـ عز وجل ـ : ﴿ وأن تعفُوا أقرب للتقوى ولا تنسَوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير ﴾ (١).

* * *

والمرأة حَرِيَّةٌ بالإشفاق عليها، وجديرة بحسن معاشرتها إذا كانت مؤمنة مهما كثرت أخطاؤها؛ ولهذا علل النبى ـ ﷺ ـ هذه الوصية بقوله: «فإنهن خلقن من ضلَعٍ» أى خلقن معوجات كاعوجاج الضِّلَع، وليس المعنى ـ فيما أرى ـ أنهن خلقن من ضلع آدم، بمعنى أن حواء خلقت من ضلعه ثم خلقت سائر النساء من ضلع الرجال.

والدليل على ذلك ما رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال:

« المرأة كالضِّلَعِ إن أَقَمْتَهَا كَسَرْتَها، وإن استمتعت بها اسْتَمْتَعْتَ بها وفيها عِوَجٌ ».

وهذا التشبيه كقوله تعالى: ﴿ خُلِقَ الإنسان من عَجَلٍ ﴾ (٢).

أى كأنه لفرط استعجاله خُلِقَ من عجل، فالعجل طبع له وجبلة فيه، وهكذا العوج فى المرأة ، فهو طبع لها وجبلة فيها ، فلا ينبغى أن تلام كثيراً على ما يأتى به هذا الطبع من الهفوات ، ولا تعاقب على ما يصدر منها من الأخطاء إلا إذا كان فى العقاب تأديب لها على خطأ تكرَّرَ منها.

---

(١) سورة البقرة : ٢٣٧.
(٢) الأنبياء : ٣٧ .

وإذا عوقبت عوقبت برفق ، وذلك بعد وعظها وإرشادها إلى ما فيه صلاح دينها ودنياها .

يقول الله - عز وجل - : ﴿واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً إن الله كان علياً كبيراً﴾ (١) .

أى واللاتى تخافون ترفعهن عليكم بالمخالفة والعصيان ، فعظوهن وعظاً بليغاً بطريق مباشر تارة وبطريق غير مباشر تارة أخرى ، أو ابعثوا لهن من يعظهن إن كنتم غير قادرين على ذلك ، أو كن لا يسمعن لكم لاستخفافهن بكم أو اتهامهن لكم .

فإن فشلتم فى هدايتهن إلى طاعتكم فاهجروهن فى المضاجع بأن لا تجامعوهن ، ولا تمارسوا معهن مقدمات الجماع ، وأنتم معهن فى الفُرُش ؛ فإن ذلك يؤثر فيهن تأثيراً قويًّا ويحرجهن إحراجًا شديداً ، ويكسر ما لديهن من أسلحة يدافعن بها عن أنفسهن ويتعالين بها على الرجال ، وهى أسلحة الفتنة والإغراء الجنسى .

فإن لم يكبح جماحها الهجر فى المضاجع فليكن الضرب هو الوسيلة لذلك .

فإن لم يُجْدِ الضرب واستحكم الشقاق واستحال الوفاق ، فليس إلا الطلاق .

﴿فإن أطعنكم﴾ وعدن إلى رشدهن فلا تلتمسوا لهن الأسباب الواهية لضربهن وإيذائهن بالشتم ونحو ذلك ، فإن كنتم عليهن قادرين فالله عليكم أقدر .

* * *

وقوله - ﷺ - : «وإن أَعْوَجَ شىءٍ فى الضلع أعلاه» يعنى لسانها ، فإن لسانها أمام قلبها وخلف عقلها ، لا تستطيع أن تتحكم فيه غالباً ، فهو يندفع

(١) النساء : ٣٤ .

مع اندفاع عواطفها ، وكثيراً ما تغلبها عواطفها ، فيسور اللسان مع سورانها ، فيقول ما لا ينبغي أن يقال ، وهو صغير الجِرْمِ كبيرُ الجُرْمِ يوقع صاحبه في مآزق لا يمكنه التخلص منها ، وغالباً ما يكون السبب في هلاكه .

لهذا كان من الخير له ولها أن يعفو عن زلات لسانها ، لأنه أعوج شيء في الضلع – كما أشار النبي – ﷺ – فإن استطاع الرجل أن يتسامح في زلات لسانها ، فقد ملك عواطفها الجَيَّاشَةِ بالشر ، وسيطر على مشاعرها المتناقضة في كثير من الأحيان ، وبذلك يتيح لها أن تستفرغ شحنتها من الانفعالات الغاضبة بما تهرف به من الكلام الساقط، وعندئذ تعود إلى رشدها أو تقاربه وينتهي الأمر بسلام .

والمرأة ليس فيها إلا لسانها – كما يقولون – فإن ضَرَبْتَ صفحاً عما يتهافت منه ، فأنت حكيم .

والحكمة من أعظم ما يؤتاه المرء بعد الإيمان .

يقول الله – عز وجل – : ﴿ يُؤتِي الحكمة من يشاء ومن يُؤتَ الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذَّكَّر إلا أولوا الألباب ﴾ [١] .

إنك لو استطعت أن تكبح جماح نفسها بالسكوت فأنت على ما سوى ذلك أقدر ، وإن عجزت فأنت على ما سوى ذلك أعجز .

* * *

والضلع الأعوج لا يقبل أن يقيمه مقيم ، ولا ينتفع به إلا وهو معوج ، فكهذا خلق ، وفي هذا تكون منفعته .

والمرأة مثله في ذلك تماماً ، فالخير كل الخير في الاستمتاع بها على ما فيها من عوج ، ففي عوجها أنوثتها ، ومن خلال الرضا بهذا العوج تنبعث رجولة الرجل ، سواء صبر عليها أو عاقبها .

فإن عاقبها على شيء في حدود ما شرع الله ، فهو رجل بحزمه وعدالته .

﴿ فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين ﴾ [٢] .

---

(١) سورة البقرة : ٢٦٩ . (٢) سورة الشورى : ٤٠ .

وإن صبر عليها وعفا عنها فى شىء ، فهو رجل بعزمه وصبره .

﴿ ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ (١) .

وهذا هو معنى قوله – ﷺ – : « فإن ذهبْتَ تُقيمُهُ كَسَرْتَهُ ، وإن تركته لم يَزَلْ أعوجَ ، فاستوصوا بالنساء خيراً » .

وقد جاء فى صحيح مسلم عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن النبى – ﷺ – قال : « إن المرأة خُلقَتْ من ضلَعٍ لن تَسْتَقِيمَ لَكَ على طَرِيقَةٍ ، فإن اسْتَمْتَعْتَ بها اسْتَمْتَعْتَ بهَا وبها عِوَجٌ (٢) ، وإنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهَا كَسَرْتَهَا ، وكَسْرُهَا طَلاَقُهَا » (٣) .

فليس من العقل أن يتمادى الرجل فى إيذاء زوجته بدعوى إصلاحها حتى يؤدى به الأمر إلى طلاقها ، ولكن من الخير أن يعفو عن كثير .

﴿ فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين ﴾ (٤) .

عليه أن يرحم ضعفها ، وأن يُقَدِّرَ ظروفها ، وأن يعذرها دائماً على تقصيرها فى حقه أو فى حق أسرته ، ويذكر أن العوج طبع فيها لا يمكنها التخلص منه بسهولة ويسر .

ومن عرف طبع امرئ جاراه عليه ولو على مضض ، إذا كان في هذه المجاراة خير له ، بشرط ألا يكون فيها معصية لله تعالى .

ولا يخفى علينا أن مجاملة المرأة بالكلام الطيب والحديث المعسول يُعَدِّل من سلوكها كثيراً ، ويخفف من حدة غضبها وسوران طبعها ، ويجعلها فى حالة طبيعية مُرضية .

فهى تحب الإطراء والثناء ، وتميل ميلاً عظيماً إلى إظهارها بمظهر رفيع بين الناس ، وهذا أمر لا يثقُل على الرجل الحاذق الحكيم .

---

(١) سورة الشورى : ٤٣ . (٢) عوج : بكسر العين وفتحها .

(٣) كتاب الرضاع ، باب الوصية بالنساء ، حديث رقم : ١٤٦٨ .

(٤) سورة الشورى : ٤٠ .

فما ضره لو أظهر إعجابه بها وحبه لها وأنها أحسن امرأة فى نظره ، ووعدها وعداً حسناً بتحقيق ما تحبه وتصبو إليه ، دون مبالغة فى ذلك إلى الحد الذى يغريها به ويحملها على التعالى والتَّكَبُّر عليه ، أو تأخذ كلامه هذا على غير وجهه لأن الشيء إذا زاد عن حده انقلب إلى ضِدِّه .

ولابد أن يعطيها الثقة في نفسها ، وأن يحملها على الثقة فيه أيضاً ، فلا يكذب عليها بحجة أن الكذب جائز على المرأة ؛ فإن الكذب على المرأة معناه في الحديث الذى رواه مسلم ، هو المداراة والتعريض الذى يحتمل أمرين ، حتى لا يبدو أمامها أنه كَذّاب .

ومن عُرِفَ بالكذب لم يصدقه أحد .

ونص الحديث الذى رواه مسلم عن أم كلثوم - رضى الله عنها - أنها سمعت رسول الله - ﷺ - وهو يقول : «ليس الكذاب الذى يصلح بين الناس ، ويقول خيراً ويَنْمِي خيراً .

ولم أسمعه يرخص في شيء مما يقول الناس إلا فى ثلاث : الحرب والإصلاح بين الناس ، وحديث الرجل امرأته ، وحديث المرأة زوجها» .

والدليل على أن المراد بالكذب على المرأة هو مجاملتها ومداراتها بالتعريض ونحوه من الكلام الذى يريح النفس ولا يوصف بأنه كذب - ما رواه ابن عبد البر في التمهيد من رواية صفوان بن سليم عن عطاء بن يسار مرسلاً ، أن رجلاً قال للنبى - ﷺ - : أكذب على أهلى؟ يعنى هل يجوز لى أن أكذب على امرأتى .

قال عليه الصلاة والسلام : «لا خير فى الكذب» .

قال : أَعِدُهَا وأقول لها .

قال عليه الصلاة والسلام : «لا جناح عليك» .

وقد كتبت في الكذب على المرأة كلاماً كثيراً فراجعه فى كتابى «عدة الخطيب والواعظ» [1] .

وسيأتى فى الوصية التالية بحث عن طبيعة المرأة وأخلاقها إن شاء الله تعالى .

والله هو الموفق والهادى إلى سواء السبيل .

* * *

---

(١) ص ٢٣ وما بعدها .

(١١٦) لا يَفْرَكْ مؤمنٌ مؤمنةً

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال :

«لاْ يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً . إن كَرِهَ منها خُلُقاً رَضِيَ منها آخَرَ» (١) .

* * *

من المعلوم لدينا جميعاً أن الإنسان إذا ما أعطى شيئاً حرم آخر ، فهو مرفوع فى جهة مخفوض فى جهة أخرى ، فإن استحق الثناء على صفة من صفاته أو فعل من أفعاله فلابد أن يلاحقه الذم فى صفة أو أكثر أو فى فعل أو أكثر ، فليس لأحد أن يدعى الكمال فى شىء إلا الأنبياء ، فإن لهم الكمال البشرى ، فلا يعابون على شىء فعلوه أو اتصفوا به ، ومع ذلك فإنهم لا يجدون كل ما يحتاجون إليه فى هذه الحياة ، وربما عاش الكثير منهم كفافاً لا يجد من العيش ولا من الثياب إلا ما يسد الرمق ويستر العورة .

ما استكمل المرء من حاجاته طرفاً

إلا وأدركه النقصانُ من طرفِ

ولذلك ينبغى ألا يطلب المرء التمام فى كل شىء ، فإن التمام محال فى دنيا مليئة بالمنغصات ، حتى قيل : «انتظر هلاكاً إن قيل تم» .

«وما تم شىء إلا أخذ فى النقصان» .

وعلى ضوء ما ذكرناه يفهم هذا الحديث ويعرف ما وراء معانيه من المقاصد السامية ، فإن الرجل إذا تزوج امرأة أعجبته فى خَلقها وخُلُقها فلا يفترض أبداً أنها قد حازت الغاية فى كل ما يبتغيه منها .

إنها امرأة تمدح فى كذا وكذا ، ويعاب عليها فى كذا وكذا ، هذا شىء لابد منه ، فلا ينبغى له إذا أن يبغضها بغضاً يحمله على هجرانها وإيذائها أو طلاقها ، بل لابد أن يزن محاسنها ومساوئها بميزان صحيح ، فإن وجد محاسنها أكثر من مساوئها فهى نعم الزوجة .

---

(١) أخرجه مسلم ، فى كتاب الرضاع ، باب الوصية بالنساء ، حديث رقم : ١٤٦٩ .

والمؤمن الحق هو الذى يرضى بما قسم الله له ، ويحمده على وافر نعمه . وإن رأى ما يسوؤه صبر واحتسب أجره على الله عز وجل .

وإذا كمل إيمانه رأى فى المحن منحاً فحمد الله عز وجل فى الضراء والسراء وفى الشدة والرخاء ، لعلمه أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً .

ومن أحسن ما ذكروا أن رجلاً صالحاً تزوج امرأة صالحة ، وكان رجلاً دميم الوجه تبغضه النساء ، وكانت هى من أجمل نساء العرب – نظرت إليه يوماً فى صفاء فتبسمت ، فسألها عن سر تبسمها ، فقالت : أنا وأنت من أهل الجنة إن شاء الله .

فقال : ومن أين عرفت ذلك ؟

فقالت : تزوجتك فصبرت ، وتزوجتنى فشكرت ، والجنة للصابرين والشاكرين .

فانظر إلى ملاحتها وفكاهتها وطيب حديثها وفهمها لقواعد الدين مع جمال الخَلق والخُلق فهى تداعبه ولا تعيره ، وتلاطفه فى خفة وظرف .

والعاقل من يضع لنفسه مقاييس يعرف بها الحسن من القبيح ، والطيب من الخبيث ويميز بها الخير من الشر ، ويحكم على الأشياء بحكم صحيح ، فلا يقطع بأمر إلاّ إذا عرف وجه الخير فيه .

فالزوج مثلاً قد يرى من زوجته عيباً فى خلقها أو فى خُلقها فلا ينبغى أن يفركها –يعنى يبغضها – فإنَّه إن كره منها خُلقاً رضى منها آخر .

فقدِّر – مثلاً – أنها غيور أكثر مما يجب ، أو سليطة اللسان ، أو مهملة بعض الشىء فى نظافة بيتها ، أو فى تربية أولادها فإن هذا كله مما تعاب به ولكنها عفيفة أمينة على مال زوجها ، صادقة فى أقوالها وأفعالها ، ودودة لأهل زوجها ، محبة لجيرانها ، إلى ما هنالك مما يحسب لها .

فعلى الرجل أن يضع هذا وذاك فى الميزان فإنه سيجد ما تعاب به أمراً هيناً لا يستوجب بغضه لها .

ولو نظر إلى ما فى غيرها من العيوب لهانت عليه عيوبها .

وما يقال للرجل يقال للمرأة أيضاً فالخطاب له ولها إلاّ أن النبى – ﷺ –

وجه الخطاب للرجل لأن العصمة بيده ، ولأنه هو القوَّام عليها وفى إمكانه أن يتزوج غيرها ليجد عندها ما يفتقد فيها ، فكان خطابه له من باب استدرار عطفه عليها ورحمته بها ، واستجلاب إحسانه إليها .

* * *

ويلاحظ أن النبى – ﷺ – قد اهتم فى هذه الوصية بالجانب الخُلُقى أكثر من اهتمامه بالجانب الخلْقى ، فقال : «إن كره منها خُلُقاً رضى منها آخر» وذلك لأن الجانب الخُلُقى أهمَ بكثير من الجانب الخلْقى لدى الرجل والمرأة ، فالعاقل منهما ينظر أولاً إلى الدين والخُلُق ثم ينظرَ بعد ذلك إلى الجوانب الجسمية والمادية .

جمال القد مع قبح النفوسِ كقنـــديل على قبر المجوسِ

ولا شك أن الرجل قد يبغض المرأة لقصور فى بعض مناحى الجمال فيها فلا ينبغى أن يتمادى فى هذا البغض حتى تظهر آثاره فى أقواله وأفعاله ، فإنه إن كره منها ناحية رضى منها بناحية جمالية أخرى ، وذلك مفهوم من فحوى الحديث وسياقه .

ويلاحظ أيضاً أن المؤمنة لا ينبغى لزوجها أن يبغضها لعيب فى خُلُقها أو خلْقها لأن إيمانها يشفع لها ، والمؤمنات بالنسبة للمؤمنين قليل .

فمن ظفر بذات الدين فقد نال منتهى البغية ، ويكفى أنه إذا نظر إليها سرته وإذا أمرها أطاعته ، وإذا غاب عنها حفظته فى ماله وعرضه .

قال تعالى : ﴿ فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ﴾ (١) .

والمخاطب فى هذا الحديث هو المؤمن ؛ لأنه هو الذى ينتفع بالذكرى ، وتؤثر فيه الموعظة ، وهو الذى يستجيب لله وللرسول لما فيه سعادته فى الدنيا والآخرة .

ولذا لم يقل رسول الله – ﷺ – لا يفرك رجل امرأة ، بل قال : «لا يفرك مؤمن مؤمنة» .

* * *

وهذا الحديث تفسير وبيان لقوله تعالى : ﴿وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعلَ الله فيه خيراً كثيراً﴾ (٢) .

---

(١) النساء : ٣٤ . (٢) النساء : ١٩ .

والمعاشرة هى المخالطة والمسايرة والتعاون على البر والتقوى ، وهى تقتضى الوقوع من الطرفين كما هو معلوم من هذه الصيغة .

والخطاب فى الآية للرجال بالأصالة وللنساء بالتبعية ، فلا يظن أحد أن الخطاب للرجال وحدهم ، وإن بدا أنه متوجه إليهم ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ﴾ (1) .

فالخطاب – أيضاً – فيها متوجه إلى الرجال والنساء معاً ، إذ إن كلاً منهما يميل بطبعه إلى الآخر ، ويسكن إليه نفسياً وجنسياً ، ويجد معه الأنس والسرور فهى نعمة أنعم الله بها على الزوجين معاً .

وكثيرا ما يجيء الخطاب للرجال ويراد النساء به تبعاً لهم ، وهذا ما يسمى فى اللغة بالتغليب ؛ بمعنى أنه يغلب جانب الرجال على النساء فى الخطاب تشريفاً لهم ، أو لأنهم قوامون عليهن .

والمعروف هو الذى يقره الدين القويم وترتضيه الطباع السليمة ، ولا يجد الناس فيه ما يعاب .

وقوله تعالى : ﴿ وعاشروهن بالمعروف ﴾ يقتضى أن يكون المعروف هو الحكم بين الرجال والنساء عند عدم وجود النص الذى تقدر به الحقوق ، وتعرف به مقادير الواجبات .

والباء فى المعروف للمصاحبة ، والجار والمجرور جملة حالية .

أى وعاشروهن حالة كون المعاشرة قائمة على المعروف ومبنية عليه .

وقوله – جل وعلا – : ﴿ فإن كرهتموهن ﴾ معناه :

إن كرهتم شيئاً فيهن يتعلق بأوصافهن الخُلقية والخلقية ﴿ فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾ . وهو وعد مؤكد لا شك فيه ، فإن « عسى » فى جانب الله ليست للرجاء فحسب وإنما هى للترجية ، والترجية من الله وعد ، والله لا يخلف الميعاد ، وكذلك « لعل » فإنها في جانب الله للتحقيق أيضاً . كقوله تعالى : ﴿ لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ﴾ (2) .

والخير كلمة واسعة الدلالة فى حصول منتهى البغية ، فهو من الألفاظ التى

---

(1) الروم : 21 . (2) الطلاق : 1 .

لا تقف معانيها عند حد كالإحسان والبر والتعاون ونحوها من الكلمات المبسوطة فى القرآن والسنة وكتب اللغة .

وانظر كيف وصف الله «الخير» فى الآية بالكثرة ، فإن هذا الوصف توكيد لحصول الخيرية ، وتعميق لمفهومهما .

والمعنى : - أنه من عاشر امرأته بالمعروف ، وعاشرته بالمعروف ، وكره أحد الزوجين من الآخر شيئاً فصبر واحتسب أجره على الله - تعالى - فإن الله - جلت قدرته - سيجعل لمن صبر واحتسب منهما خيراً كثيراً يلقاه فى الدنيا ، ويلقاه فى الآخرة .

ولو فهم الناس هذه الآية على هذا الوجه الذى ذكرته ما وسعهم إلاَّ أن يصبروا على ما ابتلاهم الله به ، ويرضوا كل الرضى بقضائه وقدره ، ويشكروه ما استطاعوا على وافر نعمه وواسع فضله . فكل محنة فيها منحة .

ومن الناس من يرى المحن ولا يرى المنح ، ومنهم من يراهما معاً متقاربين أو متباعدين، ومنهم من لا يرى إلا المنح ، وهؤلاء هم أصحاب الدرجات العلى . إنهم يعلمون أن الله لا يختار لعبده إلا الخير ، وأن الخيرة فيما اختاره الله لعبده لا فيما اختاره العبد لنفسه ، وأن المحنة إنما هى أمر ظاهر ، والمنحة أمر باطن فيها .

والراسخون فى العلم هم الذين يعلمون بواطن الأمور لهذا تراهم لا يسخطون على شىءٍ أبداً ، بل تراهم يستقبلون المحن استقبال المنح فيفرحون بقدومها لأنهم يعلمون أن الصبر عليها أعظم منحة .

وربما رأوا المنح محناً فى بعض الأوقات لما فيها من الفتن ، قيل : إن رجلاً من الصالحين كان إذا جاءه مال قال : «أخشى أن يكون ذنباً عُجلت عقوبته» .

وهذا الكلام العالى له موطن آخر نسبح فى معانيه ومراميه ، ويكفينا أن صبر الرجل على امرأته ، وصبرها عليه من أعظم أنواع الصبر ، لأن به تدوم العشرة ويحفظ الود وتزداد الألفة ، ويصلح شأن الأسرة ، وبصلاحها يصلح المجتمع كله .

فافهم هذا وبالله توفيقك .

* * *

(١١٧) لاَ يَجْلِدْ أَحَدُكُمُ امرَأَتَهُ

عن عبد الله بن زمعة – رضي الله عنه – عن النبي – ﷺ – قال :

«لا يَجْلِدْ أحَدُكمُ امْرَأَتَهُ جَلْدَ العبدِ، ثم يُجَامِعُهَا في آخِرِ اليوم» (١) .

* * *

النساء أسيرات عند أزواجهنَّ ، قد مكنهم الله منهن ومَلَّكَهُمْ أمرهن ، وأسند إليهم حفظ أعراضهن وأموالهن ، وأمرهم بتربيتهن على الخُلُق الفاضل والسلوك النبيل ، والإحسان إليهن وحسن معاشرتهن ، والتلطف بهن والعفو عنهن في كثير من أخطائهن ، على النحو الذي بَيَّنَّاه في الحديثين السابقين .

والمرأة كما عرفناها سريعة الانفعال، لا تستطيع التحكم في عواطفها غالباً، فيصدر منها ما تستحق عليه العقوبة ، والرجل أملك لعواطفه منها ، يستطيع التحكم في انفعالاته التي تبدو أحياناً أنها أشد من انفعالاتها ، لهذا جعل الله العصمة في يده ، ولو جعلها في يدها لأسرعت إلى طلاق نفسها بنفسها – كما ذكرنا في كتاب الفقه الواضح .

وإذا كان الأمر كذلك ، فإنه ينبغي عليه أن يتجاوز عن مساوئها ، ويتغاضى عن عيوبها ، ويعالج عوجها بالحكمة والموعظة الحسنة ، ولا يلجأ إلى ضربها إلاّ عند استنفاد كل الوسائل السلمية .

وإذا ضربها ، فليكن ضربه غير مُبَرِّحٍ ، لا يَكْسِرُ عظماً ولا يُسيلُ دماً ، ولا يكون على المواضع الحساسة ، وليجتنب الوجه ؛ فإن النبي ﷺ قد نهى عن ضرب الوجه .

وإذا امتثلت لأمر الله تعالى ومالت إلى الموادعة والمسالمة ورغبت في الصلح وراجعت نفسها فيما أقدمت عليه أو أحجمت عنه – فلا ضرب له عليها بعد ذلك ؛ لقوله تعالى : ﴿واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً إن الله كان علياً كبيراً﴾(٢) .

---

(١) أخرجه البخاري ، في كتاب النكاح ، باب ٩٣ ، ما يكره من ضرب النساء .

(٢) سورة النساء : ٣٤ .

أى فإن عُدْنَ إلى طاعتكم وعدلن عن التَّرفُّع عليكم فلا تلتمسوا لضربهن السبل ، فإن فى ذلك ظلماً منكم لهن ، والله مُطَّلِعٌ عليكم ، شهيدٌ على أعمالكم ، فإن كنتم عليهن قادرين فالله عليكم أقدر ، فاتقوا الله فيهن ، وقفوا عند العدل فى معاملتهن ؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة .

* * *

وقوله - ﷺ - : «لا يَجْلِدْ أحدُكُمْ امرأته جلد العبد» أى جلداً شديداً كما يجلد أحدكم عبده .

وفى رواية لمسلم : «ضرب الأمة» وهى المملوكة التى تباع وتشترى .

وقد كان العرب يضربون العبد والأمة ضرباً مبرحاً فى كثير من الأحيان ، إما لاستخفافهم بشأنهم ، وإما لأن العبيد والإماء كانوا لا يراقبون الله فى أعمالهم .

والغالب فى جنس العبيد والإماء الرعونة وسوء الأدب ، وفساد الخلق وحدة الطبع ؛ نظراً للظروف النفسية التى وضعوا فيها ، من الشعور بالحقارة والغربة والبعد عن الأهل ، وغير ذلك من الأمور التى تحتاج إلى تحليل وتعليل .

ولذلك حرص الإسلام على تحرير الرقاب بشتى الوسائل حتى يصير الناس أحراراً كلهم كما ولدتهم أمهاتهم [1] .

والجلد معناه في الحديث : الضرب مطلقاً ؛ بأى آلة من الآلات التى يضرب بها غالباً .

يقال : جَلَدَهُ يَجْلِدُهُ جَلْداً : ضَرَبَ جِلْدَهُ ، سواء كان الضرب بالجِلْدِ أم بغيره من السِّياطِ .

وهذا النهى فى الحديث لا يقتضى نفى الضرب مطلقاً ، بل يثبته ، وإنما ينفى شدته وقسوته ؛ وذلك لأن المرأة عند زوجها كالأمة من بعض الوجوه ، فهى بطبعها محكومة لا حاكمة ، مأمورة لا آمرة ، مملوكة لا مالكة ، لها من الحقوق مثل ما عليها من الواجبات ، ولكن للرجل عليها درجة ، هى درجة القوامة

---

(١) أحسن من كتب فى تحرير الرِّقّ فى الإسلام : عباس محمود العقاد ، فى كتابه : بلال مُؤَذِّن الرسول - ﷺ - .

والتبعة والرِّعَاية لشئونها الدينية والدنيوية ؛ ولهذا أوجب الله عليها طاعته في غير معصية الله عز وجل .

وقد شبههن النبي – ﷺ – بالأسرى عند أزواجهن ، والأسير لا يَمْلِكُ لنفسه من أمره كل شيء .

والآسر له مأمور بالإحسان إليه والعطف عليه ، فالإسلام دين الرأفة والرحمة والحنان .

عن عمرو بن الأحوص الجُشميِّ – رضى الله عنه – أنه سمعَ رسولَ الله – ﷺ – فى حَجَّة الوَدَاعِ يَقُولُ بَعْدَ أن حَمِدَ الله وَأَثْنَى عليه ، وَذَكَرَ وَوَعَظَ : «ألاَ واسْتَوْصُوا بالنِّسَاءِ خَيْرًا ، فَإِنَّمَا هُنَّ عَوَانٍ عنْدكُمْ ، ليس تَمْلكُونَ منْهُنَّ شَيْئًا غيرَ ذلك ، إلا أن يأتين بفاحشة مُبَيِّنَة ، فإِنْ فَعَلْنَ فَاهْجرُوهُنَّ فى المَضَاجِعِ واضربُوهُنَّ ضربًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ ، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سَبيلاً .

الا إن لكم على نسائكم حَقًّا ، ولنسَائكمُ عليكم حَقًّا ، فَحَقُّكُمُ عليهن أن لا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ مَنْ تَكْرَهُونَ ، ولايَأْذَنَّ فى بُيُوتِكُمْ لِمَنْ تَكْرَهُونَ .

الا وَحَقُّهُنَّ عَلَيْكُمْ أن تُحْسِنُوا إِلَيْهِنَ فى كِسْوَتِهِنَّ وطَعَامِهِنَّ» (١) .

ومعنى «عَوَانٍ عندكم» : أسيرات محبوسات في بيوتكم تستمتعون بهن وتستعينون بجهودهن بإصلاح شئون البيوت والذرية ، وليس لكم منهن غير ذلك ، فخدماتهن مقصورة عليكم لا تتعدَّاكم إلى غيركم من الآباء والأمهات وسائر الأقارب إلا برضاهن .

فلا يرغم الرجل امرأته على خدمة أبيه أو أمه أو أخيه ويضربها على ذلك ، فإن هذا ليس من حَقِّه وليس من الواجب عليها إلا أن تكون متطوعة من غير ضغط ولا إحراج .

وعلى الآباء والأمهات أن يتقوا الله فى أزواج أبنائهم، فإن الله مطلع عليهم، ولا يخفى عليه شيء من أمرهم .

---

(١) أخرجه ابن ماجه والترمذى ، وقال : حديث حسن صحيح .

﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾ [(١)] .

ولوصية الآباء والأمهات بزوجات أبنائهم موضع آخر فى هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

* * *

أما قوله – ﷺ – في هذه الوصية : « ثم يجامعها فى آخر اليوم » ففيه سِرٌّ عجيب لاح لى من خلال قراءتى فى كتب علم النفس ، وهو أن الرجل إذا ضرب امرأته في أول النهار ثم جامعها فى آخره ، أى بعد مدة وجيزة من ضربها لا تزيد عن يوم أو بعض يوم ، وَقَدَّرَ الله بينهما ولداً فإنه يحمل هذه الانفعالات التى حدثت لكل منهما أثناء الضرب ، فيصير هذا الولد جباناً خَوّافًا خَوَّاراً شديد الانفعال فاقد الثقة فى نفسه ، يبغض أباه ويبغض أمه لأتفه الأسباب .

وذلك لأن المرأة حين يجامعها زوجها تتذكر ما فعله معها أول النهار ، فتكره لقاءه ولا تستجيب له جنسياً ، ولا تميل إليه بعاطفتها ، ولا تستحسن هذه المتعة والعهد من إيذائها قريب ، فيتغير حال البويضة التى تحمل الحيوان المنوى تَبَعًا لذلك كله تَغَيُّراً غير محمود .

وحاله أيضاً معها لا يقل عن حالها معه ، فمن أين السكون النفسى والميل الجنسى والتفاعل الوجدانى مع تَذَكُّر ما وقع بينهما فى أول النهار من الشقاق المُرّ والضرب المُبَرِّح .

هذا ما فهمته من قوله – ﷺ – : « ثم يجامعها فى آخر اليوم » .

وهذا الفهم لا يتنافى مع ما قد يتبادر إلى الذهن من أول نظرة أن المراد به التناقض بين الفعلين : المفارقة والمعانقة ، فإنه إذا ضربها فارقها بقلبه وفارقته بقلبها، ثم يأتى آخر اليوم فيسطو عليها وهى مرغمة أو راضية على مضض ؛ لأنه فى حاجة إليها لقضاء وطره وإعفاف نفسه ، وكان من الواجب عليه – مادام يعرف أنه لا غنى له عنها – أن يضع فى اعتباره هذه الرغبة الجنسية الملحة كلما هَمَّ بضربها .

فكأنى برسول الله – ﷺ – يقول للرجل : إذا دفعتك نفسك الأمارة بالسوء

---

(١) سورة غافر : ١٩ .

إلى ضرب امرأتك ، فاذكر حاجتك إليها ورغبتك فيها بعد قليل ، وحاول أن تجعل الأجواء صافية دائماً لهذا اللقاء المنتظر والمتكرر ، وهو لقاء له ما بعده ، فإنه ليس مجرد متعة تنتهى بعد دقائق ، ولكن قد يكون من ورائه ولدٌ تَقَرُّ به العين ، وينشرح به الصدر ، فهل يريد الرجل أن يكون هذا الولد ضعيف الشخصية تتناوشه العقد النفسية وتنتابه تلك الانفعالات الموروثة التى تم غرسها فى الجينات التى يحملها .

والحكيم من الناس من يدرك الخطر قبل وقوعه ، ومن يَتَحَكَّمُ بعقله في عواطفه وانفعالاته ، ويزن الأمور بميزان عادل بحيث لا تتناقض ولا تختلف .

وقد عرفنا - في الوصيتين السابقتين - أن السكون النفسى والجنسى نعمتان متلازمتان ، لا تتأتى إحداهما دون الأخرى ، وأن السكون الجنسى تابع للسكون النفسى ، فلا يتم إلا به .

* * *

ويؤخذ من هذه الوصية فوق ما ذكرناه أن الرجل المثالى لا يُقْدِمُ على ضرب امرأته إلا عندما يستحكم الشقاق ويستحيل الوفاق ؛ فما ضرب النبى - ﷺ - امرأة من نسائه قط ، وكان إذا أذن لرجل بضرب امرأته يتلطف به حتى لا يهم بأمره ، فيكون إذناً بالضرب بوصفه حَقًّا له إذا استدعى الأمر ذلك ، ونهياً عنه بطريق الترغيب فى الصبر عليها ابتغاء الأجر ، وما أعظمه من أجر !!

روى أبو داود والنسائى وابن ماجه عن إياس بن عبد الله بن أبى ذباب - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : «لا تضربوا إماء الله» .

فجاء عمر إلى رسول الله - ﷺ - فقال : ذَئِرَت النساء على أزواجهن .

فَرَخَّصَ فى ضربهن ، فأطاف بآل رسول الله - ﷺ - نساء كثير يشكون أزواجهن .

فقال رسول الله - ﷺ - : «لقد أطاف بآل محمد نساءٌ كثير يشكون أزواجهن ، ليس أولئك بخياركم» .

فقوله : «ليس أولئك بخياركم» جعل الكثير من أصحابه - ﷺ -

يمتنعون من ضرب نسائهن ؛ لكى يكونوا من خيرة الأخيار ، لأنهم كانوا يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون .

فانظر – هداك الله – إلى هذا الفن في الهداية والإرشاد ، إنه – ﷺ – يأذن فى ضربهن لكى تمتنع النساء عن مراجعة الرجال ومشاكستهم بغير حق ، وفى الوقت نفسه يسلب الرجال هذا الحق من حيث يشعرون أو لا يشعرون ، فيتنازلون عنه عن رضا وطيب نفس رغبة فى الترقى إلى سُلَّمِ الكمال ، فيتركون ضربهن عن رغبة لا عن قهر .

ولو لم يأذن لهم بالضرب أولاً لَتَوَلَّى النساء كبرهن وتعالين على أزواجهن، فلم يتمكن الرجال من تأديبهن ورَدِّهِنَّ إلى الصواب من القول والعمل .

ولو لم يقل : «ليس أولئك بخياركم» ما عدلوا عن ضربهن ، وفى ذلك من السوء ما لا يخفى ، فأنعم به من أسلوب تربوى حكيم ، تقطعت دونه أعناق المُرَبِّينَ .

ولقد كان النبى – ﷺ – لا يَكُفّ عن ترغيب الرجال فى حسن معاشرة النساء وترك مُضارتهن ، وكان دائماً يقول : «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأهلِهِ ، وَأَنَا خيرُكُمْ لأهلى» [1] .

أى اجعلونى قدوتكم فى معاملة نسائكم ، وقد أمرتم بذلك ، فاتبعونى وأطيعوا أمرى .

﴿لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾ [2] .

﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ [3] .

نسأل الله لنا ولكم الهداية والتوفيق .

* * *

---

(١) رواه ابن حبان فى صحيحه .

(٢) سورة الأحزاب : ٢١ .

(٣) سورة الحشر : ٧ .

(١١٨) من سَرَّه أن يُبسط له رزقُه

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : «من سَرَّه أن يُبسط له رزقُه أو يُنسأ له فى أثره فليصِلْ رحمَه» (١) .

* * *

الرحم قرابة الرجل من جهة أمه ومن جهة أبيه أيضاً .

وتوسع بعض العلماء فى مفهوم الرحم فقالوا : إن أفراد القبيلة إن عاشوا وسط قبيلة أخرى فهم رحم حتى يعودوا إلى ديارهم .

وأهل البلد إن عاشوا فى بلد أخرى فهم رحم حتى يعودوا إلى بلدهم .

والعرب إن عاشوا فى بلد غير عربى فهم رحم ، والمسلمون فى غير بلاد المسلمين رحم حتى يعودوا لبلادهم ، يجب عليهم أن يتراحموا ويتواصلوا ويتعاونوا على البر والتقوى ، ويحنو بعضهم على بعض ، ويحسن بعضهم إلى بعض فى أوقات الرخاء والشدة .

وقد أوصى الله في كتابه العزيز بصلة الرحم وحذر من قطيعتها ، فقال جل شأنه : ﴿ وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذرْ تبذيراً إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولاً ميسوراً ﴾ (٢) .

والأمر فى قوله تعالى : ﴿ وآت ذا القربى حقه ﴾ للوجوب ؛ لأن البخس فى الحقوق ظلم ، والظلم قد حرمه الله على نفسه ، وجعله بين عباده محرماً .

وحق ذوى القربى يتمثل فى برهم والإحسان إليهم والعطف عليهم ، ووصلهم بالزيارة والسؤال عنهم ، والدعاء لهم والبشاشة فى وجوههم ، والدفاع عنهم فى حضورهم وغيبتهم ، وتنفيس كرباتهم بقدر الوسع والطاقة .

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب البيوع ، باب من أحب البسط فى الرزق ، ومسلم فى كتاب البر والصلة والآداب ، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها .

(٢) سورة الإسراء : ٢٦ - ٢٨ .

وعند العجز عن قضاء حاجة من حوائجهم يعتذر إليهم اعتذاراً مهذباً ، ويعدهم وعداً حسناً ، ويقول لهم قولاً ميسوراً ، أى مقبولاً مرضياً لا يجرح المشاعر ولا يحرج السائل .

وقال عز شانه : ﴿ واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً ﴾ (١) .

أى : اجعلوا لأنفسكم وقاية من عذاب الله الذى يستحلف به بعضكم بعضاً ، واتقوا قطيعة الأرحام فإنها مهلكة ، واعلموا أن الله كان ولا يزال عليكم رقيباً، يعلم سركم وجهركم، فيجزيكم على الإحسان إحساناً وعلى السوء سوءاً.

وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً كان ذلك فى الكتاب مسطوراً ﴾ (٢) .

أى : وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى المواريث بوجه خاص ، وفى القربات والهبات بوجه عام .

وفى السـنة المطهرة أحاديث كثيرة ترغب فى صلة الأرحام ، منها هـذا الحـديث .

وهو من الوصايا الجامعة لخيرى الدنيا والآخرة .

* * *

فقوله ـ ﷺ ـ : « من سره أن يبسط له رزقه » ، وفى رواية لمسلم : « أن يبسط له فى رزقه » معناه واضح ، ولكن من تعمق فيه وجد لطائف تستحق أن تذكر لتعرف ، منها :

أن البسطة فى الرزق : الاتساع الذى لا يحد بحد .

وإذا علمنا أن الرزق مقسوم ومحدود أدركنا ـ بالبديهة ـ أن البسط يكون بالبركة فيه ، بحيث يتذوق المرزوق حلاوته ، ويجد نفعه ظاهراً لديه غير خافٍ

(١) النساء آية : ١ .

(٢) الأحزاب : ٦ .

عليه ، ويوفق لشكر الله تبارك وتعالى على ذلك ، فينال بهذا البسط ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة .

هذا هو معنى البسط في الرزق فيما أرى . والله أعلم .

ومنها أن السرور أشد من الفرح ، وأبعد عن العُجب والغرور ، فمهما اشتد السرور لا يضر صاحبه ، ولا يخرجه عن حد الأدب مع الله تبارك وتعالى ، ولا يؤدى به إلى ما يؤدى إليه الفرح إذا اشتد .

وذلك لأن السرور معناه بسط أسارير الوجه، وظهور البشاشة والسماحة عليه .

قال الله عز وجلٍ فى وصف أهل الجنة : ﴿فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يُحاسبُ حساباً يسيراً وينقلب إلى أهله مسروراً﴾ (١) .

وقال جل وعلا : ﴿فوقاهم الله شرَّ ذلك اليوم ولقَّاهم نضرةً وسروراً﴾ (٢) .

ومثل السرور الشديد بالنسبة لأهل الجنة الفرح الشديد؛ لأنه مهما اشتد محمود.

قال تعالى : ﴿ولا تحسبن الذين قُتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يُرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألاَّ خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ (٣) .

والفرِح – بكسر الراء – من اشتد فرحه ، وهما أحد رجلين :

رجل اشتد فرحه بحطام الدنيا فخسر الدنيا والآخرة ، مثل قارون .

ورجل اشتد فرحه بما آتاه الله من فضله فربح الدنيا والآخرة ، كالشهداء ومن فى حكمهم .

فالسرور والفرح – إذاً – مترادفان ولكن بينهما عموم وخصوص ، وكل لفظ منهما يعيش فى بيئته ويتفاعل مع الجو الذى وضع فيه .

فقوله – ﷺ – : «من سره» ترغيب في صلة الأرحام ، وتبشير بثواب الله على ذلك فى الدنيا بالبركة فى الرزق والعمر، وثواب الله فى الآخرة ، وهو خير وأبقى.

* * *

---

(١) الانشقاق : ٧ – ٩ . (٢) الإنسان : ١١ . (٣) آل عمران : ١٦٩ – ١٧٠ .

وقوله – ﷺ – : « وينسأ له فى أثره » معناه : يؤخر له فى عمره .

فالنسأ هو التأخير ، يقال : نسأ فلان فلاناً أى أخره .

والعمر سمى أثراً لأنه تابع للحياة فى أثرها .

وقوله – ﷺ – : « فليصل رحمه » أمر جامع لكل أنواع البر والإحسان ، فمن وصل رحمه كما أمر الله عز وجل فهو من خيار المؤمنين ، وهو من أولى الألباب الذين فتح الله لهم أبواب المعرفة ، وأمدهم بالحكمة ؛ وذلك لأن صلة الأرحام تحتاج إلى خبرة وفطنة ، وحكمة وصبر ومجاهدة ، فإن الأقارب كثيراً ما يقابلون الحسنة بالسيئة ولا يرضون بما أوتوا مهما كان كثيراً ، ولا يشكرون من أسدى إليهم معروفاً كما ينبغى أن يكون الشكر، إلا من عصمه الله من ذلك .

وعلى المسلم أن يصنع فى أقاربه معروفاً ولا ينتظر منهم أن يقابلوا معروفه بمعروف مثله ، ولا ينتظر منهم أيضاً أن يشكروه على ذلك وأن يعود نفسه على أن يحسن لمن أساء إليه ، فمن أحسن لمن أساء إليه كان أعبد الناس .

روى مسلم في صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رجلاً قال : يا رسول الله ، إن لى قرابة ، أصلهم ويقطعوننى ، وأحسن إليهم ويسيئون إلى ، وأحلم عنهم ويجهلون على ، فقال : « لئن كنت كما قلت ، فكأنما تُسفُّهم المَلَّ ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ، ما دُمت على ذلك » .

إنه يشكو قرابته الذين يقاطعونه وهو يريد وصلهم ، ويعمل جاهداً فى الإحسان إليهم ، وهم يعملون جهدهم فى الإساءة إليه .

وهو يعاملهم بالحلم وحسن الخلق وهم يجهلون عليه بالسب والشتم وسائر أنواع الأذى ، فماذا يعمل من أجل إصلاحهم ، وكيف يواجههم ، وهل يستمر فى الإحسان إليهم أم يقطع صلته بهم .

فيرشده النبى – ﷺ – إلى ما فيه سموه عند الله وعند الناس ، فليس هناك أعظم من حسن الخلق ، فيقول له : « لئن كنت كما قلت ، فكأنما تسفهم الملّ» وهو الرماد المحمى .

وهذا كناية عن مضاعفة أجره عند الله ومضاعفة العذاب لهم ، ثم يبشره

بالنصر عليهم فى آخر الأمر مادام على بره بهم وإحسانه إليهم وصبره عليهم ، فيقول النبى – ﷺ – : «ولا يزال معك من الله ظهير – أى ناصر ومعين – مادمت على ذلك» .

إن المسلم فى جهاد مستمر مع نفسه ومع الناس ، وهذا الجهاد متنوع الجهات متعدد الأسباب، فليسأل الله عز وجل أن يهديه سواء السبيل، وأن يعينه على مواجهة الصعاب فى معاشرة الناس بالمعروف ، وتحمل ما يأتيه من قبلهم مع الرضا بقضائه وقدره ، فإن من استعان بخالقه ومولاه أعانه وهداه ، وثبته على الحق حتى يلقاه .

﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾ (١) .

* * *

---

(١) العنكبوت : ٦٩ .

(١١٩) تصافحوا يذهبِ الغلّ

عن عطاء بن أبِى مسلم عبدِ الله الخراسانى - رَضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قالَ :

«تَصَافَحُوا يَذْهَبِ الغِلّ ، وَتَهَادَوْا تَحَابُّوا ، وَتَذْهَبِ الشَّحْنَاءُ» (١) .

*　　*　　*

الإسلام دين الإخاء والمحبة ، والتعاون على البر والتقوى ، والإخلاص لله – عز وجل – فى القول والعمل .

والمؤمن الحق هو الذى لا يحمل فى قلبه لأخيه غِلاً ولا حقداً ولا حسداً ، ولا يأتى من الأفعال ما يؤثر على الصلة الإيمانية الوثيقة ، بل يحافظ على الود ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

فالمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً ، فإذا تأثرت العلاقة بين المؤمن وأخيه المؤمن بأى عارض من العوارض الشيطانية – تدارك هذا العارض إبّان وقوعه فتلاشاه قبل أن يستفحل خطره ، واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم ، واعتذر لأخيه على ما بدر منه ، وتاب واستغفر ، وعزم على أن يكون أحسن مما كان عليه .

يقول الله – عز وجل – : ﴿ وإما يَنْزَغَنَّكَ من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم إن الذين اتقوا إذا مَسَّهُمْ طائفٌ من الشيطان تَذَكَّرُوا فإذا هم مبصرون ﴾ (٢) .

والوسائل التى يستعيد بها المؤمن ود أخيه ويستجلب المزيد من عطفه عليه كثيرة ، منها ما ذكره النبى – ﷺ – فى هذه الوصية .

*　　*　　*

---

(١) أخرجه مالك فى الموطأ ، كتاب حسن الخلق ، باب ما جاء فى المهاجرة ، حديث رقم : ١٦ . قال ابن عبد البر : هذا يتصل من وجوه شتى ، حسان كلها .

(٢) سورة الأعراف : ٢٠٠ – ٢٠١ .

فقوله – ﷺ –: «تَصَافَحُوا يَذْهَبِ الغِلُّ» وسيلة من أعظم الوسائل فى تطييب النفوس وإزالة ما بها من حقد وعداوة وشحناء ، لكن ما معنى المصافحة؟

المصافحة لها معنيان : أحدهما قريب متبادر إلى الذهن ، والآخر بعيد لا يتجه الذهن إليه مع أنه وجيه .

المعنى الأول : المصافحة بالأيدى ؛ بأن يضع الرجل كفه اليمنى فى كف أخيه اليمنى ، ويجعل كل منهما بطن يساره على ظهر كف يمين الآخر .

وهذه هى السنة كما ذكر أكثر المحدثين .

فإذا ما تصافح المؤمنون بالأيدى ، فكأنهم تعاهدوا على الحب والود والإخاء من جديد .

واتصال الأيدى سبب في اتصال القلوب ، فما دام المؤمنان التقيا على الخير وطاب كل منهما نفساً أن يضع كفه في كف أخيه – فقد تأكد لديهما أن العداوة قد ذهبت عنهما ، وما عليهما إلا أن يتعاتبا إن كان هناك داع للعتاب ، أو يصفح أحدهما عن الآخر بغير عتاب .

والعتاب أحياناً يبقى على الود (ويبقى الود ما بقى العتاب) .

وأحياناً يكون سبباً فى التباعد والتفرق ، وذلك إذا كان في غير محله .

إذا كنتَ فى كل الأمورِ معاتباً   أخاك لم تلق الذى لا تُعَاتِبُهْ

والمعنى الثانى للمصافحة : هو الصفح الجميل .

فالمعنى الأول : مأخوذ من الصفحة ، وهى صَفْحَة الكف ، يقال : صافح فلان فلاناً ، أى وضع صفحة كفه اليمنى فى كفه اليمنى .

والمعنى الثانى: مأخوذ من الصفح، وهو التجاوز والتسامح والعفو وما فى معناه.

والمعنيان صحيحان مقصودان بهذا الأمر الوارد في الحديث ، فتلاصق الأيدى أمارة على تقارب القلوب .

لكن المعنى الأول هو المتبادر إلى الذهن – كما أشرنا – ، والثانى تبعٌ له ولَصِيقٌ به .

وقد ذكر بعض العلماء أن أول من صافح بالأيدى أهل اليمن .

فقد أخرج البخارى فى كتاب الأدب المفرد وأبو داود بسند صحيح ، عن أنس – رضي الله عنه – قال : أقبل أهل اليمن ، وهم أول من حَيَّانا بالمصافحة .

ومن يومها أخذ الصحابة يتصافحون بالأيدى ، لما وجدوا فيها من الأنس وإظهار الحُبِّ ، والتجاوب الوجدانى .

قال قتادة – رحمه الله – قلت لأنس – رضي الله عنه – : أكانت المصافحة فى أصحاب رسول الله – ﷺ – قال : نعم .

وروى أحمد وأبو داود أن رجلاً سأل أبا ذر – رضى الله عنه – : هل كان رسول الله – ﷺ – يصافحكم إذا لقيتموه ؟ ، قال : ما لقيته قط إلا صافحنى .

وروى الطبرانى فى الأوسط عن أنس – رضى الله عنه – قال : كانوا إذا تلاقوا تصافحوا ، وإذا قدموا من سفر تعانقوا .

وفى الترمذى عن أنس – رضى الله عنه – قال : قيل : يا رسول الله ، الرجل يلقى أخاه أينحنى له ؟ ، قال : « لا » .

قال : فيأخذ بيده ويصافحه ، قال : « نعم » .

هذا .. وينبغى على المسلم أن يلقى أخاه عند المصافحة بالبشاشة والدعاء بخيرى الدنيا والآخرة .

روى مسلم فى صحيحه عن أبى ذر – رضي الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – قال : « لا تحقرن من المعروف شيئاً ، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق » .

وجاء فى كتاب ابن البُسْتِيّ عن البراء بن عازب – رضى الله عنهما – أن رسول الله – ﷺ – قال : « إن المُسْلِمَيْنِ إذا التقيا فتصافحا وتكاشرا بود ونصيحة، تناثرت خطاياهما بينهما » ، وقد أخرجه الحسن بن سفيان وأبو يعلى فى مسنديهما أيضاً .

ومعنى تكاشرا : ابتسم كل لصاحبه ، فالكشر معناه : إظهار البشاشة بالابتسام .

* * *

وهنا مسألتان رأيت من الخير أن أتحدث فيهما بإيجاز تتمة للفائدة ، وقد تكلمت عنهما فى الجزء الثالث من كتابى الفقه الواضح .

المسألة الأولى : فى حكم السلام على النساء .

والمسألة الثانية : فى حكم المصافحة عقب الصلوات الخمس .

أما مصافحة الرجل للمرأة ، فلا تجوز ولو بحائل ، على الأصح من أقوال الفقهاء - ما لم تكن زوجة أو مَحْرَماً .

لأن الإسلام حريص على وقاية كل منهما من الفتنة ، فإن لمس المرأة لا يقل فتنة عن النظر إليها ، ولم يثبت من طريق صحيح أن النبي - ﷺ - صافح امرأة أجنبية من غير حائل ولا بحائل .

روى أحمد والترمذى وصححه ، والنسائى وغيرهم عن أميمة بنت رقيقة قالت : « أتيت النبى - ﷺ - فى نساء لنبايعه ... الحديث » . وفيه : قلنا : يا رسول الله ، ألا تصافحنا ؟

قال : « إنى لا أصافح النساء، وإنما قَوْلِى لمائة امرأة كقولى لامرأة واحدة » .

وأخرج البخارى في صحيحه عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : كان النبى - ﷺ - يبايع النساء بالكلام بهذه الآية : ﴿ألا يشركن بالله شيئاً﴾ [1] .

قالت : « وما مست يد رسول الله - ﷺ - يد امرأة إلا امرأة يملكها » [2] .

لكن ما الحكم إذا مدت يدها لتصافحه ، فهل يصافحها لكى لا يحرجها ويجرح مشاعرها ، أم يمتنع من ذلك صيانة لدينه وعرضه ؟

وهل لو مد يده إليها ، تصافحه أم لا ؟

أقول - والله أعلم - : ينبغى على كل منهما أن يمتنع عن المصافحة بطريقة

---

(١) تعنى آية الممتحنة وهى قوله تعلى : ﴿يا أيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ...﴾ آية : ١٢ .

(٢) أى بالزواج أو ملك اليمين .

مهذبة أو بشيء من المراوغة ، بحيث يجتنب كل منهما الإحراج من جهة ، والفتنة من جهة أخرى .

فإن لم يستطع صافحها – أو صافحته – بحائل ثم عَرَّفَهَا – أو عرفته – الحكم بعد ذلك بأسلوب مهذب لا يجرح المشاعر ، ولا يظهر فيه التشدد والتوبيخ ، وهذا مبنى على ارتكاب أخف الضررين عند عدم إمكان الاجتناب .

والحائل لابد أن يكون كثيفاً ، لأنه لو كان رفيقاً لم يمنع الملامسة .

وأما المصافحة عقب الصلوات الخمسة فلا أصل لها فى الشرع ، فهى إذاً مكروهة ، ولا يَبْعُدُ أن تكون بدعة ؛ لأنه لم يرو فعلها عن الصحابة، فيما أعلم .

والأصل في المصافحة أن تكون قبل اللقاء ، والناس يتلاقون قبل الصلاة فلا يتصافحون ، فإذا سلموا منها تصافحوا ، فتقع المصافحة فى غير محلها .

ولكن إذا مد الرجل يده إلى أخيه عقب الصلاة ليصافحه ، فليمدد إليه يده بالمصافحة ولا يحرجه ، فإن الأصل في المصافحة أنها سنة ، فهو لم يخرج عن الأصل ولكن أتى بالمصافحة فى غير محلها ، فكره ذلك ولم يحرم .

ولا يقال : إن فى ذلك إعانة على البدعة؛ لأن دفع الإحراج من المستحبات، وهو سبيل إلى إسداء النصح إليه وتقبله منه بصدر رحب، بخلاف ما لو أبى أن يصافحه ، فإنه لا يقبل منه كلاماً بعد ذلك ، فمن الخير إذن أن يصافحه أولاً ثم يبين له الحكم بعد ذلك فى الوقت المناسب .

* * *

وبقى لنا فى هذه الوصية جزؤها الثانى وهى قوله – ﷺ – : «تَهَادَوْا تَحابُّوا ، وَتَذْهَبِ الشحناء» .

والهدية – كما نعلم – لها في النفوس سحر خاص ، فهى تهدى إلى البر والمحبة ، وتدفع بلطف إلى التعاون على البر والتقوى ، وكأنها فى ذاتها هدى إلى طريق الخير والألفة ، فمن أهدى لأخيه شيئاً برضا وطيب نفس ، فكأنه وضع له على طريق الخير معلماً يهديه إليه ويعرفه به .

والهدية تسبق المصافحة وتمهد لها فى كثير من الأحيان ، وقد تأتى بعد المصافحة لإزالة ما بقى بعدها من آثار الغل والشحناء .

وقد كانت بلقيس امرأة بلغت من الذكاء ما يثير العجب، وكان من ذكائها أنها أرادت أن ترد سليمان – عليه السلام – عن بلادها بالهدية ؛ لأنها تعلم أن للهدية تأثيراً بليغاً فى النفوس، وأنها رسول سلام بين الناس، فقالت – كما حكى القرآن عنها –: ﴿إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون﴾ (1) .

قالت ذلك وهى ترد على الأشراف من قومها عندما اغتروا بقوتهم وبأسهم الشديد ، وأسندوا الأمر إليها ، وانتظروا منها الإشارة بجمع الجموع وإعلان الحرب ، وهى غوغائية بغيضة لا يلجأ إليها إلا الأغبياء من الناس ، وهى التَّهَوُّر بعينه ، فأين قولهم من قولها !

﴿قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين﴾(2) .

وفى هذا القول – فوق ما ذكرنا – سلبية صدرت من قوم لا علم لهم – في الحقيقة – بفنون الحرب ، ولا رأى لهم يشيرون به حين يُستشارون ، وكلامهم هذا فيه رائحة النفاق كما لا يخفى على أولى الألباب ، فهم موافقون على كل شىء ، ومُسلِّمُونَ لها فى كل شىء ، ولو كانوا عقلاء أذكياء أشداء ما حكمتهم امرأة (3) .

إذا عرفت هذا ، فاعلم أن قوله – ﷺ – : « تهادَوا » من الرشد بمكان ؛ فإن الهدية تصنع ما لا تصنعه القوة ، وتحقق من الرغبات ما لا يتحقق بغيرها ، فهى من أعظم الوسائل – كما أشرنا – إلى ذهاب الغل والشحناء .

والغلّ – بكسر الغين وتشديد اللام – هو الحقد الدفين ، الذى يترجم عنه السلوك المعوج ، ويقال له : الحقد ، وهو ما يسبق الحسد ويؤدى إليه حتماً .

---

(1) سورة النمل : 34 – 35 .   (2) سورة النمل : 33 .

(3) انظر ما كتبته عنهم فى كتابى « قصص القرآن » .

وسمى غِلاً : لأنه غُلٌّ معنوى ، يُكَبِّلُ المرء ويعوقه عن مصالحة الناس ومسايرتهم ، والتعاطف معهم فى السراء والضراء .

فمن كان في قلبه غِلٌّ فليس بمؤمن حقاً كما ينبغى أن يكون الإيمان ، فليبادر إلى التخلص منه بكظم الغيظ والعفو والصفح والغفران .

واعلم أن كظم الغيظ : حبسه فى النفس حتى لا يظهر فى السلوكيات ، من قولهم : كظمت القربة ، أى أغلقت فمها لئلا ينسكب منها الماء .

وأما العفو ، فهو ترك العقاب .

وأما الصفح ، فهو ترك العتاب .

وأما الغفران ، فهو نسيان ما كان أو تناسيه .

وقد علمنا الله دعوة تذهب عنا الغل وتقينا بوائقه ، فقال حكاية عمن يجيء من المؤمنين المخلصين بعد المهاجرين والأنصار .

﴿ والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم ﴾ (١) .

والدعاء من أطيب أنواع الذكر ، فهو مخ العبادة ، بل هو العبادة نفسها ، كما جاء فى الحديث الصحيح .

وقد قال الله ـ عز وجل ـ : ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ (٢) .

والقلوب إذا اطمأنت بذكر الله سَلِمَتْ من الأحقاد والضغائن ، وامتلأت بالحب لكل الناس ، فالناس جميعاً إخوة فى الإنسانية ، لا يجوز لأحد أن يتعالى على أحد بجاهه ومنصبه، أو يتفاخر عليه بماله ، أو يعتدى على حرمة من حرماته، إلا أن يكون ذلك رداًّ للعدوان ودفعاً للظلم .

---

(١) سورة الحشر : ١٠ .

(٢) الرعد : ٢٨ .

والشحناء ليست من صفات المؤمن ، وهى الخصومة والنزاع وكل ما يشحن به القلب ، من الأثرة وحب الذات ، وبغض الناس واحتقارهم ، والسخرية منهم، والاستهزاء بهم بأى شكل من الأشكال .

والله عز وجل يقول : ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور والله يقضى بالحق ﴾ (١) .

نسأل الله تبارك وتعالى أن يوفقنا وإياكم إلى ما يحبه ويرضاه .

* * *

(١) سورة غافر : ١٩ – ٢٠ .

(١٢٠) لا تَأَمَّرَنَّ على اثنين ولا تَوَلَّيَنَّ مال يتيم

عن أبى ذر – رضى الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – قال :

«يا أبا ذر ، إني أَرَاكَ ضعيفًا ، وَإِنِّي أُحَبُّ لَكَ ما أُحِبُّ لِنَفْسِي ، لا تَأَمَّرَنَّ على اثنين ، ولا تَوَلَّيَنَّ مال يتيم» [١] .

* * *

كان النبى – ﷺ – يحب أبا ذر حبًّا شديداً ؛ لإخلاصه وزهده وورعه وتقواه ، مع شبابه المتدفق بالقوة والحيوية ، وشدة بأسه فى الحرب مع شدة مَيْلِهِ إلى السِّلم والموادعة .

فقد كان – رضى الله عنه – طرازاً فريداً ، يتميز عن كثير من أقرانه بالرأفة والحنان والشعور الفَيَّاض والإحساس المرهف ، حتى أنه كان يخشى على نفسه من أدنى شىء يتوقع أن فيه ظلماً ما قد يقع على شخص ما وهو لا يدرى فيدخل به النار .

إنه كان يخشى الله خشية العلماء العارفين ، الذين يراقبون الله فى جميع تصرفاتهم : صغيرها وكبيرها ، ويحاسبون أنفسهم محاسبة الخصم لخصمه ، ويتهمونها دائماً بالتفريط فى جنب الله عز وجل .

لهذا كان النبى – ﷺ – يُوليه عناية خاصة ، فيوصيه بما ينفعه فى دينه ودنياه ، ويناديه بكنيته [٢] تَوَدُّداً إليه وتلطفاً به ، ويفصح له عن حبه له كما جاء فى حديث سابق : « يا أبا ذر والله إِنِّى لأحبك ، والله إنى لأحبك» .

وكيف لا يحبه رسول الله – ﷺ – وهو الذى أحبه بروحه وكيانه كله ، وصحبه فى حِلِّه وترحاله ، ونهج نهجه فى عاداته وعباداته ، وباع نفسه وماله لخالقه ومولاه ، وكان على مثال الخلق الفاضل والكمال الوافر والسلوك النبيل .

---

(١) رواه مسلم، فى كتاب الأمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة، حديث رقم: ١٨٢٦، وأبو داود، في كتاب الوصايا باب ما جاء فى الدخول في الوصايا، حديث رقم: ٢٨٦٨.

(٢) اسمه جندب بن جنادة .

إنه رجلٌ اكتملت فيه معانى الرجولة ، وبطلٌ اتسم بكل معالم البطولة .

إنه من الذين قال الله فيهم : ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾ (١) .

ومن الذين قال الله عليه فيهم : ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً ﴾ (٢) .

* * *

وإذا كان أبو ذر - رضى الله عنه - بهذه المنزلة فلماذا قال له الرسول - ﷺ - : « إنى أراك ضعيفاً » .

والجواب : أن ضعفه نابع من ضميره الحى وقلبه اليقظ ، وحسه المرهف وشعوره النبيل ، فهو ضعف محمود ؛ لأنه يحمل صاحبه على تَوَقِّى الظلم بكل صوره ، واتقاء الشبهات بجميع أشكالها ، ومؤاخذة النفس على تصرفاتها العشوائية وإهمالها فى بذل الجهد فى تَحَرّى العدل المطلق بين الناس .

ولا شك أن مؤاخذة النفس بكل صغيرة وكبيرة من غير هوادة أمرٌ شاق وعسير ، والرسول - ﷺ - لا يريد أن يشق على أبى ذر، رحمة به وعطفاً عليه، لهذا أوصاه بهذه الوصية ليوفر عليه جهداً هو فى غنى عنه ، فليدعه لمن هو أقدر منه .

والمرء قد يكون قوياً في أمر ضعيفاً فى آخر ، وقد يكون قادراً على تحقيق أمر يعجز عنه آخر والعكس صحيح .

والرسول - ﷺ - كان يضع الرجل المناسب فى المكان المناسب ، فأبو ذر لديه ما يشغله ، ومعه من الأعباء ما يكفيه ، وقد رآه الرسول - ﷺ - غيرَ أهل لتَحَمُّلِ مشقة الإمارة بين اثنين ، وغير أهل لأن يتولى مال يتيم ، وهو على غير ذلك أقدر .

وذلك لأن الإمارة وظيفة تحتاج إلى رجل يَتَفَرَّغُ لها على حساب غيرها من شئون الدين والدنيا ، فهى مسئولية جسيمة وتبعة ثقيلة ، وأبو ذر رجل زاهد ورع عادل ، مشغول بدينه عن دنياه .

---

(١) سورة النور : ٣٧ . (٢) سورة الأحزاب : ٢٣ .

وهذه الوظيفة تحتاج - أيضاً - ممن يتولاها إلى شيء من الشدة في بعض المواطن ، وأبو ذر لا يشتد إلا على أعداء الدين .

ونحن نعلم أن القسوة دواءٌ ناجع لبعض الأدواء المستعصية ، فلابد منها ، إذا لم يكن هناك بديل عنها .

وَقَسَا لِيَزْدَجِرُوا وَمَنْ يَكُ حَازِمًا
فَلْيَقْسُ أَحْيَاناً عَلَى مَنْ يَرْحَمُ

وكان أبو ذر - رضى الله عنه - يحب أن يلقى أصحابه وليس فى نفوسهم منه شىء ، وليس فى نفسه - أيضاً - منهم شىء ، وهذه خليقة يتحلى بها العظماء من الرجال ، وله برسول الله - ﷺ - فيها أسوة ، فقد كان - عليه الصلاة والسلام - يحب أن يطلع على أصحابه وليس فى نفسه شىء من واحد منهم ، كما سيأتى بيانه فى حديث آخر .

وأمير القوم رجل ينبغى أن يكون سياسيًّا بارعاً ، يحاور ويداور ويراوغ أحياناً من أجل مصلحة من مصالح القوم ، يراها لا تتحقق إلا بذلك .

والسياسة فَنٌّ لا يجيده كثير من الناس ، ولها من الوسائل ما لا يرضى عنها أمثال أبى ذر ؛ فإنه رجل من غفار ، وهم قوم أشداء فى الحق وفى الباطل ، فلما أسلم تحولت شدته إلى الحق وحده ، فسلبته الروح السياسية إلى حد ما ، فكان يواجه المخطىء بخطئه دون هوادة ، ويقول للظالم : أنت ظالم بلا مواربة ، ويقول كلمة الحق ، ولا يبالى أين وقعت ، ولا يخشى فى الله لومة لائم .

وهذه هى الشجاعة الأدبية فى أسمى صورها وأرقى معانيها .

لكن السياسية تحتاج إلى مرونة ، ليست عند أبى ذر - رضى الله عنه - وهى نقطة الضعف فيه ، فَالأَوْلَى له ألا يتولى أمر اثنين إذا كان هو ثالثهما ، فليكن تابعاً أفضل من أن يكون متبوعاً .

وقد شهد له النبى - ﷺ - بهذه الشجاعة النادرة فى إحقاق الحق وإبطال الباطل فقال : « ما أَقَلَّتِ الغبراء، ولا أَظَلَّتِ الخضراءُ أصدق لهجة من أبى ذر »[1] .

---

(١) رواه الترمذى فى المناقب ٣٥ ، وابن ماجه فى المقدمة (١) .

وهذا القول الذى قاله الرسول - ﷺ - يعتبر تحليلاً لشخصية أبى ذر - رضى الله عنه - ، بل وتلخيصا لحياته كلها .

وقد قال عَلِيٌّ - رضى الله عنه - حين أَطلَّتِ الفتن برأسها فى صفوف المسلمين : لم يبقَ اليوم أحدٌ لا يبالى فى الله لومة لائم غير أبى ذر .

فقد ثبت على الحق لم يتزحزح عنه قِيْدَ شعره ، واجتنب الفتن : ما ظهر منها وما بطن ، وابتعد عن ساحة السياسة من أولها إلى آخرها ، وحارب الترف بكافة أنواعه ، وطَلَّق الدنيا طلاقاً بائِنًا لا رجعة فيه ، ووضع لنفسه منهجاً لم يحمل عليه غيره ، وكان على الصراط المستقيم حتى لقى ربه عز وجل .

وقصة كفاحه منذ أسلم حتى فارق الدنيا قصة مليئة بالعظات والعبر ، تَقَدَّمَ طرف منها فى هذا الكتاب، وستأتيك أطراف أخرى منها إن شاء الله تعالى .

والآن ننظر فى هذه الوصية نظرة أخرى على ضوء ما ذكرناه ، لنأخذ منها ما ينفعنا فى ديننا ودنيانا .

* * *

قوله - ﷺ - : «إِنِّى أراك ضعيفاً ، وإنى أحبُّ لك ما أحبُّ لنفسى» .

أى أراك ضعيفاً عن تَحَمُّل أعباء الإمارة وتَبِعَاتِهَا ، فهى تحتاج إلى ما ليس عندك ، وأنت مشغول عنها بما هو أولى لك ، والمشغول لا يُشْغَل ، فقد هداك الله إلى سبيل هو خير لك من غيره ، فاختر ما اختاره الله لك ، وكن حيث وضعك الله ، ولا تتمنّ شيئاً يأتيك من ورائه شَرٌّ أنت فى غنى عنه ، فرحمة الله أوسع لك من شىء تَتَمَنَّاهُ وفيه وبال عليك .

وكان أبو ذر - رضى الله عنه - قد طلب الإمارة يوماً ، فأبى عليه وأراه مَغَبَّتَهَا وعواقبها .

روى مسلم فى صحيحه ، أنه رضى الله عنه - قال : قلت : يا رسول الله ، ألا تَسْتَعْمِلُنِى ؟ قال : فضرب بيده على مَنْكِبِى ، ثم قال :

«يا أبا ذر ، إنَّك ضـعيفٌ ، وإنها أمانةٌ ، وإنها يوم القيـامةِ خِزْىٌ وَنَدَامَةٌ ، إلاَّ مَنْ أخذها بحَقِّهَا وَأَدَّى الذى عَلَيْه فيها» [١] .

وقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ : «وإنى أحب لك ما أحب لنفسى» إفصاحٌ له عن مكنون قلبه وترضية له وتطييب لنفسه حتى يَتَقَبَّل هذه الوصية بقبول حسن لا تشوبه شائبة، فيعمل بها فينجو من شر الإمارة وَتوَلِّى مال اليتيم، ولا يكاد ينجو من خطَرِهما إلاَّ أقل القليل من الأتقياء الأخيار .

وقد كان أبو ذر صَفِىَّ رسول الله ـ ﷺ ـ وحِبَّهُ فى الدنيا، فأراد أن يكون صفِيَّهُ وحِبَّهُ فى الجنة .

* * *

وقوله ـ ﷺ ـ : «لا تَأَمَّرَنَّ على اثنين» أصله : «لا تتأمرن» فحذفت إحدى التاءين تخفيفاً .

والتَّأَمُّر طلب الإمارة ، وهى الرياسة .

والرياسة من الأمور الضرورية، وهى أنواع تُرَدُّ جميعها إلى رياسة عامة ورياسة خاصـة .

والرِّيَاسَةُ العامة : هى الخلافة ، ويليها الولاية على الأقطار ، وتحتها وظائف كثيرة .

والرياسة الخاصة : هى ما كانت متعلقة بأسرة أو بجماعة أَقَلُّهَا ثلاثة ، لقوله ـ ﷺ ـ :

«إذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمروا أحدهم» [٢] .

أى اجعلوه أميراً تأتمرون بأمره وتنتهون بنهيه فى غير معصية الله تعالى .

ويختار القوم للإمارة أتقاهم وأصدقهم، وأذكاهم وأعلمهم بأمور الدين وشئون الدنيا، وأحسنهم منظراً ومَخْبَراً، وأجملهم تصرفاً مع إخوانه ، وأحلمهم على الصغير والكبير ، إلى غير ذلك مما تتطلبه الإمارة .

---

(١) كتاب الإمارة ، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة ، حديث رقم : ١٨٢٥ .

(٢) رواه أبو داود فى الجهاد ٨٠ .

وإذا كان الرسول – ﷺ – قد نهاه أن يطلب الإمارة على اثنين، فالنهى على الأكثر متأكد ، وبخاصة إذا كانت الإمارة على بلد كبير، أو قطر واسع .

فللإمارة رجالها ، وللعبادة أهلها ، وللحرب فرسانها .

فسبحان من أعطى كل شيء خلقه ثم هدى .

* * *

وقوله – ﷺ – : « ولا تَوَلَّيَنَّ مال يتيم » أصله: لا تتولين ، فحذفت التاء تخفيفاً على ما ذكرنا في قوله : « لا تَأَمَّرَنَّ » .

والتولى على مال اليتيم مهمة شاقة وتبعة ثقيلة ، لا ينبغى أن يعرض الإنسان نفسه لها ، إلا إذا كان ذلك مما يجب عليه كالعم والأخ وغيرهما ممن له حق الولاية عليه في نفسه وماله .

أو كان يخشى أن يلى أمر ماله من لا يخاف الله ولا يتقيه ولا يحسن التصرف فيه ، فعندئذ تتعين الولاية على التقى الكفء ، وليصبر على ما ابتلاه الله به ويبذل أقصى ما في وسعه لحفظ ماله وتنميته بالطرق المشروعة على النحو المبين في كتب الفقه .

والتولى على مال اليتيم في نظرى أصعب من نقل جبل ، ولكنه يسير على من يَسَّرَهُ الله عليه .

ونهى الرسول – ﷺ – أبا ذر عن تَوَلّى مال اليتيم ليس على إطلاقه ، ولكنه منصبٌ على الولاية من غير داع يقتضيه .

والعاقل من يبتعد عن مواطن الشر ومواقع الفتن ما أمكن .

« فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام » كما جاء في الحديث الذى أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما .

واليتيم : صغير مات أبوه ، فإذا بلغ رشده زال عنه يتمه وسُلِّمَ إليه ماله .

قال تعالى : ﴿ وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبَروا ومن كان غَنيًّا

فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيباً ﴾ [١] .

وأبو ذر – رضى الله عنه – لا يسعفه طبعه على حبس مال اليتيم عليه وتنميته له كما ينبغى ، وهو الذى يبغض المال البغض كله، ويأبى أن يبيت فى بيته درهم ، فكيف يطيق أن يتصرف فى المال وهو عدوه !!

* * *

وبعد : فإن أصحاب النبى – ﷺ – نجوم الهدى ، لكل نجم منهم موقعه وميدانه ومجاله ، عرفهم رسولهم ومعلمهم وسَبَرَ أغوارهم ، فوضع كل امرئ منهم موضعه ، وأعطاه من الثناء ما يستحقه ، وأسند إليه من الأعمال ما يطيقه ويجيده ، وأوصاه بما ينفعه فى دينه ودنياه .

وعلينا نحن المسلمين أن نتعلم منهم مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، كما تعلموا من خير معلم عرفته الإنسانية ، وصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه الطيِّبين الطاهرين .

وهذه الوصية أصل نرجع إليه فى دفع الشبهات عن أنفسنا ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً تبرئة للدين والعرض، وصيانة للحرمات أن تُمَسَّ بسوء .

ونحن نعلم أن أكثر الشبهات تدور حول الأمراء وأصحاب المناصب ، والمشرفين على الأموال ، وبخاصة أموال اليتامى ، فإنه يكثر فيهم القيل والقال ، ولا يثبت الغرض [٢] على كثرة السهام – كما يقولون .

فالعاقل يَنْأَى بنفسه عن مواطن السوء وإن غلب على ظنه أنه قادر على تَوَقِّيه .

نسأل الله لنا ولكم السلامة والعافية .

* * *

---

(١) سورة النساء : ٦ .

(٢) الغَرَضُ هو ما يُنْصَبُ هدفاً للسهام وغيرها .

(١٢١) انصر أخاك ظالمـاً أو مظلوماً

عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله - ﷺ - : «انصر أخاك ظالمـاً أو مظلوماً» ، قالوا : يا رسول الله ، هذا ننصره مظلوماً فكيف ننصره ظالمـاً ؟ قال : «تأخذ فوق يديه» (١) .

* * *

النصرة والنجدة جبلة فى العرب عرفوا بها فى تاريخهم كله ، فهم يتميزون عن غيرهم بالنخوة والغيرة والحمية والشجاعة والإيثار .

فقد كانوا يعتزون كل الاعتزاز بالعصبية ويتفاخرون بالأحساب والأنساب ويسارعون فى الدفاع عن الأعراض والحرمات دون تردد أو تمهل . تشهد لهم بذلك آثارهم التى خلدوها فى أشعارهم وسجلوها فى سيرهم وملاحمهم .

لكن يؤخذ عليهم أنهم كانوا لا يلتزمون العدل فى أحكامهم ، إذ لم يكن لهم دستور يحتكمون إليه ولا دين سماوى يرجعون إليه ، فكانت الغلبة للقوى والسيادة للغنى ، والرئاسة لمن هو أقوى عصبية وأكثر مالاً وأعز نفراً .

ولهذا انعدمت الضوابط التى تحكم تصرفاتهم فى الحرب والسلم ، فهم لا يسالمون من سالمهم إلا إذا كان المسالم نداً لهم ، ولا يقفون منه موقف المحايد بل يغتنمون الفرصة للانقضاض عليه والنيل منه رغبة فى السيطرة على ما لديه ، وحباً لتملك ما معه ، فكانت القبيلة تغير على أختها بغتة فتقتل رجالهم وتسبى نساءهم وزراريهم ، ولا يعترض عليهم معترض إلا إذا كانت هناك قبيلة أخرى بينها وبين المعتدى عليها نسب أو مصاهرة ، فعندئذ قد تدفعهم النخوة والحمية إلى الدفاع عنهم إن استطاعوا ذلك .

وقد تنشأ الحرب بينهم سنين عدداً فتأكل الأخضر واليابس وتقضى على عظماء الرجال وخيرة الأبطال .

---

(١) رواه البخارى ، كتاب المظالم ، باب أعن أخاك ظالمـاً أو مظلوماً .

وجاء الإسلام ليضع حداً لهذه الفوضى التى ضربت أطنابها على شبه الجزيرة العربية ، فنشر السلام بينهم وأقام العدل فيهم ، ووضع الضوابط للتعامل فيما بينهم ، وأرشدهم إلى استغلال طاقاتهم البشرية فيما يعود عليهم بالنفع العاجل والآجل، وحد لهم الحدود التى يجب ألا يتجاوزوها ، ورسم لهم المعالم التى ينبغى أن ينتهوا إليها ، وحدّ من عصبيتهم المجنونة وحميتهم الآثمة ؛ وغيرتهم المزمومة ، وثورتهم العارمة التى كانت تهب لأتفه الأسباب من آن لآخر على الضعفاء منهم .

وأحق الله الحق وأبطل الباطل ، وأحيا فى الناس الفطرة التى فطرهم الله عليها ، وردهم إلى الإنسانية المثالية التى كان عليها أتباع المرسلين فسعدوا بهذا الدين فى الدنيا والآخرة .

* * *

وفى هذه الوصية قاعدتان للعدل بين الظالم والمظلوم .

الأولى : منع العدوان ، والثانية : رد العدوان .

فقول – ﷺ – : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » معناه واضح فى الثانية غامض فى الأولى ؛ لهذا سألوا عن كيفية نصرته ظالماً ، فأجابهم رسول الله – ﷺ – بما أزال الغموض ودفع الإشكال قال : « تأخذ فوق يديه » ، أى : تجعل يدك فوق يديه التى يضرب بهما لتمنعه من ضرب صاحبه ، وفى ذلك نصرة له .

إذ ربما يقتل أخاه أو يجرحه جرحاً بالغاً فتقع التبعة عليه ، ويقتص منه وربما تقوم الحرب بسبب ذلك فلا تضع أوزارها إلا بعد أن يقع من الشر ما لا يعلمه إلا الله .

والظالم فى ساعة الغضب لا يدرى ماذا يفعل ، فعلى من يقدر على منعه أن يخلصه من ظلمه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، ولا يبطئ فى ذلك حتى يدرك الخطر قبل وقوعه وإلا كان آثماً مشاركاً للظالم فى ظلمه .

وفى مثل هذه الساعة التى يشتبك فيها الظالم بالمظلوم تظهر الشهامة والمروءة والنخوة فيمن كان حاضراً مشاهداً للمعركة .

وبمقدار السرعة فى فض النزاع وتخليص الظالم من ظلمه تقاس شجاعة الرجال وهمة الأبطال ؛ فالشجاع هو الذى يقدم على نجدة الطرفين بكل ما أوتى من قوة جسمية وعقلية ، مراعياً فى ذلك ما يقتضيه الموقف من التصرفات التى تدفع الشر قبل وقوعه بأقل الخسائر وبأيسر الطرق ، مع إدراك ما يترتب على ذلك من العواقب العاجلة والآجلة بالنسبة له وبالنسبة للظالم والمظلوم .

* * *

ويؤخذ من هذه الوصية فوق ما ذكرنا أمران :

الأمر الأول : أن قوله : «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» يدل على الوجوب مع القدرة على ذلك ، فهو خطاب للقادرين على النصرة لا للعاجزين عنها ، كالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فإنه لا يجب إلا على من كان قادراً على ذلك بيده أو بلسانه على ما تقدم بيانه فى وصية سابقة .

فإن لم يكن المرء قادراً على نصرة الظالم أو المظلوم ولو بالنصح والوعظ فلينكر ذلك بقلبه ، وليدعُ للظالم بالهداية وللمظلوم بالنصر والحماية . وبذلك يكون قد أدى ما عليه .

فالطاعة على قدر الطاقة ، والتكليف بالمحال محال .

يقول الله عز وجل : ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ (١) .

الأمر الثانى : التسوية فى النصرة بين الظالم والمظلوم بحيث يعدل بينهما فيدافع عن كل واحد منهما بما يمليه عليه ضميره ، من غير هوى فى نفسه ولا ميل لأحدهما دون الآخر .

فهو كالحكم بينهما يقول للظالم أنت ظالم ، أو لا تظلم فلاناً فإنه رجل لا يضمر لك السوء ولا يحب لك إلا الخير، ونحو ذلك من الكلام اللين الذى يمتص به غضبه ويرد إليه عقله ، ويحذره من عاقبة الظلم بالحكمة والموعظة الحسنة .

(ولكل حال مقال) ، والحكيم من يضع الأمور فى موضعها ويتصرف وفق مقتضيات الظروف والأحوال .

ثم يقبل على المظلوم فيهدئ من روعه ، ويطيب نفسه بما يفتح الله عليه من الكلمات الطيبات ، فالمسلم أخو المسلم لا يحقره ولا يخذله ، والمؤمنون فى توادهم وتراحمهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى .

والتعاون على البر والتقوى أصل من أهم أصول الدين ، وهو الأساس الذى ينبغى أن يتعامل الناس عليه فيما بينهم .

ونصرة الظالم والمظلوم من باب التعاون على البر والتقوى بلا شك ، فليحرص كل مسلم على أن يكون فى خدمة أخيه المسلم وفى نجدته ومعونته دائماً متى كان قادراً على ذلك ؛ فالله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه .

نسأل الله لنا ولكم الهداية والتوفيق .

* * *

---

(١) البقرة : ٢٨٦ .

الفهرس

رقم الإيداع ٩٩/٥٣١٢

الترقيم الدولى I.S.B.N

977 - 295 - 075 - 8


Bibliotheca Alexandrina
0589268